طارق بكاري

رِوَايَة

القاتِل الأَشْقر

مكتبة نوميديا 122

Telegram@ Numidia_Library

دار الآداب

القاتل الأشقر

طارق بكاري

القاتل الأشقر

رواية

دار الآداب ـ بيروت

القاتل الأشقر

طارق بكاري / روائي مغربي

الطبعة الأولى عام 2019

ISBN 978-9953-89-598-7

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

إلى سيليا

«طريق الخطأ يبدأ ضيِّقًا، ولكنَّه يجدُ على الدوام مَن هو مستعدٌّ لتوسيعه»

ساراماغو

«أودّ أن أكونَ حرًّا؛ حرًّا بجنون؛ حرًّا كمولود ميِّت»

سيوران

من مذكِّرة الأشقر

«للمرَّة المليون... أحاول عبثًا أن أسرقكِ دفعةً واحدة من الذاكرة، وأدفنكِ نهائيًّا في حفنة الورق، فإذا بأصابعي هشَّة تخونُ الحرفَ في دمي والنزفَ في القلب. ذاكرتي ضبابٌ في السماء، وفي الأرض أشلاء أنا، فهل لي بخفَّة العنقاء، ألملمُ أضلعي، وإلى سماواتك أطير؟

أستجلبُكِ حرفًا ونزفًا وأزرعُكِ شتلةً في حدائقِ أوراقي، وأتركُ للقرَّاء أن يتأمَّلوكِ وأنتِ تتبرعمينَ وتتسلَّقينَ كنبتة اللَّبلاب نياطَ القلبِ ومعراجَ الذاكرة. كيف السبيلُ إلى تكفين ذكراكِ في نصٍّ أنيق، لا يقولُ لقارئهِ إلَّا ما يريد، ويقولُ في الوقتِ نفسه كلَّ ما أريد؟!

في متاهاتِ هبلي بكِ تعلنُ الكلماتُ عصيانَها؛ الحروفُ تندفنُ في اللسان، ويصوم عن البوح حبري. أغمدُ القلمَ جهةَ القلبِ وأنزفُ فرحًا وعاطفة، وأجهش إذ تفيضينَ بي مثلما يفيضُ بالصوفيّ ربُّهُ. لكنَّني كلَّما

رُمتُ كتابتكِ عدتُ باديَ الإنفاض، لا حرفَ منكِ أو عنكِ يملأ البياضاتِ الشاسعة...

بَعدَكِ حياتي أرضٌ بور، لا زخّات ذكرياتكِ كفيلة بإنضاجِ قِدْر وردة في خلاء الروح، ولا فرحي بحبّكِ النشاز يرتقُ ما تشقَّقَ من حياتي. كلُّ أرضٍ يبس طينُها وتشقَّقَ هي ذكرى مطرٍ كان، وأنتِ كلُّ أمطاري... فكيف السبيلُ إلى ترميم ما تهدَّمَ منّي بالكتابة؟ كيفَ أستحضركِ ذاكرةً من مداد، وأُخضعُ حياتكِ القصيرةَ لعمليَّة تجميلٍ؟ كيفَ أَمدُّها بغوايةِ الكتابة وأَمتدُّ بها إلى ما لستُ أعرفُ من هَبَلٍ؟ أشتهي أن أكتُبَكِ على نحوٍ لا يخونُ عاطفتي مثلما لا يخونُ واقعًا كان. أعلمُ بأنّني مسيَّجٌ باستحالات جمَّة، لكنّني لن أكفَّ عن المحاوَلة.

شامة...

لا حرفَ فيكِ يطاوعني... ولا الحبرُ يجري مثلما قبلَهُ جرى النزفُ. بَعدَكِ الأوراقُ ضيّقةٌ، والأقلامُ سكاكينُ مثلومةٌ لا دورَ لها سوى أن تدميَ القلبَ أكثرَ. حاولتُ مرارًا أن أتناولَ سيرتكِ على نحوٍ أنيق، لكنْ، لا جميلَ في حياتكِ سوى أنّني أحببتُكِ. ما عدا هذا، أعتقدُ، بثقةٍ، أنَّ حياتكِ القصيرة كانتْ فاشلة وتراجيديَّة.

في كثير من الأحيان ـ ويحدثُ ذلك حينَ تضيقُ بي الأرضُ ـ أكادُ أجزمُ بأنَّ الربَّ لم يخلقكِ إلّا ليُفسدَ بكِ حياتي.

شامة... كيفَ أُنعشُ ذكراك بالحبرِ؟ أريدُ أن أُمعنَ في استردادكِ مثلما أَمعنتِ في أذيَّتي. أريدُ أن تنتكسي في دواخلِ من سيقرأونكِ مثلما انتكستِ في داخلي. أريدُ يا شامةُ، أن أسرقكِ من قلبي، وأملأ

برمادِ حكايتنا البياضَ. لكِ أشتهي من رَحِم الكلام ولادةً جديدة وعمرًا لا يقلُّ عن علبةِ أقلام!

لا يليقُ بكتابتكِ إلّا ما استحال من الكلام. وحدَها الكتابةُ رقائقُ جبسٍ ترمّمُ ما تصدَّعَ من القلب وتَجبر كسره البليغ. فهبيني، باسم ما أنفقتُهُ من عمرٍ وأنا أستجديكِ بعض الحنان، هبيني يا ربّةَ الأحزانِ ما يليقُ ببهائكِ من كلمات، أعالجْ بها قروحي الداخليَّةَ وأهبْكِ بالكتابةِ أجملَ كفن!

لكنْ، ما نفعُ الكتابةِ، وما جدوى الرسائل، وقد أعلَنتِ عليَّ كلَّ مراثي الدنيا؟ منذُ وُلدتُ، كانَ في داخلي، في مكانٍ ما في الأعماق، مكانٌ عصيٌّ على الوصف؛ حَدْسٌ يشبه اليقين، أنّني خُلقتُ للتعاسة، وأنَّ كلَّ محاولاتي للحيلولةِ دونَ ذلك لن تزيدني إلّا تعاسةً. ظهرَ هذا الحدسُ قبلَ أن أعرفَ شامةَ (حبَّ شامةَ على وجه خاصٍّ)؛ قبلَ أن أعرفَ الحياة وبشاعاتها بكثير. أعتقدُ أنَّ الإنسان، في مرحلةٍ ما مبكِّرة من حياتهِ، ينفثُ الربُّ في خاطره نبوءةً سيكرّسُ حياتَهُ كاملةً من أجل التأكُّد منها!»

أوراق محكوم بالإعدام

(حديثُ النهايات)

سنواتٌ انزلقتْ سريعًا من بين أصابعي وأنا رهينُ هذه الزنزانةِ الدبقةِ. لم يعلّمني شبحُ الموتِ الذي يُقيمُ معي كيف أحترمُ الموت فحسب، بل كيف أشتهيه. كلَّ يومٍ يُطِلُّ عليَّ السجَّانُ البدينُ ذو الكرشِ المدلوقةِ، يخبطُ بعصاهُ حديدَ زنزانتي، حتى إذا انتبهتُ صاحَ بي «غدًا ستموتُ شنقًا!» ثُم يدفعُ إليَّ بصحن الطعام ويَمضي بخُيَلاء وأُبَّهةٍ مفتعلَينِ، حتى إذا جاء الغد الموعودُ عادَ إليَّ بصحنٍ جديد، يخبطُ حديد الزنزانةِ، يدفعُ الصحن ثم يتأمَّلُ هيئتي. يفتلُ شاربَهُ، ثم يطلقُ عبارتَهُ: «غدًا ستموتُ رميًا بالرصاص!» ويمضي.

في أيَّاميَ الأولى، كانتْ عبارتُهُ تهزُّ أعماقي. صحيحٌ أنَّني بعدَ تلك الهزَّة العميقة التي آلت بي إلى هذه الزنزانة، ما عدتُ أعبأ كثيرًا بالحياة، لكنْ كان لا يزالُ لفكرةِ الموت صدًى مجلجلٌ داخلي... كانَ ذلك في الأيَّامِ الأولى؛ في الشهرِ الأوَّل لمَقامي في هذه الزنزانة/ القبر. لكنْ، فيما بعد، صرتُ لا أصدِّقُ زعمَه بل صرتُ آنسُ

بحضوره. في أعماقي تربَّتْ قناعةٌ راسخةٌ بأنَّ هذا السجَّان اللَّبِق، الذي لا ينفكُّ يذكِّرني بالموت، ما هو إلَّا ملاك أمان، وأنَّه حينَ يزفُّ إليَّ الموتَ فإنَّما ليمنحني يومًا آخرَ من حياة!

كانَ الأمرُ يفخِّخُ في أعماقي قناعةً عكسيَّةً: أنَّ تغيُّبَ هذا السجَّانِ الوديع، أو تمنُّعَهُ عن تذكيري بالموتِ، لا يعني سوى أمرٍ واحد: أنَّني غدًا ميِّت! ما عدتُ أحفلُ بالحياة، ولا عادتْ تعنيني في شيء، لكنَّني أخافُ الموتَ. أحيانًا، تُرهبُني تلك الثواني التي تسبقُ العدم، وتُرهقني فكرةُ فطامِ الروحِ عن الجسد...

ثلاثُ سنواتٍ مرَّتْ سريعةً، على الرَّغم من أنَّني شختُ فيها...

«ما عادَ في وليد الذي كانَ سوى عينيه»، تقول مروة؛ مروة سيِّدةُ الظلال والنهايات الحزينة. لا أردُّ على ملاحظاتها القاسيةِ... في كثيرٍ من الأحيان، لا يكونُ في عمرِ الزيارة الأسبوعيَّة التي يجودُ بها السجَّانُ متَّسَعٌ لأردّ. أتأمَّلُ عينيها الجميلتين وحُسنها الطاغي. تحدِّثني عن رتابةِ أيَّامها؛ عن شقائها بماضٍ لا يمَّحي. تتغزَّلُ فيَّ وترسمُ في خيالها سيناريوهات لحياةٍ كانَ من المحتملِ أن نعيشها لولا... في العادة، تصمتُ حينَ تنتهي إلى هذه الـ «لولا»، تديرُ دفَّةَ الحديثِ صوبَ ما تشتهي؛ تحدِّثني عن الروايات التي قرأتها واستقدمتها لي، أو تتندَّر بطرائف زبائنِ ليلِها، لكنَّ لسانها في كثيرٍ من الأحيانِ يسيلُ وجعًا. أيُّ حديثٍ يبتدئُ بسيرة الأشقر لا بدَّ من أن ينتهي بالبكاء!

مروة لا تزالُ تحبُّهُ. كمعطفٍ عتيق لا تزالُ معلَّقةً إلى مشجب انتظاره. على الرَّغمِ من أنَّها لا تنفكُّ تثرثرُ بعرامة حبِّها لي؛ على الرَّغم ممَّا تُبديه من أحاسيسَ لاعجة، فإنَّها بمجرَّد أن يأتيَ الحديثُ عن الأشقر تلتمعُ عيناها بذلك البريقِ الحادّ الذي لا يعيشُ سوى

ثانيةٍ... ثانية تُفضي فيها إليَّ بكلِّ شيء. قبلتُ وضعي في هذه المعادلة الصعبة عن وعيٍ، بعدَ أن كنتُ أعيشهُ فيما مضى غيرَ واعٍ!

مروة... سيِّدةُ الظلال، هيَ كلُّ مَن لي في المغرب؛ الوحيدةُ التي صدَّقتني من دون أن أدفعَ لها بأسباب براءتي. أحيانًا، حينَ أبحلقُ في كلِّ الجنونِ الذي اقتادني إلى هذه الزنزانة، وهذا المآلِ الذي انتهيتُ إليه، يرسو في قرارة نفسي يقينٌ ما كنتُ أؤمنُ به من قبلُ: أنَّ الحياةَ مرتَّبةٌ بإتقانٍ، وأنَّنا في الأخير لا نسيرُ أبعدَ ممَّا تشتهي، ولسنا أحرارًا مهما أرخَتْ لنا الحياةُ حبالَها. ومروة، لسببٍ ما، أشعرُ بأنَّهُ كانَ لزامًا عليَّ أن أعرفها؛ مهما ابتعدتُ كان لا بدَّ من أن تصوِّبني نحوها الدنيا.

هذه العاطفة الغامضة التي نبتتْ بينَ ظلَّينِ، كانَ لا بدَّ من أن تتوِّجَ مهزلة حياتي. مروة هذه، بالنظر إلى أوجاعها، هي أنثايَ في الوجع؛ حوَّائي التي استلَّها الربُّ من ضلعي، وطوَّحَ بها في أرض بعيدة قبلَ أن يقلبَ بعنفٍ مروجَ الذاكرة.

مروة... قرينةُ يأسي، كلانا ملأَ حيِّزَ الظلِّ. الفرقُ بيننا أنَّها كانتْ تعي حقيقتها؛ تعي قَدَرها وتفهمُ الاستحالات التي تطوِّقها، بينما أنا... أنا المغدورُ، المطعونُ في الصميم، عشتُ مأخوذًا ببطولةٍ زائفة، واستيقظتُ في ثلاث دقائقَ من الوهم الذي عشتُه، لأكتشفَ أنَّني، مثلَ مروة، لم أغادر الهامشَ الظلِّيل.

لم يأتِ الحارسُ البدينُ ذو الكرشِ المدلوقةِ والشارب المفتول. لم يُحضر الطعام. نابَ عنهُ سجَّانٌ آخر، نحيلٌ كمسمارٍ كبيرٍ، معقوفُ الأنف، صُلبُ الوجهِ، حتى ليُخيَّلُ إلى من رآهُ أنَّهُ يضعُ قناعًا. كانَتْ ملامحهُ القاسية، والأخاديدُ التي تطوِّقُ جفنيهِ وتضربُ حصارها على

الفم البارز الذي تفشلُ شفتاهُ في الإحاطة بأسنانه، تشي بأنَّه شخصٌ صعبُ المراس، وأنَّ كتلة العظام التي تفيضُ عنها البزَّة العسكريَّةُ لا بدَّ من أنَّها مبطَّنةٌ برصيدٍ ثقيلٍ من الكراهية. كنتُ أشتهي - على نحو بافلوفي - حينَ خبطَ بعصاهُ على حديد زنزانتي، أن يُسمعني ما اعتدتُ سماعَهُ «غدًا أموت...»، لكنَّهُ لم يقل ذلك. قالَ «غدًا ستنتقلُ إلى سجنٍ آخر»، وزمَّ شفتيهِ. همَّ بأن يقولَ شيئًا، لكنَّهُ تراجعَ. سألتُه عن الرَّجل البدين، فتطلَّعَ إليَّ بنظرات غاضبة وقال «ما شأنكَ به؟» لم أجب. كانَ يقرضُ ذهنيَ وسواسٌ لعين، تمنَّيتُ لو أقولُ له إنَّ السجَّانَ البدينَ ولعبتَهُ معي ربَّيا في أعماقي قناعةً مريضة، بأنَّني في منأى عن الموتِ ما دام ذاك السجَّان يذكِّرني به على نحوٍ يوميّ، وأنَّ غيابهُ لا يعني سوى أمرٍ واحد: أنَّ ساعةَ إعدامي قد حانتْ أخيرًا.

أنا وليد معروف، وُلدت في قرية لبنانيَّة متاخمة لصيدا، وهذه الحكاية التي سأقصّها عليكم، كنتُ أعتقدُ أن لا دور لي فيها سوى أنّي شاهد على ما كانَ. اليوم، إذ أستعيد تفاصيل ما حدث، أجدني حزينًا جدًّا، لأنَّ القصَّة التي كنتُ أحسبُ أنَّها لا تعنيني في شيء، تغلغلت كحدِّ مديةٍ عميقًا في لحمي. ليس في الإمكان أن يكون المرء استثناءً، والاستثنائيُّون يُولدون هكذا: لا دورَ لهم في حياتكم سوى أنَّ الحياة صوَّبتهم كبندقيَّة صوبَ مفارقات الحياة ومضائق الأسطورة. لا دور لي في الحكاية، يا سادتي، سوى أنَّ الحياة صوَّبتني جهةَ واحد من المجانين الاستثنائيِّين.

كلانا وجد نفسه في المكان الخطأ والزمان الخطأ، وكلانا وجد نفسه مدفوعًا نحو اقتراف أكثر الجرائم بشاعة. قبل أن أتعرَّف إلى الأشقر، أو الأزعر، أو الأصهب، أو بيبرس البندقداريّ، أو ديب

الدولة الإسلاميَّة... قبل أن أتعرَّف إلى هذا الرجل الذي لا تنتهي صفاته وأسماؤه ولا ينتهي جنونه، كنت أعتقد أنَّني أحد المجانين الاستثنائيّين. كانتْ تعرشُ في أعماقي قناعةٌ بليدة بأنَّني منذور لأمر عظيم! وربَّما لهذا السبب ورَّطت نفسي، من حيث لا أدري، في الجنون الأكبر. كانت تعوزني حكمةٌ سأنتهي إليها فيما بعد: أنَّ الاستثنائيِّين لا يتقدَّمون صوب العاصفة، بل هي التي تتقدَّم صوبهم!

ورَّطتني تلك المجلَّةُ البريطانيَّةُ في كلِّ ذلك الخبل... هل ورَّطتني حقًّا؟! لم أكن في حاجة إلى تلك الأموال الطائلة التي منَّتتني بها. كنتُ أفتِّشُ عن تجربةٍ، عن استثناء... عشتُ حياةً هادئة كمستنقعٍ راكد. وُلدتُ بينَ والدين أسرفا في تدليلي. كنتُ ابنَهما الوحيد. عشتُ كما يعيشُ الأطفالُ في الأرياف. وعدا بعض المغامراتِ أيَّامَ الطفولة ومغامرات أخرى لم تغادر جدرانَ رأسي، أكاد أجزمُ بأنَّهُ ليسَ في طفولتي أو شبابي ما يستدعي الذِّكر. عشتُ نكرةً وإن ظلَّت في القلبِ دائمًا تلك الأمنيةُ الغريبةُ، التي لم أفهمها ولا حاولتُ، بأنَّني سأصيرُ يومًا ما أريدُ. لم أكن أحلمُ بالعظمة ولا كنتُ أنشدُ مجدًا. كنتُ أريدُ أن أكونَ مهمًّا وأن أفترعَ استثناءً ما. لا أعلمُ على وجهِ الدقَّةِ ماهيَّةَ هذا الاستثناء، لكنَّني كنتُ على يقينٍ بأنَّ الحياة ستدفعني صوبَه وتضعُ في طريقي إشارات ما.

حينَ التقيتُ مريمَ، وكانَ ذلكَ في سنتي الأولى في معهد الصحافة والترجمة، كنتُ لا أزالُ أحافظُ على عذريّةِ الحلم في قلبي. كانَ في قلبِها مثلُ ما في قلبي من آمالٍ معقودة وغير واضحة، لكنْ كانَ في حياتها خلاءٌ مبهَم، أقسمُ بأنَّني أحسستُ به منذ وقعتُ في أسرها، قبل اندلاعِ الحرائق!

وحينَ جاءتْ احتجاجاتُ الربيعِ في بلدها، سوريا ـ وكنَّا وقتَها قد اقتحمنا غمار الشغلِ ونوشك على تتويج حياتنا المشتركة بالزواج ـ ادَّعتْ أنَّ فرصتها قد حانتْ لتكونَ ما تريد. كانتْ تقولُ دائمًا إنَّها لا تنتمي إلى الصحافةِ الكسولةِ، خلفَ المكاتبِ الفخمةِ. الصحافةُ ـ كما ادَّعتْ ـ هي المغامرةُ، والمجدُ أن يأتيَ الواحدُ بالحقيقة.

مثلَهَا حينَ برقتْ في سماءِ حياتي الرتيبة تلك الفرصةُ، انتعشتْ روحي بكلماتِ ملهمتي مريم، وانتعلتُ جنونها، وقرَّرتُ أنْ أخوضَ غمارَ لعبةٍ ما كنتُ أقدِّرُ أخطارها. . .

كنتُ في الثلاثين من عمري حين عرضت عليَّ مجلَّة بريطانيَّة، كنت أراسلُها من حينٍ إلى آخرَ بأخبار الشرقِ الأوسط، أن أجازف وأقتحم عرين «داعش». كانتْ فكرةً مجنونةً، وكانت الخطَّة عصيَّةً على التطبيقِ، لكنَّني أمامَ الضياع المستبدِّ الذي كنتُ أتخبَّطُ فيهِ جرَّاء تغيُّب مريمَ عنِّي، وربَّما بسببِ اللَّوثةِ التي ربَّيتها في أعماقي، استسغتُ ذلك التغييرَ الجذريّ الذي كنتُ مطالَبًا بإحداثهِ، واخترتُ أن أدفعَ بحياتي إلى الجحيم.

انقلبتُ من وليد السكِّير العربيد إلى رجلٍ آخرَ. أسبلتُ لحيتي وانزويتُ في جبَّةٍ البياض. شرعَ مَقامي في المساجدِ يطولُ يومًا بعد آخر. انقلبَ عليَّ المقرَّبونَ ورُفضتُ من العملِ، كما خطَّطتُ. وبحكم أنَّ المرء في كثير من المزالق يكفي أن ينوي حتى يجد من يفرش له الدرب. . . فإنَّني في أحد مساجد بيروت، وجدت أخيرًا من يأخذ بيدي ويذلِّلُ لي الطريق.

الطريق إلى داعش. . .

أنا وليد معروف، وقَدَري ألَّا أكون معروفًا، وأن أعيش في الهامش... أنا، أيُّها السادةُ، وليدُ الهامشِ؛ وليدُ المستمع... فضيلتي في كلِّ ما أكتب أنّني وجدتني في الزمان الخطأ والمكان الخطأ إلى جوار أسطورة؛ أسطورة حمقاء علَّمتني أنَّ الحياة أتفه كذبة!

الأشقر...

لستَ تجدُ في التنظيم من لا يعرفُ الأشقر هذا. وإذا كانت شهرة شخصٍ ما، أيّ شخص، إنَّما تتأسَّس بناءً على ما يعرفهُ عنهُ الآخرون، فإنَّ الأشقر اشتهر بينهم لأنَّهم يجهلونَ عنهُ الكثير، ربَّما كلّ شيء! لا يقينَ في حياتهِ ولا مطلقَ. ما يؤكِّدهُ هذا قد ينفيهِ ذاك، وما يقسمُ ذاك بأنَّه الحقيقة قد لا يكون في نظر الآخرين أكثر من إشاعة. طبعًا ما كانَ يجعلُه محطّ الأنظار ومثار كلّ هذه الأسئلة هو قربُهُ أوَّلًا من الأمير/ «الأخ الكبير»، ونجاحاتُهُ المنقطعةُ النظير - ثانيًا - في كلِّ المهمَّات الموكلة إليه.

كانَ البعض يزعمُ أنَّ له يدًا مع الاستخبارات الأميركيَّة، في حين يرى آخرون أنَّهُ ساحرٌ، سخّرَ لهُ أسلافُهُ في المغربِ ملوكَ الجنّ، بينمَا يُصرّ آخرون، بإلحاح لا يقبل الجدل، على أنَّه موفَدٌ من جهات أعلى شأنًا من زعيم التنظيم في الشام، في الوقت الذي يبالغُ البعض ويزعمون أنَّ الذئابَ أرضعتهُ، محاولين بذلك تفسير اتِّقاد حاسَّة شمِّه، أو عينهِ الثالثة كما يحلو لـ «الأخ الكبير» أن يسمِّيها.

كانت مثلُ هذه التخمينات، التي تفتقرُ إلى دليلٍ دامغٍ، تسليةً يلذّ لجند الخلافة العودةُ إليها كلَّما افتقرت أيَّامهم الرتيبة إلى جديد. يبرعون دائمًا في استنطاق التفاصيل؛ في تقفِّي أنصاف الأدلَّة، وإعادة

تشكيلها. يقولونَ كلّ شيء وأيَّ شيء، لا بغرض الوصول إلى الحقيقة، التي يعرفون في قرارة أنفسهم أنَّها مستحيلة، ولكن من أجل الراحة. في الأخير، اختلاقُ النمائم وترويجُ الشائعات أقدمُ وسائلِ الراحة النفسيَّة!

لم يكونوا ملائكة طيِّبين، لكنْ من غير العادل أن نقولَ إنَّهم شياطين. خلفَ كلّ شرٌ نيّاتٌ حَسَنة، قد لا تتَّفقُ ونيّاتِنا، لكنَّها تبقى حَسَنة في نظرِ معتنقيها. هؤلاء الغاوون، المغرَّر بهم، المرغَمون، والمقحَمون في حربٍ لم يختاروها بقدر ما اختارتهم، لم تُسقطهم مناطيدُ الله ليقيموا خلافتهُ المزعومة، ولا نتأوا فجأة من مُدن السواد. هم منّا. هذه المسوخُ وجهُنا المغبرُّ القبيح. لستُ أتعاطفُ مع جرائمهم، لكنَّني أقولُ إنَّهم ينتمونَ إلينا. جاؤوا من فشلنا؛ من خيباتنا؛ من تعليمنا؛ من ديننا؛ من عصبيَّتنا؛ من ازدواجيَّتنا ومزاجيَّتنا... دحرُهم ضروريّ، لكنَّهُ غيرُ كافٍ. دحرهم عمليَّة تجميليَّة تنوّمُ مأزقَنا الحضاريّ، لكنَّها لا تُغْني من مسوخ!

نحنُ آلةٌ كبيرة لإنتاج الأوبئة الحضاريَّة. قد ننتصر على «داعش»، لكنَّنا لن نكفَّ عن تفريخ الدواعش.

* * *

الأشقر...

ها أنذا أعودُ إلى البداية لأضعَ اللمساتِ الأخيرةَ على قبركَ الورقيّ!

مثلَكَ، أيُّهَا الأشقرُ العظيم، احتميتُ بالحكاية من موتٍ يتربَّصُ بي ويسومني سوءَ العذاب. شهورٌ وأنَا منذور لموتٍ يؤجَّلُ باستمرار.

علَّمتني صحبتكَ، على قِصَرها، أنَّ في وسعِ الحكايةِ أن تباركَ في أعمارنا، أو على الأقلِّ في وسعهَا أن تؤجِّلَ موتَنَا، ولو إلى حين. مثلكَ يا صاحبي، محكومٌ بالإعدام، لكنَّني رهينُ هذه الزنزانةِ الموحِشةِ، وموتي مسألةُ وقتٍ لا غير...

ها أنا، بعدَ كلّ هذه الشهورِ العصيبةِ، أُعيدكَ إلى حيثُ تنتمي. صحيحٌ أنَّ قصَّتكَ دامية، وأنَّ ما عشتَهُ غائرٌ في تاريخِ الوجعِ البشريّ، لكنّكَ تنتمي إلى الورق، أو على الأقلِّ أنتَ هاربٌ من سجنِ الورقِ، وكنت طوال تغريبة العمرِ تبحثُ عمَّن يعتقلُ حياتَكَ، ويمنحهَا عمرًا من حبر.

هذه، يا سادتي، حكايةُ الأشقر العظيم، لكنْ يجدرُ أن أحيطكم علمًا بأنَّني أعدتُ النظرَ في اللغةِ، لا لغرض الإمتاع فحسب، بل لأكونَ أمينًا كذلك في توثيقِ النزفِ الذي جرى بهِ لسانُ الأشقر... تحدّثَ في ذلك اليومِ البغيض بالدارجةِ المغربيَّة، مثلمَا تحدَّثَ بالأمازيغيَّة؛ استعملَ الفصحى حينًا مثلمَا تحدَّثَ بلهجات مشرقيَّة. وأنَا أمامَ ألسنةِ الأشقر، آثرتُ أن أُعيدَ تشكيلَ ملامح ذلك اليومِ بأسلوبي، وبلغةِ الأدبِ... طبعًا، من دون مناورات خياليَّة أو مبالغات. هذه حياةُ الأشقرِ كما عاشَهَا، وكمَا نقلها إليَّ ذلكَ اليوم وهو يقاومُ شظايا الرصاصة التي نهشتْ ساقهُ... كتبتُ كلامَه وصمتَهُ، تنهُّداتِهِ وأوجاعَهُ؛ كتبتُ دموعَهُ ونزفَهُ.

ثم إنَّني خائفٌ من أن أَنسبَ هذا الكتابَ إلى نفسي. صحيحٌ أنَّني مَن أَنفقَ الشهورَ الطوال في كتابةِ كلّ الهَبَلِ الذي طفحَ بهِ ذلك اليومُ، الذي تمطّى بصلبهِ كأنَّهُ ابنُ الأبد... لكنْ أن ألصقَ اسمي بحكايتهِ، أحسّ كمَا لو أنَّني أسطو على تاريخهِ وأنسبهُ إليَّ جملةً وتفصيلًا!

طبعًا، ما كانَ لهذه الروايةِ أن تكونَ لولا حكايةُ الأشقر، لكنْ ما كانتْ لتكونَ أيضًا لولا أنَّني بادرتُ إلى اعتقالها بأسلوبي: أنا وهوَ شريكا هذه الخيبة، وشريكا هذه الأوراق.

كان للكتابة هوًى في نفسه، أشار إلى الأمرِ في أكثر من مناسبة. كما أنَّ المذكِّرة التي وجدتُها بعد الانهيار الكبير تقولُ إنَّهُ كاتبٌ حقيقيّ، اختارتهُ الكتابة بدلًا من أن يختارها. كانَ مدفوعًا بظروفه كما صخرةٌ إلى الهاوية، عاشَ الحكاية لكن فاتَهُ أن يوثِّقها.

ها أنا قد كتبتُ وجعي على وجعكَ أيُّها الأشقر العظيم. ها نحنُ اليومَ أسيرا كتابٍ واحد: منكَ الحكايةُ ومنِّي الحرفُ؛ منِّي الصياغةُ ومنكَ النزفُ.

أعتقدُ، يا سادتي، بيقينٍ راسخٍ، أنَّ الموتَ لم يماطل كلَّ هذا الوقتِ إلَّا لسببٍ واحدٍ: لقد أمهلني الربُّ لأَسردَ عليكم الوقائع الغريبة لحياة الملقَّب قيد حياته بأشقر داعش، أو أبي الأزعر المغربيّ، أو الظاهر المغربيّ، أو الظاهرِ بيبرس... أليسَ هو القائلَ بأنّ في وسعِ الحكايةِ أن تباركَ عمرَ المرء؟ أليسَ هو الذي نفخَ ببوحِهِ في روحِ ذلك اليومِ الشؤمِ، فاتَّسعَ لحكاية عُمْرٍ؟ ثمّ، أليسَت الحكايةُ هي التي باركتْ في عمرِ شهرزادَ، فأهملها الموتُ الليلةَ تلوَ الأخرى؟!

أرضٌ يَـــبــاب

قالَ بصوتٍ مجروح:

ـ «وليد... يا وليد، لا بدَّ من أنَّك قد جُننت. اهربْ!! لا وقت أمامك. لقد انتهيتُ. لا أمل في إنقاذي. العدوّ أمامنا والعدوّ وراءنا، فأين المفرّ؟ ثم أَسَمِعْتَ هذا الصوت؟ إنَّه قادم... قااااااااادم...».

انفجر المنزل الذي كنت أودُّ أن نلوذ به. سقطتُ بعيدًا عن الأشقر. لم ينتصب بيننا السواد الحالك فقط، بل تفشَّى بيننا ذلك الصوتُ المجلجل الذي يكاد يخرم طبلة الأُذن. بحثت عنه وسط الغبار الكثيف، بعد أن تحوَّل المنزل إلى نثارٍ، فوجدتُه هاجعًا وقد سقطت قطعة إسمنت كبيرة على ساقِه المُصابة بطلق ناريّ. حين اقتربت منه جفلَ كأنَّه لا يعرفني، أو كأنَّه يعتقد أنَّني عدوٌّ. لا بدَّ من أنَّ القنبلة المزمجرة، التي انفجرت على مقربة منّا، أربكت ذاكرتَه. كان ذلك واضحًا من خلال النظرات البلهاء التي كان يرمقني بها.

لم تكن تلك الدقائق المحفوفة بالموت تحتمل التأمُّل. بشقّ

النفس أزحتُ عن ساقِه المضرَّجةِ بدم لزج ضاربٍ إلى السواد قطعةَ الإسمنت الكبيرة. كانت الطلقة التي أصابت ساقه قد فتحتْ فيها ثقبًا غائرًا، لا بدَّ من أنَّه كسر العظم، ذلك بأنَّ القنّاص الذي أصابه كان من القرب بحيث يُصيب رأسه، لكنَّ شيئًا ما قَدَريًّا حرَّك سلاحه قليلًا، فحفرت في ساق الأشقر هذا الثقبَ بدلًا من أن تحفر مثلَه في موضع قاتل آخر.

سحبته من يده؛ من ملابسه المعفَّرة بالغبار، وأسندتُه إلى كتفي، ومضيتُ بهِ نشقُّ طريقنا وسط الرماد والدمار. لسببٍ نفسيّ غامض، ذكَّرني الجرح الغائر في ساق الأشقر بجرح آخر ينامُ في أرشيف الذاكرة... آه، ذاكَ الثقبُ الذي فتحتُه في رأس تلك الشابَّة التي لم أَرَ وجهها. كان ذلك اختبار بداية الخدمة أوَّلَ ما التحقتُ بـ «داعش»! فقد قرَّر الأمير، «الأخ الكبير» بعد جلسةٍ مطوَّلة، أنَّه يجب أن يتأكَّدَ من ولائي للتنظيم... جاءني بتلك الفتاة؛ تلك الفتاةِ ذات الرأس الحليق، والتي زعمَ أنَّها تمتَهنُ العهر، وناولني مسدَّسًا، ثم طلبَ منِّي أن أُرديها بطلقة في القفا. ضاقتْ خياراتي. ومن خلال نظرات «الأخ الكبير» وخُزراته الصارمة، كنتُ على يقين بأنَّني تورَّطتُ فيما لا يدع مجالًا للتراجع. في عينيه، كنت أقرأ جريمةً قد أكون أنا ضحيَّتَها، لذلك لم يطل بي التردُّد، وفتحت في رأس تلك العاهرة (إن كانت عاهرة أصلًا) ثقبًا كهذا المشرَّع في ساق الأشقر، أو أكثر.

كان الأشقر يبتسم وهو يسحبُ خلفهُ الساق الكسيحة، ثم انقلبت ابتساماته إلى قهقهة فيها سخريةٌ من العالم، قبل أن يقول:

ـ لا بدَّ من أنَّك أحمق يا وليد. لا بدَّ من أنَّك أكبر أحمق داعشيّ. أقسم لك لو أنَّني كنت مكانكَ لما تردَّدت في تركِكَ ورائي.

ـ ششششتتتتت. لا أعرفكَ جيِّدًا، لكنَّني أحسّ بأنَّكَ لن تفعل...

واقفان، أنا وهو، قبالةَ أسوأ حوافّ الكون. ينغل داخلي الذعر كأنَّهُ حفنة ديدان، أمّا الجسد فقد كانَ مشدودًا، بعضه إلى بعض، ومنكمشًا استعدادًا لرصاصة قد تُخرسُهُ، أو قنبلة تحوِّله إلى أشلاء...

كانت مسألةُ البحث عن أربعةِ جدران نأوي إلى داخلها في هذا الحيِّ الخَرابِ، أشبهَ بالبحث عن إبرة في بركة زفت ساخن! فمنازل كوباني، كلُّ المنازل تقريبًا، إمّا انهارتْ وإمّا لا تزالُ قائمةً، لكنَّها فاغرة أفواهها، وغير لائقة للاختباء.

كان يمكن أن نموتَ؛ أن تدهسنا قنابل التحالف الدوليّ مثلما يدهس الواحد نملة أو عقب سيجارة... كنّا مُعَدَّيْن، أنا والأشقر، لموت رخيصٍ وجريمة قتل في متناول أغبى قنّاصي وحدات حماية الشعب الكرديّ، لكنَّ شيئًا ما كان لا يزال يشدّنا، وقتها، بنزقٍ، إلى الحياة.

فيما بعد، قال لي الأشقر ذلك المَثَل المغربيّ: «الدنيا إلى بغات تجي، كتجي بسبيبة، وإلى بغات تمشي، كتقطّع سلاسل»! لم أفهم المَثَل، لكنَّ آلة التسجيل احتفظت به، وبعد أشهر عرفتُ معناه... ياه، أيُّها الأشقر: الدنيا إذا أحبَّتْ أن تأتي، فإنَّ خيط الصِّنَّارة على تفاهته يستجلبها، وإذا شاءت أن تجافي المرء، فلا بدَّ حينها من أن تقطع السلاسل!

«أرجوك يا وليد، دعني عنك واهرب! لا تنظرْ خلفكَ. لستُ، في أيِّ حال، نادمًا على شيء. منذ وقت مبكّر، وأنا أرجو هذا

الموت، وها أنت تحاول أن تَحُولَ بيني وبينه. دع عنك تلك المثاليّات الزائفة التي تملأ رأسك! دع عنك الروايات البطوليَّةَ وأفلام الحروب الرخيصةَ، يا وليد! ألا ترى مقاتلات التحالف هناك؟ إنَّها ليست من ورق. هذه الفوهة في ساقي ليست زيفًا. إنَّها واقع؛ واقع مؤلم بحقّ، فارحلْ ما دامت قدماك تُسعفانك على الركض! لقد أفلستُ يا وليد وأفلستْ حياتي منذ زمن غابرٍ. من العبث أن نموت معًا ما دامت فُرَصي في النجاة منعدمةً. أنت رجلٌ طيّب، لكنَّني لا أستحقّ منك كلّ هذا».

لم يكن الأشقر يتوقَّف عن الكلام. أذكرُ أنَّ رجالَ التنظيم نقلوا عن «الأخ الكبير» أنّه قالَ عنهُ «لا يتكلَّم الأشقرُ إلَّا بمقدار ما يتألَّم». لا بدَّ، إذن، من أنَّ آلامه قد تفاقمت، وأنَّ مزيدًا من التِّيه في هذه المدينة الخرابِ يعني، من جملة ما يعنيه، أنَّني سأخسره! لم أكن ساعتها أحفلُ بحياتهِ، لكنّه لم يكن أيَّ رجلٍ. وبالنسبةِ إلى «الأخ الكبيرِ»، كانتْ حياتُهُ تساوي حياةَ جيشٍ بحالهِ، وإنقاذُهُ قد يقرِّبني ـ هكذا فكَّرتُ ـ من دوائره، والأمر قد يساعدني على أن أستلّ شوكةَ الحماقةِ من دون دمٍ غزير!

توغَّلنا في الأزقَّة التي تحوَّلت بين عشيَّة وضحاها إلى أرض يَباب، نراوغ الحطام ونلتمس طريقًا ما للنجاة. كنّا أشبه بفأرين في متاهة. حين وقفنا في مفترق بين زقاقين اخترتُ واحدًا، ومضيتُ صوبهُ أجرُّ الأشقر الذي يتَّكئ بثقلهِ على كتفي بعد أن خارتْ قواهُ دفعةً واحدة. قال، وعيناه تكادان تنغلقان من فرط الألم: «من هنا». كان يقصد الزقاق الآخر. وما كدنا نتوغَّل في الزقاق الذي اختاره لنا الأشقر، حتى اهتزَّ الزقاق الآخر تحت قصف قويّ. آه، يا لهذه الـ «من

هنا» التي نطق بها الأشقر، كيف كانت حاسمة!

يزعمُ الجميعُ أنّ الأشقر حادّ الذكاء وقويّ الملاحظة، وربَّما لهذا السببِ كانَ أقربنا إلى قلب «الأخ الكبير» (وقد كان الأشقر مَن أطلق عليه التسمية، وكانت تسرّه طبعًا). وحدي ـ لأنَّني كنت مطَّلعًا على بعض كتب الأدب الإنكليزيّ ـ فهمتُ أنَّ الأشقر كان يقصد بـ«الأخ الكبير» ديكتاتور جورج أرويل في رواية «1984». والأشقر، إضافة إلى ذكائه الحادّ وسرعة بديهته ومكره الشديد، كان معروفًا بحاسَّة شمِّه الحادَّة (في سِرِّي، كنتُ أُسمِّيه جون باتيست غرونوي، بطل رواية «العطر»!) وسببُ ذلك، فيما تفشّى بينَ الجندِ: خَلَلٌ جينيٌّ! الذين يحبُّونه وأولئك الذين لا يكنّون له أيَّ عاطفة، يسمُّونه «ذئب الدولة الإسلاميَّة». أمّا أولئك الذين يحقدون عليه ـ وهم قلَّة في أيِّ حال ـ فإنَّهم يسمُّونه «كلب الدولة». وفي كلِّ هذا، لم يكن الأشقر يُلقي بالًا لتلك التسميات التي تتعدَّد، ويتناسل بعضها من بعض، فقد كان يجرُّ خلفه تاريخًا من الغموض، وينأى بنفسهِ عن أحاديث رعاعِ الجندِ وثرثراتهم التي لا تنتهي!

لطالما اعتقدتُ أنَّهُ، على الرَّغم ممّا يُبديهِ من صلافةٍ وجبروتٍ، إنسانٌ جيِّدٍ، وأنَّ نظراتهِ كانتْ تضمرُ ألمًا كبيرًا؛ ألمًا لم يكن ليبوح به لولا أنَّه في يومه الأخير أحسَّ بأنَّ الموت في مكان ما قريب، يشحذُ أدواتِ صيده، ويبحث له عن نقطة ضَعف تُرديه قتيلًا... قالَ بصوت أقرب إلى الهذيان، وقد بدا منسحبًا تمامًا إلى أعماقه:

«يااه... يا وليد، منذ نعومة أظفاري، وأنا أشعرُ بأنَّني محصَّنٌ ضدَّ الموت بتميمةٍ ما. كنتُ أعتقد أنَّ الموت لن يُدركني إلّا في الوقت الذي يدركُ فيه السوادَ الأعظمَ من الناس. لكن الآن، الآن فقط،

أشعر بأنّهُ قريبٌ. أتشعر بذلك مثلي، يا وليد؟ تعبتُ، يا وليد، والأفضل لي ولك أن تتركني هناك خلف ذلك السُّور. . . أتراهُ؟ بدلًا من أن تخسر في طريقك إلى إنقاذي حياتَكَ. . . أعرف أنَّ لك ضميرًا يعاتبكَ. وعلى الرَّغم من البشاعات التي اقترفتَ، فإنَّني قرأتُ في عينيكَ، أوَّلَ ما رأيتُكَ، أنَّك بيننا غريبٌ كـ «صالح في ثمود!»

إنَّ الموت في مكان ما قريب، أشمُّ روائحه وأكاد أراه. لستُ خائفًا، في أيِّ حال منه. تزعجني الآلام التي تسبقهُ. أسوأ ما في الأمر، يا وليد، أنَّ الجسد حين يتخاذل يُذِلُّ المرءَ كثيرًا، ثم مهلًا. . . مهلًا. . .».

استوقفني واشرأبّ. أجال رأسه في كلِّ الجهات كسنجابٍ يَقِظٍ. كنت قد سمعتُ عن حكايات حاسَّة شمِّه الكثيرَ. فالناس هنا، وفي أيِّ أرض أخرى، لا يكفُّون عن الكلام. الناس مجبولون على النميمة والإشاعة. حدَّثني الكثيرون عن حاسَّة شمِّه الخارقة، وقيل لي إنَّ «الأخ الكبير» يوعزُ إليه بالكثير من المهمّات، ولاسيَّما تلك الاستطلاعيَّة أو الاستخباراتيَّة، لكنَّني ما كنت أصدِّقهم. أمّا الآن، وأنا أراه يتطلَّع بخفَّة صوبَ كلّ الاتِّجاهات وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة، ثم وهو يشير بإصبعه صوب زقاق ضيِّق، فقد وجدتُني أحاكمُ تلكَ الشائعات. . . قال إنَّه يشمُّ رائحة خمرٍ في مكان ما قريب. . . ضحكتُ في سرِّي، وانفلقتْ شفتاه عن ابتسامة ساخرة وهو يتَّكئ على ذراعي، يجُرُّ رِجلًا وينطُّ بأخرى. كان، على الرَّغم من بلاغته في اشتهاء الموت، متمسِّكًا بحبالِ الأمل الشفّافة.

ـ لا. . . ليس حُبورًا، يا وليد. أبتسمُ عن يأس، ولأنَّني كذلك لا أعرف كيف أحزن على نحو يشبه الآخرين.

والحقيقة أنَّه كان متطرِّفًا في كلِّ شيء، فقد انتهى ببديهته إلى أنَّني منشغل بابتسامته التي أخطأتْ زمانها ومكانها. قلتُ:

ـ دع عنك الكلام. أنت تُجهد نفسك. الجرح في ساقك يستنزفك...

ـ استنزفتني قبلهُ الحياةُ. لا تأبه يا صاحبي، لعبتنا في كوباني لعبة ملك وكتابة. الفرق الوحيد أنَّ لعبتنا الذميمة لها وجهان: الحياة أو الموت. بالنسبة إلى الحياة يا وليد، فإنَّها بقدر ما استنزفتني استنزفتُها. لا أحمل في قلبي أسفًا على شيء أو أحد... إنْ قُدِّرَ لي أن أواصل هذه الحياة المعطوبة، فلأنَّني جدير بذلك. أمّا الموت... الموت يا وليد، هذا الشبح المخاتل، فإنَّني أبغضُه، لكنَّني لا أخافه...

على الرَّغم من آلامهِ الجسام، فإنه كان يبدو قويًّا، حين قال:

«هذه الحرب ليستْ حربنا، في أيِّ حال، الآن نحن مدفوعان إلى الهاوية. لن أخسر فرصتي في الحياة ولو قَتلتُ في طريقي إلى ذلك ألفَ بريء. سأقاتل اليد التي تسعى لقتلي بغضّ النظر عن مشروعيَّة هذا القتل. حين تُختزل المسألة في أن أَقتُلَ كي لا أُقتَلَ، يصبحُ من الغباء التفكير في سؤال المشروعيَّة، ذلك بأنَّ الغريزة تُغلق نوافذ العقل، وحبَّ البقاء وحده يُمنطقُ كلَّ شيء».

كانت ثواني الساعة في معصم يد الأشقر التي تلتفُّ على عنقي تتحرَّكُ بفتورٍ، وهي تدفعُ الدقائقَ إلى التهام النصف الثاني من الساعة السادسة صباحًا ـ من ذلك اليوم الذي كان مقدارُه عمرًا كاملًا ـ. أنا أحمل جسد الأشقر، وهو يتقفَّى بحاسَّة شمِّه الخارقة رائحةَ خمر. كان يرى في الأمر بارقة أمل.

استوقفني الذهول طويلًا وأنا أتطلَّع إلى ذلك المنزل الذي قادتنا إليه حاسَّةُ شمِّ الأشقر. كان بابه مشرَّعًا. تقدَّمنا صوبه بخطًى وئيدة، ذلك بأنَّ التعب قد نال منِّي. أمّا الأشقر، فقد بهت وأخرسه العياء وانغلقتْ عيناه، لكأنَّه يرى بحاسَّة شمِّه، أو لكأنَّه يحاول أن يخمد سائر الحواسّ ليُمعن في الروائح. حين فتح عينيه، قال بثقة: «الثالث»، وكان يقصد الطابق الثالث. واصلنا بعدها مترنِّحين.

سحب الأشقر مسدَّسه واتَّكأ على الحائط المجاور لبابِ الشقَّة، ومثلَه فعلت. اقتحمنا الشقَّة بحذر بالغ وقد انتصبَ مسدَّسانا تأهُّبًا لأيِّ خطر محتمَل. في الوقت الذي عدتُ إلى الباب كي أُغلقه، ارتمى الأشقر على أريكةِ إحدى الغرف مكدودًا، ومثلَه أسقطني التعبُ على الأريكة المقابلة... وما هي إلَّا دقائق حتى انتصب واقفًا... كان الجرح المشرَعُ في ساقه يسيلُ. نزع عن جسده البزَّة الثقيلة، ثم خلع القميص الصيفيّ الذي بلّلهُ العرق. رأيت الأشقر مثلما لم أرَه ـ ولم يرَه أحد ـ عاريَ الصدر! كانت الملابس تُضمر الكثير من أسراره...

كان قويَّ البنية متورِّمَ العضلات، لكنّ ما يميِّزُ الأشقر العاري ليس جسدَه الضخمَ المتَّسقَ المفتولَ العضلات فحسب، بل الأوشام الكثيرة التي تغطِّي صدره وذراعيه وأجزاء من ظهرِهِ. رسوم وكتاباتٌ بالجملة. كان نصفه العلويّ، من حزام البنطالِ إلى حدود العنق، مزركَشًا بأوشام خضراء... وحده يعرف معانيها.

لحظتها، لم يعلق منها في الذهن سوى وشم وحيد، قبل أن ينسحب من الغرفة وهو يعرج بذريعة البحث عمّا ينتشلُ به شظايا الرصاصة الثاوِيَةِ في ساقه... وشم ينام إلى يسار صدره فوق القلب تمامًا؛ وشم قلبٍ وقد اخترقه سهم، وأسفلَه كُتب اسم: «شامة».

في البدء كانت حياة

عاد الأشقر إلى الغرفة يجرُّ قدمه المعطوبة. كانَ خيط دمٍ قانٍ يسيلُ منها. لا يزال عاري الصدر يتأبَّط زجاجتي نبيذ أحمر فاخر وزجاجة ويسكي، وفي اليد الأخرى يحملُ بعض الأدوية التي قال ـ والتعبُ يسرقُ أنفاسَهُ ـ إنَّه عثر عليها في الثلّاجة، إضافة إلى ولّاعة وعلبة سجائر، وبعضِ المعلَّبات التي قذف بها إلى الطاولة البالية التي كانت تقف بين أريكته وأريكتي.

كانتْ غرفةً متوسِّطة الحجم، تتوسَّطها ثلاثُ أرائك جلديَّة حمراء، فوق سجّادٍ تركيّ مزركَش برسوم غامضة يتجاذبهُ لونان، قرمزيٌّ في جوانبهِ وأصفرُ في الوسط. وبينَ الأرائك الثلاث طاولةٌ من خشبٍ عتيقٍ، كثير الشقوق، تتمدَّدُ فوقها قطعةُ زجاجٍ ثقيلة ومغبَرَّةٌ صُمِّمتْ على مقاسها. على الحائطِ المقابلِ للنافذةِ ثلاثُ صورٍ، واحدةٌ بالأبيضِ والأسودِ لسيِّدةٍ في منتصفِ العمرِ، واضحٌ أنَّ الصورة قد مرَّ عليها رَدْحٌ من الزمنِ، وواضحٌ أيضًا أنَّها والدةُ الرجلِ الكهلِ ذي

الشارب الكثّ والرأسِ المكوَّر في الصورة الثانية، وكان يرتدي بزَّة عسكريَّة، ويتطلّعُ بوجومٍ مفتعَلٍ إلى المصوِّر. أمّا الصورة الثالثة، فقد كانتْ لسيّدةٍ وديعةِ الملامح يرجِّحُ أنَّها ربَّةُ البيتِ. أمّا الحائط المقابل للبابِ، فقد كان يتّكئُ عليهِ درجٌ خشبيّ ضخمٌ تتوسَّطهُ شاشةُ تلفاز من الطراز القديم الضخم، إلى جانب سلال زهورٍ بلاستيكيَّة بألوان مختلفة وصور لصبيَّيْنِ وصَبِيَّة، والكثيرِ من الأوراق. تحتَ التلفاز صفٌّ من تلك الكتبِ العتيقةِ التي يكون الغرضُ من عرضها الزينةَ لا التثقيفَ. وعلى رفٍّ آخر بعضُ الروايات الحديثة، ولُعَب أطفالٍ، ومناديلُ وخِرَقٌ مكوَّمٌ بعضُها فوقَ بعض...

حين انفجرتْ قذيفة في مكان ما قريب، قفزَ ـ هو المتعَب ـ من مكانه ليتلصَّص من بين ثقوب النافذة على هذه المدينة الخراب. تمتمَ بكلمات مبهمةٍ... ثم عاد إلى مكانه. كان واضحًا، من خلال الأدوية التي أحضرها، ومن خلال السكاكين والولّاعة، أنَّه قد عقد العزم على أن يتدخَّل جراحيًّا ليستلَّ من قدمه شظايا الرصاصة. عرضتُ عليه المساعدة مرارًا، لكنَّه أبى. التصقَ فمُه بزجاجة النبيذ، ولم يتركها إلَّا بعد أن أهرق نصفها في جوفه. كنتُ منشغلًا بفكِّ طلاسم أوشامه حين باغتتني نظراته، فغضضتُ الطَّرْف، ثم تظاهرتُ بالنوم...

الغريب أنَّ الأشقر، في تلك اللحظات بالضبط، وهو مُقْبلٌ على جحيم من الألم، كان باديَ الحماسة، تعلو ملامحَه علاماتُ فرح نشاز لا يليق بما هو فيه. قال وهو يمرُّ بسكِّين على سرواله الكاكيّ يقصُّه من حدود الركبة:

«دع عنك هذه النظرات الخائفة يا وليد. تأمَّلْ هذه الأوشام! فهي مخطوطةُ رواية لم تُكتَب. لكلِّ وشم حكاية، يا صاحبي. إن أسعفني

الوقتُ وأسعفني قبله هذا الجسدُ المتهالك، فسأحكي لك ما استطعتُ. . .».

لطالما اعتقدتُ أنَّهُ هاربٌ من حريقٍ كبير، أو من صفحات كتاب. قبلَ اليوم، كنتُ أحرسُ خطاهُ، مثلما يفعلُ الجميع، بحثًا عمّا يجعلهُ أثيرًا عندَ «الأخ الكبير». هو فتًى وسيم، يرجَّحُ أنَّهُ قد جاوزَ الثلاثين بسنة أو سنتين. فارعُ الطول كشجرة أَرْزٍ معمِّرة. عيناهُ الزرقاوانِ متَّقدتان وحادَّتان كقرصانٍ إسبانيٍّ يعرفُ ما يريدُ من البَحر. وجهُهُ مستطيلٌ أبيض ضاربٌ إلى الحُمرةِ، وقسماتهُ بارزة تشي بوداعةٍ لا يعرفُ الواحد مصدرَها على وجه الدقَّة. أنفهُ صغيرٌ ترتفعُ أرنبتهُ بأنفةٍ إلى أعلى، وذقنُهُ بارزٌ يُضفي على ملامحهِ سيماءَ أنوثةٍ. أذناهُ صغيرتانِ تختبئانِ في الغالبِ خلفَ شعرهِ الأشقر المنسدلِ إلى حدود الكتفينِ، وأوداجه منتفخةٌ تتَّصلُ بكتفينِ عريضتينِ وجسدٍ باسق. يدانِ عريضتان وأصابعُ منتصبةٌ طويلةٌ. أوَّل ما رأيتهُ، وكانَ ذلك بعد أن اجتزتُ امتحان أوَّلِ الخدمةِ بنجاح، أحسستُ بأنَّنا شريكا خيبةٍ كنتُ سببًا فيها. عيناهُ يومها كانتا قد اغرورقتا دمعًا، وقدَّرتُ أنَّ حبالَ شمسِ العراقِ أبكتهُ. كانَ آخر شيء يمكنُ أن أتوقَّعَه وقتها أن يكون ذلك الأشقر مغربيًا. ولولا أنَّهُ تكلّمَ يومها لَحسبتهُ ببساطةٍ واحدًا من الحمقى الأوروبيِّين المغرَّر بهم. . . سألني اقتباسًا:

ـ بأيّ ذنبٍ قُتلتْ؟

كان في سؤالهِ نبرةُ إدانةٍ. لم أُجبْ يومها، لِأنَّني في الحقيقة لم أكن أملكُ إجابة واضحة. فقد كان جميع مَن يحفّني ـ من دون استثناء ـ مصدرَ خطر. . . وفيما بعد، حينَ استقرَّ وضعي في التنظيم، وصرتُ عارفًا بخبايا الأمور، ندمتُ لأنَّني أضعت على نفسي فرصة

التقرُّب من «الديب». كانَ، بشكل أو بآخر، نافذةً على دوائر القرار.

كانَ في نظراتِهِ، إضافةً إلى الإدانةِ، شيءٌ عميق، وغامض. أوداجهُ المتوتِّرةُ والمنتفخة كانت تقولُ إنَّهُ يحاول ترويض عاصفة في قلبه. الغيمةُ التي تلبَّستْ زرقةَ عينيهِ تفضحُ دمعةً يغالبها. ولم أكن يومها لأُجيبهُ، ولا انتظرَ هو جوابي، ولا كانتْ القتيلةُ موؤودةً أصلًا. «الأخ الكبير» يقولُ إنَّها مومسٌ تحترفُ العهر، وأنا لم أكن أملك إلّا أن أنوِّمَ ضميري بكلامهِ، وأواصلَ لُعبتي الدامية. أحملُ في قلبي جثَّةً أُولى، كلَّما أسقطتُ بعدها قتيلًا ذكَّرني بها على نحوٍ صادم.

الأشقر، الذي أعرفهُ ويعرفهُ جميع إخوة التنظيم، غيرُ الأشقر الجالسِ إلى جواري يمعنُ في خرابِ الجرح الفجّ في ساقهِ بحثًا عن شظايا. احتقنَ الدمُ في وجههِ الذي يرشحُ بحبّات عرقٍ، وانسدلتْ على عينيهِ خصلاتُ شعرهِ الشقراءُ. لكنْ، بالنظر إلى صدرهِ العاري المزركَش بتلك الأوشام الغامضة، فقد أحسستُ بأنَّهُ مثلي. كانَ يموِّهُ التنظيم بانتماءٍ زائف! وها هو أمامَ حوافّ النهايةِ يميطُ اللثام عن حقيقتهِ. لو يعلمُ فقط، هذا الواقفُ على حافَّة الجرح، بأنّ أوشامهُ جوَّعتني لسماعِ الحكاية! قالَ كمن يهذي أو يخاطبُ نفسه:

«لم أفعل ما فعلتُ، لأنَّني اخترتُ. وُلدتُ في ظروف دفعتني إلى ذلك دفعًا. وأنا، خلف كلّ ما يمكنُ أن تسمعَ عنِّي، إنسانٌ جريح، استهلكته ظروفه قبل أن يخطوَ خطواتِه الأولى في الحياة. لم تكن مغامراتي، التي لا شكَّ في أنَّه قد بلغك عنها النزرُ اليسير، سوى احتجاج ساخر على حياة البؤس. كلّ وشم هو طعنةٌ في القلب يا وليد، وأنا حفرت هذه الأوشام في لحمي لئلّا أنسى. أتعرف أيَّ ألم يستشعره المرء وهو يحفر وشمًا في لحمه؟ دعك من الأوشام الحديثة

(تاتواج). فهي بدون ذاكرة؛ منها ما يمّحي بعد ستّة أشهر أو عام، ومنها ما لا يمّحي أبدًا بفضل أشعَّة الليزر، لكنَّها تبقى فوق الجلد لا تتعدّاه! أمّا هذه الأوشام، فقد توغَّل فيَّ ألمُها وسكنَ القلب، لأنَّ أسبابها غائرة في الروح يا وليد... دع هذا!»

كان الصوتُ صوت الأشقر، لكنَّ كلماته ونبرة الحزن الدفين فيها تقول إنَّه إنسان يعترك في دواخله ألفُ كسْر. جسده خريطة أوشام. وإن صحَّ كلامه، فإنَّ لكلِّ وشم جرحًا، ولكلِّ جرح حكاية. ألف سؤال وسؤال كانت تبرقُ وتختفي في سماء تعبي يومها. آه، لو أنَّني خلتُ أنَّ الأمور ستنتهي على ذلك النحو، لَما كنت لأتردَّد في الاستفسار عن الصغيرة قبل الكبيرة... لكنْ، كثيرةٌ هي الأشياءُ التي لا نقدِّرها حقَّ قَدْرها إلَّا بعد فوات الأوان...

رشَّ الماء على الجرح الغائر، وقد تعانق في وجهه امتعاضٌ ظاهر وابتسامةٌ مفتعلة. اندفع الدمُ غزيرًا حينَ نكأ جرحَهُ بسبّابته التي توغَّلتْ بعيدًا في ثقب الرصاصةِ. كان يتعامل مع ساقه الجريحة بحياد تامٍّ مثلما يتعامل جزّار مع قطعة لحم. توقَّف برهة والدم يتدفَّق غزيرًا منها، مزَّق قميصه ولفَّه حول الركبة بقوَّة، كي يوقف تدفُّق الدم إلى الساق. أشعل سيجارة، وأخذ نَفَسًا عميقًا من دون أن يسعل أو يختنق أُسوةً بحديثي العهد بالتدخين، قال: «من بين كلّ المعاصي... اشتقتُ كثيرًا إلى هذه الملعونة!» عاد إلى الماء يسكبه على الجرح، فيندفعُ مزيج من الماء والدم. قال وهو يتأوَّه؛ قالَ كمنْ يحدِّثُ نفسَهُ بصوتٍ مسموع، بعد أن أفرغ قليلًا من المشروب الكحوليّ على الجرح:

«في البدء كانت حياة!»

وعاد يكرعُ من زجاجة الخمر بعد أن عرض عليَّ الشرب فاعتذرتُ. تفحَّصَ الجرح قبل أن يلتقط من جيب سرواله مديته، ويستعين بسكّينٍ جاء بها من المطبخ من أجل أن يستلَّ شظايا الرصاصة التي تقبع في عمق عضلة الساق. همَّ بأن يقول شيئًا، لكنَّهُ توقَّف فجأة. تَمَعَّرَ وجهُه، وقضمَ شفته بأسنانه بعد أن فدحهُ الألم واستسلم للصمت، قبل أن يقولَ على نحو مقتضب وقد أدمى شفته السفلى:

ـ «لم يكذب لاوتسو حين قال: إنَّ ما يمكّنني من الإحساس بشقاء عظيم هو أنَّني أمتلك جسدًا».

مذ أُصيب الأشقر وأنا أكتشفُ فيه، المرَّةَ تلو الأخرى، أشياءَ عجيبة، غيرَ تلك التي يعرفها الجميع، وأتوغَّلُ ببوحه صوبَ ثغور حياته السرِّيَّة. لم أكن أعرف أنَّه على هذا القَدْر من الثقافة والحزن. الحقيقةُ، أنَّني ما كنتُ أعرفُ عنهُ غيرَ النزر القليل، فقد كانَ من المحظور أن تجريَ الألسنةُ بذِكْره، وذلك بسبب علاقته المتينة بـ«الأخ الكبير». كانت الإساءةُ إلى الأشقرِ تعني الإساءة مباشرةً إلى «الأخ الكبير» الذي كان لا يتردّدُ في إنزالِ عقوباتِهِ بهذا أو ذاك، لمجرَّدِ أنَّه جاءَ على ذِكْر صفيِّهِ وخليله، طبعًا بعد أن يلفِّقَ له آيةً تُدينهُ!

توغَّلتْ مديته وسكِّينُ الطبخ في جرحه الغائر، وعادا بدم متجلِّطٍ وآخر غزير، من دون أن يحرِّكا الشظايا القابعة في بطن عضلة الساق. بدا واضحًا أنَّ ألمه قد تفاقم، وأنَّ سحائب غيابٍ اضطراريّ تغشَى ملامحه. رأيتُ، وقد تحالفتُ مضطرًّا مع الظلام، مئات الرجال يموتون أو يُصابون على مرأى منِّي بجراح خطيرة، كانوا يهادنون جراحاتهم ريثما تتمكَّن منهم وتُرديهم جثثًا. لكنْ أن يتحدَّى المرء، وهو في قمَّة العياء والتعب، جرحًا يسرق الحياة منه؛ أن يُقامر بالحياة

من أجل الشفاء، فلا يكون ذلك إلّا في خيالات القصص أو البطولات الهوليووديّة المزيّفة! كان الدمُ في وجهه الجميل محتقنًا، وكان في زرقة عينيه الكثيرُ من التعب.

الأشقر علىٰ قَدْر كبير من الجمال. في الغالب، يبدو متأنِّقًا بعد أن رخَّص له «الأخ الكبير» بأن يكتفيَ بلحية خفيفة غير مسبلة، الأمرُ الذي حرَّكَ بسخط ألسنةَ الذين لا يكنُّون له الودَّ، حتى إذا عنَّفهم «الأخ الكبير» انتكسَ حقدهم في نفوسهم، وسرتْ بينهم إشاعاتٌ مغرضة، كان أكثر ما علق منها في أذهان جُندِ الخلافة، أنَّ «الأخ الكبير» مفتتنٌ بجمال الأشقر، وأنَّ له ميولًا خبيثةً. يسندُ هذا الرأيَ ما عُرفَ عن الأشقرِ من اعتزال للنساء، وإعراض عن الحبوب التي تحرِّضُ عليهنَّ! على أنّ تلك الشائعات تفشَّتْ في نطاق ضيِّق، وحتى الألسنة التي حملتها فعلتْ ذلك بصوت مختنق خائف، أمّا الآذان التي تلقَّفتها، فكان يفتعلُ أصحابها الحياد التامّ، وإن كانوا يردُّونَ صاحبها بإنكار مشوب بالامتعاض.

إضافة إلى جَماله وجاذبيَّته الخاصَّة وروحه الغامضة، كان الأشقر شجاعًا، له في الحروب صولاتٌ وجولات. عادة ما كان يتوغَّلُ في مسارب الموت وحيدًا ثم لا ينفكُّ يرجعُ سليمًا، وفي أسوأ الأحوال يعود بحمًّى وجروح طفيفة.

واصل حفره في ساقه بجنون رافضًا مساعدتي، في كثير من الأحيان، على نحو فظّ. كنت أعرف أنَّ الألم في كثير من الأحيان يُخرج المرء عن طَوره، لذلك آثرتُ أن أهادن جنونه، وأترك له مساحةً للبوح والإحساس بالألم. وحين فاض به التعب تنهَّد بإعياء. ترك مديته والسكّينَ جانبًا، وتمدَّدَ على ظهره فوق الأريكة. مَدَّ ساقيه معًا فوق

الطاولة، بعد أن أشعلَ سيجارة نفث دُخانَها في كلِّ اتِّجاه!

«الجسد، يا وليد، حين ينخذل تنخذلُ معه الروح. دعكَ من كلام الشعراء ومازوشيَّتهم النفسيَّة المفتعَلة. لا ألمَ غير ألم الجسد، حين ينقضُّ عليك كذئب جائع فلا شيء ينجّيكَ منه. . . روحك، مهما كانت قويَّة، ستنقلبُ ضدَّك أوَّل ما يخونك جسدك. تعلَّمتُ منذ أمدٍ بعيد أن أفصل بين الروح والجسد. لعبتي السرِّيَّة كانت ألّا أترك لآلامي النفسيَّة أن تزحف على جسدي، فالمعطوبون مثلي بواقع أكبر منهم يعرفون أنَّ رأس مالهم في الحياة هو الجسدُ. تعلَّمتُ أن أعزل وحشتي الداخليَّة في ركن ركين داخلي ـ وإن أورثني الأمر فصامًا مريرًا ـ لكنَّني لم أتعلَّم العكس. الآن، والألم يقضمُ كقندس جائع ساقي، أجد الوحشة التي لطالما خبَّأتها عن الآخرين، تنسحبُ من التخوم السرِّيَّة للقلب، وتنسكبُ على جسدي المحموم؛ محموم بالرصاصة التي أخطأت قلبي، وأورثتني انخذالًا فاضحًا أمامك يا وليد! لا بدَّ من أنَّك، على الرَّغم من التعبِ، تشعر بالزهوّ وأنا أرشقكَ بأقنعتي. أتعرَّى أمامك وأترك لك فرصة تأمُّل ندوبٍ داخليَّة وجراح لا تُقال».

تلجلج الكلام في جوفه. سعلَ سعالًا متقطِّعًا، ثم التصقتْ شفتاهُ بزجاجة النبيذ قبل أن يعود إلى السيجارة التي تفضح ارتجاف أصابعهِ. كان واضحًا أنَّ فيه أشياءَ تنزع إلى الموت، وأنا أمام هذا المعطى استيقظتْ داخلي رغبةٌ آثمة لم أجد في نفسي طاقة على مقاومتها. شعرتُ برغبة في أن أنهبَ أكبر قدر ممكن من سيرته وتناقضاته الجمَّة.

عركَ عقب السيجارة في زجاج الطاولة، وعدَّلتُ جلوسي بحيث أتمكَّن من تأمُّل أوشامه على نحو جيِّد، من دون الحاجة إلى أن

أشرئبَّ وينفضح فضولي الزائد. عادَ الأشقر ينبشُ الجرح الغائر... ويشقُّ بالمدية والسكِّين طريقًا من ألم مُمِضٍّ صوب شظايا الرصاصة...

«في البدء، كانت الخطيئة، والخطيئة لا سلطان لنا عليها، ولا نحن نملك أن نتجنَّبها. أشبهُ بصخرة من السماء، كلَّما هربتَ منها اكتشفتَ أنَّكَ إنَّما تسيرُ إلى حيثُ تصرعكَ. الخطيئة ابنة القَدَر المدلَّلةُ وبريدُ السماء المشفَّرُ.

في البدء، كانت حياة!

لا تذهبنَّ بك الظنون بعيدًا، يا وليد. تمهَّلْ لتعرف أكثر... ستقول في سرِّك إنَّها حبيبته! أعرف أنَّ مثل هذه الخيالات لا بدَّ من أنها قد طافتْ بذهنك، ولا بد من أنَّك استطبتَ الحكاية ما دام فيها مؤنَّث.

بارد كقطعة جليد مَن لا يستطيب الحكايات حين يصيرُ فيها مؤنَّث!

في البدء، كانت حياة...

صَبِيَّة بالكاد استهلكتْ من عمرها أحدَ عشرَ ربيعًا. أصغر أخواتها وأجملهنَّ. تعيشُ في قرية مهمَلةٍ في أقاصي الأطلس المتوسِّط في المغرب، من أُسرة مُعْوِزة... الأب لا يغادر حقلَهُ إلَّا للنوم، أمّا هي وأخواتها فيتقاسمنَ الأشغال الشاقَّة التي لا تنتهي. وفي العادة يكون نصيبها من ذلك كلِّه أن تُرافق أختَها للرعي أو السقي!

وإذا كان صيف جبال الأطلس المتوسِّط رائقًا في الغالب، فإنَّ فصلَ الشتاء هو مصدر العذابات كلّها! إذ لا تكفُّ الثلوج عن الهطول

حتى تُهلِكَ البشر والدوابَّ. يتضاءل إحساس المرء بجسده وبالحياة من حوله، والبياض الذي يتمدَّد على امتداد العين يجعل الكفنَ صورةً دائمة الحضور. دع عنك، يا وليد، الثلوجَ التي تعرف، أو تلك التي تراها في شاشات التلفزيون! ثلج أبيض وديعٌ وأناس لا يقلُّون وداعةً، يتداحون فوقهُ بمعاطفهم الثقيلة. ثلج الأطلس شرسٌ يُضمر خلف بياضهِ الزائفِ أنيابًا منتصبة، لا بدَّ من أن تفتك بك أوَّلَ ما تدخل تيههَا الأبديّ! وحياةُ حينَ استيقظتْ فجرَ ذلك اليوم الشؤم لم تكن تعرف، لا هي ولا أختها الكبرى، أنَّ تلك الغيوم الوارفة في السماء تحمل بين طيّاتها الكثيرَ. مضتْ حياةُ وأختها تحثّان قطيع الماعز والغنم على التوغُّل في الفجاج العميقة واعتلاءِ الجروف الحادَّة، كي يصلَ إلى تلك المروجِ البعيدة حيث الكَلأُ الوفير والماءُ الغزير.

لم تكادا تنثران أدواتِ إعداد شاي الصباح في الخلاء، حتى تساقطتْ ندفُ البياض. تردَّدتا. هل تتوغَّلانِ أكثر، أم تعودان؟ لكنَّ الأخت الكبرى، بحكم تجربتها ومعرفتها بأحوال الطقس وتقلُّبات الجوّ، رأتْ أن تواصلا مهمَّاتهما اليوميَّة. قالتْ إنَّهُ لا يمكن، في أيِّ حال، أن تسقط أكثر من هذه الزخّات، وفصلُ الشتاء لم يحلَّ بعدُ...

واصلتا التوغُّل أبعد في المروج الشاسعة، والثلج لا ينفكُّ يلحُّ أكثر من دون أن تلحظا ذلك. كان مخاتلًا إلى أبعد حدٍّ. حين التفتتا إلى أنَّ الثلج ما عاد يسقط وتمتصّه الأرض الساخنة، وأنَّ المروج بدأت تضيع خضرتها إذ يتَّسع مجال البياض، قرَّرتا العودة.

وكان ذلك بعد فوات الأوان.

بعد ظهر ذلك اليوم، ألحَّ الثلج أكثر. تثاقل القطيع في سيره، وكاد يجنُّ الكلب «آدفل» من فرط النباح، وقد تماهى بياضه الحليبيُّ مع بياض الثلج، حتى إنَّ العين ـ لولا نباحُه ـ لَتجدُ مشقَّة في تحديد مكانه. أمّا حياة، الطفلة الصغيرة، فقد كانتْ خائفة تتمسَّكُ بتلابيب الأخت الكبرى التي أربكها الذعر. كانتا تحسبان أنَّهما تسيران في الطريق الصحيح، وكان الثلج يلعبُ معهما لُعبته التي يبزُّ فيها الصحراء: التِّيه!»

توقَّفَ الأشقر عن الكلام المباح. عضَّ شفته السفلى بقوَّة، وتطلَّع إليَّ بأسنان مضرَّجةٍ بالدم. جبينهُ ينزُّ عرقًا... ودمعةٌ ثقيلةٌ تقف عندَ عتبةِ عينه اليسرى، لا أعلم إن كان سببَها الألمُ الفادح الذي تسبَّب به جرحُ ساقه الغائر، أم أنَّها «حياة» هذه التي نكأتْ في ذاكرته أكثرَ من جرح!

تغلغلت المدية في ساقه أكثرَ، فاندفعت من جرحه الدماءُ غزيرةً، تجرّ معها الدم القاني المتخثِّر. مرَّ بظَهرِ يدهِ على عرق جبينه، والتصقتْ شفتاه بزجاجة النبيذ، حتى إنَّ الدمعة التي كانت تترقرقُ في عينهِ اليمنى هوتْ إلى حدود ذقنه البارز... قالَ لي، فيما بعد، إنَّ من عادة عينه اليسرى أن تخذله بدمعات حقيقيَّة، ربَّما لقربها الجغرافيّ من القلب!

أشعل سيجارة من أُخرى ونفث معَ دُخانها زفرةً حرَّى. عاد إلى المدية التي لم تبرح ساقه، يحرِّكها في الجرح المفتوح لعلَّها تهتدي برأسها المسنَّن إلى شظايا الرصاصة التائهة في ساقه تيهَ «حياة» في حكايته!

كانت يداه ترتجفان. واضحٌ أنَّه كان يتلظَّى بأوجاعه، وأنَّ معركته مع الرصاصة النائمةِ في بطن ساقه قد بلغتْ ذروتَها. يظهرُ من خلال الطريقة التي يحرِّكُ بها المدية في ساقه، أنَّه انتهى أخيرًا إلى بعض الشظايا، ولكنْ كان واضحًا كذلك من خلال عينيه اللتين تكادان تنغلقان أنَّه على شفا انطفاء مفاجئ. . .

المسافة بينه وبين الانتصار على الرصاصة هي نفسها المسافةُ بينه وبين الهزيمة. قال:

«لا بدَّ من أنَّ ما بيني وبين هذه الرصاصة من شقاء أسوأُ ممّا ما بين عجوز أرنست همنغواي وسمكته الكبيرة!»

استلَّ من رَحِم بؤسه هذه الكلمات النافرة، وعاد يذرع ردهات الصمت جيئة وذهابًا، وهو ينبش حينًا في الجرح أو يأخذ أنفاسًا شَرِهةً من السيجارة النائمة على حافَّة الطاولة. ياه، في موقف مثل هذا، حتى أشدُّ الرجال جَلَدًا يستسلمون للموت بدلًا من أن يخرموا لحمهم بحثًا عن شظايا الرصاصة اللعنة!

«توقَّف القطيع فجأة. اكفهرَّت ملامحُ الشقيقة الكبرى وهي تدير وجهها كعقربي الساعة في كلِّ اتِّجاه، وبدا على حياةَ الخوفُ الشديد. أمّا «آدفل»، فقد كان يدور حولهما من دون هدف واضح. . . مثلَ حياة يستجدي الأخت الكبيرة سبيلًا إلى النجاة.

بعد أن استحالَ كلّ ما حولهما إلى بياض، لا شيء فيه يقوم دليلًا على طريق العودة، اقتادتا القطيع صوب مسارٍ اختارته الأختُ الكبرى. سارتا في البياض ساعة، فساعتين، فثلاثًا من دون جدوى. والليل، الذي اكتفى بعد الغروبِ بعتمة هشَّة، أصبح أكثر عنادًا حينَ مدَّ فوقَ سمائهما وشاحًا غامقًا.

حلولُ الليلِ يعني أنّهما وضعتا قدمًا في الهاوية. فليلُ ذلك الخلاء محفوفٌ بالخطر الدائم، حتى من دون ثلج وبرد قارس يتغلغل من مسامّ الجلد رأسًا إلى العظام. هناك ذئاب يعلو عواؤها كلَّما عسعسَ الليل، ولا بدَّ من أنَّ مأدبة الماعز والأغنام ستستدعيها، وهناك كلاب الخلاء الشرسة، والكثيرُ من القططِ البرِّيَّة، ناهيك عن الأسد الأطلسيّ الذي قيلَ إنَّهُ لا يزالُ في تلك المنطقة...

حثَّتا السير إلى الأمام من دون جدوى، وحين أضحتْ الحركةُ عبثًا لا يمكن أن يُفْضيَ إلى نتيجة، استقرَّتا على قرار المبيت في كهفٍ إلى جوارِ نارٍ شاحبة، كابدتا مشقَّة جمع حطبها، بعد أن أكلتا ما في القراب من خبز وزيتون.

اندفنتْ حياةُ الصغيرة في حضن أختها مثلما اندفن القطيع بعضُه في بعض غيرَ بعيد عنهما، وحده «آدفل» ظلَّ يحوم حولهما ويحرسُ ليلهما القارس من الذئاب، لكنَّ الخطر الوحيد الذي ما كان يقوى على أن يحرسهما منه هو ذلك البرد القارس، الذي يتغلغل في لحمهما مثلما تتغلغلُ هذه المدية في لحمي.

بعد أن انتهتْ إلى حواسِّها روائحُ قطيع تائه، جاءت الذئاب. اندلعتْ المعركة بينها وبين الكلب «آدفل». كان واضحًا أنَّه قاتَلَ بشراسة، لكنَّ نباحه شرع يتقهقر شيئًا فشيئًا، وتحوَّل في الأخيرِ إلى أنين مكتوم وضعيف. وفي الصباح، لك أن تتخيَّلَ ما حدث، وأن ترسم في ذهنك تصوُّرًا لبشاعةِ تلك اللوحة الحمراء على البساط الأبيض الكبير. هلكَ من القطيع رؤوسٌ كثيرة، ولم تجد الأختان مندوحة من الأكل ممّا أبقى الذئاب من لحم على هياكل الخرفان. قالت حياة إنَّها قدْ حملتْ في قرابها خصيتَيْ خروف بعد أن فصلتْهما

بأصابعها الصغيرة عن الصوف، وأنَّ حَدَثَ أكلِهما بعد أن عضَّ الجوع أحشاءها لم يَمَّحِ من ذاكرتها. وكلَّما حلَّ عيد الأضحى أو ذُبح خروف، كان أكثر ما يهمُّها أن تظفر بخصيتيه، وتشرع في نهشهما نهشًا من دون طهو... تقول إنَّ الأمر يُحرِّكُ داخلها لذَّةً ما سرِّيَّة، عادة ما تدفعها إلى البكاء فرحًا... هل كان الأمر شَبَقًا شاذًّا؟ وهل له علاقة بما حدثَ بعدهُ؟ وهل تراكُمُ المصائب أودى بها إلى عُقَد نفسيَّة مريرة كانت سببًا فيما حدث بعد ذلك بسنوات؟ لن أسكبَ أسراري دفعةً واحدة. أجدُ في الحكي تميمةً ضدَّ الموت!»

قال جملته الأخيرة ووجهُه ينزُّ عرقًا، وندَّتْ عن شفتيه ابتسامةٌ فاترة وهو يدفع شظيَّة كبيرة برأس مديته، فتنسحب من جرح ساقه الغائر، ومعها يندفعُ الدمُ غزيرًا ومتخثِّرًا. قال «لا شيء يدعو إلى الفرح... ما زال في ساقي شظايا، أحسُّ بوخزها». وعاد يسكبُ الماء على الجرح وأصابعه لا تنفكُّ تتوغَّلُ بعيدًا في الثقبْ. أيُّ قوَّة تملأ قلب الأشقر؟ لقد تألَّمتُ من رؤيته يُجري لنفسه عمليَّة جراحيَّة من دون أدوات، وبلا تخدير، بقدر ما تألَّم هو نفسه. آه، يذكِّرني الثقبُ في ساقه بالثقب الذي افترعتُه في رأس تلك الفتاة التي اقتيدتْ إليَّ بتهمةِ أنَّها عاهرة. صحيح أنَّني قتلتُ بعدها الكثيرَ، نساءً ورجالًا، لكنَّ تلك الحفرة التي فتحتُها في قحف رأسها الحليق لا تزالُ عالقةً في رأسي. تلك الجريمة الأولى تختزل كلّ الجرائم، بل تختزلُ في ذهني مفهومَ القتل. ما يأتي بعد «المرَّة الأولى» ليس إلَّا امتدادًا هشًّا يضمحلُّ تأثيره فينا مع الزمن!

كان «الأخ الكبير» أو «الأمير» (واسمه بين جُند الخلافة معاويةُ) داهيةً حينَ قرَّر أن يختبرَ ولائي للتنظيم بجريمة قتل شنيعة، ثم بجرائم

قتلٍ لا حصرَ لها. كي يثبتَ المرءُ جدارته بالانتماء إلى التنظيم، عليه أن يكون دائم الاستعداد للقتل بمعنَييه: أن تَقتُلَ أو أن تُقتَل! ولأنَّني لا أريد أن أُقتل فقد قتَلتُ؛ قتَلتُ من دون تردُّد، ومن دون هدف، ليس لأنَّني خائف من الموت، بل لأنَّني خائف من الموت من دون معنى. الموتى تعساء جميعًا، لكن أكثرهم تعاسة من يموتُون مجّانًا في حروب العبث الجديدة!

قفزَ الأشقر من مكانه فجأة وهو يلعنُ الدنيا بأقذع الشتائم. بعد أن سكبَ الكحول على الجرح المفتوح، نطَّ برِجله السليمة كثيرًا في الغرفة، قبل أن يسقط مكدودًا على الأريكة كمن تلقَّى في ظَهره رصاصةً أخرستْ قلبه. تدفَّق من الجرح في ساقه خيطُ دم وانتهى إلى الأرض سريعًا. كان الأشقر أقرب إلى الموت من قربه إلى الحياة، لكنْ يبدو أنَّ هذا الذئب لا يموت أو، على أقلٍّ تقدير، لا يموت بسهولة... انقلب على ظَهرِهِ، ثم قلب استلقاءه إلى جلوس، وعاد إلى الجرح والمديةِ بحثًا عن تلك الشظايا التي زعم أنَّها لا تزال قابعةً في بطن الجرح...

«انقلبَ بياض الكلب «آدفل» الحليبيُّ إلى حُمرة بعد أن نهشته الذئاب في طريقها إلى القطيع. فتحوا في لحمه بأنيابهم المسنَّنة أكثرَ من جرح غائر، لكنَّ الإصابة البليغة التي أدمتْ عينَيْ حياةَ ذلك اليوم بكاءً، هي انطفاءُ عينه اليسرى بعد أن توغَّلَ فيها مخلبٌ ضارٍ. لحياةَ، مثلِ سائر الأطفال، قلبٌ هشٌّ إذا تعلَّق الأمر بالحيوانات الأليفة، و«آدفل» بالنسبة إليها، وبالنسبة إلى أغلب أفراد العائلة، أكثرُ من مجرَّد كلب! وبعد أن فعلتْ به هذه الحيوانات الشرسة ما فعلتْ، فإنَّ قلب حياةَ انفطرَ حزنًا. وعلى الرَّغم ممّا طاله من اعتوار، فإنَّه شاركهم في

أكل ما أبقت الذئاب من لحم على عظام الخرفان، كما ساعدهما على جمعِ قطيع الماعز والأغنام.

لم يتوقَّف الثلج عن الهطول طوالَ الليل، ولك أن تقدِّر، يا وليد، كيف أنَّ الطبيعة من حولهما قد انطمستْ معالمها. ولأنَّهما سارتا في الطريق الخطأ، فإنَّهما استأنفتا المسير صوب وجهة خاطئة...

تعبتْ حياةُ كثيرًا بعد أن تسلَّلَ البرد إلى قدميها الصغيرتين، وسقطتْ كثيرًا في الأماكن التي كان الثلجُ يطاولُ فيها قامتها الصغيرة. وكثيرًا ما اضطرَّتْ إلى حفرِ طريقها بأصابعها. وحين حلَّ المساء، بدأتْ تشعر بخدرٍ في قدميها. أسرَّتْ بالأمر إلى أُختها، فكانت لها همًّا إضافيًّا!

وبدأتْ الخرفان والجِداءُ تسقط بسبب البرد، وتفوز بها الذئاب والثعالب المحوِّمة، وتشتعلُ المعارك بينها وبين النسور التي تبحثُ لها عن نصيب من المأدبة، بعد أن يتراجع «آدفل» الجريح ويتقهقر نباحه.

بعد ثلاثة أيّام من التيه، سقطت الأختُ الكبيرة... كان الدم يندلقُ من فمها كلَّما سعلتْ، كما أنَّ قدميها قد تخشَّبتا من فرطِ البرد وثقل حياةَ التي حملتها على مدار يومين. حين نزعت الحذاء، رأتْ حياةُ كيف أنَّ الدم قد غادر قدمَيْ أختها، وكيف انقلبَ لونهما إلى الزُّرْقة. أقعدَ أختَها العجزُ، فقدماها اللتان تخدَّرتا بسبب البرد ما عادتا تقويان على الوقوف، فكيف بالأحرى مواصلة الطريق.

كان الموتُ يحوم مثلَه مثلَ الذئاب الضارية التي تُسقط الخروفَ تلوَ الآخر، ومثلَ النسور التي تطالب بحصَّتها من الوليمة... أمّا

حياةُ، فقد كان نصيبُها من الخرفان الهالكة أربعَ خُصًى تزوَّدتْ بها قبل أن تواصل الطريق من دون أختها. كان الفراق أليمًا بحقّ. أتعرف، يا وليد، معنى أن تواصل طفلة طريقها في التيه، تتربَّص بها الذئاب والنسور؟ وقبل ذلك، أن تتخلَّى عن أختها كسيحةً بعد أن التهمَ الثلجُ قدميها؟ وقف «آدفل» حائرًا بين الصغيرة التي تبتعدُ، وبين الأخت الكبيرة التي تحلَّقتْ حولها الخرفانُ والجِداءُ، يُجيلُ بينهما عينَه الوحيدة لعلَّها تُلهمه اختيارًا موفَّقًا.

مضتْ حياةُ تشقُّ خطواتها في الثلج بتؤدة، وفي قلبها انعقدَ أملٌ كبير: أن تعود إلى أختها بمن يُنقذها. الأملُ وحدهُ كان سرابَ حياةَ في بيداء الثلج. حين بدأ الليل يغمرُ عالمها الأبيض بوشاح من عتمة حالكة، سمعتْ نباحهُ الواهن. لقد اختارها «آدفل»، في الأخير. وحين حلَّ الظلام، ألجأها التعب إلى كهفٍ اهتدى إليه الكلب «آدفل»، وأماط عنه بمخالبه أكوامَ الثلج. وفي الصباح انقضَّتْ عليها الحمّى، لكنَّها واصلتْ، بمكابرة، طريقَ الأمل، وقد بدأتْ تستشعرُ في أصابع قدميها تخشُّبًا...

أُغميَ عليها مرَّتين: المرَّة الأولى لم تعرف بالضبط كم سرقها الغيابُ. زعمتْ أنَّها استيقظت وقد غطّاها بساطٌ من الثلج المتساقط. أمّا في المرَّة الثانية، والتي ظنَّتْ أنَّها الأخيرة، فقد استيقظت وفي فمها مذاقُ سَمنٍ حارّ. على مقربة من فرن تهدرُ ناره وتلهجُ بكلمات غامضة، كان جسدُ الطفلة الصغيرة عاريًا تمامًا. يدٌ تقطِّرُ الشمع على الجسد الفتيّ. آه، يا وليد! لا بدَّ من أنَّك تريد أن تعرف ما حلَّ بالصبيَّة؟ حسنًا، قبلَ ذلك... أبْشِرْ! قد تكونُ هذه هي آخر شظيَّة كانت تنامُ في ساقي!»

قالها وهو يرفعُ فوق إبهامه قطعةَ نحاس صغيرةً مَضمَّخةً بالدم، ثم عاد إلى الجرح الغائر يغمرُه بالماء. كان جبينه ينزُّ عَرَقًا، وفي وجهه تعبُ العائدين من الموت، لكن خلف الوجهِ الكابي، بالضبط في عينيهِ الزرقاوين، كنت ألمحُ قوَّة ما خارقة وصبرًا لا يفنى. أجال عينيه في الغرفة الصغيرة، ثم التمسَ منِّي أن أناوله الخِرَق والمناديل المكوَّمة إلى جوار التلفاز الضخم (كانت أوَّل مرَّة يطلب العون منِّي صراحة، وربَّما آخرَ مرَّة!) لفَّ جرحهُ بأطراف طويلة منها، وعاد إلى زجاجة النبيذ يكرع منها ما يبلُّ به روحَه الظامئة المتألِّمة، ثم استرسل في الحديث عن حياةَ هذه وسيرةِ طفولتها الغريبة:

«يدان ممتلئتان مخضَّبتان بالحنّاء؛ هذا كلُّ ما تذكره حياةُ من تلك المرأة السرّ. طوالَ الأيّام التي أمضتها في بيتها المتهالك، لم تتكلَّم سوى مرَّة واحدة، كما أنَّها كانت تحجبُ وجهها بشالها. على مقربة من الفرن الهادر، ألهبت جسدَها العاري الصغير قطراتُ الشمع. كان واضحًا أنَّها أنقذتها من بين فَكَّيْ موتٍ كان لا يفصلُها عنه سوى ذبالة نبض. آلمها الشمع؛ آلمها عريُها أمام امرأة غريبة! قدَّرتْ أنَّ في الأمر علاجًا ما. سحبت اليدُ المخضَّبةُ بالحنّاءِ الشمعَ من جسدها، وقد استحال إلى أقراص يابسة، وعلى جسدها سكبتْ خليطًا من أعشاب أيقظَ في حياةَ الحنينَ إلى أهلها، فبكتْ.

حين حاولت الكلام، وجدتْ في جوفها فشلًا ذريعًا... بعد أن أبدتِ الحروفُ، كلُّ الحروفِ، خيانةً جماعيَّة. شرعت اليدان تفركان، بلبخة من الأعشاب، جسدَها الصغير الذي تبشِّر تفاصيله الدقيقة بأنوثة صاخبة. يدانِ تدعكانه من ثغرةِ نحرها إلى أخمصِ القدمين، تعتصران نهديها اللذين يبزغانِ بتحفُّظٍ، وتمرّان على العانةِ وما تحتها قبل أن

تقلبها تلك المرأة على بطنها، ثم تفرك ظهرها وتعتصر ردفيها كراهبةٍ تشكِّلُ على مهلٍ صنمًا ستعبدهُ وحدها!

وعلى الرَّغم من أنَّها فعلتْ بها ما درجت أمُّها على فعله، فإنَّها أحسَّتْ بأنَّ تينك اليدين آثمتان، وأنَّ تلك التأوُّهاتِ وذلك الأنينَ الخافتَ الذي يصدر عنها، إذ تعتصر صدرها أو تتوغَّل بأصابعها بين فَخِذيها، ليست بريئة... حاولتْ حياةُ أن تهرب أكثر من مرَّة، بعد أن أصبح صمتُ تلك المرأة المقنَّعة وطقوسُها تقضُّ مضجعها... لكنَّها فشلتْ. في كلِّ ليلة تُقطِّر الشمع على جسدِها قبل أن تدلكه على نحو شَبَقيّ بالزيت أو بالأعشاب.

وجاء أخيرًا ذلك اليومُ الذي رأت فيه الجنون.

حينَ أقبلتْ حصَّة التدليك الليليَّة، قطَّرتْ على جسدها الزيت، ومضتْ كعادتها تمرُّ بيديها المخضَّبتين لا تستوقِفها إلَّا مَواطنُ اللذَّة. حين توغَّلتِ الأصابع بعيدًا بين فَخِذيها، أبدتْ حياةُ بعض المقاومة، لكنْ بلا فائدة. كانت واسطةُ يدها قد عادت بدم زهريّ، وفي الحمّام رأتْ خيطَ دم آخرَ وقد سال على فَخِذيها. بكتْ يومها من دون أن تعرفَ، على وجه الدقَّة، قيمةَ ما ضاعَ منها، واحتفظت بذلك الحدثِ الشؤمِ وَشْمًا في الذاكرة!

لم تكن تحتاج إلى توثيقهِ بتفاصيله، لأنَّ الحياة باستمرار ستُزعجها بذلك الجرح. ستعرف كلَّما تقدَّم بها العمر أكثرَ أنَّه أكثرُ من مجرَّد جرح عاديّ، وأنَّ تلك المرأة الغريبة الأطوار قد سرقتْ منها، في مقابل الحياة التي أعطتها، حياتَها. فيما بعد، ستتمنَّى لو أنَّها لم تنتشلها من بين أنياب الثلجِ، ما دام ذلك يعني أن تسرق منها في لحظةِ

تبتُّل ما يعتبرهُ الجميع سرَّ الأسرار.

المرَّة الوحيدة التي تحدَّثتْ فيها معها كانت حين سألتها عن اسم قريتها. سافرتْ بها ليلًا ـ أيّامًا بعدَ ذلك اليومِ الشنيعِ ـ إلى مدينة «خنيفرة»، قبل أن تسافر بها مرَّة أخرى وتَرمِيها على مشارف قريتها المهمَلة. استقبلها بنباحه المجنون «آدفل»؛ ذلكَ الكلبُ الذي لا تعرف أيَّ جنون أعاده إلى هذه القريةِ. كانت على عينه التي فقأتها الذئابُ قطعةٌ سوداء (أغلب الظنّ أنها اقتُصَّتْ من إطار مهترئ لدرّاجة هوائيَّة)، شُدَّت بخيوط إلى رأسه مثلما يفعلُ قرصان أطفأتْ شظيَّةٌ بصرَهُ. فاجأها كرسيُّ الإعاقة على مقربة من الباب...

في طريقها لمعرفة صاحب الكرسيّ، سالتْ دموع كثيرة وشدَّها إليه أكثرُ من حضن. وحين سألتهم عن كرسيّ الإعاقة، اقتادوها جميعًا إلى تلك الغرفة، حيثُ تتمدَّدُ أختها التي خلَّفتها في الخلاء يأكل البرد منها، وبها تتربَّصُ الذئاب التي شغلها عن لحمها لحمُ الخراف والجِداء!

كان وجهها هو نفسه، ويداها كانتا نفسيهما، لكنَّها بلا قدمين، فقد اضطرَّ الأطبّاء ـ كما ستعلمُ لاحقًا ـ إلى بتر قدميها لوقفِ السواد الزاحف في جسدها!

بكتْ كثيرًا وهي تتدثَّرُ بعناق أختها. وفيما بعد، حينَ خطبَ أحدُ الشبّان ودَّها والتمسَ من عائلتها القربَ، اكتشفتْ أنَّ البتر الذي تسبَّبَ به شذوذُ تلك المرأة الغامضة يضاهي البتر الذي تعرَّضتْ له أختُها! وبعد أيّام من عودة حياةَ إلى العائلة، اتَّخذ والداها قرارًا غريبًا جدًّا، لن تَحُول دونَه دموعُ حياةَ ولا توسُّلاتُها: قرَّرا إعدام الكلب «آدفل»!!

قال الأب إنَّ الكلب الأعور نذيرُ شؤم، وبقاءهُ في قيد الحياة يعني بقاء العائلة قيد اللعنة. وقالتِ الأمُّ إن اعتوار كلبِ العائلة معناه اعتوارُ حظّها؛ وقد حرَّضهما على ذلك الجيرانُ الذين أضحوا يتطيَّرون من رؤية هذا الكلب المشؤوم، ولا ينفكُّون ينسبون إليه أيَّ بلاء يطال نهارهم... ولأنَّ اللغةَ لم تطاوعها بعدُ، فإنَّ لغة احتجاجها الوحيدة هي أن تنهج بالنحيب؛ نحيب لا ينقذ «آدفل» ولا يُغْني من ألم.

إعدام «آدفل» خلَّف في روحها شرخًا لم ترتقهُ الأيّام. في قلبها كانت تحملُ حقدًا كبيرًا على عائلتها، وعلى الحياة التي أقحمتها فيها لعبتُها السمجة، وتركتها تواصلُ عمرها مثقلة بما حمَّلها إيّاه تيهُ الثلوج من عُقَد، من دون أن تُسمِعَ أحدًا ما يمورُ داخلها. حزنها على هلاكِ «آدفل» لم تمحُهُ رتابةُ الأيّام، واللذَّةُ السحريَّة التي كانت تجدها في سرقةِ خصى الخرفان وأكلها سرًّا لم تَزُل، ولم يغادرها يومًا التفكيرُ في سرِّ ذلك الدم الذي سحبته من بين فخذيها سيِّدةُ الغموض.

بعد أقلِّ من ثلاث سنوات، تبرعَمَ الجسد الغضُّ الطريُّ. تفتَّقتْ أسرارُهُ الكبرى، وطفحتْ ثمارُه وشدَّتْ إليها كلَّ عين. تقاطَرَ على المنزِل شبابُ القرية يخطبونَ ودَّها. لحظتها اندلعتْ داخلها الفضائحُ، بعد أن أصرَّ والدها على زفِّها إلى الإقطاعيّ الذي ابتلعَ وقتَ أزمته ثلثَيْ أراضيه... قرَّرتْ أن تنأى بفضيحتها بعيدًا وتستهلّ تغريبةً أخرى، ما هي إلَّا امتداد مأساويّ للبدايات السيِّئة! ألم أقل لك، يا وليد، في البدء كانت الخطيئة، وإنَّ لا سلطان لنا عليها. لا نملكُ سوى تأمُّل عبثِها بنا. لكنْ، مهلًا يا وليد، لا بدَّ من أنَّني اقترفتُ خطأً شنيعًا (لكنَّه مقصود في أيِّ حال): لم أخبرك مَنْ حياةُ...».

وغاب الأشقر. كان واضحًا أنَّ النوم قد بدأ يُفقده زمامَ اللغةِ. غاب طويلًا، وخلَّفني على حافَّةِ البوحِ أستجدي البقيَّة، قبل أن يقول بصوت هشٍّ أقربَ إلى الهذيان:

«في البدء كانت الخطيئةُ... وتلك الطفلةُ الشقيَّة أمِّي...

في البدء كانت... حياة».

مصرع الأحلام البريئة

لم يغادرني طوال مكوثي بين صفوف التنظيم الإحساسُ الموجع بالندم. مَن تبرعَمَ مثلي في قرية من ضواحي صيدا؛ مَن نَبَتَ هناك كزهرة في الخلاء، سيفهم غربتي. ومَن تسكَّعَ مثلي في شوارع بيروت ومقاهيها سيفهم أيَّ خواءٍ سكن روحي! ببلادة، اندفعتُ إلى هذه التجربة من دون أدنى تفكير في العواقب، كما لو أنَّ الالتحاق بداعش أشبهُ بنزهة على الكورنيش. آهٍ، لقد كان وقوفًا حذرًا على كورنيش القيامة!

يجبُ أن أروِّض كبريائي، وأقولَ صراحةً إنَّه قد تمَّ التغرير بي. لقد دفعتني تلك الصحيفة الإنكليزيَّة إلى الهاوية. حين وصلتُ من طريق تركيا إلى سوريا، والتقيتُ معاويةَ، أو «الأخَ الكبير» ـ مثلما سمّاه الأشقر ـ شعرتُ بأنَّني فأرٌ نتنٌ سقطَ في المِصيدة. كان أكثر ما راقه فيَّ وأثنى بسببه عليَّ هو تمكُّني من اللغة الإنكليزيَّة... كان كثيرًا ما يطلبني لأترجم له بعض الرسائل والمقالات إلى العربيَّة، هذا قبلَ أن

يدفعني إلى قطفِ يانعِ رؤوسِ أَسراه الأجانب على الهواء، وتمرير الرسالةِ التي يودُّ تمريرها إلى أعدائهِ باللغةِ التي يفقهونها...

كان من المستحيل أن أفكِّر مجرَّدَ التفكير في الهرب، لأنَّ ذلك يعني أنَّكَ تضع رأسكَ على ظَهرك (آهٍ، أن يُوضَعُ رأس الإنسان على ظَهره أو فوق مؤخِّرته. قمتُ بذلك كثيرًا، وعلى نحو يبعثُ على الغثيان، لكنَّني كنت أمام خيارين: أن أفصلَ رؤوس الآخرين، أو يُفصَل رأسي... كانت الخيارات قليلة وكنت أنانيًّا!).

كان أوَّلُ ما يؤكِّدُ أهليَّة الانضمام أن يفقد الواحد، على مرأى من «الأخ الكبير»، عذريَّتَه النفسيَّة. وتلك الفتاة التي سيقتْ مكبَّلةً إليَّ هي من أفقدتني عذريَّتي أمام القتل. القتل وحدهُ ما يدفعُ عن المرء تهمةَ التخاذل، والاندفاعُ الأهوجُ هو ما يؤكِّد ثقة المجنَّدِ العمياء بأنَّه ما إن تُخرس قلبَهُ رصاصةٌ حتى تهبَّ لانتشاله الحُورُ العين! أمران فقط يدفعان عن المرء تهمة كونه مندسًّا: الأوَّل أن تطلق رصاصك على نحو مجّانيٍّ وتقتل، حتى وإن لم يُطلَب منك ذلك؛ أمّا الأمر الثاني، فأنْ تندفع غير حَذِرٍ في المعارك بما يعبِّر عن توقِك إلى الجنَّة. كنتُ أفتِّشُ عن تجربة، عن استثناء. مذ كنت صغيرًا، وأنا أشعرُ بأنَّني منذورٌ لأمر عظيم. الآن فقط، أعترف بأنَّني ضحيَّةُ أكذوبةٍ ربَّيتها داخلي.

انفتحتْ عينا الأشقر فجأةً؛ اشرأبَّ؛ أجال أنفهُ في الفضاء كذئب متوقِّد الحواسّ! ها هوَ يلبَسُ اسمه الذي أطلقهُ عليه جندُ الخلافة «ذئب الدولة الإسلاميَّة». أطلقَ حاسَّة شمّه قائلًا:

«إنَّهم قريبون جدًّا... الأفضل أن نغلق الباب بإحكام».

قفزتُ من مكاني. حثثتُ الخَطْوَ وأغلقتُ الباب جيِّدًا. وحين

عدتُ أدراجي، لعلعَ صوتُ الرصاص خارج المبنى... التصق وجهي بخشب النافذة أتلصَّصُ على المتناحرين.

قَلَبَ الأشقر استلقاءه قعودًا، وتأمَّل ساقهُ... كان أكثر من خيط دم يسيلُ من الثوب الذي لفَّه حول الجرح. فكَّ رباطَ الثوب في ساقه وجعلَ يتفحَّص الجرح. كان أشبه بفوّهة بركان يتدفَّقُ حِمَمًا، قبل أن يبادرَ إلى شفط طبقات الدم المتجلِّط بالماء. لم أكنْ أعلم بأنَّه يخطِّطُ لجنونٍ آخر. قال كمن يناجي نفسه بصوت مسموع «لا يقهرُ الألمَ الكبيرَ إلَّا ألمٌ أكبرُ منه!»

مدَّ يده إلى علبة السجائر. أشعل واحدة ويداه لا تكفّان عن الارتجاف. قال ممازحًا، حين عرض عليَّ التدخين ورفضتُ، «لن أخبر «الأخ الكبير»، ثم إنَّه لن يشمَّ فمك...!» نفثَ الدخان في أرجاء الغرفة حينَ عاد الأشقرُ يقول مخاطبًا نفسه (هكذا أحسستُ)، وهو يتأمَّل سحائب الدخان بعد أن أرخى رأسه للخلف متَّكئًا على الأريكة:

«السيجارة الأولى سأطبِّبُ بها الروحَ. أمّا الثانية فسأطبِّبُ بها الجرح. بعض الجروح وحدَهُ الكيُّ يكسر عنادها... أين انتهتْ بنا الحكاية؟ لا بدَّ من أنَّ النوم أفسد عليَّ متعة التفاصيل. سرُّ الحكايات في تفاصيلها الدقيقة. أذكر جيِّدًا أنَّني أطفأتُ فضولك لمعرفة مَن هي الطفلة حياةُ. حسنًا، إنَّها أمّي. لا أجدُ حَرَجًا في أن أحدِّثكَ عنها وعن الوقائع غير السويَّة التي تملأ سيرتها، ما دام قد غادرني إحساس لم يفارقني منذ الطفولة: أنَّني معصوم من الموت بتميمةٍ ما.

الآن، أستشعر الموتَ يحوِّمُ حولنا مثلما حوَّمتِ الذئاب حول

حياةَ وأختها، لا يقف بينه وبينها سوى نار هادئة وبضعة خرفان وجِداء (ربَّما هم من يلفتون انتباهه الآن بأزيز رصاصهم!) لم أشأ أن أستبقيك معي، لكنْ، لأنَّك تحملُ في قلبك كرمًا طائيًا، آثرتَ أن تمدَّ إليَّ حبلَ أمل زائف... نعم زائف، لأنَّني أرى الموت لا تقف بيني وبينه غيرُ كمشة ساعات!»

عرَك عقب السيجارة بحافَّة الطاولة، ثم أشعل سيجارة أخرى. كان يسحبُ دخانها على نحو متقطِّع، فينفث الدخان من أنفه وجنبات فمه على دفعات... حتى إذا التهب رأس السيجارة وضعه على جنبات فوَّهة الجرح. كان يهتزُّ من مكانه كلَّما اشتعل الجرح بالسيجارة أكثر. قال بألمٍ:

«غادرتْ حياةُ قريتها... التحقتْ بمدينة صغيرة نائية. اشتغلتْ في مقهًى صغير نادلةً، قبلَ أن تلتقطها راداراتُ العاهرات المتمرِّسات. كانت جرذًا مستعدًّا لدخول أيِّ ثقب يقيهِ ضربات حذاءٍ واقع يطارده، ولأنَّ الطريق بين فخذيها كانت معبَّدةً، فقد استقرَّتْ في جحر بغاءٍ تفتح ساقيها لمنْ يدفع أكثر. ولأنَّها كانت في عمر «لوليتا»، فقد لهثَ فوقها العديدُ من الرجال (كانت تعود خلسةً كلَّ ثلاثة أشهر إلى قريتها المهمَلة، تضعُ على كرسيِّ إعاقة أختها ـ الذي يظلُّ دائمًا خارج المنزل ـ رزمةَ مال وتقفل عائدة من دون أن ينتبه إليها أحد).

أمّا ما كان يحدثُ لها من انتهاك يوميّ بشع، فلم يكن ليحرِّك فيها أيَّ شيء، لأنَّ سيِّدة الغموض، سيِّدةَ الشذوذ، قد سرقتْ منها منذ وقت مبكرٍ كلَّ شيء. كانت أغرب مومس عرفتها تلك المدينة، تشترط على زبائنها أمرين اثنين: الأوَّل أن تولمَ لهم جسدها على ضوء الشموع، والثاني ألّا يتمَّ تقبيلها على فمها. الشرطُ الأوَّلُ تَدين به

لاشعوريًّا لسيِّدة الغموض وشموعها التي سالت على الجسد البَضّ. أمّا الأمرُ الثاني، فلأنَّها إذ حاول أحدهم لثم ثغرها تقزَّزتْ من الأمر وتقيَّأتْ بعدَ ذلك كثيرًا! وبالتزام زبائن ليلها بشرطيها، تُشرِّعُ لهم بابها، يُدخلون آلاتِهم بركاكةٍ ويُخرجونها، من دون أن يحرِّك فيها أحدُهم شيئًا غيرَ الغثيان. لم تسرق تلك اليدُ الشاذَّة دمَها الزهريَّ فحسب، بل سرقتْ كذلك لذَّتَها!

(ستنتظر سنوات قبل أن يأتي مراهق فحل ليُشعل فيها كلَّ الجنون الذي أخمدتهُ يدُ تلك المرأة الغريبة.)

بعد أربع سنوات، استيقظتْ تلك المدينة الصغيرة على هزَّة كبرى. شقَّة اكتراها خلسةً موظَّف متزوّج تنفجرُ بروائح نتنة. رجال الدرك، بعد فضّ أقفال الباب، عثروا على جثَّة الموظَّف في بدايات تفسُّخها! وهنا، يا وليد، سأسجِّلُ بعض الملاحظات التي قد تسهِّلُ عليك معرفة الظنِّين. لقد وجد رجال الدرك الجثَّة عارية ومطعونة إحدى عشرة طعنةً، بما فيها طعنة فقأتِ العين اليسرى. وكانت تكسو الجثَّة قطراتُ الشمع، وقد يبستْ وصارتْ أقراصًا صغيرةً...

فُقِئت العينُ اليسرى، لأنَّ الذئاب فعلت ذلك بالكلب «آدفل» أيّامَ التيه؛ وقطَّرتِ الشمع على الجثَّة، لأنَّ سيِّدة الغموض كانت تقطّر على جسدها الشموع قبل أن تلعب بها لُعبتَها الجنسيَّةَ الشاذَّة! قدَّر الطبيب الشرعيّ بعد معاينة الجثَّة أنَّ الجريمة وقعتْ ليلة رأس السنة. كانت ليلةً باردةً اكتظَّت فيها الأزقَّةُ والشوارعُ بالثلوج. ولك أن تقدِّر سبب ذلك!

وتوقَّف الأشقر عن الكلام المباح...».

قال عبارته الأخيرة، كما ليتأكَّد من أنَّ قصَّته قد استحكمتْ بنوازع شغفي، مقتفيًا بذلك سيرةَ شهرزاد وعادتَها في بتر الحكاية وتأجيل نهايتها، لعلَّ في ذلك تأجيلًا لنهاية شخصها. قالها الأشقر سابقًا. قال إنَّ الحكي تميمة ضدَّ الموت! لكنْ، أين أجواء «ألف ليلة وليلة» من هذا الجوّ؟! هناك سكينة وصمت لا يفضُّهما سوى الحكي؛ وهنا في «عين العرب» رصاصٌ يزغرد وقذائفُ تصطخبُ في أكثرَ من مكان. في الحكاية تفترش شهرزاد قبل الحريرِ الهدوءَ، وهنا الأشقر لا يكادُ يكملُ جملة من دون أن يقفز من مكانه، جرّاء ما يستشعره من احتراق بسبب السجائر التي يُطفئها في ساقه لعلَّها ترتقُ الجرح الغائر! تحكي شهرزاد خرافات لا صلة لها بواقعها، ويحكي الأشقر واقعَه الداميَ. كان بينه وبين شهرزاد بَوْنٌ شاسع، ولا يوحِّد بينهما في الحقيقة سوى لعبة السرد وأسرارها. سألتُ محرِّضًا إيّاه:

ـ لماذا إحدى عشرة طعنة بالضبط؟

ردَّ هامسًا:

ـ سأجيبك، لكنْ ليس قبل أن نرى مَن هذا الزائرُ المتطفِّلُ، ونرى إن كان قد حشا مسدَّسه برصاصة تحمل لي السلام. أشمُّ روائحَ عرقه تصعد بتؤدة درجَ المنزل.

مدَّ يدًا إلى سلاحه، ومثلَه تأبَّطتُ سلاحيَ والتصقتُ بجدار الغرفة، ثم سمعتُ الخطوَ أخيرًا. حرَّكتْ يدٌ مزلاجَ الباب من الخارج، فانتصبتْ أشواك رأسي وانكمَشتْ خصيتاي. يحدثُ كثيرًا أن أنشغلَ بأمورٍ تافهةٍ كلَّما واجهتُ مأزقًا! لم أكفَّ عن التفكير في الوضع التحتيّ إلَّا بعد أن اندلع الرصاص يخرُم الباب. حين تطلَّعتُ إلى الأشقر

وضع سبّابته على شفتيه، حاثًّا إيّايَ على التزام الصمت... أمّا حين كفَّ المسلَّح عن إطلاق رصاصه العبثيّ، فقد قال لآخرين معه، وهو ينزل درج ذلك المنزل «لا أحد هنا...» عدتُ إلى الأريكة، وعاد الأشقر إلى علبة السجائر يوقد منها ما يطفئ به جرحه الفجّ. قال:

«حسنًا، يا وليد. إحدى عشرة طعنةً، لأنَّ عمرَ تيهها منذ خروجها من المنزل إلى حين عودتها إليه كانَ أحدَ عشر يومًا. إنَّ أعنف الحروب النفسيَّة الداخليَّة هي تلك التي توقظُ فينا نزعةَ الجريمة. انتفض رجال الدرك ككلابٍ تتشمَّم كلَّ شيء في تلك المدينة الصغيرة، باحثينَ عن خيط يدلُّهم على الجاني، لكنْ من دون جدوى؛ فقد حرصتْ حياةُ على ألّا تُبقي في مسرح الجريمة أيَّ دليل قد يقودُ إليها... كما أنَّها عند استجوابها عرفتْ كيف تدفعُ عنها أيَّ تهمة.

معاشرة العاهرات ورجالِ الدرك والمجرمين الفارِّين من العدالة علَّمتها الكثير... هكذا، أصبحتْ كلَّ رأس سنة، إذ تمتلئ المدينة بالثلوج، تنتقي ذَكَرًا بالغًا يرى في جسدها ما يُدفئ ليلةَ رأس السنة، ترافقهُ إلى وَكرهِ، حتى إذا تمكَّنت منه الخمر واطمأنَّ إليها، باغتتْهُ بطعنتها الماهرة، قبل أن تمارس على جسده طقوسها السرِّيَّة: تفقأ عينه اليسرى؛ تقطِّر الشمع على الجسدِ المضرَّجِ بدمائه؛ تكملُ نصابَ الطعناتِ!

في كلِّ ليلة رأس سنة كانت تزهق روحًا، وبعد البحث ينتهي المحقِّقون إلى تسجيل الجريمة ضدَّ قاتل متسلسل مجهول. بعد الضحيَّة الثانية، اضطرَّتْ إلى مغادرة تلك المدينة، لأنَّ أعين الأمن لا بدَّ من أن تكون مفتوحة في ليلة رأس السنة. بالنسبة إلى عاهرة، لا يحملُ لها السفرُ أيَّ تعقيد يُذكَر، ما دامت تحملُ معها الثقبَ الذي يَعُولُها. بعد

كلِّ سنة، كان يزداد خوف الناس من هذه القاتلة المتسلسلة التي حازت شعبيَّة جارفة، وأُلِّفَتْ عنها قصصٌ تفنَّنَ الخيالُ الجمعيّ في اختلاقها.

بعد أحد عشرَ قتيلًا عَلِقتُ في رحمها... لم أكنِ الوحيد الذي اختمر في بطنها. كان هناك جنينٌ آخر سيُنازعني في كلِّ شيء، بدءًا بما يردُ من المَشيمة من أكل، مرورًا بحليب حياة، وانتهاءً بـ «شامة»! أوه، ها أنا أتسرَّعُ وأهملُ أشياء مهمَّة! مهلًا، سأخبرك بكلِّ شيء، لكن على مهل، لأنَّني أحسّ بأنَّني قد أنتهي بنهاية هذه الحكاية، وأنا على لسان درويش «لا أريد لهذه القصَّة أن تنتهي».

من عصير السوائل التي اختمرتْ في رحمها، جاءت النطفة التي استحالتْ إلى الأشقر الذي تراه، لكنْ كان من بين المتسلِّلين إلى البويضة المفتوحة أشقرُ آخرُ. عن هويَّة الأبِ تقول حياةُ إنَّها لا يمكن أن تفتريَ على أحد، وتدَّعي أنَّنا نَنْتسبُ إليه. الغريب، تقول، إنَّه لم يكن من ضمن مَن تناوبوا عليها رجلٌ أشقرُ. كانوا جميعًا شبابًا، وقد قامت فعلًا بحصر قائمة مَن ضاجعوها!

كان لي أحدَ عشر أبًا محتملًا، لا أحد منهم أشقر! يجب أن نشدِّدَ هنا على أنَّه، قبل أن يحدثَ الحملُ الذي قاومَ حبوبَ الحَمل... تسلَّلَ إلى قلبها مراهقٌ، كان حبّها الأوَّل! أتعرف معنى ألّا تعرف فتاةٌ الحبَّ حتى ربيعها الثاني والثلاثين؟ كان حبّها الأوَّل والأخير. لا تدري ـ تقول ـ ما الذي أعجبها فيه، لكنَّها كانت تجدُ في حضرته رغبةً في أن تقول له كلَّ شيء. وحين يميلُ على جسدها، كان يفعل ذلك باحترام كبير، وعلى نحو أنيق وجذّاب. كان أوَّلَ من يسوس جسدها الحرون ويشعلُ براكينهُ الخامدة؛ أوَّلَ من يوقظ كلَّ جنون أطفأته فيها تلك المرأة/ اللغز. في حضرته، كانت تقتصُّ من كلِّ

آلامِها، لذلك كانت تزعجه بدموع فرحها كلَّما حطَّ جسده على جسدها.

به، بحبِّه ودفء لحمهِ، بأسراره التي لا تنتهي، عرفتْ حجم خساراتها في الدنيا. كانت تفخر إذ تتحدَّثُ عنه، مؤكِّدةً أنَّه ضمن لائحتها القصيرة للأب المزعوم، ولا تجد بيننا (أنا وأخي) وبينهُ من شَبَه سوى هشاشة قلبي المفرطة. ذلك المراهق، يا وليد، الذي كان. . . اسمه مراد «س». أصبحَ بعدها أحدَ ألمع الأسماء الثقافيَّة في المغرب. حين رأتْه بعد سنوات على شاشة التلفاز، قفزتْ من مكانها وزغردتْ ورقصتْ، قبل أن يُسقطها بكاءٌ مُمِضّ. منذ ذلك اليوم ورَّطتني في ذلك الرجل!

حين تبرعمنا ـ أنا وأخي التوأم ـ في بطنها، حملتْ حقيبتها الصغيرة ومضتْ إلى مدينة أخرى. حملتْ في قلبها أسفًا كبيرًا، لأنَّها تركته من دون وداع يليق بما أشعل فيها من إنسانيَّة! لم تعد في سنة حملها إلى آفتها. وجدتْ نفسها مضطرَّة إلى اعتزال لعبتها واعتزال الزبائن (وإن وجدتْ فيهم مرضَى ممَّن يلذُّ لهم العبث بها وبطنُها يكاد يدركُ فمها)! هكذا يا وليد، بعد كل هذا الصخب وبعد طريق مسنَّنة من الخطايا، جاء الأشقر إلى الحياة. جاء الأشقران إلى الحياة. . . كنّا أنا وأخي جَرْوين في بطنِ مجرمة!»

شامة في قلبٍ جريح

نام الأشقر بعد أن أطفأ في جرحه أكثرَ من سيجارة. وقفتُ قرب النافذة، آكلُ المعلَّبات وأحرس نومه، على الرَّغم من أنَّني على ثقة بأنَّ حاسَّةَ شمِّه النشيطة تحرسنا معًا...

كان باديَ العياء، يفضحُ أنينُهُ المكتومُ تضعضعَ صحَّته. كم هو سامق هذا الأشقر! حين كنتُ أسمع حكاياتهِ الغامضة، التي يسوقها أكثر من لسان، لم أكنْ أصدِّقُ ما يُقالُ عنه، لكنْ وأنا أصيخ السمع إلى أوتار قلبه التي تلهج بألف حزن، أشعرُ بأنَّ كلَّ ما سمعتُه عنهُ لم يكن سوى قشرةِ حياته. أوقعني في شركِ الحكاية ولذَّ له أن ينام. على الرَّغم من عطشي إلى المزيد؛ على الرَّغم من فكرة الكتابة التي بدأتْ تختمرُ داخلي وقتها، فإنَّني لم أجد في نفسي رغبةً في تحريضه على البوح بالأسئلة.

هو من طِينة أولئك الذين لا يفضِّلون كثرة الأسئلة. هدهدٌ: يجب

أن تحفظ ما بينك وبينه من مسافةٍ للتأمُّل. خشخشةُ قدميك، إذ تتقدَّمُ صوبه أو تبتعدُ عنه، لها معنًى واحد: أنَّه سيرفرف مبتعدًا.

ذكَّرني القلبُ الموشومُ في صدره بمريم. جمعنا الحبُّ وشوارعُ بيروت، وكان «الربيع العربيّ» خريفَنا الاضطراريّ. استبقتها أيادي النظام قسرًا في سوريا، ومُنعتُ قسرًا من الرحيل إليها. وبعد حبٍّ ـ حسبتهُ كبيرًا ـ صار شحيح ما تهبه مواقع التواصل الاجتماعيّ نافذتَنا الوحيدة على حبٍّ كبير أُهرِق بين بلدين!

أسعدني استيقاظُ الأشقر! رؤيته، على الرَّغم من أنَّه مهشَّم، تبعثُ في القلب الأمانَ. عاد يتفحَّص جرحه بعد أن فكَّ تلك الخِرَق. النزف توقَّفَ، لكنَّ الحفرة في ساقه اتَّسعتْ مزيدًا من الاتِّساع، وبدا منظرها شنيعًا يبعثُ القرف في النفس. احتزب مسدَّسه ثم مضى يعرجُ باحثًا عن دورة المياه مدندنًا لحنَ أغنية... وحين عاد سأل عمّا يسدُّ به رمقه، فناولته بعض المعلَّبات. أكل الأشقر بنَهَم واضح. لا بدَّ من أنَّ الجرح والعمليَّة الاضطراريَّة التي ألجأته إليها الظروفُ قد امتصّا كلَّ ما فيه من جهد. قال وهو يحشر الأكل بين شدقيه:

«قاومنا أنا وجروٌ آخر في بطنها حبوبَ الحَمل، والتصقنا برحَمِها... بعد أن فشل كلٌّ واحد منّا في إزاحة الآخر في سباقنا صوب البويضة المفتوحة. أعتقد ـ بكثير من العدميَّة ـ أنَّني لو كنتُ واعيًا لحظتها، لأوصلته إلى باب البويضة وتوَّجتُ دخوله المبارك بركلة في مؤخِّرته، ثم قفلتُ عائدًا إلى العدم، لكنْ لم يكن هناك لا اختيارٌ ولا إرادة. الحتميَّةُ البيولوجيَّة في سعيها للحفاظ على النوع البشريّ باركتْ أمِّي بصبيَّيْن، لا تعلم من أين تلبّستْ بهما الشُّقرة.

وُلدتُ، يا وليد، في مستنقع آسن، استجلبتْ له مياهُه الراكدة كلَّ ضفدعة تافهة وكلَّ حشرة أو بعوضة تائهة. وُلدتُ في مدينة عاهرة ينهضُ اقتصادها أساسًا على الإتجار بالجسد البشريّ، عقول جميع مَن فيها بين أفخاذهم، فالنساء يستثمرن ذلك المكان والرجال يصرفون عرقَ أيّامهم هناك. مدينة صغيرة، نصف رجالها قوّادون، والكثيراتُ من نسائها عاهرات. حتى المتزوِّجات لم يسلمن من لوثة العهر، وأحيانًا بمباركة من أزواجهنَّ! آه، رأيتُ الكثير، لكنْ دعني لا أُطنب في الحديث عن تلك المدينة الآسنة، لأنَّ حديثها لا ينتهي...

لقد انسحبتُ من بطن أمّي أجرُّ خلفي توأمي. لم أكن في فجر الطفولة أكرهه، لكنَّني إلى جانب ذلك لم أكن أحبُّه. حين لفظنا رَحِمٍ واحد إلى تلك المدينة، لم نمعن في المأساة، وتقلَّص إحساسنا بذلك البتر في الهويَّة، وتأخَّر وعينا بطبيعة الأرض الموبوءة التي كنّا نسيرُ فوقها، لسبب واحد: لم يكن حيّنا ليضمَّ من هم أفضلُ منّا حالًا. أطفال الحيّ قنافذُهُ، ولم يكن بيننا أملس.

جروِيْن كنّا، حين لفظتنا إلى الحياةِ حياةٌ! وعادتْ إلى لعبتها القديمة بعد أن استعادتْ لياقتها. وحدَه حليبُها تشتَّت بيننا وبين زبائن ليلها، حتى إنَّها لتقول في لحظات الصفاء والتجلّي، حينَ تُغرق في الكأس قلبَها أو تسحبُ إلى صدرها سحائبَ الحشيش: «نصف رجال المدينةِ إخوتك بالرضاعة!»

أَسمعتَ، يا وليد، أسمجَ من هذه نكتةً؟

كبرنا، أنا وأخي، في وَكر بغاء في تسعينيّات القرن الماضي،

واصطدمتْ حياتانا بقَدَر خطير، بشامة. هي مثلنا نتأتْ زهرةً جميلة في قبر موحش، هزَّت برأسها الصغير تلك الأرضَ الموحلة، وانبلجتْ مثلنا من رَحِمٍ آثم مُدان.

منذ أن فتحتُ على الحياة عينَيَّ وإلى حين انسحابيَ مدحورًا من تلك المدينة، أستطيع أن أجزم بكثير من الثقة بأنَّني رأيتُ شامةَ أكثر ممّا رأيتُ حياةَ؛ أمّي. وُلدتْ شامة مثلنا في ذلك البيت العاهر، واليدان اللتان امتدَّتا لسحبي أنا وأخي من رَحِم أمّي، نفساهما مُدَّتا بعد ما ينوف على شهر لتنتشلا من رَحِمٍ آخر: شامةَ. أعرف شامة مثلما يعرف المرء ظاهر يده وثقوبَ قلبه!

كنّا نحن الثلاثة نكبرُ في منأى عن الكبار. علاقتي بتوأمي كانت سيّئة منذ البدايات. كنّا قطبَيْ مغناطيس؛ كلَّما دَفَعَنا واقعنا، أحدنا إلى الآخر، اشتدَّ تنافرنا، لكنَّنا انجذبنا معًا إلى شامة، تمامًا مثلما تنجذب الفراشات إلى النور. كانت بعد حياةَ الأمرَ الوحيد الذي يجمعنا، لكنَّها فيما بعد، باتت الأمرَ الوحيد الذي سيفرِّقنا!

كبرنا ثلاثتنا في بيئة نتنة، كلَّما سعتْ الأمَّهات إلى حجبها زادَ فضولنا لاكتشاف الخبايا واستكناه المحظور، فتحنا عيوننا على الكثير، يا وليد. كذبَ الذين يقولون إنَّنا نكبر بقدر ما ينضاف إلى أعمارنا من أيّام، فأنا أرى أنَّنا نكبرُ بقدر ما نعيشه من أحداث. ما نعيشه من تجارب يُنضج المرء فينا قبل الأوان.

كبرنا، يا وليد، في وَكرِ بغاء، وأشدِّد ـ كي لا يذهب بك المجاز بعيدًا ـ على أنَّني أستعمل كلمة وَكر من باب الحذلقة اللغويَّة فقط. لقد كان منزلًا تقليديًّا أنيقًا وشاسعًا من طابقين، تُقيمُ به المومس في غرفة

أو غرفتين بحسب حاجتها، مع دورتَيْ مياهٍ مشتركتينِ، واحدة في كلِّ طابق، وأكثر من مطبخ. بالنسبة إلى حياةَ، فقد كانتْ تملكُ غرفتين: واحدة لنا أنا وأخي، وأخرى للعمل، كذلك شأن منّانةَ؛ أمِّ شامة. كنّا الأطفال الثلاثة الذين يملأون، بحضورهم البريء، ذلك المنزلَ الآسن، وكنّا أبعد ما يكون عن أمَّينا وعن كبيرات المنزل، يسهرن ليلًا وننام نحن، وينمْنَ نهارًا ونصحو بضجيجٍ لا تستطيع صيحاتهنَّ ولا سبابُهنَّ البذيء كبحَهُ.

مجانين كنّا حقًّا، ونحن نكتشف بعيون بريئة جنَّتنا السعيدة وهي تنقلبُ إلى جحيم. لكَ أن تتصوَّرَ التشوُّهاتِ التي طالت أرواحنا الصغيرة التي تجاورُ الفساد! أستطيع أن أقول لك ـ بكثير من الخِزْي ـ مثلًا، إنَّنا كنّا نلعب بأيِّ عازل ذكريّ نجده، ننفخُ فيه ببلاهة كأنَّه بالون يُنفَخُ، كما أنَّنا لا نجد غضاضة في طَرق أحاديث الكبار: كلٌّ يقول ما سمع من فحش؛ كلٌّ يتندَّرُ بما رآه حينَ تلصَّص على لحظة جنس! وإضافة إلى الألعاب التي يلعبها كلّ مَن هم في سنِّنا، كانت لنا ألعاب أخرى، حرَّضنا عليها واقعنا القميء... كنّا، مثلًا، ندخل في تحدِّي أطول تبوُّل، أو مَن يمدُّ حبل بَوْلِه أطولَ. في العادة، كانت ترسبُ شامة في مثل هذا التحدِّي، ذلك بأنَّ السباق لا ينفكُّ يبدأ حتى تبلَّ فَخِذيها ويشكِّلُ بَوْلها بِرْكةً تحتَ قدميها، تفرُّ بعد ذلك منزعجةً بَرِمَةً من اللعبة، أو تكتفي بالتحكيم بيني وبين أخي. شامةُ كانتْ أوَّل من أمارس معها، لعبًا، الجنسَ!

لا يذهب بك الظنّ بعيدًا. لم نكن غير طفلين في الخامسة من العمر، أو أقلّ قليلًا. كلّ ما فعلناه معًا كان مجرَّد محاكاة ساذجة، لاواعية وخالية من أيِّ لذَّة، لما كنّا نراهُ ونحنُ نتلصَّص على الأمَّهات

وهنَّ يقمْنَ بواجباتهنَّ الليليَّة. وحتى في تلك اللعبةِ الخاصَّة التي اهتدينا إليها ببراءة الأطفال، أنا وشامةُ، وجدتُ توأمي يحاصرها من خلف، ويشاركُني فيها!

أستطيع أن أؤكِّد لك أنَّه، منذ تلك اللحظة بالضبط، ما عدتُ أستمزج وجود أخي في ذلك البيت. كان، كلَّما طرقتْ أبوابَ أيّامي سعادةٌ، ولو تافهةٌ، وجدتُه يزاحمني عليها ويصرُّ على أخذ نصيبه منها. كنتُ سأغفر له، يا وليد، كلَّ شيء، لو أنَّه فقط لم يزاحمني على شامةَ الجميلة!

لا أستطيع أن أخبرك، على وجه التحديد، متى بدأ الأمر، ولا كيف! حين أمعن في استعادة ماضيَّ، لا أجد تاريخًا ولا حدثًا معيَّنين أفضيا بالضرورة إلى بزوغ حبِّها داخلي. شاعريًّا، يمكن أن أقول لك، بثقة، إنَّني جئتُ أحمل حبَّها وقد نتأ في قلبي منذ بداية تشكُّلي في غياهب رَحِم حياةَ، وقد أبالغ وأقول إنَّني أحملها في القلب منذ آلاف السنين! واقعيًّا، يمكن أن أجزم بأنَّ حبَّها زمجر داخلي منذ بدايات حياتي الأولى. مثلما يكتشف الطفل الشمسَ والقمر والورود والأشياء الجميلة لأوَّل مرَّة، اكتشفتُ حبَّ شامةَ. لكنْ، يا وليد، يجدر أن أذكِّرك دائمًا بأنَّنا كنّا ثلاثة أطفال، توأمين وطفلة أجمل من إكليل ورد في حديقة. أكره الأعداد الفرديَّة مثلما أكره أخي؛ أخي الذي زاحمني على كلِّ شيء.

بالنسبة إليّ، كانت شامةُ كلَّ شيء...!

لا تدع التأويل يجنح بك بعيدًا، يا وليد. جرحي الغائر ليس قصَّة عشق كتلك التي تُقرَأ في القصص أو تُشاهَد في الأفلام. قصَّتي مع

شامةَ واقعيَّة، ودامية أكثر ممّا تتحمَّلُ قصص العشق المكرورة والسمجة. التي تملأ ذهنك!»

مرّتْ في سماء عين العرب طائرةٌ عسكريَّة، كانَ لمحرِّكاتها ضجيجٌ مجلجل. سمعنا الكثير من الأفواه تكبِّرُ دفعةً واحدة، ثم أعقبَ تكبيرهم دويُّ انفجار. زفرَ الأشقر زفرةً حرَّى باحتْ بما يعترك داخله من ألم دفين، تضرَّجتْ ملامحه وكادتْ تختفي في غيمة سوداء علتْ سحنته. كان باديًا أنَّ الجرح الذي في قلبه قد تسلَّق أوردته، واستقرَّ أخيرًا في ملامحه. انتصب واقفًا باسقًا، ومضى يعرجُ صوب دورة المياه، وقال:

«بعض الناس كالخمر يُسكرك حضورهم، لكن سرعان ما تطرحهم بولًا في دورة المياه! وشامة أسكرتني، لكنْ كلَّما ألجأتني الرغبة إلى طرحها في دورة المياه وجدتها محتقنة داخلي، حبلى بوعودِ انفجار...».

كان يصلني صوتُ بَوْله إذ يرتطم بدورة المياه أشبهَ بالشخير! قبل أن يعود... سألتُ:

ـ ما رأيك؟ أَنبقى هنا، أم نغادر؟

وغاب الأشقر برهةً كأنَّما سؤالي أعاده إلى ورطتنا، بعد أن أسكرته ذكرياته الغريبة. في قرارة نفسي كنت أتمنَّى لو يقرِّرُ البقاء، لأنَّ الوضع ملغوم خارجًا، ولأنَّنا لسنا في وضع يسمح بالقتال. ثم إنَّني جَذِلٌ بما يحكي، تخزني أسئلة جمَّة، وأريده أن يعتصرَ جرحه أمامي.

ـ يبدو أنَّ حظوظنا خارجًا معدومة. التنظيم مُنِيَ بهزيمة، ويجب

أن ننتظر. سيعود «الأخ الكبير» مرَّة أخرى. أنت تعرفُ ماذا تعني له عين العرب. على أنَّكَ لا بدَّ من أن تجد أكثر من سبيل إلى النجاة لو تغادرُ منفردًا...

ـ لن أرحل من دونك...

ـ أنت طيِّب حدَّ البؤس، يا وليد.

وحمل زجاجة نبيذ في يده عاليًا، قبل أن يقول ممازحًا:

ـ نخبُ غبائك ومأزقنا المشترك...

وفي عزِّ الاحتراق، استلَّ من شفتَيَّ ضحكةً. رأيتُ، حينَ رفع زجاجة النبيذ، نَدْبًا أسفل إبطه، وتساءلتُ:

ـ على الرَّغم من أسمائك الكثيرة، فاتهم أن يسمُّوكَ «تأبَّط نَدْبًا».

وضحك الأشقر، ومدَّ يدهُ متحسِّسًا موضع النَّدبْ، ثم ردَّ بهمس:

«لاحظت الندب، لكنْ فاتك أن تلاحظ وَشْم الزهرة النائمَ أسفله. جسدي خارطة وُشوم، ولكلِّ وشم حكاية. لعلَّ ما لفتَ انتباهك للنَّدْب أنَّني تحاشيتُ أن أرسمَ فوقه وشمًا. مثلما للوُشوم في جسدي حكاياتها، كذلك لهذا المكان غير الموشوم إلَّا بندبِ حكايةٌ قديمة، بسيطة وبريئة في آن. في سنتنا الابتدائيَّة الأولى في المدرسة ـ وكنّا وقتها في ربيعنا السابع ـ، كانت في حديقة المدرسة شجرةُ لوزٍ كبيرة لم يكن أحدٌ من تلاميذ المدرسة يقدر على تسلُّقها. حين اندلعتْ أزهارها الجميلة، رأيتُ شامةَ تتأمَّلها. هجستُ بما يجوس في خاطرها، وحملتُ نفسي على ما لا يقدر عليه سواي: أن أقطفَ لها من شجرة اللوز زهرةً أو زهرتين. كانَ مثل هذا الفعل ممّا لا يقدر عليه أخي الجبان. تسلَّقتُ بصعوبة بالغة السُّورَ المتاخم للشجرة،

والمسنَّنَ أعلاه بقطع زجاج حادَّة عادة ما تُنثَر فوق أسوار المنشآت الحكوميَّة لتُدميَ كلَّ من يحاولُ تسلُّقها. . .

تحمَّلتُ الزجاج الذي انغرس في أطراف أصابعي، وقطفتُ لها زهرتين، لكنَّني لمحتُ من بعيد أخي قادمًا برفقة مدير المدرسة، بعد أن وشى بي إفسادًا لسعادتي بالهديَّة التي كنت سأقدِّمها إلى شامةَ. في تسرُّعي للترجُّل من ذلك السُّور المشؤوم، قبل أن يدركني المدير متلبِّسًا بفعلتي، مزَّقتْ قطعةُ زجاج قميصيَ وفتحتْ في إبطي ثقبًا غائرًا. تألَّمتُ كثيرًا بعدها. آلمتني يومها صفعات المدير؛ ابتساماتُ أخي الساخرةُ؛ كركراتُ شامةَ، وتهافتُ سائر التلاميذ على دهسِ زهرتَيِ اللوز!

إلى جانب النَّدْب الذي خلَّفته هذه الذكرى في جسدي، والذي تمدَّد مع الوقت، تركتْ كذلك نَدْبًا آخرَ في الروح، ها أنت نكأتهُ بسؤالك. . . صحيح أنا هو «تأبَّط ندبًا»، وقبل ذلك أنا هو «تأبَّط جرحًا»، وقبله «تأبَّط حبًّا»؛ تأبَّطتُ من الخسارات الكثيرَ يا وليد، واعتورتْ جسدي وروحي جراحاتٌ لا أستطيع حصرها من دون أن أخون الحقيقة.

مثلما أحببْتُ شامةَ، كذلك أحبَّها أخي (أحقد كثيرًا على ياء النسبة. . . لا تنسَ!) وإن كان أكثر منِّي قدرةً على إضمار كَلَفه بها وافتعال اللامبالاة. قلبُ شامة صلدٌ لا يعرف الحبّ. الأنثى من دون الذَّكَر، يا وليد، تكتسب منذ بداياتها مكرًا مبكِّرًا، وشامةُ كانت تعرف كيف ترقص على الحبلين. انتبهتْ طفلةً إلى تعلُّقنا بها، أنا وهو؛ انتبهتْ إلى أنَّنا نتكبَّدُ المشاقَّ من أجل نيل رضاها. . .

كبرنا ثلاثتنا في ذلك المنزل المستباح، وكان الحبّ رابعنا. شَغَلَنا

حبُّ شامة وحقدُنا المتبادَل عن تأمُّل المستنقع الآسن الذي كنّا نتخبَّطُ غير واعين فيه. كنّا نرى الأحذية الثقيلة تذرعُ المنزل ولا نراها. نسمع السكارى وهم يضجُّون ببذاءاتهم ولا نسمعهم. كنّا نشمُّ روائح الجنس النتنة ولا نشمُّها. كانتْ شامةُ تشغلنا عن صخب بيت الدعارة الذي كنّا نعيشُ فيه، وبنا كانت تنشغلُ عن ذلك الضجيج.

لم ننتبه إلى جرح يتربَّصُ بنا إلَّا بمزيد من العمر والوعي. جانبٌ كبير من وعي الإنسان ينشأ من خلال اصطدامه بالآخر الذي يعيش في بيئة غير تلك التي يعيش فيها... أن تقول لك عاهرة مثلًا «يا ابن العاهرة»، قد لا يضطرُّك الأمر إلى النبش طويلًا في تفاصيل الكلمة واستنطاق مسكوتها، لكنْ أن تسمعها من ابن عائلة شريفة ـ وهم قلَّة ـ فلا بدَّ ساعتها من أن تبحر في الكلمة أو تبحر فيك، موقظةً جرحَك النائم. ونحنُ ـ أسوة بأبناء العاهرات ـ ننام على جرح مسنَّن. وقبل أن تصطدم بالآخر ـ الذي لا يكون طيّبًا عادةً ـ تكون مطعونًا بحقيقتك المريزة، مدحورًا منهزمًا، لا يطفئ نارَك ويُتْمَك المجازيّ سوى الرحيل (وهذا ما انتبهتُ إليه بعد فوات الأوان).

ثلاثةَ أطفال كنّا، وكان الحبّ لعبتنا الخطيرة.

معًا كنّا لعبةً في يدِ شامةَ، تُذيق كلَّ واحد منّا نصيبًا من السعادة، قبل أن تجفل وتخلِّفه يحاول بكلّ الوسائل أن ينال نصيبًا آخر من دهشةِ الفرح. شامة كانت داهية منذ نعومة أظفارها، استوعبتْ واقعها قبلنا، وعرفتْ كيف تجعلنا أنا وأخي ندور في فَلَكها من دون أن يخرج أيٌّ منّا عن مَداره ويرتطم بها أو بالآخر».

لعلعَ شلّالٌ من الرصاص غير بعيد، وسمعنا تكبيرًا وتكبيرًا

مضادًّا، وصرخاتٍ من يقدّ الموتُ المباغتُ قمصانَ أرواحهم. استرسلَ الأشقر قائلًا:

«إلى جانب سيرة القلبِ، يجدر بي أن أحيطكَ علمًا بأنّني تعرَّضتُ، طفلًا، للاغتصاب من قِبَل خمس عاهرات، من بينهنَّ منّانةُ، والدةُ شامة!

حدثَ الأمرُ أوَّلَ ما حدثَ حينَ استيقظتُ بعد منتصف الليل، واتَّجهتُ بخطى ثقيلة صوب دورة المياه، لكنْ سحبتني يدُ منّانة التي نتأتْ من الباب بغتة. اختطفتني وطرحتني فوق السرير. أذكر جيِّدًا أنَّ شامةَ الجميلة كانت نائمة في سرير آخر أصغر. قبَّلتني بشراهة على فمي، رقبتي، وامتدَّتْ شفتاها النهمتان صوب أماكن أخرى. كانت حالة عشق غامضة.

كنتُ خائفًا جدًّا. عيناي تراقبان بحذر شامةَ النائمة. خفت أن تستيقظ وتجد أمّها تذرع جسدي الصغير بلسانها على نحو غير لائق. أمُّ شامة، مثل حياةَ، حملتها ألسنة الفضيحة، بعد احتراق ورقة التوت بين فَخِذيها، على مغادرة قريتها حاملةً في بطنها لوثةَ غريب أصاب منها وطره. وحين زفَّتْ إليه خبر حَمْلها أشاح بوجهه عنها وولَّى هاربًا. كانت في الثامنة عشرة من عمرها حين تركت ـ مثلَ حياةَ ـ كلَّ شيء وراءها، ومضتْ تحملُ في بطنها نطفةً لن تعيشَ طويلًا.

في أرض المتخشِّبين هذه، لا أحد يتفهَّم وضعَ فتاة سُرقتْ منها عذريَّتها غصبًا أو حملتْ لوثةً في بطنها تغريرًا. تفضِّلُ العائلاتُ موتها قبل أن يحدثَ الأمر. منّانة، مثل حياة، كان يسكنها حزن عميق، وحين فعلتْ بالصبيِّ الذي كنتُه ما فعلتْ، كانتْ تكابد لوعة ما؛ حزنًا

ناهشًا أو جرحًا فتحته عنوة...

كان واضحًا أنَّها في حالة عطشٍ إلى الحبِّ، لا إلى الجنس؛ حملتُ تلك القناعة معي، على الرَّغم من أنَّني لم أجد سبيلًا إلى الاستدلال عليها، ومكَّنتُها منِّي كلَّما عضَّتها حالة الحزن... إلى أن انفطمتْ ذات يأس عن جسدي الصغير. حينَ أيقظ فحيحُها شامةَ، بكتِ الصبيَّة وسارعت منّانة إلى تهدئتها بكذبة تلو أخرى. أمّا أنا فقد هربتُ إلى ملابسي، وبعدها إلى باب الغرفة...

علاقتي بشامة انكسرتْ بعدَ تلك الليلة الشؤم، على نحو تعذَّر رأبه. صحيح أنَّنا واصلنا حياتينا مثل أيّ طفلين يسكنان منزلًا واحدًا، نمرح، ونتحدَّثُ، أحدنا إلى الآخر، لكنَّ الجرح في حنايا قلبها لم يبرأ، بل ظلَّ يكبرُ معها. كنّا توأمين وطفلة أجمل من إكليل ورد في حديقة، نكبر ولعبةُ الحبِّ بيننا تكبر، وتصيرُ أخطرَ أكثر فأكثر. مثلي كان أخي يُحبُّ شامةَ، لكنَّه يكابر ولا يُظهرُ كَلَفه بها إلَّا إذا تدخَّل لإفساد سعادتي. يا الله... كم كان يُجيد ذلك!

صدقًا، يا وليد، لا أدري إن كانت شامة، وقتَها، تلعبُ على حبلينا معًا، أم أنَّها كانت تعذِّبني به، أم التبسَ عليها وجهانا اللذان يصلان حدَّ التطابق، فاستشكل عليها الأمر وأحبَّتنا معًا؟!!

بعد عمر من التأمُّل المرهقِ والعذاب الذي لا ينتهي... أعترفُ بأنَّني فشلتُ في الإجابة عن هذا السؤال التافه. كانتْ شامة تضربُ حول نفسها منذ طفولتها هالةً من غموض ملغز: تلعبُ وتمرح معنا؛ نذهب ثلاثتنا إلى المدرسة ونجيء منها؛ نعيشُ منذ أن انفتحت أعيننا على الدنيا معًا، لكنَّها لا تُعطي مفاتيح قلبها الصغير لأحد، وتضع

عواطفها على الحياد كلّما طرقنا صاغرَين بابها العالي.

مرّت سنوات الدراسة الابتدائيَّة سريعةً. خدَّرني حبُّ شامةَ الصعبُ عن وخز واقع قميء كنت أتخبَّطُ غير واعٍ فيه. حبُّها كان أكبر إلهاءٍ، ذلك بأنَّه لا يكاد يمرُّ يوم من دون محاولة نيل رضاها. إذا اقتربتُ جَفَلَتْ وإذا جفلتُ اقتربتْ، كأنَّها تحاول أن تتركني معلَّقًا من أهدابي إلى مداراتها.

الحبُّ الذي يولَدُ مع المرء ويكبر معه أعنفُ بكثير من ذلك الذي تفتعله الهزّات القَدَريَّة، أو تقتادنا إليهِ حوادثُ الصدفة، ذلك بأنَّ الأوَّل، بحكم الألفة، يجعل الحبيب جزءًا من عالمٍ فتحتَ عليه عينيك. هو حجر زاويةِ حياةٍ راكمتها، حتى إذا اختفى فجأة هذا الحبيبُ أو تبدَّد في زحمة الأيّام، أصبحتْ بغيابه حياتُك آيلة إلى الخراب، لا تقوم لك بعدها قائمةٌ ولا قائمةُ من سيأتي بعده تسندكَ أو تَحُولُ دون امِّحائك الكامل. أتعرف معنى الامِّحاء، يا وليد؟

طيِّب... لا بدَّ من أنَّه قد عبرتْ قلبَك تباريخُ العشق، وكابدتَ ما لا بدَّ لكلِّ إنسان منه، ولربَّما أدمتْ عينيك الدموعُ في إثر ذبحةٍ عشقيَّة، ولربَّما توغَّلتَ أبعدَ في متاهة القلب وانسحقتَ، لكنَّك في الأخير لا بدَّ من أن تستفيق من غيبوبة العشق أكثرَ قوَّة، وترمِّمَ ما تهدَّم منك وتواصلَ حياتك... قد تخزُك خساراتُك بينَ الفينةِ والأخرى، ولربَّما خبا حبُّك للحياة من وقت إلى آخر؛ قد تباغتكَ أطياف سيِّئة، لكن ما هي إلَّا أوقات وينجلي كلّ ذلك الألم وفي أوردتك تتجدَّد الدماء. تلك نسمِّيها مرحلة الفطام. لم أدرك أنا شامةَ ولا بلغتُ الفطام. أبقتني «بين بين»، أنذبحُ أمامها وتغضّ طرفها عن دمي النازف. أباتتني ليلًا أحلامًا تناطحُ السحاب، حتى إذا جاء الصباحُ

أيقظتني على انهيارات صاخبة... تصِلُ بي إلى حوافِّ الحياة ولا تتركني أعيش، وتصلُ بي حدودِ الموت ولا تنهي عذاباتي الجسام.

كان الحبُّ لعبةً أدمنّاها أنا وأخي، نكابد عذاباته، ننسحقُ معًا ونتصارع أمامها كالدِّيَكة. لعبة داميةٌ جدًا انتبهنا متأخِّرين إلى أنَّنا أدمنّاها. بالقَدْر الذي كان يكبر فينا حبُّنا لشامة، كان يكبر حقدنا المتبادَل، ويتورَّمُ في روحينا آخذًا أشكالًا بين المواربة والمكاشفة.

صراعنا المجنون أخذَ منّا أكثرَ ممّا تستحقُّ شامة. كنّا كلَّما تقدَّمتْ بنا الأيّام، جرجرنا حبُّ شامة الصبيَّة، وزادنا ابتعادًا، أحدنا عن الآخر. تعاقبُ الأيّام يشحذُ الشخص الذي سنكونه ويصقله أكثر. وحين تُستهَلُّ مراهقة المرء، يكتملُ جوهرُ ما سيكونه مستقبلًا وما سيظلُّ عليه طوال حياته. وأنا وأخي وصلنا مع بدايات المراهقةِ إلى ذروة تناقضنا.

أخي... ذلك الطفل الحقود، صارَ أكثر اهتمامًا بحاله وبمظهره الخارجيّ؛ أكثرَ تحرُّجًا وثورة على واقعه المريض؛ أكثرَ حبًّا لشامة وأقلَّ خجلًا، كأنَّه من فرط ما أحبَّها أصبحتْ بالنسبة إليه اشتهاءً لا يُقاوَم. أما شامة، يا وليد... فليت الحروف تُسعفُ على وصفها كما يجب، من دون خيانات!

انفجرَ من ذلك الجسد البضّ الصغير قوامٌ فارع. جمال شامة على صباها لم يكن ليُقاوَم. أمّا وقد نضجَ هذا الجمال واكتنزَ جسدًا صقيلًا، فإنَّها تُسيلُ في ذهابها إلى المدرسة وإيابها لعابَ الكثيرينَ، وقد كلَّفني الأمر العراك تلو العراك. كان ذلك أكثر ما يزعجها فيَّ، وكانَ أكثرُ ما تحبُّه في طبع أخي لامبالاتَه؛ ذلك بأنَّهُ لن يدخلَ معركة

تكلِّفه ضياع تسريحة شعره ولو رآها تُغتصَب!

تنهّد الأشقر بعمقٍ، كأنَّهُ يُخرج في نَفَس واحد همًّا ينام في صدره. تطلّعَ إلى السقف، كمنْ يغالبُ دمعةً. التصقَ فمهُ بزجاجة الخمرِ، ثم أشعلَ سيجارةً. تفحَّصَ جرحهُ النازف، ونفثَ الدخان في سماء غرفتنا، وقد التمعتْ عيناهُ، في لحظة لا ينوف عمرها على ثانية، بذلك البريق الغريبِ، الذي انتظرتُ من دون جدوى أن يُفصحَ عن دمعة. كانَ يُمعنُ في استرداد ذاكرة الأمس البعيد.

«كان مشهودًا ذلك اليوم الذي أطلَّ فيه ذلك الشابُّ الغريب علينا من خلال برنامج ثقافيٍّ سمجٍ أبغضهُ... قالتْ حياة، وقد اغرورقتْ عيناها، إن هذا الشابّ، ويُدعى مراد «س»، كان الهزَّةَ العشقيَّة الوحيدة التي حرَّكتْ فيها كلَّ شيء... هو الذي، من قبر النسيان، أخرجَ جسدها الميِّتَ من فرط ما استُبيح، وبعثَ في رمادها العواطف...

أفهمتْنا أنَّ الشابّ الذي رأيناهُ في شاشة التلفاز كان حبيبَها الوحيدَ؛ الوحيدَ الذي أشعل فتنتها. قالتْ إنَّه كان واحدًا من رجال قائمتها؛ واحدًا من الأحد عشر أبًا مفترَضًا. بكتْ حياةُ على نحو هستيريّ؛ زغردت؛ رقصتْ، واقترفتْ طوال ذلك اليوم حماقاتٍ شتَّى، كأنَّ رؤيته أوقدتْ فيها كلَّ هَبَلها المنسيّ؛ كأنَّ ذكرياته تسَلَّقتْ شغاف قلبها كنبتة اللَّبلاب. لم تكن لتدري أنَّها بفرحتها وجنونها قد ورَّطتني في هذا الرجل، وأدخلتني دوّامتَهُ.

أخي اعتبرَ الأمرَ تافهًا لا يستحقُّ كلَّ ما قامتْ به حياة، ولاسيَّما أن فارق السنّ بينهما واضحٌ. كان في الثلاثينَ أو أقلّ، وكانت هي قد

جاوزتْ منتصف أربعينيّاتها بقليل.

كان ظهور ذلك الرجل حدثًا مهمًّا في تاريخي الشخصيّ، فبالإضافة إلى أنَّه أجَّجَ عقدة غياب الأب، فقد فتحَ أمامي بابًا لا أعتقد أنَّه كان لينفتح لي لولاه. شقَّ بحرف الدال ما بين حرف الألف والباء في كلمة «أب»، فصارتْ «أدب»!

شاهدتُ إعادة البرنامج الثقافيّ، بعد أن تعذَّرَ عليَّ بسبب ضجيج حياةَ أن أستمع إلى ما يقول. حرَّضتني على ذلك في البدء رغبةٌ في أن أبحثَ في ملامحه؛ في نبرة صوته؛ في حركاته عن أيِّ شيء يخصُّني. لم أجد ما كنتُ أرجوه، ولم أظفر من ذلك البرنامج الثقافيّ سوى بعنوان أحد كتبه.

عرجتُ صبيحة اليوم الموالي إلى المكتبة البلديَّة أسألُ عن كتابه، ثم قرأتُ ما فيه بنَهَم واضح. أستطيع أن أزعمَ بثقة كبيرة، يا وليد، أنَّ فضلَ هذا الرجل عليَّ يكمن، على وجه التحديد، في أنَّه استدرجني إلى فضاء المكتبة وصحبة الكتاب. قفزتُ من كتابه إلى كتاب آخر، وفي إثر كلِّ كتاب كانت روحي تشتعلُ، وتتوقَّدُ الجذوة النائمة في الأعماق. لكنْ، بقدر ما أنضجتني الكتب بقدر ما فتحتْ عينَيَّ. على المَباءة التي كنتُ أعيش فيها. صارت المعرفة قلقًا دائمًا، مديةً تشرعُ في القلب أكثر من حزن. مثلما أنَّ الفرحَ قرينُ الجهلِ، فإنَّ الشقاء قرينُ المعرفة.

مثلما تنجذب النحلة إلى إكليل ورد انجذبت شامةُ ـ بسبب المعرفة ـ إليَّ. رجَّح الأمر كفَّتي أمام أخي، المراهق، الغرّ، المغترّ

بجماله، وبما يتأنَّقُ به من ملابسَ وساعات وكلٍّ ما استجدَّ من تكنولوجيا. شامة باذخة الحسن رائعة الجمال، فارعةُ القوام، معدَّة لتخترقَ القلوب وتنهبَ العقول، لكنَّها، مثلما أنضجت الأيّام جمالها وجسدها، كذلك أنضجتْ حزنها. شامة ملاك حزين جدًّا، لا تحتاج إلى من يهدهد نهدها، بل من يهدهد بؤسها. لا تحتاج إلى من يُسمعها الغزل والكلام العذب، بل إلى من يستمع إلى أوتار قلبها إذ تتقطّعُ، ويُسمعها ما يصبِّرُ قلبَها على واقع نتن يحاصرها. شذَّبت المعرفة طبعي، وأهَّلتني لأكون رفيق حزنها الدائم. رضيتُ بالدور ولم أطلب المزيد. كنتُ بليدًا بحقٍّ حين اعتقدتُ أنَّني انتهيتُ أخيرًا إلى طريق يوصلني إلى قلبها!

اتَّبعتُ هذا الطريق إلى آخره، من دون أن أهتديَ إلى شغاف القلب. لم أخطئ الطريق... لكنَّها كانت بلا قلب!

مثلما كان لي خطَّة، ألجأتني إليها المعرفة، كان لأخي/آخَري خطَّةٌ تنسجمُ مع روحه، مع دناءة شخصه وخسَّته وخبث طبعه. اعتمدَ الأشقر الآخرُ الإغراء والنذالة؛ صحيح أنَّنا كنّا نتشابه جمالًا، ولم يكن لهذه النقطة أيُّ تأثير في شامة، إلَّا أنَّه مع مراهقته أبدى الكثير من التأنُّق، كما أنه لم يعدْ يوفِّرُ شامةَ. يتحرَّشُ بها أمام الملأ. لا يتردَّد في التمحُّك بها أو صفع عجيزتها كلَّما أدبرتْ، أو تقبيلها، أو اعتصار نهديها كلَّما اضطرَّها موقف إلى الاقتراب منه، لكنَّها لم تكن لتستشيط غضبًا. كانت تنسلُّ من بين يديه ضاحكة ولامبالية. «وهل تنتظرُ من ابنة عاهرة غيرَ ذلك»؛ تهمسُ حياةُ في كثير من الأحيان. كنتُ أحثُّ شامةَ على ردعه، وكثيرًا ما نبَّهت حياةَ وأمَّ شامة إلى أنَّ أفعاله تعبثُ بشرايينِ

قلبي، لكنَّني كنتُ أُقابَلُ دائمًا بضحكات هازئة. . .

موشومٌ في الذاكرة ذلك اليومُ الذي فاضتْ بي فيهِ غيرتي، بعد أنْ تحرَّشَ بها مرَّة أخرى. كانتْ ضربة واحدة لا غير برأسي. . . أرديته أرضًا، ونُقلَ في إثر ذلك رأسًا إلى المستشفى، بعد أن تسبَّبْتُ له بكسر في الأنف. منذُ ذلك اليوم توقَّفَ عن عبثه السمج. أمّا عن علاقتنا، فقد انكسرتْ كسرًا يعسُرُ ترميمه. بيننا سقط الكلام، فلا نتكلَّمُ إلَّا من خلال شامةَ أو حياةَ!

في عينيها، حينَ يعتقلني دجاهما، كنتُ أرى إنسانةً شاحبةً تقاومُ ماخورَ العهر الذي كنّا نسكنُهُ جميعًا، «سيِّئٌ أن يعلقَ قلبُكَ بابنة عاهرة. الأسوأ أن تكونَ مثلَها ابنَ عاهرة»؛ قالتْ ذاتَ يومٍ حياةُ، وقد شكوتُ إليها ما تلقاهُ روحي جرّاء الغرام وتباريحه.

شاع بين أقراننا ما فعلتُه بأخي، فازداد خوفهم منِّي وتوقيرُهم شامةَ، وتأكَّد لهم جنوني بها ومقدرتي على اقتراف أيّ شيء من أجلها. زفَّتنا المدينة الصغيرة أحدنا إلى الآخر من خلال إشاعاتها التي لا تنتهي. ولكَم وددْتُ في سرِّي لو تَصْدُقُ أكاذيبهم، لكنْ هيهات!

كزهر الزيزفون وُعودُ الإشاعات تزهر، لكنَّها أبدًا لا تُثمر!

كانت شامةُ ترقصُ على حبل فُرقتنا وحقدنا المتبادَل، تحفظُ ودَّنا معًا وتخصِّص لكلٍّ وقتَه. طبعًا، كان يغيظني الأمر يا وليد، لكن الإنسان ـ صدِّقني إذ أقولُ لك ـ إذ يُسكرهُ الجمال، الألفة، والحبّ، لا يتردَّد في ربط أقفال قلبه بمن شغفتهُ حبًّا، ويسلمُ مفاتيحها لبحر الأيّام، لكنْ ما إن توقظهُ من سكرته العشقيَّة أولى صفعات القدر، حتى ينهارَ في مكانه، وقد تأكَّد أنَّه لم يُضِعْ مفاتيح قلبه فحسبْ، بل أضاع

قلبه وحياته دفعة واحدة.

«غبيٌّ من يقعُ في شركِ عاهرة، وأغبى منه من يقع في شركِ ابنتها...» تقولُ حياةُ بمازوشيَّةِ عاملات الجنس المتقاعدات وحكمتهنّ، فأُشيح عنها بوجهي، وأجهشُ باسم شامة. كانت تعني لي الأمل والحياة، أمّا وقد أذنَتْها منّي المعرفةُ وفتحتْ لي أسرار قلبها الحصينِ، فقد تأكّدتُ من أنَّ في أعماقها ذبالةَ نورٍ تقاومُ الانطفاء، ونذرتُ نفسي لأكون فارسها ومنقذها... كم كنتُ دونكيشوتيًّا مريضًا بالأحلام التافهة وبالبطولات الزائفة!

«البطولات غير موجودة. وإن كانت موجودة، فإنَّها امتيازٌ طبقيٌّ حتمًا لا يخرجُ من بيت عاهرة». تبًّا لك يا حياة. كانت صادقة على نحو مؤلم، لكنّني لم أصدِّقها وقتها. كانت على القلب وعلى العين غشاوةٌ.

وصلنا إلى الدراسة الثانويَّة بنجاح. كبرنا أكثر، لكنَّ القلب المريض بحبّها لم يكبر. بلغَ جسدُ شامة أوجَ نضجِه. بلغ جمالها قمَّة البهاء، واستغرقتُ في العراك تلو العراك، أنهزم حينًا وأنتصرُ حينًا... فقط كي أطردَ الذئاب البشريَّة التي لا ترى فيها أبعدَ من وليمة جنس. حيثُما مرَّتْ تُسيلُ خلفها لعابَ الطامعين. ببلاهة عاشق غرٍّ، أقسمتُ لها بشرفي بأن أحميَ شرفها، وأن أدفع عنها كلَّ شرٍّ محتمل...

قاتلتُ طويلًا لأستحقَّ قلبها ولتتأكَّد من نبل عاطفتي، لكنَّني انخذلتُ وانكسرتُ بطعنتين قاسيتين. يا وليد! الطعنةُ الأولى ألجأتني إلى الانتحار. أمّا الثانية...».

ودبَّ صمتٌ مُوهنٌ في أرجاء الغرفة لا تكسره سوى أنفاس

الأشقر المتعَبة. تأمَّل السقف طويلًا وقد بدا كما لو أنَّه غصَّ بالكلمات، قبل أن تكزَّ الحروف بين أسنانه وتنطلق من فمه أقرب إلى الحشرجة:

«الثانية... أترك لك لذَّة اكتشافها إن ظلَّ في أعمارنا ما يُسعفُ على الحكي... أشمُّ روائح قادمة من بعيد، وحدهُ الشيطان يعلم ما يجري خارجًا...».

بدا كما لو أنَّه نكأ في ذاكرته جرحًا غائرًا جدًّا، برحَ مكانه إلى ثقوب النافذة. كان واضحًا أنَّه فعل ذلك ليواريَ دمعةً استعصتْ عليه، وآثرتْ أن تفضح هشاشته أمامي. التصقَ بالثقوب. تشمَّمَ الروائح النافذة منها، قبل أن يعود إلى أريكته وقد غادرتْ عينَه تلك الدمعةُ التي لا أدري على وجه التحديد إن كان قد ذرفها أم استدرجها إلى بحيرة خلف سماء عينيه.

«حياةُ لم تقل لنا أبدًا إنَّها قاتلة متسلسلة، لكنَّها حكتْ لنا، أنا وأخي، كلَّ ما حلَّ بها؛ وسالتْ من عينيها الدموع غزيرةً وهي تميط اللثام عن جرحها الأبديّ الذي دشَّنه التيه في الثلوج، والفتق الغريب الذي افترعتْهُ في جسدها تلك السيِّدةُ الغريبة.. حكتْ لنا كيف أنَّه هدم سيرتها، وأسلمها مرَّة ثانية إلى تيهٍ أشدَّ وأعنف من الأوَّل...

لم تقُل حياة إنَّها قاتلة، لكنَّها أعطتنا جميع مفاتيح الجريمة التي ذاع صيتها، وضجَّتْ بها شاشات التلفاز والجرائد الوطنيَّة. لم ينتبه أخي لأيِّ شيء، لكنَّني وجدتُ صلة بين سيرتها وطقوس تلك المجرمة. وفوق ذلك، لاحظتُ أنَّها تسافرُ خارج المدينة أيّامًا قبل رأس السنة ولا تعود إلَّا أيّامًا بعده. كان كلُّ شيء يقول إنَّ أمّي

مجرمة. بنقراتٍ قليلة على شبكة الإنترنيت، استطعتُ أن أقوم بجرد لائحة ضحاياها، وكان عددهم يفوق العشرين قتيلًا، كلُّهم سقطوا على النحو نفسه، بعدد الطعنات نفسها، وبالتوقيت نفسه، ومورستْ على الجثث الطقوسُ نفسها: طعنة في العين اليسرى، تقطير الشمع على الجثّة...

تتبُّع مسار الجرائم يتطابق إلى حدٍّ بعيد مع المسار الذي أفضتْ إلينا بهِ حياةُ. يكفي أنَّ أُولى الجرائم كانت في المدينة نفسها التي التجأتْ إليها بعد رحيلها القسريّ عن قريتها وذويها!

حياة اعتزلت مهنة الجنس حين بلغ بنا العمر اثنتيْ عشرة سنة. كانت وقتها في الأربعينيّات من عمرها، وهذا بالنسبة إلى عاملة جنس عمرٌ متقدِّمٌ تطمح كلُّ عاهرة إلى بلوغه. والحقيقة، أنَّ حياةَ ظلَّتْ تحافظ على لياقتها الجسديَّة، كما كان لها طينةٌ من الزبائن الذين أدمنوا جسدها بعد أن باح لهم بأسراره، وراقتهم طقوسها الغريبة والمحرِّضة.

تحوَّلتْ ـ بفضل قوَّة شخصيَّتها وشبكة علاقاتها التي تشملُ رجال الدرك وعصبةً من المجرمين وتجّار المخدَّرات ـ إلى باطرونة تدير ذلك المنزل الكبيرَ، وتستقطبُ إليهِ كلَّ مُهرةٍ شاردة. كانت المدينة كلُّها تعرف أنَّها إحدى أكبر المؤثّرين. تشعَّبتْ تجارتها وتجاوزتْ تجارة الجنس. كانت تُتاجر في المخدّرات (مستغلَّةً نفوذَها لدى الجهات الأمنيَّة)، وتتوسَّط للباحثين عن العمل لدى تجّار المدينة ورجال أعمالها في مقابل عمولةٍ يُتَّفَق عليها. وعُرف عنها تعاطُفُها الشديد مع بنات جنسها ممَّن هنَّ دُونَ سنِّ الرشد، وعادةً ما كانت تبحثُ عن زيجة للَّواتي توسّمتْ فيهنَّ أنَّهنَّ لم يُخلَقنَ للعيش في مستنقع.

حين بلغنا ـ نحن أطفال الأمس ـ السابعةَ عشرةَ من العمر، كانت منّانة، أمُّ شامةَ، تتأهَّبُ لمغادرة مضمارها. تهدَّلَ جسدها، وتعطَّفتْ جلدة نحرها، أمّا يداها فقد «تكرمشتا» وتغضَّن وجهها، حتى إنَّ المرء ليحار في تمييز عمرها من عمر حياةَ، على الرَّغم من أنَّ ما بينهما ينوف على العقد بقليل. لم تكنْ تعملُ بنصائحِ حياة التي تحذِّرها دائمًا من خطرِ تضميد مأساتها بالدموع والحزن. والحقيقة، أنَّ حياةَ كانت تضمِّدُ مأساتها بأشياء أخرى: القتل إذ يعتريها فُصامها رأس السنة؛ شربُ الكثير من «الماحيا»، وتدخين أفخر أنواع الحشيش. بكلِّ هذا الهبل، كانت تتحاشى حياةُ لسعَ الذاكرة... كانتا معًا مازوشيَّتين، لكنَّ حياة كانت أدهى إذ وجدتِ السبيل إلى الاقتصاد على جسدها، والخروج من حقلها القدريّ الملغوم بأقلِّ قَدْر من الخسارة!

لا أحدَ يسألُ عن مصير عاهرة حين تذبلُ زهرتها وتتهدَّلُ أعطافها. حينَ يضمرُ الجسدُ وتنهشُه بشاعاتُ الشيخوخة، تُحالُ العاهرةُ على النسيان. أذكى العاهرات تلك التي تتوِّجها حنكَتها بعدَ أن تُستهلَكَ: «باطرونةً»: تفتحُ منزلًا وتستقطبُ لهُ كلَّ مُهرةٍ شاردة؛ تزرعُ القوّادينَ في أرجاء المدينة. ومثلما تعرفُ طريقها إلى جيوبِ زبائن الليل، كذلك تعرف كيفَ تتَّقي شرَّ البوليس. تشتري ذممهم الرخيصة بزجاجات الخمر وليالي الأنس الدافئة، وفي أسوأ الأحوالِ تأمنُ شرَّهم بوشاية صغيرة بمجرم أو فارٍّ من العدالة!

الذكيّات من العاهرات المحالات على النسيان يَصِرن «باطرونات». الأقلُّ ذكاءً هنَّ تلك الحيّات، اللواتي ينجحنَ آخر المطاف في الالتفاف على ضحيَّةٍ بليدة، ويدفعنهُ إلى مباركة العاطفة الزائفة التي تورَّطَ فيها بعقدِ زواج، قبل أن تعلِّقَ الشيخوخةُ تباشيرها

على الجسد المستنزف من فرط ما تناوبَ عليه الرجال.

العاهرةُ الغبيَّةُ هي تلكَ التي تعيشُ لدنياها كأنَّها ستموت غدًا، من دون أن تحفلَ بما ينتظرُها. حتى إذا تخدَّد الوجه وامتلأ الجسدُ بالترهُّلات البشعة، انقطعَ عنها زبائنُ ليلها وانغلقتْ دونها الأبواب، ووجدت الأيادي تقذفها خارجَ المباغي والحانات والمواخير. لا أحدَ يقبلُ عاهرةً بجسدٍ مفلس، لا يستقبلُها واقعها الجديد إلَّا خادمةً في البيوت، أو مفترشةً الأرضَ تمدُّ يدًا ذليلةً للعابرين!

بين العاهرات الأقلّ ذكاءً والغبيّات صنفٌ من لاعبات النرد، يقامرن ببطنٍ أو أكثر لعلَّ ما يأتيهنَّ منه يدرأُ عنهنّ ـ حينَ يكبرنَ ـ غدر الزمان. . . وأمُّ شامة كانتْ مقامرة. العاهرات تمامًا مثل لاعبي كرة القدم: سنُّ احترافهنَّ محدودة. وأمُّ شامة فكَّرت، وإن لم تصرِّح بذلك يومًا، في أن تجعلَ من تاريخ اعتزالها بدايةَ احتراف شامةَ! مثل هذا الكلام كانت تطيرُ به الألسنة الآثمة التي لا تنفكُّ تنهشُ بالنمائم لحومَ الآخرين، حتى وإن كانوا أطفالًا.

تعبتْ منّانة، ولم تَعُدْ لديها طاقة للمزيد. فاضَ جسدُها وامتلأ بالشحوم الزائدة، واندلقت كرشها الكبيرة وتخدَّدت. أمّا الملامح، فلا شيء في تفاصيلها المتعَبة يشي بأنَّها لا تزال في الثلاثين. تضاءَل عدد زبائنها، وتضاءلتْ بذلك مواردها. كان أمرًا طبيعيًّا أن تفكِّر في ذلك النمط من التفكير المريض والآسن: لن ينقذها من شطط العيش غيرُ جسد آخر تفتَّقَ من جسدها: شامة!

تزامنَ أفولُ نجمِ منّانة مع موجةِ إشاعات انتشرتْ، عن إقبال بعض زبائن الدعارة من الرجال العرب على شراء عذريَّة فتيات

قاصرات في مقابل مبالغ طائلة. نجحتْ منّانة في الوصول إلى أحدهم، وعرضتْ عليه شراء عذريَّة شامة... تمَّ الاتِّفاق سرًّا، يا وليد: أن يدفع ذلك الرجل الهرم نحو أربعين ألف دولار لقاءَ افتضاض شامةَ، وقد علمتُ حين تحرَّيتُ في الأمر أنَّ المبلغ الذي تمَّ عرضه في بادئ الأمر لم يكن ليتجاوز خُمُسَ هذا المبلغ، لكنَّ أعيان المدينة ووجهاءها ورجال أعمالها حينَ علموا بالأمر زايدَ بعضهم على بعض: كلٌّ يودُّ أن يكونَ حاملَ لواءٍ؛ كلٌّ يودّ أن يدشِّنَ الطريق الذي ستدهكه طوابير المكبوتين والمرضى بالجنس، لكنَّ الرجل الهَرِم رفعَ المبلغَ إلى أقصاه، وأقصى كلَّ من نافسه على الظفر بقصب السبق.

علمتُ بالأمر عن طريق شامة التي التجأتْ إليَّ دامعةً، مرتبكةَ الكلمات، تتَّشحُ ملامحها بالخوف الشديد. بكتْ بجزعٍ. كانت أوَّل مرَّة أرى فيها دموع شامة، وأوَّلَ مرَّة يتَّسع مجال البياض داخلها! آمنتُ ببلادة بأنَّ شامة تحبُّني، وإلَّا لَما التجأتْ إليَّ ملتمسةً أن أردعَ جنون والدتها. كان حرصُ شامة المبالَغ فيهِ على عذريَّتها مصدرَ فرح كبير بالنسبة إليّ؛ فرحٍ يمكن أن أفعلَ لقاء دوامِهِ المستحيل. أهملتُ فورة غضبي رويدًا، والتمستُ حوارًا ودِّيًا مع أمِّها، لكنَّهُ لم يُفض إلى أيِّ تغيير. الوحيدةُ التي كان يمكن أن تكسرَ شوكتها وتردَّها إلى جادَّة الصواب هي حياةُ، لكنْ تزامن كلُّ هذا الجنون مع سفرها أيّامًا قبل رأس السنة، ولن تعود إلَّا بعد رأس السنة الجديدة (2003) بأيّام.

لأنَّ منّانةَ كانت قد تسلَّمتْ من ذلك الخليجيِّ قسطًا من تلك الأموال سدَّدتْ به ديونًا تراكمتْ عليها، فقد تعهَّدتُ بأن أسدِّد أيَّ مبلغ تطلبه في مقابل أن تتخلَّى عن فكرة بيع عذريَّة شامة، لكنَّها رفضتْ... أفلستْ كل خططي الودِّيَّة. مرَّغتُ وجهي عندَ قدمَيْ منّانةَ باكيًا متضرِّعًا

أن تُعفيَ شامة من أن تسلكَ مسلكها الشنيع في الحياة، لكنْ. . . لا حياة لمن تنادي. فزدتُ حنقًا وامتلأتِ المدينة بضجيجنا. لم يبقَ فيها صغيرٌ ولا كبيرٌ إلَّا واستجلبهُ الصخبُ إلى منزلنا استقصاءً للأخبار، وتأكُّدًا ممّا يُشاع.

كنتُ هائجًا تكبِّلني أكثرُ من يدٍ، ومثلي كانت منّانة في ذروة هياجها. . . شامة تسُحُّ دموعها الثقال، وشفتا أخي تفترّان عن بسمة ساخرة. لا أدري كيف ألحَّتْ عليَّ الفكرة، ولا لماذا سارعتُ إلى تنفيذها بكلِّ ذلك الغباء. هل لأنَّ قلب العاشق أعمى؟ ما في القلب كان أكثر من مجرَّد عمًى. كان انطفاءً تامًّا. . .

لا أدري كيف اعتورتِ الفكرة نسقَ تفكيري، وانتصبتْ يقينًا يمحقُ أيَّ يقين سواه. . . حين فاض بي العياء، واحتقنَ في الصدر هواءٌ ثقيلٌ لا يبرحُ رئتيَّ إلَّا بشقِّ النفس، وشلّتني دهشة عارمة، وصكَّ أذنيَّ صفيرٌ مجلجلٌ أخرَسَ ما دونه من ضجيج، سحبتُ من جيب بنطالي الخلفيِّ مديتي، وعلى معصمي وضعتُ جانبها الحادّ، مهدِّدًا كلَّ من اقتربَ منِّي، بصوت خشن، بأنَّ أمعاءه ستندلقُ أرضًا إذا تمادى في الاقتراب. . .

جفل الجميعُ مبتعدين. التمستُ منها دامعًا أن تنثنيَ عن الموضوع مهدِّدًا بقتل نفسي، لكنَّ منّانةَ كانت أحقر من كلب. هزَّتْ ذراعيها مفتعلةَ اللامبالاةَ، فتطلَّعتُ إلى شامة الجميلة؛ شامةَ الباكيةِ وقد شقَّ وجهَها خَيْطان من كُحلٍ ساحتْ بهما الدموع ـ لم يزدها ذلك إلَّا رونقًا ـ. شامة أجملُ وهي باكية. كان ذلك أكثر ما شجَّعني على أن أضغط على المدية، وأتأمَّل ببلاهة الدماء وهي تطيش من معصمي. . .

أدركتني في طريقي إلى الأرض تلك المرأةُ الشؤم. طفحتْ أوردة معصمي بدمائها، ولا أدري لماذا عاودتني ـ وأنا بين ذراعيها أبحلق بخشوع في عينيها ـ تلك الأحاسيسُ السرِّيَّة الغامضة المشوبة بلذَّة غريبة لتلك المرأة التي كانتْها منّانة؛ تلك التي كانت تمرُّ بلسانها وشفتيها على جسدي وتمُصُّ أصابعي وكلَّ ما نشزَ من جسدي بشَبَق غريب.

كانت تلك الذكريات تلوب في مخيِّلتي بأدقِّ تفاصيلها كحلمٍ ملحٍّ، وكان آخر عهدي بالحياة ليلتها أن رأيتُ أخي باديَ البهجة وهو يراقبني وأنا واقف بين الحياة والموت. رأيتها دامعة العينين، وقد فهمتُ من حركات شفتيها أنَّها تلتمسُ الغفران. . . أمّا عن ذاكرتي الشمِّيَّة، فلا أدري لماذا علقتْ برائحة أمِّي الغائبة. كانت روائحها قريبة جدًّا، لكنَّ صاحبتها كانتْ أبعد ما يكون عن هذه المدينة!»

هزّات عنيفة

توقَّف الأشقر عن الكلام المباح. كان كمن ضربَ له الموتُ موعدًا وتخلَّف عنه، فلا يدري أيمدُّ حبلَ انتظاره، أم يواصلُ حياته كأنَّ ذلك الموعد لا يعنيه؟

الثانية والربع بعدَ الزوالِ. أصوات المعارك لا تتوقَّف إلَّا لتندلعَ مرَّة أخرى. كانَ أأْمنَ لنا أن نظلَّ في الشقَّةِ، لأنَّها ضمنَ الشقق التي تمَّ تمشيطها (وإن كان ذلك بغباء واضح). ونحنُ في مأمنٍ إلَّا من أمرين: متسلِّلي العدوّ الطامعين في كلِّ نفيس مهمَل، أو القذائف العمياء والقصف العشوائيّ التي يُراد بها الترهيبُ أكثر ممّا يراد بها القتل.

نزعَ الأشقر عن جرحه ما لفَّه به من خِرَق. كان منظر ذلك الجرح شنيعًا. فوَّهة كبيرة معفَّرة برماد السجائر ومضرَّجةٌ بالدم، وبُقَع احتراق شفّافة تضمرُ أكياس قيحٍ سرعان ما يسيل إذ يتفحَّصها الأشقر بسبّابة يده. للمرَّة التي ما عدتُ أذكر رقمها، أقول إنَّ جرح الأشقر لا

يذكّرني سوى بذلك الثقب الشاسع الذي افترعتُهُ في رأس تلك الفتاة التي لم يفارقني ظمأُ رؤية وجهها. حين أرديتها حاولتُ أن أفعلَ، لكنَّ «الأخ الكبير» زجرَني بقوَّة ناهرًا إيّايَ، فَوَجْهُ المرأة عورةٌ ـ على حدِّ تعبيره ـ متناسيًا أنَّنا في صدد جثَّة مُطفَأة الأنوثة.

أكثر ما أثار استغرابي أنَّها كانت حليقة الرأس، حتى إنَّني اعتقدتُ أنَّها ذكَرٌ متنكِّرٌ في زيِّ أنثى، لولا أنَّه تبيَّنَ لي من اتِّساع حوضها أوَّل ما أَقْعَتْ أمامي، ميلُ جسدها إلى بنات جنسها، وقد أكَّد لي «الأخ الكبير» ذلك محدِّثًا إيّايَ عن فساد حياتها وقبح سيرتها، ثم عدَّد لي ما اقترفَتْ من عهر وفسوقٍ استحقَّتْ جرّاءهما القتل. أحسَسْتُ بأنَّ في كلامه مبالغةً يُرادُ بها إضفاءُ شرعيَّة على جريمتي والتخفيف من وطأةِ عذاباتي النفسيَّة.

لا مناصَّ من قتلها، وإلَّا قُتلتُ. لم يقل ذلك صراحةً، لكنْ أحسستُ بذلك. كنتُ كلَّما اقتربَ مسدَّسي من رأسها انذبحَ الضمير داخلي بسكِّين مثلومة. في الأخير، استطعتُ أن أضغط على الزناد؛ استطعتُ أن أفتح في غمرة دهشتي العارمة ثقبًا في قحف جمجمتها. أنَّتْ على نحوِ خافتٍ، وتهادتْ ببطءٍ لحظاتٍ قبل أن تنكفئ على وجهها كمخمور بلغ سقفَ سُكْره، من دون أن يجد إلى جانبه حائطًا أو شخصًا يسندُ عجزه. تشقَّقَ قلبي وقتها، لكنَّني افتعلتُ على مرأى من «الأخ الكبير» رباطةَ جأش، واكتسبتُ عن جدارة ـ يقول «الأخ الكبير» ـ شرفَ الانضمام إلى جيش الله في الأرض. لا يدري أنَّني لحظةَ هتكتُ جمجمة تلك الفتاة قد كفرْتُ بالربِّ وطلَّقتُ أوهامه.

أستطيع أن أزعمَ عن تجربة ـ وقد يسند الأشقر رأيي ـ أنَّ أصعب ما في تحوُّل الإنسان إلى قاتل محترف هو البدايةُ؛ هي أكثر ما

يعلَقُ بالضمير. كلُّ ما يأتي من جرائم بعدها ليس إلّا امتدادًا مأساويًا لها وتذكيرًا ملحًّا بها. كلَّ مرَّة إذ أفتح ثقبًا في جسدٍ أو أنحرُ جِيْدًا، أستعيد بألم واخزٍ تلك الفتاةَ، كأنَّ جرائم القتل كلَّها قد توحَّدتْ في الجريمة الأولى، أو لكأنَّ الجريمة الأولى قد اختزلتْ مفاهيم الجرم وعذابات الضمير.

الأشقر يقطِّبُ جرحه بسيجارة تسافرُ بين شفتيه وساقه، ويهتزُّ من حين إلى آخر لمّا يعضّ الوجعُ ساقَه. لا يخفِّفُ بؤسَه غيرُ النبيذ الذي لا يدري أيَّ قَدَر كريم جاد به على معطوب مثله. فكَّرتُ وقتها، وذكريات جريمتي الأولى تنثالُ عليَّ، لو أسأله عن جريمته الأولى وعن أحاسيسه في إثرها، وهل يحملها داخله مثلي جثَّةً من وهمٍ، أم أنَّه تحرَّرَ من الإحساس بالذنب؟ لكنَّني، إذ لاحظتُ تمزُّقاته جرّاء ما يكابده من ويلات الكيِّ، آثرتُ أن أؤجِّل سؤالي ريثما يهدأ ويهدأُ تمرُّد جسده عليه.

ندَّتْ عن شفتَيِ الأشقر بسمةٌ ساخرة، لا أدري ما الذي حرَّضه عليها، وأيَّ ذكرى سرقتْ منه هذه البسمة؟ كلّ ما في هذه الأرض ومَن في هذه الأرض يعيش على الذكرى. سقط عناق السين بالفعل المضارع. كلُّ جميل هو بالضرورة مرتبط بالماضي. أمّا كلُّ قبيح أو قبيح محتمل، فإنَّما هو عالق بتلابيب الحاضر والمستقبل... وهذه قناعة راسخة ليس فقط عند ضحايا الحرب، بل عند ممتهنيها أيضًا.

«كنتُ أصغر من أن تصيبني بارجاتُ الموت وقذائفُهُ. بحجم نملة كنت. كلَّما اهتزَّت بها قنبلة طارت مع نثارها واستقرَّتْ على الأرض سالمةَ الزجاج كاملةَ الأعضاء. أصغرَ من موت أهديتُه شبابيَ قربانًا كنتُ، وأكبرَ من حادثة القدر السخيفة. حين نزفتُ ما يكفي من دمٍ

لأتَّشحَ بالغياب، غبتُ؛ ارتخَتْ أعضائي؛ صرتُ وسادةً أُفرغَتْ من لَبَدها، وانطفأتُ في بؤبؤ ظلمة ملحَّة.

غرّرَ بي صوتُ عبدِ الحليم حينَ غنَّى:

«قد ماتَ شهيدًا يا ولدي

من مات فداءً للمحبوب»

كنتُ سعيدًا، لأنَّني أموتُ لتعلمَ هي بأنَّه لا يحبُّها أحدٌ مثلي. أرأيتَ أهبلَ ممَّن يهبُ حياته برهانًا لصدق مشاعره؟

لحظتَها، ما كان ليضيرني أن أموتَ حفاظًا على شرفٍ أرادتْ هي ألّا يُستباح. مجرَّدُ رغبتها في الأمر أشعل أملي فيها، وأكّدَ لي أنَّ ذبالة النور التي تقبع في أعماقها لم تكن وهمًا زيَّنته لي تباريح الحبِّ؛ ذلك بأنَّ العشّاق ممَّن لا يُعْتَدُّ بأحكامهم إذا تعلَّق الأمر بالمحبوب، فهم يرون أجمل ما فيه وأكثرَ ممّا فيه. ثورتها، إذ قرَّرتْ أمُّها أن تشرِّعَ فخذيها تحتَ مقصلة الواقع، أكَّدتْ أنَّها لا تستحقّ أن تَرِثَ عنها مهنتها الحقيرة.

استفقتُ بعد أن تحاشى الموتُ ارتمائي البليد في أحضانه، واستبقتني الحياة. أصابني القرف أوَّل ما فتحتُ على سقف المستشفى عينَيَّ. وسرقَني من وحدةٍ تمرُّ بمقصِّها الرديء على الروحِ صوتُها الواهن؛ حشرجاتُ صوتها المختنق تطلبُ غفرانًا ملحًّا على ما ليس لي به علم. استدرتُ ببطء صوبها.

كانتْ شامةُ مثلي على سرير المرضى. رأيتُ وجهها المهشَّم. تورَّمت عيناها، وانتشرت في بقيَّة نحرها وأنحاء من ذراعيها بُقَعٌ خضراء تميلُ إلى الزُّرقة. قدَّرتُ أنَّ مقاومتها لقرارات أمِّها قد كلَّفتها

كلَّ هذه الخسارة. وبقدر ما تألَّمتُ من أجلها، فرحتُ في أعماقي لأنَّها قاومت.

لم تكن تردِّد غير عبارات الغفران في إثر كلّ سؤال أو استفسار. كانت تُجيبُ بصوتها المتعَب: «سامحني». لم أدرِ علامَ أسامحها بالضبط، لكنَّني منحتها من قلبي كلَّ الغفران.

ما كان أغباني حقًّا!

لا تمنح، يا وليد، غفرانك إلَّا بعد أن تجلوَ أسبابه، قد تسامحُ ـ من دون أن تدري ـ مَن أشرع بغدره ثقبًا في ظهرك. أخبرتني الممرِّضةُ بأنَّني لبثتُ مغيَّبًا عن الوعي لثلاثة أيّام، وأنَّني لولا مراهقةٌ غريبة ـ آثرتْ ألاَّ تذكر هويَّتها ـ أسعفتني بدمها لكنتُ في خبر كان. فقد اعتذرَ أخي النذل عن إسعافي بحجَّة واهية: أنه يخافُ الحقنَ الطبِّيَّة. كان يحملُ في قلبه مذ لفظنا إلى الحياة رَحِمٌ واحد، بذرةَ كره تجاهي، لكنْ عندما كسرتُ برأسي أنفه، وعنجهيَّته المريضة، سقيتُ بذرة الكره، فاستحالت في ظرف قياسيّ إلى شجرة سامقة وارفة الظلال.

سألتُها إلى أن تعبَ السؤال، فلا تردُّ غصَّة الحنق في جوفي إلَّا بطلبات الغفران. تكرِّر كلمة «سامحني» كلازمة، المرَّةَ تلو الأخرى، كأنَّها دميةٌ بُرمجتْ على تكرار كلمة واحدة. تُرى، من فعل بالوجه الجميل ما فعلَ؟

ما لحق وجهَها من رضوض وتورُّمات كان ممّا تعجزُ أمُّها عن اقترافه! لحظتها تفاقمَ خوفي. . . صرتُ أكثر إلحاحًا في السؤال، وصارتْ أكثر إلحاحًا في التماس الغفران.

لم تطفئ حربنا الكلاميَّة سوى أمّها التي باغتتنا. كانت حالُها مزريةً، تشي بأنَّها رزحتْ تحتَ وطأة أيّام عجاف. لم تجرؤ لا شامةُ ولا أمُّها ولا حتى أخي على إخباري بما حلَّ بعد انطفائي، لكنَّ الناس في تلك المدينة لا يكفُّونَ عن ترويجِ النمائم والإشاعاتِ. والعاهراتُ حينَ تغيب حياةُ تبورُ تجارتهنَّ، فيقعدْنَ قرب عتبة المنزل بألبستهنَّ الشفّافة الفاضحة يلُكْنَ بساديَّةٍ سيرةَ هذه أو تلك. وكانت حكاية منّانةَ هي السيرة الرائجة أيّامها. كلمة من هنا وأخرى من هناك. وتأكَّدَ لي بهتانُ ما ذهبتْ إليه شامة من أنَّ ما حلَّ بها كان بسبب أمّها.

«دائمًا ما تجدُ الكذبةُ من يقشّرها كموزة، ويقدّمُ إلى المعنيّ بها الحقيقةَ الثاوية خلفها...» تقول حياة.

في الليلة التي تخلَّصتْ فيها منّانة من صداع الطفل الحالم بالحبِّ العفيف، والتضحية، والأحاسيس الورديَّة التي لا تساوي ثمن بصلة، اقتادتْ ابنتَها شامة إلى قصر الخليجيّ الذي استقبل بفرحِ فاتحٍ سبيَّتَه الفتيَّة. نقَدَ أمَّها نصفَ ما اتَّفقا عليه، وألبس ضحيَّته القاصر أروعَ فستان. راقص مزهوًّا طفولتها الباكية. وفي الهزيع الأخير من الليل حين أغمد مديته فيها المرَّةَ تلو الأخرى من دون أن ينكسر في أعماقها شيء، أعاد المدية إلى قرابها، وصمَّمَ على أن يرى الدماء التي لم تَسِل من فرجها تطفرُ من كلِّ جسدها. ولولا أنَّ حرّاسه انتبهوا لضجيجه، لتَرَكَتْ على سريره حياتَها.

حين زُفَّتْ إليَّ الحقيقةُ، كلُّ الحقيقة، لم أفكّر في هويّة من قطفَ ورقةَ التوت، بل قفزتُ إلى قصر الخليجيّ. طلبتُ لقاءَه، لكنَّ عسَسَهُ لم يأذنوا لي بذلك. استشطتُ غضبًا. حاصرتُ منزله بالحجارة. كسرتُ نوافذ السيّارة وزجاجها، وكسرتُ رسغ أحد حرّاسه، قبل أن

ينالوا منّي ويوسعوني ضربًا ويسلّموني بعدها إلى رجال الدرك. هناك، لبثتُ أيّامًا سجينًا إلى أن عادتْ حياةُ من سفرها، وحرّكتْ دوائرَ نفوذها وأخرجتني.

في السجن، انتبهتُ إلى السؤال الذي كان يجدر بي أن أنشغل به بدلًا من التفكير في الثأر لها على نحو أرعن: من ظفر بالدماء، دماء شامة؟ كان السؤال يتحرّك في رأسي ككمشة ديدان تحفر في كلّ اتّجاه.

كدتُ أعود إلى الزنزانةِ نفسها بجريرة أثقلَ، لولا أنَّ كاريزما حياةَ حالتْ دوني ودون أخي. هاجمتُه وأنا على يقين بأنّه هو لا غيره من قطف وردة شامة، لكنَّ يقيني سرعان ما تقهقر أمام دموعهِ التي قرأتُ فيها الصدق. تفاقمَ عنفواني بعد أن حجبتْ منّانة عنّي ابنتَها. كانت شامة وحدها تملك الحقيقة... سألتها كثيرًا بعد أن رمّمت الأيّام وجهَها، وأذنتْ لها أمُّها بالخروج، وألححْتُ في السؤال، لكنّها كانت كلّما سألتها قفزتْ متبرّمةً صوبَ موضوع آخر.

ثم جاء اليوم الذي ثُرتُ في وجهها بغضبٍ. هاجمتُها بحثًا عمّا أُطفِئ به سعيرَ السؤال. هشّمتُ وجهها وأنا أستنطقُها. وفي اللحظة التي اعتقدتُ أنّني هيّأتها للاعتراف، قبيلَ انطفائها، منحتني أسعد حدثٍ في حياتي. من رَحِم الوجع، والدمُ يملأ وجهها ويسيلُ من أنفها، وقّعتْ على شفتيَّ أجملَ قبلة. التحمتْ شفاهنا على دمٍ يسيلُ، وتعانقتْ في شفاهنا حلاوةُ القبلة وملوحةُ دمها...

كانت تلك القبلة... يااااه... كانت أصدقَ قبلة وأكثر قبلةٍ تعلّقًا بحبالِ الحواسّ. لم يغبْ عنّي مذاقُها ولذّتُها السرّيّةُ وملوحتُها، على

الرَّغم من الهزّات العنيفة التي داهمتنا. . .

لم أملك حظَّ الخليجيّ ولا أمواله، لأنسلَّ من الجريمة مثلما تنسلُّ «الشعرة من العجين». أهملتْ حياةُ صوتَ الأمومةِ، وآثرتْ أن تعاقبني بالتخلّي عنّي في الزنزانة إلى أن أتأدَّبَ. لبثتُ في السجنِ شهرًا كاملًا، وحين انسحبتُ لم أطالب بمعرفة قاطفِ الزهرة. كانت قد لجمتْ جماحَ السؤال بأعنف قبلة.

في الحياة، أشياء نستطيع أن نتوقَّف عنها، وأخرى أقوى من إرادتنا مهما بدتْ قويَّة. لعلَّ حبَّها كان من النوع الثاني. كانت سنة بكالوريا، وكنّا ثلاثتنا أمام محكٍّ حقيقيٍّ. عاد الودُّ بيني وبين شامة، وقرَّبتْ بيننا الدراسة، وابتعدتْ عن كلِّ تلك الخطط السخيفة التي رسمتْها لها أمُّها، ولاسيَّما بعد أن تحمَّلتْ حياةُ مسؤوليَّة توفير الحياة الكريمة لمنّانة وابنتها.

كثُرَ الذبابُ المحوّمُ حولها، حينَ شاع بين الناس خبرُ ضياعِ بكارتها. اضطرَّني الأمر إلى ملازمتها. ثمارُها الدانية الطافحةُ كانت تُسيلُ لعاب رجال المدينة، أمّا وقد أصبحتِ الطريق بين فخذيها معبَّدة، فإنَّها أصبحتْ إغراءً لا يقاوَم.

قد أكون ملاكًا عديم الرجولة إذا ادَّعيتُ، يا وليد، أنَّني لم أكن أُستثارُ بها وبجسدها الفتنة، لكنَّني لم أكن لأفكِّر فيها كعاهرة. كانت قدِّيستي التي أحبُّها وأُعدُّها على نار هادئة مشروعًا للزواج (ما أسخفَ الفكرة، يا وليد، وأسمجَ هذه الكلمة)! أمّا عن كيفيَّة تدبير شؤوني الجنسيَّة، فلا يُخفى عنك، يا وليد، أنَّني كنتُ أعيشُ في وسط عاهرٍ. وفي مسعى حياةَ إلى التخفيف من حدَّة العواطف التي كنتُ أكنُّها لشامة

ولجمِ حبّي الجارف لها، كانت تحاصرني بمومساتها، بل تمدُّني فوق ذلك بعلبة العازل الذكريّ! لم أكن أرى فيما أقوم به مع أولئك العاهرات أبعدَ من استمناء ضروريٍّ يكبحُ شهوتي وتفكيري الآثم في تدنيس الجسد المقدَّس. كنتُ بليدًا محدود الطموح، يا وليد.

ما زاد صدمتي بها، وبالحياة ككل، أنَّ رباطنا لم تَزده تلك الأيّام إلّا تماسكًا. قرَّبتْ بيننا الدراسة كثيرًا، وأبعدَتها عن أخي. انحلَّتْ في حبِّها أطرافي وعواطفي. شعرتُ مع اقتراب نهايات السنة الدراسيَّة بأنَّ بذرة مشاعر ما تنمو في أحشائها، وأنَّني أعدَدتُها بحبِّي الكبير وتضحياتي الجسام للَّحظةِ التي انتظرتها طويلًا... صارتْ أكثرَ إقبالًا على الحديث معي؛ أكثرَ تبسُّطًا في طرح المواضيع؛ أكثر تودُّدًا إليَّ واحتماءً بي. يمكن أن أزعمَ أنَّ تلك الأيّام كانت هي الأحلى.

حين أستعيد هَبَلَ تلك الأيّام، أكاد أجزمُ بأنَّ شامةَ لم تهبْ ذلك الفيض من السعادة إلَّا تنويمًا لضميرها، وتكفيرًا عن جرحٍ كانت تحفره في الظهر من دون أن أدري. لا تأتمنْ، يا وليد، من ينقلبون فجأةً إلى ملائكة طيِّبين، وتفقَّدْ ظهرَكَ جيِّدًا. قد تكون نائمًا على جرح لا يصحو ألمُه إلَّا بعد فوات الأوان».

انفجرَ هزيمُ الرعدِ على نحوٍ مباغتٍ، لكنَّهُ لم يُخرس ضجيجَ الغارات ولا جلبةَ المتناحرينَ. كانَ واضحًا أنَّ غيمةً ما امتطتْ صهوة المدينة، ولا بدَّ من أن تُمطر.

أمّا ما حدثَ قُبيل امتحانات البكالوريا، يا وليد، فقد كان قطعة زمنٍ استُلَّت من الجحيم. ما حدثَ، يا صديقي، هو كلُّ ما لم أتخيَّل مرَّة أنَّه سيحدثُ. أتعرفُ وطأة اللامُفكَّر فيه!؟ ما حدثَ كان القيامةَ

كلَّها. نخطئ حينَ نعتقد أنَّ الربَّ سيجمعنا يوم القيامة ويُلقي علينا حكمته الأخيرة، ويتاحُ لكلٍّ واحد يومها أن يندسَّ من شدَّة الخوف خلف الآخرين... لكلّ واحد قيامته التي قد تبتدئُ من الحياة، ووحدَهُ الربّ يعلمُ إن كانت ستنتهي بموته أم لا. وأنا ذقتُ نصيبيَ الأكبر من القيامة. أستطيع أن أزعمَ، بثقة، أنَّني هاربٌ من قيامتي!

ما حدثَ فائض عن الكلمات والحروف. يعسُر جدًّا أن أرقعَ فراغ ذهنك ممّا حدثَ ببضعِ كلمات لا تقول مجملَ تمزُّقاتي وأوجاعي. تصوَّر، يا وليد، أنَّك تفترشُ أحلامًا ورديَّة عمّا تريد من الغدِ، ترسُمُ لنفسك هدفًا ونقطة وصول، لكنَّكَ تستفيق عاريًا حافيًا وقد جرجرتْ سيّارةُ القدر جسدَك، وسحقتْ أشلاءكَ على أزمنة أيّام رديئة...

قد أبالغُ، يا وليد، إن قلتُ إنَّني كنتُ من بين أوائل ضحايا العولمة وهي تضع قدمها الثقيلة في الجنوب! قد يبدو كلامي لأوّل وهلة سمجًا سخيفًا يدعو إلى الازدراء. قلّة هم من لُدغوا من الجُحر الذي لُدغتُ منه على أيّامي. لكنْ على أيّامنا هذه، يبدو أنَّ الأمر استفحشَ على نحو خطير. لن أقولَ إنَّ التقنيَّةَ التي غزت الجنوب أيّامها هي مأساتي، بل إنَّها ـ بتعبير أدقّ ـ عدسةٌ كبَّرتْ مأساتي وهوَّلتْ أبعادها...

قبيلَ امتحانات البكالوريا، في تلك المرحلة التي كنتُ أعتقد فيها أنَّ عواطفَ شامةَ نضجتْ؛ في تلك الأيّام المشحونة بالآمالِ العظيمة والحبِّ المتبادَلِ الجارف والاعترافات الخجولة، رأيتُ شيئًا غريبًا في عيون مَن حولي!

العيون لا تخون الصدق، يا وليد. نظراتٌ غامضة ملغزة، تليها همسات مكتومة لا أستبينها، حزنٌ غامض فيها أو شفقةٌ لا داعيَ لها. وكنتُ كلَّما حاولتُ استنطاقَ عينينِ أشاحَ صاحبهما بوجهه عنِّي، كأنَّه يُضمرُ فضيحةً يتحاشى أن يكون أوَّل من يميطُ اللثام عنها. تأكَّدَ لي أنَّ في الأمر خَطْبًا ما جَلَلًا، من خلال حزنِ شامة المفاجئ وانقطاعها غير المبرَّر عنِّي، ومن خلال إلحاحِ حياةَ على مطالبتي بالسفر، وتأجيل اجتيازِ الامتحانات، متذرِّعةً بحجج واهية، وأخيرًا من خلال سفر أخي الغامض والمفاجئ.

تلك المدينة ـ تلبسُ مثلَ كلّ المدن العربيَّة جبَّةً حضريَّة، لكن من دون أن تخلع جبَّة القبيلة ـ بقدر ما تبرع في النميمة، تعرفُ أصولها وتُجيدُ إخفاءها عن المعنيِّين بها، حتى إنَّ المرء قد يكتشف أنَّ المدينة لاكَتْ سيرتَه، وجرى الحديثُ عنهُ جريانَ الماء بين الأزقَّة في يوم عاصف، من دون أن يدري... كانت عيونهم تبوحُ، لكنَّني لم أكن أملك عرفانَ صوفيٍّ لأقرأها. أمّا الألسنة، فإمّا خرساء وإمّا منافقة، لا تقولُ إلَّا المبتذَل العقيم...

إلى أن جاء اليوم الذي اكتشفتُ فيه الحقيقة. لم تكن غيرها، تلك الفتاة الغامضة التي أسعفتْ جسدي بدمائها، وآثرتْ ألّا تصرِّح بهويَّتها، هي نفسها التي أسعفتني بالحقيقة من دون أن تكشف عن نفسها. دسَّتْ في حقيبتي المدرسيَّة رسالة مقتضبة، حين انشغلتُ بعراك افتعلتُه مع أحد الخصوم لعلِّي بذلك أستفزُّه، فينفث في وجهي السرّ الذي بتُّ متأكِّدًا من وجوده.

«لا تصدِّقْ صمتهم، فوحده يقوم دليلًا على الحقيقة، لأنَّك تستحقُّ الحبَّ؛ تستحقُّ أن تعرفَ الحقيقيَّ من المزيَّف في مشاعر

مقرَّبيك... على شبكة الإنترنيت، تجدُ شريطًا فاضحًا يعنيكَ. يكفي أن تقرنَ على الإنترنيت بين كلمة «فضيحة» واسم مدينتنا حتى تكتشف كلَّ شيء... المخلصة أبدًا «فتاة الدم».»

حفظتُ الرسالة من فرط ما أعدتُ قراءتها. في الطريق إلى أقرب مقهى إنترنيت (cyber)، جلستُ إلى حاسوبٍ وأنا أرتجفُ وجسدي، حتى لتكادُ تخذِلني قواي... كنتُ خائفًا جدًّا... ارتبكتْ أصابعي فوقَ لوحة المفاتيح، وبدتْ أناملي ثقيلة وهي تسافر بينَ الحروف النافرة التي لا تريد أن تسلِّمني طوعها... أكملتُ أخيرًا العبارة مثلما أشارتْ «فتاة الدم»، وطالعني الشريط...

يحدثُ كثيرًا، يا وليد، أن يشتهي المرء عدم المعرفة إذا كانت ستُدميهِ. قد عبَّر أوديب على لسان درويش عن الأمر جيِّدًا: «ما حاجتي إلى المعرفة...؟» ما أجمل ما كنتُ منعَّمًا فيه من غباء وجهل.

كانا عاريين تمامًا؛ أخي وشامة!

على سريرِ والدتها، يصوِّرُ هو بهاتفه المحمول جسدَها العاري، وهي تدورُ حولَ نفسها في قمَّة الفرح، قبل أن يضع الهاتف في زاوية قريبةٍ ويلجأ مثلها إلى السرير. التحما معًا في لحظات جسدٍ لم تدم طويلًا، ثم عادَ سريعًا إلى الكاميرا بعضوٍ متغضِّن رخوٍ كحلزون هجرَ قوقعته. بلَّلتْ دموعي لوحةَ المفاتيح، واستقرَّ في جوفي إحساسٌ أقرب إلى الغثيان...

هكذا، يا وليد، انتهى كلُّ شيء دفعةً واحدةً، وإلى الأبد!»

خذلتِ الأشقرَ دمعةٌ، كفكَفها بمعصمه الأيسَر، الذي انتبهتُ إلى

أنَّهُ لا يزالُ محتفظًا بنُدبة تتعلَّقُ بمحاولة انتحاره... حاولتُ أن أضمِّدَ جرحه بعبارة مواساة، لكنْ تخلَّى عنِّي الكلام. كلُّ كلمةٍ في حضرة كلِّ هذا الشجن مبالغةٌ في الإيلام ونكء الجراحِ... واصل بعد ابتعاد ضجيج طائرة عسكريَّة:

«أووه يا وليد! أيُّ جنون يدفعني إلى أن أطفئ سجائر البوح في جرحي العنقائيّ الذي لا يلتمُّ إلَّا ليتفسَّخَ مرَّة أخرى. إن كنتَ صدَّقتَني حين قلتُ إنَّني أجدُ في البوح تميمة ضدَّ الموت، فلا بدَّ من أن تصدِّقني إذ أقول لك مرَّة أخرى إنَّني أجد في الجراح النفسيَّة الغائرة التي تستثيرها حكايتي مخدِّرًا للألم الجسديّ! نعم، لا يُخمدُ الألمَ الكبير إلَّا ألمٌ أكبر!

في ذلك اليوم اللعين، تأكَّدتُ من حقيقتي... دقيقتانِ هما عمرُ الشريط وهما كلُّ نصيبي من الحقيقة، والدراهم التي قذفتها في وجه ربِّ مقهى الإنترنيت هي ثمني؛ هي كلُّ ما أساويه في الحياة. أتشعرُ بما أشعرُ به، يا وليد؟ هل تشعر بنصف ما أشعرُ به ؟ طيِّب... بالربع؟ لا تَقُلْ شيئًا، يا وليد، فالناس مهما بلغ بهم العطف... فإنَّهم في الأخير ذواتٌ مستقلَّة، لها حياة مستقلَّة. ومثلما يحدثُ أن ينتزعَ منهم مشهدٌ حزين في فيلم، أو فصلٌ مأساويّ من رواية، دمعةً أو أكثر، كذلك يمكن أن تنتزع منهم حكايةُ واحدٍ مثلي دمعةً. يكون الأمر تعاطفًا، لكنَّه مبطَّن بخوف من أن تعترضهم المأساة نفسها... لا أحدَ يبكي من أجلِ سواه. كلّ دمعة تسيلُ هي رثاءٌ استباقيّ أو تميمة نتمنَّى أن تقينا بطشَ الزمن!

سرتُ في الشارع. أواجه النظرات الحادَّة التي تخرم روحي الشريدة بالدموع. فهمتُ سرَّ احتجاب شامة؛ سرَّ إلحاح حياةَ على

السفر وسرَّ هروب أخي... تأكَّدتُ من أنَّني ضعتُ؛ ضعتُ في ثقب الحزن الأسود ولا أمل في استعادتي... سرتُ في الشارع أنزف الدمع. رأيتُ الناس يرشقونني بنظرات مبطَّنة بالشفقة... رأيتهم يتأمَّلون دموعي النازفة. كنتُ قد انفصلتُ عنِّي كثيرًا؛ فالروح والعواطف والوجدان في أدغال من الدهشة الحادَّة التي خلخلتْ بعنف نسقَ التفكير. أمّا الجسد، فقد خارتْ قواه دفعةً واحدة من دون أن يتخلَّى عن صاحبه. وحدها عيناهُ تفضحان هشاشته المفرطة وقابليَّته للانهيار في إثر أتفه سبب...

سعداءُ أولئك الذين تمتصُّ أجسادُهم الصدمةَ فينطفئون، وعن الحياة والوعي يغيبون، ولو موقَّتًا. كم تمنَّيتُ لو يمنحني جسدي السلامَ بموت مفاجئ أو انطفاء موقَّت. ما أتعسَ الوعيَ المرَّةَ تلو الأخرى بهول الصدمة! حزينًا كنتُ وأنا أستعيدُ التفاصيل القاتلة، وأُذبَحُ بشفرتها المثلومة باستمرار.

لا أدري، على وجه التحديد، كم لبثتُ في ذلك الشارع، ولا كيف انتهيتُ إلى ذلك الخلاء البعيد تمامًا عن المدينة؟ جلستُ فوقَ قطعة إسمنتيَّة ناتئة مطليَّة بالأحمر والأبيض، كُتِبَ على ظهرها بخطٍّ أسود بارز اسمُ مدينتنا وأسفله «4 كلم». حينَ تحترقُ بمن تحبُّ قلوبُنا، وتتضرَّجُ سيرتهم وحياتهم بالدم الذي طاش من أوردتنا، تكون نقطة النهاية قد انكتبتْ من تلقاء نفسها، ويكون الحبّ قد ذُبح فينا للمرَّة الأخيرة، وإلى الأبد...

تبقى محاولة وصف ما حلَّ بي في إثر ما رأيتُ (وما رأت المدينة والعالم) فاشلة، لكنْ إليك أثرها... تضعضعتْ حالتي النفسيَّة، وأُصبتُ بهزال شديد في أيّام معدودة. حياةٌ، منّانةُ، شامةُ والمدينةُ،

وكلُّ من توقَّعَ أنَّني سأثور وأقلب الدنيا رأسًا على عقب، رقُّوا لحالي وأشفقوا على ذبولي السريع. ولولا تلك الحقنُ التي كانت تستقرُّ على ظهر يدي، كلَّما غبتُ أو نُقلتُ إلى المستشفى، لَما استطاعَ جسدي الضئيل أن يواصل الحياة. فقدتُ القدرة على الكلام، وامتدَّتْ بي عرامةُ الدهشة أيّامًا بحالها، لا تلوب في مخيِّلتي سوى أطياف ذلك الشريط، تنقضُّ عليَّ فأتعذَّبُ بها، وأتقلَّبُ على جمر ألم نفسيٍّ رهيب.

لم تطبِّب ألمي روائحُ النّدّ والبخور، ولا الفقهاءُ والمشعوذات، ولا الدجّالون، ولا دموعُ حياةَ ـ التي كان من النادر أن تجودَ بها ـ. لم أكن حيًّا على وجه التحديد، ولا ميِّتًا، بل بين حياة معطوبة وموت منقوص. كنتُ مقيمًا ببؤبؤ البلاهة، على صراط موتي ترنَّحتُ طويلًا من دون أن أسقط. الحمَّى حينَ تشرع في نهش المرء، فإنَّها لا تتركه إلَّا جِلدًا على عظم، من دون أن يكون ذلك أثرها الوحيد؛ تترك في الروح خللًا ما غامضًا يصمُّ بضوضائه الأذنَ ويشلُّ سائر الحواسّ.

كانَ نبضي على سرير الحياةِ واهنًا، وعلى شاشةِ أيّامي كنتُ أرى ذلكَ الخيط لا يكادُ يرفعُ رأسهُ حتى ينبطحَ. كانَ لا بدَّ من صعقةٍ لينتعشَ النبضُ. كانَ لا بدَّ من صفعة قَدَريَّة أخرى لتصحوَ روحي الخامدة وينامَ غضبي. حدثَ ذلك شهرًا بعد التيه الداخليّ الكبير ـ أصبتُ بالذهول، حين استفقتُ على حقيقة أنَّني نزفتُ من العمر شهرًا في غيبوبة الصدمة ـ. كان آخر عهدي بالحياة مشاهدتي ذلك الفيديو ـ الصدمة؛ لذلك، وفور بزوغي كفجر جديد من سديم الصدمة، اندفعتْ تلك المشاهد الخليعة في الذهن، فشهقتُ ثم صرختُ ـ كطفل يستقبلُ الحياة ـ وبكيت. حدث ذلك بعدَ أن اقتادت حياةُ خطايَ كضريرٍ صوب رجل صالح، يُسمَّى «سيد الزين». كان

شيخًا صوفيًّا ذا لحيةٍ بيضاء كثَّة، نحيلَ الجسد حدَّ الضمور، تبدو على وجهه علاماتُ الزهد والتقوى. وجهٌ نورانيٌّ مجلَّل بلحية كثَّة بيضاء وشعر أبيض لا تجد فيه شعرة سوداء، بمجرَّد أن تقع عليه العين ينشرحُ لهُ القلب، ويحسُّ المرء في حضرَتهِ بخفَّةٍ آسرة، ويداهمه يقينٌ مفادهُ أنَّ الحياة، على الرَّغمَ من كلِّ شيء، جميلةٌ. أحسستُ في حضرته بالأمان وبحلاوةٍ ما غريبة وآسرة. . . وبقدر ما كانت ظواهر الأمور تقول بأنَّ الأمر برمَّته دينيّ محض، بقدر ما كنتُ أحسُّ بأنَّه أبعد ما يكون عن ذلك.

حين اقتحمنا على الشيخ المهيب خلوتَه، التي لا نور فيها إلَّا بهاؤه وقليلٌ من الشموع، اقتربنا منه بحذر. وحين انتهينا إليه، نَهَجتْ حياةُ بنحيب ثم جفلتْ من مجلسه، وولَّتْ صوب الباب هاربةً. لم أفهم ما حدثَ على وجه التحديد، لكنَّني في كلمات الشيخ القليلة وجدتُ تفسيرًا على قَدْر من الصواب. قال لي:

ـ قد أكون مرآة للقلوب، فلا يرى فيّ الآخرون إلَّا حقيقتَهم، فقلبك هو ما تراه. . . فكيف تراني؟

لم أُجب. . . ولم أحاول. سقط الكلام عن اللسان مذ حدثَ ما حدثَ. لكنَّ لغة السرِّ سَرَتْ بيني وبينه، تأكَّدتُ من ذلك حين قال:

ـ تمامًا. . . قلبك نور على نور، لكنَّك في طريق شائكٍ تسير. . . أنت نقطة ضوء إلى إخمادِها يسعى الجميع. . . تحملُ في قلبك سرًّا كبيرًا. . . ستخبطُ بقدمك أرض الله الواسعة مضطرًّا، ولن تهدأ قدماك إلَّا بالموت. حافظْ على ما في قلبك من نور، بذلك فقط سترى النور في كلِّ ما حولك ومَن حولك. وتذكَّر «أنَّ علامة البلوغ هي قُدرة المرء على الغفران». . .

وبترتْ حياةُ كلامه الجميل، إذ اقتحمتْ خلوته متناشجة، وسحبتْني من يدي ومضتْ بي. لم تكفَّ طوال الطريق عن التذمُّر والشتم، واصفة الشيخَ ومريديه بأقذع الصفات.

ما كدنا ننتهي إلى المنزلِ حتى اعترضتْنا دوريَّةُ الدرك! لم أفهم، إلى حدود ذلكَ اليوم، إن كان الشيخ الطيِّب هو مَن بكلماته العذبة وصفائه انتشلني من غيبوبتي النفسيَّة، أم أنَّ ذلك الصخب الذي شهدته بعد انسحابي من حضرته هو الذي فعل! استغرقتْ حياةُ زمنًا ليس باليسير في الحديث معهم، قبل أن يتركوها دامعةً ويتوجَّهوا صوبي. . . حُطَّت الأصفادُ على معصمَيَّ وجرَّتني الأيادي ـ على الرَّغم من أنَّني لم أُبدِ أيَّ مقاومة ـ صوب السيّارة.

في مخفر الدرك، كان حضور سرب من كبار الضبّاط يشي بأنَّ الخطب جللٌ. هناك، وبحضور حياةَ، أنهيتُ صيامي الاضطراريّ عن الكلام. بعد أن سألني أحدهم إن كنتُ أنا مَن ظهر في الشريط الفاضح ـ فالأمر التبسَ عليهم أمامَ تكتُّم شامة وفرار أخي والشَّبَهِ الذي يصل إلى حدِّ التطابق بيننا ـ أسعفني الصوتُ أخيرًا، فأجبتُ بمازوشيَّة مفرطة «نعم». كانتْ هذه الـ «نعم» اعترافًا بأنَّني من صَوَّر الفيديو، وأنَّني من قام بنشره. اندلع صوتُ حياةَ هائجًا يفنِّدُ ما قلتُ، فنَدَّتْ عن شفتيَّ بسمةُ زهوٍ، لا أدري ما الذي دفعني إليها على وجه الدقَّة!

ولأنَّ الشريط الفاضح كان قد تعدَّى الحدود الضيِّقة لمدينة الزبل التي كنّا نعيشُ فيها، وتفشّى كمرض بينَ الناس، وسافرَ عبر التقنيَّة صوب عوالم بعيدة، ولأنَّ كلَّ ما يتعلَّق بالجنس يجد صدًى طيِّبًا في النفوس وتطربُ له القلوب، ولأنَّ مثل هذا الشريط كان أيّامَها لذَّة نادرة جدًّا، فقد أصبحَ قضيَّة رأي عام وطنيَّةً أسالتْ مدادَ الصحافة

الرديئة، واستشاط لها غضبُ جموع المواطنين الذين ندَّدوا بفسوقهِ علنًا، واستمنوا وهم يشاهدونَه سرًّا.

في إثر الهرج الذي أثاره الشريط، آثرتِ الدولة، كعادتها، استعراضَ عضلاتها بقطع دابر المفسدين بتطبيق القانون! وأنت، يا وليد، تعرف تلك الأسطوانة المشروخة التي لا تنفكُّ الأنظمة تكرِّرها عبر نشرات الأخبار، وتلك الخطب التي تحبكها جيِّدًا، لتشغل بها الرأي العام عن القضايا الحقيقيَّة...

هبَّةُ الريح الخفيفة استحالتْ رويدًا رويدًا إلى عاصفة هوجاء، لم تستطع حياةُ بحِيَلها ورجالها ونفوذها في المدينة أن تعيدها إلى قمقُمها... نصحها الجميع بالتراجع إلى الوراء ريثما تهدأ العاصفة، لأنَّ التمادي قد يلفتُ انتباه ما ترسله العاصمة من لجانٍ وأسراب صحافيّين إلى تجارتها، ولن ينتهيَ الأمر بانهيارها هي فحسب، بل بانهيار مافيا الإتجار في المخدِّرات واللحوم البشريَّة في المدينة.

ما زاد الطين بلَّة بعد اعترافي المفاجئ، هو أنَّني كنتُ قد جاوزتُ سنَّ الثامنة عشرة بأيّام وقتَ الجرم المفترض، لذلكَ عوملتُ بناءً على هذا الأمر معاملةَ الراشد، في حين كان ينقصُ شامةَ أيّامٌ لتصل إلى سنّ الرشد القانونيّ، فسقطتْ عنها التهمُ وعوملتْ معاملةَ القاصر!

لا أُخفيك، يا وليد، أنَّني وجدتُ في التهمة التي تشرنقتُ بها سلوةً، عزاءً ما، ولذَّةً سحريَّة كذلك. لم أكن خائفًا البتَّة. أعتقد أنَّني منذ ذلك القرار، فقدتُ صلتي بإنسانيَّتي وبالخوف وبالأحاسيس البشريَّة العاديَّة. كانت حياة تلحُّ في زياراتها وتتوسَّلُ أن أتراجعَ عن اعترافاتي أمامَ القاضي، وأفتحَ للمحامين نافذةَ إغاثة، لكنَّني أبديتُ ممانعة

شديدة. كلُّ ما كنتُ أرجوه منها هو أن تحضر لي فقط قائمةَ كتبٍ دوَّنتُها على وريقةٍ تافهة: كتب لدوستويفسكي، كافكا، سيوران، نيتشه، بيكيت وآخرين.

حكمتِ المحكمة حضوريًّا، بعد تنازل الضحيَّة عن حقِّها في المتابعة القضائيَّة، بسنة حبسًا، منها ستَّة أشهر موقوفة التنفيذ، وغرامةٍ ماليَّة باهظة، تحمَّلتها حياةُ. لم يكن الحكم بريئًا ولا عادلًا، بل كان واضحًا أنَّ حياة قد حرَّكتْ أفخاذ جيشها العاهر، وقد نقلتْ لي الألسنة الآثمة أنَّ لفيفًا من حسناواتها قد انتقلنَ في جنح الليل صوب منزل القاضي ذي البطن المدلوق والرأس الأصلع المكوَّر، بعد سفر زوجته، ومكثنَ لديه أسبوعًا كاملًا.

لم يكن ما عشته طوال الشهور الستَّة سجنًا على وجه التحديد، فقد أقمتُ وحيدًا بجناح خاصّ مكوَّن من زنزانتين، مفتوحة كلّ واحدة منهما على الأخرى... يصلني إليه الأكلُ وعلبُ السجائر والكتب.

كانت وحدةً صحيَّة تلك التي منحني إيّاها السجن. أكاد أجزمُ بأنَّه لولا تلك الكتبُ التي اهتديتُ إليها، بفضل ذلك الشابّ الغريب الذي قد يكون أبي بنسبة 99 في المئة، لكان قد جُنَّ جنوني حقًّا. بها عرفتُ أنَّ في العالم أشياء فظيعة تضاهي ما رأيته من فظائع. تعلَّمتُ من أصدقائي الورقيِّين أنَّ الحياة بنت كلبٍ، لا تزرع شتلاتنا في بطون الأمَّهات إلَّا لتختبر بنا جبروتَها وقدرتَها الشرسة على البطش بنا. الموتُ، هذا المآل العظيم، هو أملنا الوحيد لئلّا نَنْسحق أكثر. «منذ البويضة هي لعبة الموت». لم يكذب سيلين أبدًا. لكنْ خانتني شجاعة الانتحار، فاخترتُ الكتابة. كانت أُولى كتاباتي في السجن. خانني وقتها الأسلوب، لكنْ لم تخنِّي الإرادة...

لم أنسَ الجرح الغائر الراقد في الأعماق، ولا حقدي العارمَ على الخونة، لأنَّني فقدتُ إيماني بالحياة، بالعائلة، بالأخلاق والقيم، فقد كنتُ مستعدًّا لأقترف أشنع الجرائم بدم بارد. . . وإذا كان بالزاك قد أقرَّ بأنَّ أوَّل تحوُّل للمرء هو الحبّ، فإنِّي أضيف أنَّ ثاني تحوُّلٍ للمرء هو الخيانةُ، وثالثَ تحوُّل له هو الجريمة. . .

لا أدري، على وجه التحديد، متى انبلجتِ الفكرة في رأسي، ولا كيف؟ كنتُ مدحورًا مغيَّبًا لشهر كامل، لكنَّني إذ أهديتُ نفسي إلى السجن وحملتُ عن النذل جريرتَه، أحسستُ بأنَّني تخفَّفتُ قليلًا من الألم وهدأت عواصفي الداخليَّة. في قرارة نفسي، كنتُ أستشعرُ في طباعي النفسيَّة شذوذًا من نوع ما، لكنَّني كنتُ أستلذُّ الأمر وأجد في تعذيب نفسي، بتذكُّر الأمر واستحضار أبسط تفاصيله، لذَّةً غريبة وتحريضًا غير معلَن على تنفيذ تلك الفكرة ـ اللوثة، التي وحده الشيطان يعلمُ من أين تسلَّطتْ عليَّ، وجثمتْ كمخاطِ عطنٍ بين شقوق الدماغ.

ينبغي لي، قبل أن أُطلعك على بنت الشيطان هذه، أن أُشيرَ إلى بضع ملاحظات، على رأسها أنَّني، إذ كنتُ أشاهد الشريط الخليع الذي كان بطلاه كلاًّ من شامة وأخي، أحسستُ للحظات ـ أكرِّر للحظات قد لا يتجاوز عمرها مجتمعة الثانيةَ ـ بلذَّة جنسيَّة قبلَ أن تطفح العين بمائها، وتندلع الجنازة داخلي! في النفس، في أعماق النفس البشريَّة، الكثيرُ من الحقارة، وكنتُ كلَّما تذكَّرتُ الأمر سَرَتْ في جسدي رعشةُ جنس غامضة، وأحسستُ بمزيج من اللذَّة والخزي. . .

كما أورثتني تلك المَشاهد الفاضحة حقدًا على شعرِ عانةِ شامة

غير الحليق. كان شعرًا أسود كثًا أثار داخلي قرفًا شديدًا... كان جسدُ شامة شهيًا، طازجًا ومفعمًا بالحياة، حين كانت تتسربلُ في تلك الثياب الشفّافة الجميلة التي كانت تهديها إليها الـ «ماما حياة». جسدٌ طافح الثمار، سامقٌ، فارع الطول قد استوى ونضِجَ، وكانت تلك الملابس أحلى طبقٍ يقدَّمُ فيه. أمّا وقد رأيتُ أعطافها العارية تتثنّى في ذلك الشريط، فلم تكن أكثر من أرطال لحم... في أولئك الصبايا اللواتي تقدِّمهنَّ إليّ حياةُ مَن هنَّ أشهى وأرشقُ منها. كانتْ غابةُ الشعر الأسود فوق عانتها أكثر ما أثار اشمئزازي، وحفظه لاشعوري المريضُ.

يمكنُ أن أزعمَ أنَّ إمعاني في الذكرى وتأمُّلِ الشريط كان بداية جنون استمرَّ لحدود اللحظة. ألا يقيمُ وجودي هنا، ضمن أشنعِ تنظيمات العالم الإرهابيَّة، دليلًا على جنوني المتأصِّل الذي عرَّته الخيانة وما استتبعتهُ بالضرورة من أزمات نفسيَّة بالغة التعقيد؟

تحوَّل التفكير في الثأر إلى هَوَسٍ، والهوسُ إلى تخطيط... كان الأمر الوحيد الذي يقلِّلُ من وطأة الآلام النفسيَّة، التي لا أنفكُّ أكابدها صباحَ مساء، هو التفكير المُمِضّ في أن أهتديَ إلى طريقة أنتقمُ بها من كلِّ أولئك الذين دقُّوا في القلب مساميرَهم، ووخزوا الروح بأشواك خيانتهم المسنَّنة.

وحده الانتقام كان يستلُّ من شفتَيَّ ابتسامةً لا تليق بهما، ويستوقف مدَّ الحزن المستفحش في الأعماق، ويستدرجني إلى غبطة نشاز وأنا أُذيقهم، في الخيال، صُنوفَ التعذيب. لكنَّني كنتُ أنهجُ بالنحيب كلَّما عدتُ إلى واقعي، ولا شيء ممّا تخيَّلته تحقَّق...

بيني وبين ما أريد قُضبانُ السجن فقط. لقد ضاعتْ حياتي. سواء هلكتُ أو امتدَّ بي العمر طويلًا، الأمر سيّان عندي. ما زلتُ، يا وليد، إلى حدود اليوم، على قناعة بأنَّ حياتي قد انتهتْ في إثر ما جناهُ أخي عليَّ، وأنَّ الموتَ الذي ذبحَ فيّ أكثرَ من وريد قد تماطلَ، تماطل أكثر ممّا ينبغي له!

توقَّف الأشقر عن الكلام بغتة، ثم اشرأبّ. أدارَ رأسه صوبَ جميع الجهات، يتشمَّمُ الأجواء قبل أن يتناهى إلى مسمعينا معًا وَقْعُ أقدامٍ تعتلي السلالم. احتزبَ مسدَّسه مثلما فعلتُ، ولحقَ بي يعرجُ. اتَّكأ مثلي على الجدار، ووقفنا ننتظرُ وصول الوافدين. كان الباب مخرومًا فتحتْ فيه رصاصاتُ البليد الذي عبر قبلهم أكثرَ من ثقب. همسَ الأشقرُ «إنَّهم ثلاثة مسلَّحين»، وتنهَّدَ بعمق في الوقتِ الذي تحرَّكتْ يدُ مقبضِ الباب بعنف، وتهامسوا قبلَ أن يدفع أحدهم الباب بعنف!

أطبق على الشقَّة صمتٌ موهنٌ، كان يحلِّقُ فيه الموتُ بجناحيه الشفّافين باحثًا عن فريسة تستقرُّ على ظهرها مخالبُه الناهشة. كان هدوءًا ملغومًا بخطر الموت المفاجئ. أحسستُ بانكماش مزعج في أعضائي الجنسيَّة، وقلقتُ، لأنَّ هذا الوسواس عادةً ما يباغتني حين يحفُّني الموت من كلِّ جانب، وينقصُ من تركيزي في مواجهة الرصاص المتربِّص بي. لكزني الأشقر، وأومأ بأصابعه مشيرًا إلى أنَّ واحدًا من المسلَّحين الثلاثة قادمٌ. تململَ، وفي لحظة مجنونة تلصَّصَ من طرف الباب على الوافدين، وانطلقتْ من مسدَّسه رصاصة مجلجلةٌ، عمَّ في إثرها الهرجُ في الشقَّة. انسحبنا معًا من الغرفة في اللحظة نفسها. لعلعَ رصاصنا في كلِّ اتِّجاه، ولم يهدأ إلَّا بعد أن أردينا

المسلَّحين الآخرين أرضًا. قتلَ الأشقر الجريحُ اثنين، وقتلتُ واحدًا. لحظتها فقط، جلوتُ أسباب تعلُّق «الأخ الكبير» به وسرّ تمتيعه بصلاحيّات جمَّة؛ إضافة إلى صفات الفارس الشجاع، كان وجوده ضرورة تكتيكيَّة. قراءاته لساحة الحرب لا تخطئ، وحواسُّه ـ وخصوصًا حاسَّةَ الشمّ ـ ترى ما لا يراه الآخرون...

مضى الأشقر صوب الباب ينطُّ برِجل واحدة. بعد أن آلمه الجرح في ساقه وعاوده النزف، أغلق الباب بإحكام، ثم عاد إلى الغرفة حيثُ مكثنا. راقب النافذة طويلًا قبل أن يعرجَ نحو الطاولة ليستقدمَ مديته. أمّا أنا، فلم أكن أملك وسط ذهولي والحصار الذي تفرضه عليَّ مخاوفي سوى مراقبته في صمت.

فتَّشَ ملابسَ الجثَّتين، وسحبَ ما في جيوبهما. كانت تبدو على ملامحه أمارات الحزن الشديد وهو يفتَحُ محفظةَ واحد منهما، واكتظَّتْ عيناه بالدموع وهو يتأمَّلُ صورةً لفتاة صغيرة لم تبلغ السنوات السبع بعدُ. لا بدَّ من أنَّها ابنة الجثَّة النائمة على مقربة منه! امتصَّته دوّامة الحزن، ومعه سحبني صوب أقاصي الشجن. لم أستفق إلَّا على صوته المختنق؛ قال كما لو أنه يتحدَّثُ إلى نفسه بصوت مسموع:

ـ «آه... يا شامة، لماذا؟!»

جريمةُ عشق

«متى يكفُّ العالم عن إنجاب الأطفال الوديعين؟ متى تكفُّ النساء عن إنجاب موتى المستقبل؟ متى تفهم البشريَّة أنَّنا محكومون بالزوال؟ متى تفهمُ الطبيعة أنَّ لعبة الولادة والفناء أضحتْ أسمجَ لعبة خالدة؟»

قالها الأشقر بحزن بالغ وهو يتحسَّسُ بإبهامه المضرَّجة بالدم والقيح الصورةَ الوديعة للطفلة التي برصاصاته يتَّمها، ثم انتصبَ واقفًا، أغرق يده في جيبه واستلَّ مديته، وانحنى على ضحيَّته الأولى، وخطَّ برأسِ المدية الحادّ الرقمَ 123 على جبينها، وعلى جبين ضحيَّته الثانية الرقمَ 124. قال بصوت ثمل، وهو ينطُّ عائدًا إلى الغرفة:

ـ «أزهقتُ 124 روحًا، من دون احتساب تلك التي خلَّفتها كسيحة تقاوم الموت، ولا تلك التي أسقطْتُ عليها القذائف من بعيد، لأنَّني لا أدري على وجه التحديد كم عددُ ضحاياها. 124 قتيلًا هذا كلُّ نصيبي من لعبة الإبادة. هو عدد هزيلٌ إذا قارنّاهُ بملايينِ الرؤوسِ البشريَّة، وأطنان البراز التي تحمله في بطونها، وبحرِ البول الذي يسيلُ

منها يوميًّا. 124 جريمة قتل، هذا كلُّ نصيبي. وأنت يا وليد؟»

ـ في رصيدي جريمةُ قتل واحدة! هي الجريمة الأولى... كلّ مَن سقطوا بعدها ليسوا إلّا امتدادًا مأساويًّا لها. تلك الجريمة التي اختبرَ بها «الأخ الكبير» ولائي للتنظيم، تذكر؟! لقد تركتْ في القلب نَدْبًا لا يمَّحي. لم أنشغل بعدها بالعدّ، فقد أُصيبَ عدّادي بعطبٍ وتوقَّف عند الرقم 1. في إثر جرائمي ـ وهي كثيرة في أيِّ حال ـ مثلَكَ ينقضُّ عليَّ حزنٌ عميقٌ مبطَّنٌ بأطياف تلك الفتاة التي أرديتها بطلقة واحدة. في كلِّ جرح غائر لا أرى إلّا أشباحَ تلك الفتاة... تمنَّيتُ فقط لو رأيتُ وجهها، شبعتُ منهُ، بدلًا من أن أحملَ لغزه معي على الدوام.

ـ كان خيرًا أنَّك لم تفعل، وإلّا لكان عذَّبك وجهها أكثر!

ـ أأنتَ مثلي تحملُ معك ضحيَّتكَ الأولى، وتختزلُ بها القتل ومفهوم الجريمة؟

أشاح الأشقر بوجهه عنِّي. تأمَّلَ السقف. كان واضحًا أنَّ رمالَ الذاكرة المتحرِّكةِ تبتلعه وتعود به إلى أزمنته الغابرة. قال بعد أن تنهَّدَ:

«مضتِ الشهور الستَّة سريعةً، أمضيتها بين قراءة نهمة وتخطيط للجريمة وإفراط في التدخين. كنت أستهلكُ علبتَيْ سجائر يوميّا. امتصَّتني دوّامة السواد؛ ضَمُرَ جسدي؛ شحبتْ ملامحي، وتخفَّفتُ من كسوةِ اللحمِ التي كنتُ أشبه بها أخي...

وحينَ لفظني السجن، لم أستسلم ليدِ حياةَ وهي تجرُّني بإلحاح إلى المنزل الآسن. كانت جذلة وهي تعلنُ لي بفرح بالغ أنَّ خروجي من السجن عيدٌ، وأنَّها ستدشِّنُ بهذه المناسبة أوَّلَ مشروعٍ لها خارجَ

تجارة اللحوم البشريَّة: مقهى «كولومبيا»؛ مقهى باسم بلد اشتهرَ بتجارة المخدِّرات، فهمتَ يا وليد؟

أصرَّتْ حياةُ على أن أعود معها. لكنّها أمام إلحاحي، أذعنتْ لقراري. دسَّتْ في حقيبتي حفنة أوراق ماليَّة، وعلى قميصي تركتْ خارطة دموع قبلَ أن تنزعَ من هاتفها شريحته، وتضعه في حقيبتي، وهي تلحُّ على ضرورة أن أشتريَ شريحة في أقرب وقت، وأن أمدَّها بالرقم لتطمئنّ!

لم أبتعد على الرَّغم من أنَّني أعلنت أنِّي راحل عن المدينة. اكتريتُ غرفة مفروشة في حيٍّ منزوٍ، وطفقتُ أرتِّبُ لانتقامي. زرتُ الصوفيَّ الزاهد «سيد الزين» أكثر من ثلاث مرّات، لعلّه يعالج بعبقِ كلماته عطبي النفسيَّ، فكانَ كلَّما رمَّمَ ما تهدَّمَ من شخصي عدتُ إلى هدمه بالتفكير المقيت في الانتقام. في الشهر الذي أعقب خروجي من السجن، بلغ الصراع بين الخير والشرِّ داخلي ذروتَه. «سيد الزين» هو الوحيد الذي كان يقدرُ على إيقافِ تلاشي خلاياي في بوتقة الشرِّ وتضخُّم عُقَدي النفسيَّة، فقط لو أنَّ زوّاره سمحوا بذلك. تتعالى كلماتهم الساخطة كلَّما تجاوزتُ في حضرةِ بهائه عشرَ دقائق، كلٌّ يريد مجالستَه لوقت أطول.

ما بين زيارة وأخرى، كان اعتلالي النفسيّ يتفاقمُ، ومن تجاويف الذاكرة تنسحبُ الأشباح المعذّبة. وحده «سيد الزين» كان يهدهد بأصابعَ من ندى مَرضي النفسيَّ، ويهربُ بي بعيدًا عن «أنايَ» المريضة بشتَّى الأحزان... زيارة بعد أخرى، فإذا وهجُ كلماته يخفتُ، وإذا بهاؤه يضمحلُّ وتتبدَّلُ هيئته نحو الأسوأ. ذكَّرني، وأنا أنسحبُ لآخر مرَّة، بالقاعدة التي حفظتها عنه في أوَّل لقاء:

ـ ما أنتَ إلّا ما تراني. . .

قلتُ:

ـ أنت سوءٌ يزدادُ سوءًا.

قال:

ـ أنتَ سوءٌ يزدادُ سوءًا!

أجابني بحقيقتي. كان الشيخُ مرآةً للباطن، وكانَ باطني يزداد سُوءًا يومًا بعد يوم. لم أشأ أن أعود إليه، لأنَّني كنتُ خائفًا من أن أراه على هيئة لا تسُرُّني. كانت بقعةُ الضوء داخلي قد انطفأتْ تمامًا حين اكتملَ في الذهن سيناريو الجريمة. أعرفُ تفاصيلها. دسسْتُ عيونًا في الحيّ، أغلبهم قوّادون ترسلهم حياة لاستجلاب الزُّبُن من المناطق البعيدة. كان شراءُ ذممهم سهلًا، كما أنَّ المهامّ التي أوعز إليهم بها تافهةٌ ولا صلة لها بنيّاتي. في الغالب تتعلَّقُ بنقل الأخبار.

وكان من جملة الأخبار الصادمة التي أجَّجتْ جذوة حِقدي، عودةُ أخي من تغريبته الاضطراريَّة، وقد أشاع بين الناس أنَّه بريء من الشريط الإباحيّ، وأنّني أنا صاحبه، مثلما حكمت المحكمة. أمّا الخبر الذي هزَّني بعنفٍ، ومرَّغَ قلبي في أوحال الحزن، فهو أنَّ شامةَ. ـ التي من فرط ما أحببتُ، فتحتْ بمشرطِ الغدر جرحًا غائرًا في القلب ـ شامة. . . حبلى!

تقرَّر ـ وفق ما بلغني من أخبار ـ زواجُ أخي بشامة، وقد أشاعتْ حياة بين الناس أنَّ أخي الفاضل قد تطوَّعَ لإصلاح ما أفسده أخوه الأرعن (أنا)، وذلك بالزواج بالضحيَّة. هكذا تبرقعَ أخي بكسوة الملاك البيضاء، وعُيِّن فوقَ ذلك ربًّا لمقهى «كولومبيا»!

ضجّتْ بي الخيبة. اخترتُ أن أعجِّلَ خطَّتي قبل أن يجدَّ جديد يفسدُ عليّ كلَّ شيء. ليلة الخميس هي أنسبُ توقيت للتنفيذ، لأنَّه يوم عطلة بالنسبة إلى سماسرة البغاء الذين يملأون الشوارع والأزقَّة. أمّا روّاد المواخير، فإنَّهم ينقطعون عنها استعدادًا لصلاة الجمعة. كما تسافرُ أغلبُ العاهرات لزيارة الأهالي في هذا اليوم، على أن يستأنفنَ عملهنّ ليلة الجمعة. لكنْ ما شجَّعني أكثر على تعجيل التنفيذ هو أنَّ «أحدَ العيون» أكَّدَ اعتلال صحَّة منّانة وسفرها للعلاج.

كانت ليلة ليلاء، لا يمكن أن تشبهَ، في أيِّ حال، بقيّةَ الليالي. . .

سرتُ بتؤدة صوب منزلنا، بعد أن تأنَّقتُ في ملبسي على غرار أخي، وحرصتُ ـ زيادة في التمويه ـ على تسريحة شعر جميلة، لكنَّني لم أصادف في الطريق أحدًا. حين دفعتُ الباب اندفعَ من دون أن أكون في حاجة إلى أن أحرِّك المفاتيح النائمة في جيبي. لم تكن حياة في غرفتها. كان نور غرفتنا المشتركة أنا وأخي مضيئًا، بينما نور غرفةِ حياة وشامة كان مطفأً. قدَّرتُ أنَّ الثلاثة مجتمعون في غرفة أخي، فاستمهلتُ توقي المجنون إلى تنفيذ الخطَّة، وأهملتُ الخوف الذي بدأ يتصاعدُ داخلي. تسلَّلتُ بخطًى حثيثة صوب السلالم الداخليَّة وانتهيتُ إلى غرفة حياة. أشعلتُ المصباح الصغير بيديَّ المرتجفتين، وفتَّشتُ دُرجها. أخذتُ علبةَ الذهب الثقيلة، التي أعرف جيِّدًا أين تضعُها. كنتُ أحفظُ الرقم السرِّي البليد لخزنتها السرِّيَّة (1111)، والذي لم تتجشَّم مشقَّة تغييره.

إلى جانب الذهب الذي حشوتُ به جيوبي، عثرتُ في الخزنة على المديَة؛ المديَة ذات اليد المذهَّبة الأنيقة التي تغيبُ بغيابِ حياة

وتحضر بحضورها. انتبهتُ للأمر منذ زمن مبكر، وكنتُ على ثقة بأنَّها، لأسباب نفسيَّة أجهلها، تستعملُ هذه المديَة في مأدبة القتل السنويَّة. انسحبتُ من غرفتها مخافةَ أن تباغتني، والتجأتُ إلى المرحاض المظلم. لم أُطبق بابه بل تركتُ شقًّا أتلصَّصُ منه على ما يحدثُ. آلمني كثيرًا أن تتناهى إلى مسمعي ـ أنا الواقف في مرحاضٍ يضوع بالروائح النتنة ـ ضحكاتُهم الصاخبة. كان بينهم فرحٌ مشاع، وكنتُ وحيدًا أتخبَّطُ في صراع مرير لا أستحقُّه! أتدري أنَّني وددتُ، يا وليد، لو أبارك تلك اللحظات بدمع أنزفه، لكنْ هيهاتْ! جفَّ مَعين الدمع. حزَّ في القلب ذلك الموقفُ، يا وليد، وفي القلب ترك نَدْبًا آخر، وظلَّ وَشْمًا في الذاكرة، كلَّما تذكَّرته استفزَّ مدامعي من دون أن يسفرَ ذلك عن بكاء.

وأخيرًا، حدثَ ما اشتهيت. هل كان حظًا أن تسير الأمور على ذلك النحو؟ لا أعتقد. كلُّ جريمة تجد دائمًا شيطانًا يذلِّلُ لها الطريق! من الغرفة، انسحبتْ شامة ضاحكة يسبقها بطنها المنتفخ. كانت أجملَ في تلك الملابس الفضفاضة المحتشمة، وديعةً كعادتها... سارتْ الهوينى صوبَ غرفتها ثم أُغلقَ دونها الباب. سارتْ ببطء ووداعة. دار المفتاحُ في رَحِمِ القُفل، وانتابتني في الأعماق مشاعرُ متباينة أشدَّ التباين. يحدثُ ـ نادرًا ـ يا وليد أن يستشعرَ المرء الكرهَ مخلوطًا بالحبِّ. كنتُ كلَّما جأَر الحبُّ في الوجدان وجدتني عن غير وعي أصمُّ عنه أذنَيَّ، فيتورَّمُ أسفلَ لهاتي حقدي العارمُ. تسلَّلتُ على رؤوس أصابعي إلى غرفتها. كانت مضطجعةً على السرير حين فردتُ المديَة في سماءِ غرفتها، وأخرستُ بتهديداتي الهامسة محاوَلَةَ صراخها. دنوتُ منها فجفلتْ، إلى أن التصقَ ظهرها بخشب السرير، ثم نزفتْ دمعة

أتبعتها بدمعات أخرى وهيَ تشدُّ بكلتا يديها على بطنها، كأنَّها تخاف على ما فيه من أن يندلقَ في لحظة الخوف!

كم كنتَ، يا وليد، محظوظًا حين منعك «الأخ الكبير» من رؤية الخوف الطافح على وجه ضحيَّتك الأولى. كنتَ ستحملها ذكرى بشعةً، وبها كانت عذاباتك ستتفاقمُ أكثر!

ارتبكتْ كلماتُ التوسُّل في فمها. لم تكن هي نفسها شامة التي أحببتُ وتمنَّيتُ أن تلتصقَ حياتها بي إلى أبد الآبدين، ولم تكن كذلك تلك الساقطة المتهدِّلة الردفين والكثَّة العانة، التي قدَّمها الشريط الخليع. يمكن أن أجزمَ، بكثير من الثقة، بأنَّ حقيقة الإنسان، حقيقتَه العميقة، لا يميط عنها اللثام سوى الخوف، وهيَ كانت أقربَ إلى البشاعة وقد التبسَ بها الموت وعانقَ وجهها.

سألتها عن السبب الذي جعلها تلغّمُ حياتي؟ فأبدتْ تماطلًا في الردِّ. لا بدَّ من أنَّ الكلمات قد احتقنتْ في جوفها، من دون أن تجد طريقًا في زحام الخوف الذي ملأ فمها... كرَّرتُ سؤالي بصِيَغ شتَّى من دون أن أجدَ على الشفتين المشمَّعتين بالتردُّدِ كلماتٍ تستوقف غضبي. لم تتكلَّم سوى مرَّة واحدة؛ كان ذلك حين سألتها إن كان أخي هو من فضَّ بكارتها. ردَّتْ نافيةً وهي تقسمُ بأغلظ الأيمان بأنَّه بريء من دمها!

اقتربتْ من شفتيَّ، بعد أن علَّمتها التجربة أنَّ أقصرَ طريق إلى إخماد الحرائق المندلعة داخلي وترويض هياجي هو تقبيلي. لكنَّ ذلك الفتى البريء الذي كان، قد شوَّهت أعماقَه الفجيعةُ، واستحال، في

إثر صدمة أكبر ممّا يطيقُ، وحشًا. في تلك اللحظة التي حطَّتْ فيها شفتاها كمنطادين منكوبين على سواحل شفتيَّ، كانت تَتَموَّرُ داخلي أحاسيسُ متناقضة. أحسستُ بأنَّه كان يمكنُ أن أسامحها وأتحمَّل الجرحَ في القلب لو أنَّها... لو أنَّها لا تحملُ في بطنها لوثةَ أخي. في بطنها كان يرقدُ طفلٌ مُعَدٌّ سلفًا للضياع والبؤس. كان في قبلتها شيءٌ من القبلة الأولى، لكنْ تعوزها ملوحة الدم النازف وأشياء أخرى. انعجنّا في القبلة، وتضاءلت الدنيا. أصبحتْ أضيقَ من ثقبٍ تشقُّه مديَة في اللحم. في اللحظة المخبولة التي حاولتْ فيها أن تستلَّ شفتيها ألحَحتُ في تقبيلها. لا أخفيك أنَّها المرَّة الوحيدة التي وددتُ فيها ـ والدمُ يصهلُ في الأوردة ـ لو أضاجعها. ألحَحْتُ في تقبيلها لئلّا أمهلَ فمها فرصةَ أن يصرخَ صرخة الألم الأخيرة. رشقتُ في غمرة القبلة مديتي جهةَ قلبها، فاهتزَّتْ وندَّتْ عن فمها صرخةٌ مكتومة أشبهُ بصوت جروٍ رُشقَ بالحجارة، ثم طفحَ الدمُ من صدرها. ومن دون أن أتنازلَ عن قبلتنا الأخيرة فاضَ الدمُ من فمها. وحده الدمُ كان ينقصُ قبلتنا الأخيرة لتحملَ، كالقبلة الأولى، نَفَسَها الأسطوريَّ! تركتها ـ قبل أن تفيضَ روحها ـ تنام نومتها الأخيرة يشخبُ دمها في السرير، ثم شرعتُ أجرِّدها من ملابسها. في الذهن، كان المشروع قد استوى ونضجَ ولا ينقصه سوى أن يطبَّق على نحو صارم. كان تجريدها يسيرًا، لأنَّها لم تكن ترتدي غير تبّان تحتَ الفستان الفضفاض. لم يكن جسدها جميلًا، فقد بشَّعَته تحوُّلاتُ الحَمْل كثيرًا.

كنتُ أغيبُ عن ذاتي شيئًا فشيئًا، ويشُدُّ على مقودِ الجسد الهائج مسخٌ لا أعرفه، لكنَّني صرتُ مطالَبًا بالانصياع لما يُمليه. كانتْ في قيد

الحياة تستجدي بعينيها الموتَ أن يمهلها رويدًا حين رشقتُ صدرها بالمديَة تسعَ مرّات، كان يصدرُ عنها في إثرَ كلِّ طعنة صوتٌ أشبه بالتنهُّد. بعد الطعنة التاسعة (العاشرة باحتساب الطعنة الأولى) استحالتْ جثَّة هامدة. ولكَ أن تخمِّنَ يا وليد ما حدثَ بعدها؟»

ـ كانت الطعنة الحادية عشرة في عينها. كنتَ بها تقتفي ذاكرة أمِّكَ الإجراميَّة... أليسَ كذلك؟!

«بلى يا وليد، كانت الطعنة الأخيرة في عينها اليسرى، ما تلا ذلك تعرفه جيِّدًا. به وقفتُ على بشاعة ما تقوم به حياةُ. الفرق الجوهريّ بيننا هو أنَّ جرائمها عبثيَّة وتعميميَّة، بها تنتقمُ من جنس الرجال جميعًا. أمّا جريمتي، وبغضِّ النظر عن لامشروعيَّتها القانونيَّة، فإنَّها بالنسبة إليَّ كانت مشروعة إلى أبعد الحدود! قطَّرتُ على جسدها الشمعَ على غرار ما تفعله حياة، وحلقتُ شعر عانتها الكثَّ بمقصٍّ استجلبته لهذا الغرض. وجدتُ في انزياحي عن تقاليد حياة الإجراميَّة لذَّةً. لم أكتفِ بحلقِ شعرِ عانتها، بل حلقتُ شعرَ رأسها كذلكَ.

منذُ البويضةِ، كنتُ مُعَدًّا لأقترف البشاعة. كان سقوطُها بإحدى عشرة طعنةً فاتحةَ البشاعات. بقتلها، فتحتُ بابًا لن ينغلق إلّا بموتي. نولدُ بجوهرٍ واحد هو ما نحنُ عليه في الصميم، تتدحرجُ كرةُ أيّامنا وتتغيَّرُ الأعراضُ، وتُبدِّلنا عواصف الدهر المزمجرة، لكنَّ الشخص الحقيقيَّ، الشخصَ الذي يشكِّلُ ما نحنُ عليهِ، يظلُّ ثاويًا في الأعماق، يتضخّمُ حينًا ويضمرُ حينًا، لكنَّهُ لا يتبدَّدُ أبدًا...

لا بدَّ من أنَّ حياة، الـ «ماما» حياة، قد أورثتني، إلى جانب

جنونها وفِصامها، قدرتَها الرهيبة على اقتراف أعتى الجرائم وفاءً لعُقَد نفسيَّة مستبدّة. لا نأخذُ من أمَّهاتنا الحليبَ الأوَّليَّ فقط، بل منهنَّ نأخذُ بعض جنوننا... لا نرثُ ما هو جسديٌّ فقط، بل ما هو نفسيّ أيضًا. ومن حياةَ، ورثتُ بعضَ ما فيَّ من خبل. أمّي، يا وليد، ألهمتني شجاعةَ أن أقتل شامة على طريقتها، وأن أعيشَ على طريقتها بطَّةً ناصعةَ البياض في مستنقعٍ آسن.

قبل أن أغادر شامةَ، دفنتُ في الجيبِ خصلة من شعرها. أطفأتُ نور الكهرباء، وتسلَّلتُ على رؤوس أصابعي خارجَ المنزل وأنا أواري بكلتا يديَّ لطخة دمٍ. لم يكن يملأ الأزقَّة والدروب المؤدِّية إلى المنزل الذي اكتريته غيرُ بعض السكارى.

حين اقتربتُ من المنزل، بدأ يتبدَّد المسخ الذي كنتُهُ ويضمحلُّ في الأعماق كدخان سيجارة، وبدأتُ أستردُّ «أنايَ» المغيَّبة. انفضحَ اهتزاز دواخلي بارتجاف أصابعي وأنا أحاول أن أُدخل المفتاح في رَحِم القفل، ثم بالحمَّى التي اهتزَّ لها جسدي. رويدًا رويدًا، بدأتُ أدخلُ الدوّامة النفسيَّة المريرة لراسكولينكوف في «الجريمة والعقاب»، لكنَّي لم أكن أملك مثله ترفَ التمدُّدِ في غرفتي والاستسلام للأطياف وهيَ تنقضُّ عليَّ. لم تكنْ له مثلي علاقةٌ مباشرة بضحيَّتيه، بينما كنتُ الاحتمالَ الأوَّل الذي قد يصرِّحُ به أغبى غبيٍّ في هذه المدينة.

قذفتُ بملابس الجريمة والقفّازين في كيس بلاستيكيّ، أغلقته بإحكام، ثم لملمتُ بقية الأغراض الأخرى ووضعتُ إلى جانبها ثروةَ أمّي من الذهب في حقيبتي، ومضيتُ بعدَ أن تركتُ على الطاولة مبلغًا مهمًّا ثمنًا للإيجار...

في خلاءٍ بين المنزل والمحطَّة الطرقيَّة، أحرقتُ كلَّ ما تعلَّقَ بالجريمة، ثم ركبتُ أوَّلَ حافلة تخرجُ من المحطَّة. لم أسأل عن وجهتها، كان يكفي أن تبتعد بي عن مدينة الزبل تلك قبل أن يندلعَ خبر الجريمة!

قالَ الفتى، الذي كان قاعدًا إلى جواري، إنَّني كنتُ أتخبَّط كمَن به مَسٌّ، وإنَّني كنتُ أتصبَّبُ عرقًا وأدمدمُ من حين إلى آخر بكلمات غيرِ مفهومة. لم أُعِرْ كلماته أيَّ اهتمام، لأنَّني لم أكن أملكُ بينَّ فكَّيَّ لسانًا يُسعفُ على الكلام. التجأتُ إلى فندق متاخم للمحطَّة، واستسلمتُ هناكَ للسرير. كلّما غفوتُ انقضَّتْ عليَّ أشباحُ شامةَ وتفاصيلُ ما جرى في تلك الليلة الغائرة كمدية في لحم الزمن.

كانَ ذلك الجنون يُعادُ ويعادُ باستمرار، لكأنَّ زمني الخاصّ، زمني النفسيّ، قد توقَّف عنده لا يبرحه. نهبتِ الحمَّى منِّي شهرًا كاملًا لم أخرج فيه من تلك الغرفة إلَّا مرَّتين، وكان ذلك أمام إلحاح صاحب الفندق على ضرورة عيادة الطبيب للتأكُّد من خلوِّي من أيِّ مرض، وقد تكفَّل بنقلي إلى المستشفى في المرَّتين معًا، كما تكفَّلتْ زوجته المسنَّة بإطعامي بعد أن أجزلتُ لهما العطاء.

يااااه، يا وليد! أتذكَّرُ تلك الأيّام الحالكة، التي كما لو أنَّها قُدَّتْ من جحيم الربّ، أو لكأنَّها جحيمه في الأرض. ذقتُ من المرارة الكثير، وعلى حوافِّ الموت وقفتُ حافيًا. تمنَّيتُ الموت ـ ولا أزال ـ لكنَّه كان كلَّما استحكمَ بتلافيف أوردة القلب تماطل في سحبها. بالنسبة إلى عدميٍّ مثلي لا يهابُ الموت، كان الموتُ يتحاشاني؛ يوصلني إلى حدِّ الشهقة الأخيرة ثم يتراجعُ في آخر لحظة. بعد شهر

من الهذيان والأطياف المعرِّشة في فضاء الغرفة، تمَّ التحوُّل الثالث أخيرًا: «الجريمة»!

لن أزعمَ أنَّني تغيَّرتُ تمامًا، فقد كنتُ أعتقد أنَّ المرء مهما حفَّ به غضبُ الربّ، ودفعته ويلاتُ أزمنته الرديئة إلى أن يتغيَّر، فإنَّ التغيُّر لا يكون إلَّا نسبيًّا. هناك أمور تولدُ معنا ونحملُ أعباءها معنا وندفعُ فواتيرها وحدنا، تلتصقُ بنا التصاق الروح بالجسد، ولا نُفطمُ عنها إلَّا بفطام أكبر؛ فراق الروح للجسد. في الإنسان، أقصد في صميم الإنسان، نواة شخصيَّته القارَّة التي لا تتأثَّر بعوامل التعرية!

ارتطمتُ صدفةً بجريدة نائمة على طاولة في مقهى مهملٍ غير بعيدٍ عن الفندق، لفتَ انتباهي إليها صورتي مذيَّلةً بعنوان «مطلوب للعدالة». الصورة اعتقلتْ وجهي في الزمن الغابر قبل أن تنخرهُ الصدمة والأيّام الصعبة. صحيح أنَّ ما بيني وبين الصورة لا يتجاوز السنة الواحدة، لكنَّني أحسُّ كما لو جرت بيننا عقود.

وعلى الرَّغم من أنَّ الصورة تفشّت بين الناس، فإنّ ذلك لم يكن ليرهبني، لأنَّ الصورة لا تُشبهني في شيء. عرجتُ على حلّاق قريب، وحلقتُ شعرَ رأسي؛ وزيادةً في التمويه أبقيتُ على الشارب! لك أن تتخيَّل...

عدتُ إلى الفندق رأسًا، يا وليد. لملمتُ ما تشتَّتَ من ملابسي وأغراضي، ثم ودَّعتُ صاحبَ الفندق بعد أن نقدْتهُ ما يكفي لردِّ جميله، وعرجتُ بعد ذلك إلى المقهى، حيثُ فردتُ جرائد ذلك اليوم على الطاولة، والتمستُ من النادل بعد أن حشرتُ في يده ورقة ماليَّة أن يأتيني بكلِّ جرائد الأيّام السابقة. قلَّبتها جيِّدًا وقرأتُ كلَّ ما تعلَّقَ

بالجريمة، ولك أن تخمِّنَ ما الذي وقع في غيابي؟»

ـ تمَّ اتِّهام أخيك... مثلًا، وتورّطَ في جريمتكَ مثلما تورَّطتَ في جريمته؟

«لا... لم يحدثْ ذلك وإن تمنَّيتُه. حدثَ، يا وليد، أنَّني أسقطتُ الجميع بطلقة طائشة، قتلتُ شامة التي كان يرقدُ في بطنها جنين، وَأَدْتُه هو الآخر قبل أن يبزغ ويتحمَّل شطط حياةٍ مزرية كتلك التي جاءتْ بنا حياةُ إليها!

بالنسبة إلى النذل، لم تستطع هشاشته المفرطة أن تقاومَ ما حلَّ بجسد شامة من تمثيل، فأهدى عنقه إلى حبلٍ خشنٍ. أمّا حياة، فقد انتهتْ إلى مصير مُزْرٍ بعد أنْ لفتَتْ هذه الجريمة إليها الأنظار. كانتِ الجريمةُ لا تختلفُ عن الجرائم التي كانت تقومُ بها فيما مضى إلَّا في التوقيت وجنسِ الضحيَّة. تمَّ اعتبار الجريمة امتدادًا للجرائم المتسلسلة وانحرافًا مهمًّا في نسقها، وتمَّ اعتقال حياةَ للاشتباه بها في الضلوع في قتل شامة وكلٍّ من سبقها. تابعت الصحافة الوطنيَّة الأمر باهتمام بالغ، وأفردتْ لمستجدّات قضيَّة حياةَ زوايا يوميَّةً.

لكنَّ المحقِّقين، بغضِّ النظر عن تزامنُ سقوطِ ضحيَّتها الأخيرة مع سفرها، تمامًا كما أكّدَ الجيران، عجزوا عن الوصول إلى دليلٍ واضح ونهائيّ يثبتُ تورُّطها، فاختاروا إبقاءها من دون سندٍ قانونيٍّ واضح رهنَ الاعتقال، درءًا لما قد يثيره إطلاق سراحها من استياء عارم في أوساط الرأي العامّ. أسفتُ، لأنَّني حين حاولتُ أن أقلِّدَ ألعابَ أمّي في الجريمة ورَّطتها ـ من حيثُ لا أدري ـ في أكثر من ربع قرن من الجرائم.

همتُ على وجهي في مدينة البيضاء؛ هذا الحوت الكبير الذي يفتحُ فمه ليبتلعَ كلَّ شيء، بشرًا، بنايات، آلات، سيّارات. . . مَعِدَتُه دائمًا على استعداد لسحق أيٍّ وافد مهما بدتْ صلادته، وتذويبه في هذا الخليط الكبير وغير المتجانس. لم أُخلَق لمثل هذه المدينة، ولم يكن يروقني فيها سوى أمرين: الأوَّل هو البحر الكبير الذي كان دائمًا يُغريني بأن أقتحمهُ من دون عودة، والثاني أنَّه يُقيمُ بها ذلك الشابُّ المستنير الذي أنتسبُ إلى بنُوَّته بنسبة 99 في المئة (تعرف يا وليد العمليَّة الحسابيَّة جيِّدًا)».

ولاءٌ آثم

لكلٍّ تيهُه الخاصّ. هناك من يختار التيهَ وهناك من يختارُهُ التيهُ، وهناك من يُدفعُ إليهِ دفعًا، وهناك كذلك من يعيش التيهَ من دون أن يتيه حقًّا، ومن دون أن تتجاوز به قدمُه حدودَ مدينته. أعنفُ تيه ليس أن ينسحبَ المرء من حضرة من يحبُّ، بل أن يرحلَ كلُّ الذين يحبُّهم ويأخذوا معهم الحياةَ وكُحلَها الجميل وألوانَها الزاهية، ويتركوا في الجوف غصَّة وكمشةً من رماد. لم أسرْ على الحوافِّ الصعبة صوب تيهي الخاصّ، لكنْ حين مضتْ مريم، وسحبتْ خلفها كلَّ جميل في الحياة، انبلجَ من دكنة غيابها تيهي الخاصُّ.

نام الظاهر ركن الدين بيبرس البُنْدُقْداري، هذا الذي بعثهُ هذا الزمنُ العربيّ الرديء من قبره، لكنَّه انضمَّ إلى المغول الجدد. أسماؤهُ لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وكذا صفاتُه. أمّا حكايته، تلك التي سارعَ إلى مواراة جثمانها في قلبي بعدَ أن سلَّم بأنَّ العمر لم يعد فيه متَّسَعٌ للمزيد، فإنَّها تتركُ دمعة في العين، ورمادًا خلف اللهاة!

مثلما ساق الربُّ بيبرس ذاك الزمان إلى قتال المغول في عين جالوت، ساق بيبرسَ الجديد إلى القتال مع المغول الجدد في عين العرب. . . يا لهذا الطباق الغريب.

همستُ إلى آلة التسجيل مستغلًّا نومَ الأشقرِ، ومناجيًا بغباء عاشقٍ مريمَ:

«نحنُ معًا في بلد واحد، لكنْ بيننا يقف المستحيل. الربّ إذ يجدلُ مسالكنا في الحياة، غيرُ ملزمٍ بأن يضع في طريقنا مواعيدَ مع من نحبّ. وحدها الصدفةُ تزفُّ مواعيدَ المجانين التائهين في بلاد الربّ، والصدفةُ لا منطق لها، ومن العبث الارتهان لعبثيَّتها. . .

لم يكن الله، يومَ دفنَ في صدرينا كمشةَ الحبّ هذه، مطالَبًا بأكثر من ذلك. ما ذقناه من فرح كان مسروقًا من حفنة النور والندى التي تأتي بها رياح البدايات. استهلكنا نصيبنا من دهشة الحبّ وأسلَمْنا اختياراتنا ومواقفنا للقحط. عندما خيَّركِ المصير بين التشبُّث بالحبِّ الكبير أو الانزلاق صوب حلم الطفولة، لم تطل بك الحيرة، وخانني جلباب الرجل الشرقيّ. همستِ في السرِّ «سأعود»، كما لو أنَّك في زيارة للديزني ـ لاند، وقلتُ «فلترحلي!» كأنّي على ثقة بأنَّ الربَّ سيُعيدك إليَّ في الوقت الذي أريد. . .».

تململَ الأشقر بيبرس في نومه ثم فتحَ عينيه على اتّساعهما. عدَّل من جلسته، وأخذ زجاجة الخمر، فتحَها بعنف فطفحَت رغوتها، وأخذها في قبلةٍ طويلة. حين أعدْتُ قراءة خارطة الوُشوم وفق فصول وجعه، فككتُ شيفرة بعضها واستعصى عليَّ بعضها الآخر. كان ذلك يشي بأنَّ حكاياته لم تنته، وأنَّه لا يزالُ في دهاليز ذاكرتهِ ما يمدُّ به عمره أكثر!

أشعلَ سيجارةً، فنفرَ دخانها في أجواء الغرفة التي بدأتْ تنتشرُ فيها الحلكة. كانت الحفرة في ساقه لا تزالُ تنزُّ دمًا. أجال بصره في فضاء الغرفة، ثم قالَ:

«لم تكن الدار البيضاء لتليق بمن هو مثلي. في أغلب الأوقات، كنتُ أفرُّ منها إلى البحر. هناكَ مدنٌ تهدِّدكَ دائمًا بالاجتثاث وتُبقي حواسَّك دائمة اليقظة، لأنَّ أتفه سهوٍ منك، أتفه تهاون، قد يجعلُكَ صيدًا سهلًا لتلك المدينة التي كلُّ مَن فيها دائمُ السعي لأن يبترَ منك أيَّ شيء؛ مال، ملابس... وحتى إن بالغتَ في الحرص، فلا بدَّ من أن يتمّ الإيقاع بك في صفقة فاشلة، أو استغلالك...

اكتريتُ منزلًا في حيٍّ شعبيٍّ متاخم للبحر، ركنتُ فيه ثروة أمِّي وكلَّ أسراري، وسعيتُ إلى البحر أطلبُ رزقي هنا وهناك. حشرتُ رأسي بين الرؤوس الساعية إلى مراكب الصيد بحثًا عن عمل، واستقرَّت بي الحال في قاربِ عجوزٍ ثرثار، نخرج للصيد صباحًا وهو لا يكفُّ عن التذمُّر. أمّا حين يستقرُّ بنا القارب في عرض البحر، فإنَّهُ يشرعُ في الحديث عن تاريخه المديد في الصيد؛ عن فتوحاته وبطولاته وعن العجائب التي رآها. العجائز دائمًا لا يُخرسهم عن الثرثرة الحمقاء سوى الموت، ذلك بأنَّهم في الغالب ما يُعيدون تركيب أحداث حياتهم بكثير من المبالغة التي لا تخلو من كذب صريح.

وجاءَ ذلك اليومُ الذي خطر لي فيهِ أن أزور الجامعة من أجل حضور محاضرات السيِّد مراد «س»؛ الشابِّ الوسيم الذي حرَّك في حياةَ الكثيرَ، وكان ضمنَ قائمة الآباء المفترضين (ولا أعرف من القائمة إلَّاه). كانَ يُفترضُ أن أكون حاصلًا على البكالوريا، وأن أكون مخوَّلًا لدخول الجامعة، لو أنَّ الدنيا كانت أكثر رأفة...

تمنَّيتُ، في كلِّ مرَّة أجلسُ إلى محاضراته، لو أنَّه كان أبي... أسرجُ الحلم في حضرة كلماته. أشعرُ بأنَّه مثلي أو أكثر، يحملُ في قلبه حزنًا ثقيلًا. لم يكن يصرِّح بالأمر، لكنْ في نبرة صوته، في خُزرته وعينيه، ما يَشِي بأنَّه يُضمرُ كثيرًا من الحزن. كان من صنف أولئك الذين تحسُّ في حضورهم بالرهبة والمحبَّة في آن... كنتُ سأكون أبهى من ملاك لو تأكَّدتُ من أنَّني أنتمي إليه. أحسُّ بأنَّ بيننا شيئًا مشتركًا، لا أدري على التحديد ما هو؛ شيئًا في قعر الذات ضاربًا في الصميم. هل هي حياةُ، تسكنني مثلما تسكنه؟ هل هو عدوى حزنها؟

الغريب أنّني حين حاولتُ البحثَ عن شيء من سيرته الذاتيَّة، ولاسيَّما العائلة ـ فوجود أشقر في عائلته مثلًا لا بدَّ من أن يؤكِّد انتمائي إليه ـ لم أعثر، لا في كتبه ولا على شبكة الإنترنيت، ما يثبتُ أنَّه ينتمي إلى نقطة ما من هذا البلد، أو أنَّه ينتمي إلى عائلة ما. حين اقتربتُ من مداراته القَلِقة، وفكّرتُ في إخباره ـ وإن كان في الأمر خزي ومذلَّة كبيران ـ بأنَّني ابن حياة، انعقدَ الكلام في فمي، وشُلَّ لساني. في الأخير، أحسستُ بعدم جدوى إخباره بأمر قد يزعجه ويحمِّلهُ شكًّا ينغِّص عليهِ أيّامه!

ظللْتُ وفيًّا لمحاضراته وندواته، كلَّما تزامنت مع أوقاتِ فراغي. حرَّضني على الإبحار في أكثر من عنوان. لم يغادرني الحزن واليأس، لكنَّني بفضل القراءة وجدتني أسبحُ في عوالم أخرى، وأكتشفُ ما عبره غيري من تجارب وآلام.

أفضَتْ بي القراءات الكثيرة إلى الكتابة أخيرًا؛ الكتابة ليس باعتبارها ترفًا زائدًا، بل ضرورة ملحَّة، لئلّا يقودني اليأس إلى الانتحار.

مع اقتراب رأس السنة، ألحّتْ على الذهن حياةُ. في الأخير، هي أمّي، وكنتُ أحسُّ بأنّني، بشكل أو بآخر، آثمٌ، فقد ورَّطتها من حيثُ لا أدري في حبس، لا بدّ من أنّه لن ينتهي إلّا حين يتفسَّخ جسدها وتفيضُ روحها. أعرف أنَّك ستقولُ، يا وليد، إنّها تستحقُّ أسوأ من هذا المصير، وإنَّ حبل المشنقة سيكون أرأف بها، لكنْ في الأخير، هي أمّي. وعلى الرَّغم من أنَّها مجرمةٌ، فإن حالاتها المستبدَّة تكون تحتَ تأثير عُقَدها النفسيَّة المركَّبة والعصيَّة على التحليل. كانتْ، على الرَّغم من طبعها الصلف، وعلى الرَّغم ممّا تُبديه من قسوة، تحملُ بين جوانحها قلبًا ليّنًا، وليس في تلك المدينة مَن ينفي ذلك. تشهدُ لها صَدَقاتُها؛ إنقاذُها للصبايا من اللّواتي تحسُّ بأنّهنَّ إنّما دُفعنَ إلى البغاء دفعًا؛ إسعافُها كلَّ من ألمَّتْ به ضائقة ماليَّة، وحبُّها الكبير للأطفال. ولا بدَّ من أنَّ قائمة حسَنَاتها في تلك المدينة طويلة جدًّا.

كنتُ أحملها معي أينما يمَّمتُ وجهي كضِيق في القلب، كفكرة كانتْ كلَّما تعمَّدتُ أن أخمدَ بالنسيان إلحاحَها، وجدتني أفكِّرُ فيها.

نضِجتِ الفكرة في عرض المحيط، والعجوز لا ينفكُّ يثرثرُ بحكاياته المتشجِّرة، والتي لا أملك أمام ضجرها إلّا أن أرفع رأسي بين الفينة والأخرى دلالةَ مجاراته وإبداءً للاهتمام بما يقول. في داخلي، كانت تنداح الفكرة تلو الأخرى، وترغي وتزبد أطيافٌ وذكريات.

نضِجتِ الفكرة أخيرًا. تنهّدتُ وانحلَّتْ لها أطرافي. كان من بين الحقائق التي لا غبار عليها، أنَّ مرور رأس السنة ضحيَّة جديدة، سيؤكِّد، ولو نسبيًّا، أنَّ حياةَ قاتلة متسلسلة، وسيدفع رجال الدرك إلى مزيد من الضغوط والتحرِّيات، الأمر الذي سينتهي بها إلى حبل المشنقة.

فَقَسَتِ الفكرة في الذهن بسرعة ثم تبرعمتْ وأرسلتْ فروعها في الخيال، وتشجَّرَ بعضها عن بعض، إلى أن غلَّفتْ تفكيري، فكنتُ حيثُما ولَّيتُ وجهي أجدني أفكِّرُ في الأمر مرغمًا... كانت الفكرة أن أهديها ليلة رأس السنة صكَّ براءتها. فقد علمتُ من الجرائد أنَّ المحقِّقين لم ينجحوا بعد في دفعها إلى الاعتراف، كما لم يثبتْ من خلال التفتيش والتحرِّيّات الدقيقة أيُّ دليل يُدينها، اللَّهمَّ إلّا مسألة تزامن سقوط الضحيَّة الأخيرة في المدينة مع زيارتها لها في رأس السنة، وكذا سقوط شامة في عقر دارها، وسقوطُ الضحيَّتينِ معًا بمديةٍ بمقاسات المدية نفسها المستخدَمة في الجرائم السابقة.

لكنْ أن أُنقذ حياة، يعني ـ من جملة ما يعنيه ـ أنَّني صرتُ مطالبًا بأن أستودي نفسي إلى أقاصي خارطة الجنون، وأن ألطِّخ يدَيّ بجريمة أخرى تقوم دليلًا على براءتها!

الأيّام، إذ نشتهي منها أن تتلكَّأ في سيرها وتتمهَّل، نجدها تركضُ مثل كلب جبان. رأس السنة يقتربُ، ولم أحسم قراري بعد. محمومًا كنتُ بالفكرة أستمهلُ أيّامي فلا تتمهَّلُ إطلاقًا.

البيضاء مدينة آسنة قميئةٌ، وقد كان عليَّ، كي أعيش فيها وأستترَ بأحيائها الشعبيَّة النائية عن أعين الأمن، أن أستحيلَ أوَّلًا إلى وحش. لم يكن الأمر عصيًّا على عدميٍّ مثلي، لا يجد فرقًا مهمًّا بين الحياة والموت... حين يضعُ المرء في قلبه هذا اليقين، فإنَّ الخوف يتضاءل رويدًا رويدًا، ثم لا ينفكُّ يتلاشى نهائيًّا.

في الأخير، لا يخافُ إلّا من يملكون حياةً حقيقيَّة يريدونَ الحفاظَ، عليها وأحبّاء يسكنون بؤبؤ العين. أمّا أمثالي، فمِمَّن يليق

بهم المَثَل «عاشْ ما كسب مات ما خلَّى»!

كيف لي أن أختار ضمن هذه الأبابيل البشريَّة قربانًا لـ «ماما حياة»؟

آه، يا للأسئلة السمجة المعادية للإنسان والإنسانيَّة... لا بدَّ من أنَّكَ على هذا النحو تعلِّقُ على سؤالي. دعني ألفت انتباهكَ، إذًا، إلى أنَّني ودَّعتُ الإنسان داخلي، رأيته ـ في وجه الشيخ الجليل «سيد الزين» ـ يضمحلُّ ويُمسخ شيئًا فشيئًا. لم أكن لأحفل بسؤال الأخلاق. فبعد إفلاس أحلامي اكتشفتُ تفاهة الحياة، وانفتحتْ عينايَ على العالم وهو ينهار. حين يمتلكُ المرء كلَّ ما يشتهي يكونُ كمن يرى الحياة من كوَّة الباب، ويختزلُ معانيها في القليل ممّا يراه. وحدهم البؤساء، ممَّن جرَّدتهم الحياة من كلِّ شيء وتخلَّوا عن الأمل، يرون حقائق الأمور... يرونَ أنَّ جنَّة السذَّج المخدوعين بالحياة ليستْ سوى رقعة خضراء في مزبلة لامتناهية الأطراف!

كنتُ حائرًا في اختيار جنسِ ضحيَّتي. أن يكون ذكرًا! فالأمر يؤكِّدُ أنَّ القاتل المتسلسل ـ المفترَض ـ قد عاد إلى نسق جرائمه العاديّ، لكنَّ الأمر يطرحُ صعوبة على مستوى التنفيذ، ذلك بأنَّني أعدمُ طريقة أستدرجُ بها الضحيَّة إلى فضاء يليق بجريمة قتل، كما أنَّني قد أُخطئ في التنفيذ وأكون في مهبِّ فضيحة. اختيارُ فتاة كذلك سيكون امتدادًا للتغيُّر في نسق القتل الذي دُشِّنَ (افتراضًا طبعًا) مع مقتل شامة. من سلبيّات هذا الاختيار أنَّني، بحكم تاريخي الحافل مع شامة، سأكون المتَّهَم الأوَّل. في كِلتا الحالتين، سأكون قد دسسْتُ في جيبِ أمِّي صكَّ البراءة.

توقَّفَ الأشقر عن الكلام فجأةً، ونطّ بقدمٍ واحدةٍ إلى النافذة يتأمَّل من خُرمها المدينةَ. اندحرَ الدواعشُ ـ قلتُ في سرِّي ـ ولم يبقَ منهم غيرُ قطعتين مزيَّفتين (أنا والأشقر). قال وهو يتَّجه إلى دورة المياه:

«كنتُ أعرف أنَّ «الأخ الكبير» لن يفرِّط في عين العرب... هي كما يحبُّ أن يسمِّيها في لحظات صفائه، واسطة العقد. لكنْ ما لا تعرفه، يا وليد، أنَّها مسقطُ رأسه، وأنَّها المكان الذي ركَّبَ عُقَده وأورثه كلَّ ذلك الحقد. أحيانًا، تصنع الطفولةُ المقموعة الديكتاتوريّاتِ وآلاتِ القتل البشريَّةَ. خلفَ كلِّ منتهِكٍ إنسانٌ وديعٌ منتهَك!»

وانقطعَ صوته حينَ اندلعَ كشخير دويُّ ارتطام بَوْله بدورة المياه. كان يعرفُ الكثير، ولا بدَّ من أنَّ «الأخَ الكبير»، على الرَّغم من تكتُّمه الشديد، وخوفه من أن تجدَ له الاستخبارات الأجنبيَّة والعيون المندسَّة نقطةً تنفذُ منها إلى شخصيَّته، قد باحَ بالكثير للأشقر. وعودته التي ألمحَ إليها الأشقر قد لا يكونُ سببُها الوحيدُ رغبتَه العارمة في استعادة مهدِ الطفولة، بل أيضًا استعادة الأشقر بنكَ أسراره وصندوقه الأسود، أو على الأقلِّ التأكُّد من أنَّه قد قضى نحبه. أعرف «الأخ الكبير» وأعرف ارتيابيَّته وشكوكه العديدة، وحرصَه الشديد على أن تسير الأمور على نحو بالغ الدقَّة.

عاد الأشقر يقفزُ ساحبًا خلفَه ساقه الجريحة. حينَ أخرجَ من جيبه شمعةً، سقطتْ منهُ مذكِّرةُ جيب صغيرة، قذفَ بها فوقَ أريكتِهِ، وتمامًا وسط الطاولة وضعَ الشمعة. سحبَ ستائرَ النافذة لئلّا يبينَ لمن هم خارج المنزل ضوءُ الشمعة فينتبهوا لوجودنا، قائلًا:

ـ كانتْ حياةُ تقول إنَّ زخّاتِ الصيفِ تهطلُ حينَ يرى الله حاجة إلى غسلِ القلوب!

وارتمى مكدودًا على أريكته. عجبتُ كيف لم تبلغ به الخمر مبلغ الثمالة! علَّقَ على منظر الغرفة بعد أن أشعلَ الشمعة، ومعها أشعل سيجارة:

«على هذا النحو كانت حياةُ تستقبل زبائن ليلها، تسرقُ منهم لذَّة تأمُّل فتنتها. نخطِئ حين نعتقدُ أنَّ الجنس لعبةُ العوالم السفليَّة. هو لعبة العين. يَقيننا ـ الذي تؤكّده العين ـ أنَّنا في معترك الجنس، هو الذي يضْفي على اللحظة بهاءها الخاصّ. هي كانت تسرقُ منهم هذا البهاء، وتتركهم يجذِّفونَ فوق جسدها بركاكة، كأنَّهم يضاجعُون ثقبًا في جدار!»

كان مغتبطًا حقًّا بما يقول، كأنَّه إذ يبالغُ في تجريح صورة أمِّه يقوم بجَلدِ مازوشيّ للذات. قال وهو يعود إلى الزجاجة:

«ما عادت الخمر تُسكرُ يا وليد، وأنا اليوم أكثر من أيِّ وقت مضى، في حاجة إلى ثمالة البدايات، أيّامَ كنتُ لا أكاد أنهي الكأس الثالثة حتى تتقاذفني الجدران. أحتاج إلى خمر معتَّقةٍ عمرها عمر خيبَتي. لم أعش طويلًا بكرونولوجيا الأيّام والسنوات. لا أزال في مقتبل العمر.. . لكنْ مخطئ من يعتقد أنَّ عمر الإنسان يُقاسُ بالمدَّة التي عاشها، بل بنوعيَّةِ حياته. لا يستوي مَن عاش حياةً عذراء، ومن أفنى سنوات تزدحمُ به المصائب، كلُّ واحدةٍ تورثه كدماتٍ في القلب، تدهسه وتقتُلُ فيه أكثر من شيء جميل. أعمارنا هيَ خساراتنا، وكلُّ ما ضاع منّا في زحمة الأيّام العجاف. كلَّما كانتْ خساراتُكَ أكثرَ كنتَ

أكبر! وأنا يا وليد شيخُ هذا الزمن الشحيح، فلا يغرَّنَّكَ هذا الشبابُ وهذه الشقرةُ الزائفة».

كانت السيجارة ترتعشُ بين أصابعه ويسقطُ رمادها في غفلة منه على الأريكة، أمّا جسده العاري المفتول العضلات فينزُّ عرقًا. لقد كان ذلك مؤشِّرًا على أنَّ الحمَّى تنهشُ جسده، وأنَّ الأجدر بـ «الأخ الكبير» أن يُسرِعَ أكثر لإغاثة صديقه... فهمتُ، إذ صاحبتُ الأشقر اليوم، لماذا يستأثرُ به «الأخ الكبير» ويُؤْثِرهُ. أعتقدُ أنَّه إن كان اليوم أفضل متكلِّم، فإنَّه قبل انخذاله وإحساسه بدنوِّ الأجل كان أفضلَ مستمع... قال بعد أن أخذَ نَفَسًا شَرِهًا من السيجارة:

«كان شابًّا وسيمًا، وحيدَ أمّهِ. مثلي قد استهلكَ من عشرينيّاته القليلَ، ومثلي ضائع في تلك المدينة الغابة يبحثُ له عن موطئ قدم. لا أذكرُ كيف ابتدأتْ صداقتنا، لكنَّها استُهِلَّتْ عمومًا في ذلك المقهى المغمور قبالة الساحل، أحُجُّ إليه كلَّ سبت أو أحد من أجل اغتيال ساعتين في مشاهدة مباراة كرة القدم. ولأنَّني كنتُ من المداومين على مشاهدة الدوريّ الإسبانيّ، فقد حفظتُ أوفياء ذلك المقهى، بل حفظتُ مشجِّعي كلّ فريق، وكانَ يلذُّ لي أن أستمعَ إلى ملاسناتهم التي تتحوَّلُ في الغالب إلى شجار...

أعتقد أنَّ علاقتي به استُهِلَّتْ بحديث عابر عن كرة القدم؛ نقاش أو محاولة تفريق متشاجرين. كان من ألطف مَن خلق الربّ على وجه البسيطة، لكنَّه، مثل غيره من الجديرين بالحياة، كان صيدَ الموت. جسده وعاء للعظام الناتئة، ضامرٌ، لكأنَّ الموتَ قد شرعَ في نهشه قبل أن يأذن الربّ بذلك. أكلتْ جسمَهُ أمراضٌ شتَّى، أخطرُها السرطان. كان وديع يحملُ في قلبه حلمًا نبيلًا، بسيطًا كلَّ البساطة: أن يكفلَ أمَّه

وينقذها من حياة الشطط والبؤس. . . لذلك، كان، كلَّما جمَعَ مالًا، بادرَ بإرساله إليها، بدلًا من أن يخسرَه على ترميم ما تأكَّلَ من جسده. . . فقد دفعه أوَّل طبيب يزوره إلى اليأس، وحثَّه على انتظار الموت حينَ تحدَّثَ عن عمليَّة جراحيَّة تكلِّفُ ما يعجزُ اللسان عن عدِّه، مؤكِّدًا، فوقَ ذلك، أنَّ حظوظ نجاحها ضئيلة، لأنَّ المرض الخبيث قد استشرى في جسده.

بيتُ القصيد، يا وليد، أنَّه كان شابًّا مُعَدًّا للموت. . .

وكنتُ أبحثُ عن قتيل!

ولأنَّني أحملُ في قلبي جثّةً، فقد كنتُ أجدُ، في صداقته وفي إصراره المكابر على الحياة، عزاءً من نوع ما. كنتُ أحبّه ولا أتردَّدُ في مدِّ يد العون إليه كلَّما تعثَّرَ جسده وأسقطه. ما كنتُ لأفكِّرَ في ذلك الأمر اللعين، لولا أنَّني مُصاب بلوثةٍ ما (لا بدَّ من أنَّ شيطانًا مأفونًا يزرعُ البذرة الملعونة في الذهن ويتركني أسقيها بالتفكير المتواصل). شهرٌ قبل رأس السنة، بدأ الموتُ يسرقه بالتقسيط، بعد سفر قصير وارى فيه جثمان أمّه الثرى، عاد وقد أذعنَ للهزيمة. عاد مُصابًا بالإحباط، موقنًا بأن لا شيء يستحقُّ أن يعيش المرء من أجله. انبرى جسده وامتصَّ الموتُ دمه، كأنَّما ينوي بذلك تحنيطه ليخلِّدَ به بؤس البشريَّة وعبث الحياة بالأحياء.

أُكرِّرُ يا وليد: لقد كان أكثرَ من صديق، وكانت تلك الكلمات الشحيحة التي يجهشُ بها، من حين إلى آخر، تساوي الدنيا، لكنَّ أيّامه كانت معدودة. كان يقولُ بحسرة بالغة: إنَّ الموتَ قد امتصَّ منه كلَّ شيء، وبعد أن اطمأنَّ إلى أنَّ فريسته لا يمكن أن تبتعدَ أكثرَ

أهملها متصيِّدًا طرائدَ أخرى! نسيَه الموتُ مجفَّف الأعضاء كقطعة خشب يابسة، لا الحياةُ تسقي ما ظلَّ فيها من حياة، ولا الموت يعجّلُ بالزجِّ بها داخل فرنه الهادر.

خلال الأيّام التي سبقتْ رأس السنة، كنتُ أدهك الشوارع والأزقَّة مفتعلًا المشكلةَ تلو الأخرى لعلِّي ألتقي شخصًا يستحقُّ أن أقتلهُ، من دون أن أحملَه في ضميري جثّةً من وهم. لكنْ، كما لو أنَّ السكّينة حلَّت بالقلوب الصدئة. كلَّما عدتُ إلى غرفتي خاويَ الوفاض أيقنتُ أن لا مناصَّ من أن أهديَ صديقي موتًا رحيمًا، بدلًا من أن أتركَ الدهر والأمراض تنهشه من الداخل (هكذا كنتُ أتحايل. . . مُموِّهًا نفسي ومختلقًا ذرائعَ لا تترك الضمير مضرَّجًا بدم من وهم).

في رأس السنة، سحبتُ من الحقيبة مديَة حياة؛ المديَة التي يعرف المحقِّقون من خلال ثقوبها في لحوم الضحايا تاريخَها، حتى إنَّها أضحتْ سمةً من سمات القاتل المتسلسل المطلوب للعدالة، وأخمدتُ الشمعَ في الجيب. . . في إحدى يدَيَّ علبة سجائر (لم يكن يُدخِّن، لكنَّه كان يحبُّ أن يجالسني وأنا أدخِّن)، وفي اليد الأخرى كيس بلاستيكيّ فيه أكلٌ وزجاجاتُ بيرة (كان يحبُّ أن يشربَ حدَّ الثمالة). كنتُ قد اتَّفقتُ معه على أن نسهرَ ليلة رأس السنة في غرفته، تلك المتاخمة للبحر، والتي كثيرًا ما تدركها الأمواج كلَّما ثارتْ ثورتها، غرفة لا ماء فيها ولا كهرباء. . . أثاثها قليلٌ من الملاءات المثقوبة، وطاولة يتيمة أشعلَ فوقها شمعتين.

ـ أحبُّ الحياة، ولا يزعجني من الموت إلَّا ما وراءه. . .

قالَ وقد التصقَ ببيرته بعد وجبة العشاء. كان باديَ الحزن كمن

استبشرَ نهايته. قلتُ محرِّضًا:

ـ تخافُ ممّا وراء الموت؟

ـ عادة ما يخاف المرء ممّا يجهلهُ!

ـ تخاف من العذاب مثلًا...

ندَّتْ عن شفتيه ابتسامةٌ ساخرة. عدَّلَ جلسته وقد بدا من خلال نور الشمع أكثرَ شحوبًا:

ـ إطلاقًا... أعتقد أنَّ الربَّ أعدلُ من أن يكافئ صبري على هذا الجسد المتهرِّئ بعذاب آخر... يزعجني فقط أنَّني لستُ واثقًا بما يكفي من السيناريو الذي رسمه الدِّين لما وراء الموت...

ثم أردفَ، وقد تحوَّلتْ نبرته إلى الحزن الشديد:

ـ فقط، لو أنَّني ألتقي أمِّي في مكان آخر، لأكفكف دمعاتها وأعتذر إليها، لأنِّي لم أكن جديرًا بحبِّها. حين انكسرَ ظهرها بين المنازل خادمةً، وجدتْ فيَّ عالة أكثر ممّا وجدت مُعينًا. أريد فقط أن أدفنَ وجهي في صدرها وأجهشَ بالبكاء، وأظلَّ مسجًّى على ركبتيها أستجدي غفرانها على كلِّ ما بدرَ منِّي من خذلان...

حين انتصفَ الليلُ أو كادَ، خرجتُ بذريعة قضاء الحاجة. مدلجًا كنتُ أسيرُ بين الصخور الضخمة المتاخمة للبحر. كانت الأمواجُ ناقمة تلهجُ بتعابيرَ غاضبة. أطبقَ على القلب السوادُ، وحطَّ على سفوحه ثقلٌ كبير تكادُ تتمزَّقُ له نياطُه. أيُّ ذنب اقترفتُ ليبلوَني القدرُ باغتيال وردة في أصيص؟

لا يموتُ إلَّا الجديرون بالحياة...

أمّا الحمقى وعبيدُ الحزن والمدثَّرون باليأس والمغضوب عليهم

والضالُّون... فإنَّ حياة التشرذم أمامهم تبدو شاسعةً كأنَّها الأبد؛ كأنَّ الموتَ لا ينوي إبادتهم... أو كأنَّهُ يتحاشاهم. في الأخير، الأبرياء الأنيقون الذين لا يملُّون من عدّ أصابعهم قبلَ النومِ، أولئك صيدُهُ الثمين!

عدتُ من دون أن أقضيَ حاجتي. سحبتُ من الجيب قفّازين وأخمدتُ فيهما يَديَّ، وتحسَّستُ المديَةَ كما يتحسَّسُ طفلٌ أعضاءَه الجنسيَّة بعد أن هدَّده دجّال بأنَّه سيجرِّدهُ منها. كانت لا تزالُ نائمة في الجيب لعنةً لا فكاك منها.

حينَ دخلتُ وجدتُهُ مستسلمًا بوداعة للنوم. بكيتُ في حضرته طويلًا. ارتجفتْ أصابعي واصطكَّتْ قدمايَ؛ وكنتُ كلَّما فكَّرتُ في الإقدام على قتله ألَحَّتْ على الذهن ذكرياتُنا المشتركة، وكلَّما فكَّرتُ في الإحجام عن قتله طفتْ صورة حياةَ وتذكَّرتُ عذاباتها. قلتُ في سرِّي «إن كان لا بدَّ من قتله، فالأفضل أن يكونَ ذلك وهو نائم، لا أسوأَ من أن يرحَلَ وآخرُ عهده بالحياة خيانةٌ!»

أمّا ما حدثَ بعد ذلك، فأنتَ تعرفُه يا وليد. ما لا تعرفه هو أنَّني إذ فتحتُ في جسده أحد عشر ثقبًا قد فتحتُ مثلها في القلب، وإنَّني إذ اكتحلَتْ عينُه اليسرى بدمه قد اكتحلتْ عينايَ معًا بصورته: أراه أينما ولَّيتُ وجهي، وأنَّني حين قطَّرتُ على جسده النحيل المستباح الشمعَ قطَّرتُ على روحي زيتًا حارقًا، خلَّفَ فيها تشوُّهات عميقة!

في الإنسان، يا وليد، حقارةٌ متجذِّرة تعشّشُ في الأعماق، وخلفَ قشرة الطِّيبة والفضيلة التي قد تختلفُ من إنسان إلى آخر، هناك نواةُ الشرِّ المطلق. نختلفُ عن بعضنا بعضًا فقط في الهزّات التي تدفعُ

صهارة الشرّ إلى فتق القشرة والاندفاع كبركان إلى السطح. كلُّنا يا وليد أشرار في قرارة أنفسنا، مهما هذَّبتِ الفضيلة والخير والدين وكلُّ تلك الكلمات البرّاقة السمجة من طبعنا، نظلُّ في الأعماق حيوانات شرسة يكفي أن تُستثار حتى تكشِّر عن أنيابها... وأحيانًا، من دون أن تُستثار، تَفتعلُ باسم الخير والدين والفضيلة وكلِّ الكلمات البرّاقة حروبًا لتفريغ الشحنات السلبيَّة الثاوية في الأعماق.

باسم فضيلةِ إنقاذ أمِّي، تجرَّأتُ على قتل وديع، وباسم فضيلة مزعومة، ها نحنُ نقتلُ كلَّ يومٍ عشرات الأبرياء، ليس حبًّا في الجنَّة ولا خوفًا من النار، كما يكرِّرُ «الأخ الكبير»، ولكنْ لأنَّ كلَّ واحد منّا يحسُّ بأنَّه قد أصبحَ لديه مبرِّرٌ ليميط اللثام عن الوحش فيه، ويقترفَ كلَّ بشاعة من دون أن يجدَ في ضميره رادعًا...

مات وديع. مزَّقتُ حقيبةَ أيّامه الخفيفةَ، وحملته في قلبي حسرةً لا شفاءَ منها، وفي جوفي وقفتْ غصَّتهُ كشفرة حادَّة لا تفكِّر في الرجوع ولا في مواصلة ذبح الأعماق. حملتُ حقيبتي وانسحبتُ، ورائحة الشياط عالقة بثيابي، بعد أن عنَّ لي ـ في لحظة غضبٍ ـ أن أحرقَ أثاثَ غرفتي الهزيلَ، وأمضي بعيدًا عنها. في يدي حقيبة وفي القلب جرحٌ كبير. مضيتُ وأنا أكابدُ حمّى تشبهُ تلك التي نهشتني بعد أن قتلتُ شامةَ...

آه... كلُّ جرح جديد ينكأ الجراحَ التي قبلَهُ، ويذكِّي الحرائق القديمة...».

نساء... ونساء

اشتعلَ ليلُ عين العرب بعودة «الأخ الكبير». اطمأنَّ قلبي إلى هذه العودة، لأنَّ استعادته للمدينة تعني نجاتنا. لكنْ، لا يبدو أنَّ استعادة المدينة أمر سهل. اندلعت المعارك قويَّة. الرصاص يلعلعُ في أكثر من مكان، والقذائف تنزلُ على أنقاض المدينة صاخبةً تلهجُ بالويل. أعدنا الباب إلى سابق عهده، وشددناه بالمسامير مغتنمين ضجيجَ آلة الحرب، ثم عدنا معًا متعبين نأكلُ المعلَّبات، ونُصغي إلى القذائف وهي تدُكُّ عينَ العرب.

الثامنة وعشرون دقيقة مساءً في الساعة التي تطوِّقُ معصم الأشقر!

لا يزالُ جسدُه ينزُّ عرقًا. أصابعه تتمادى مع الوقت في الارتجاف. كان ذلك دليلًا على أنَّ جسده قد بدأ يتخلَّى عنه، وأنَّه في حاجة إلى تدخُّل طبِّيّ وأدوية ملائمة، هو الذي لم يطبِّب بعدُ كلَّ آلامه إلَّا بزجاجات الخمر، التي تخدِّره موقَّتًا وتحرِّضه على البوح. قال وقد استلقى على الأريكة؛ قال بصوت مرتبك كمن يناجي نفسه:

«لم أقتل وديعًا على الرَّغمَ من أنَّني فعلتُ به ما فعلت. . .

هذا ما زفَّته إليَّ الجرائد أيّامًا بعد أن أقدمتُ على فعلتي. لقد أثبتَ الطبُّ الشرعي أنَّ روح الجثَّة المنكَّل بها فاضتْ قبل أن تخترقها الطعنة الأولى بعشر دقائق، جرّاء سكتة قلبيَّة مباغتة! أصابني الخبر بالخرس، وأسلمني إلى حزن يفوقُ حزني بسبب قتله. انتقمَ منِّي وديع ـ الوديعُ دائمًا ـ بموتٍ استباقيّ لئلّا يشهدَ بقايا جسده تنذبحُ على يدِ صديقه. كان يستحقُّ الموت؛ هذه الذريعة كنتُ أخمدُ بها ندمي الناهض. أمّا وقد مات، فلم تكن جثَّته لتستحقَّ كلَّ ذينك العبث والتنكيل، وهذا آلمني فعلًا.

زفَّتْ إليَّ الجرائد أخيرًا أنَّ حياةَ قد ظفرتْ بالبراءة المنشودة، لكنَّ صدمتي كانت كبيرة، حين اكتشفتُ، أيّامًا بعد إطلاقِ سراحها، أنَّ مدينةَ أطلسيَّة قد استيقظتْ في رأس السنة على جريمة قتل بشعة، تحاكي إلى حدٍّ بعيد تلك التي كانت شامة ضحيَّتها. . . فكَّرتُ طويلًا في هذا القاتل المفترَض الذي فكَّر مثلي في أن يهديَ حياة البراءة، لكنَّني لم أهتدِ إلى هويَّته. أصبحتُ أحملُ داخلي أكثرَ من سؤالٍ مبهمٍ، لم أجد له جوابًا منطقيًّا:

ـ مَن «فتاةُ الدمِ» تلك، التي بزمرة دمها أسعفتْ حياتي؟

ـ من أراق دمَ عذريَّة شامة؟

ـ مَن فكَّر مثلي في أن يهديَ حياةَ البراءة؟

ولم أكن لأحفلَ بمثل هذه الأسئلة العصيَّة، فقد قرَّرتُ بعد أن تخفَّفتُ من عبء التفكير في حياة، أن أهيمَ على وجهي في الأرض لعلِّي أتخفَّفُ من ذاكرتي وجراحاتي كذلك. لكنْ هيهات! نخطئ إذ نعتقدُ أنَّنا بالتِّيه قد نتملَّصُ من ربقة الألم المعشِّش في الأعماق.

المعطوبون بألغام الحياة معطوبون هنا أو هناك أو في القمر. لكنّني دُفعتُ إلى الحياة البوهيميَّة بعد أن ألحَّتْ الشرطة في طلبي، وقد اضطررتُ إلى اقتراف المزيد من الفظائع بدمٍ بارد. الحياة تدفعكَ إلى الخطيئة أوَّل مرَّة، ثم تتركُ لحبِّ البقاء أن يكون سببًا في كلّ ما يأتي من خطايا.

همتُ على وجهي أطوف في منافي الله، أحملُ بين جوانحي قلبًا متيبِّسًا سحقتْه الهزّاتُ الكبرى. حاولتُ، يا وليد، أن أكون إنسانًا صالحًا، وأن أبتنيَ أحلامًا صغيرة تليق بمنبوذٍ مثلي، لكنَّ آلامي العظيمة لم تكن لتتركني أستبين سبيلي في حلكة أيّامي. كلَّما تحسَّستُ جدران المستقبل وخزتني.

لم أكن سعيد الحظِّ يومًا، مذ وُلدتُ وأنا أعيش صخبَ الركض ككلب أليف خلف قلبٍ صلدٍ، لا أدري أيّ لوثة ورَّطتني فيه. يبيعُ دنياهُ كلُّ من يجعَل إنسانًا آخر كلَّ دنياه، هذا ما انتبهتُ إليه بعد فوات الأوان.

خرجتُ من البيضاء، بعد أن قتلتُ وديعًا، مؤهَّلًا لحياة الضياع والغربة؛ أكثرَ حرِّيَّة، لأنَّني سدَّدتُ لحياةَ دينَ الأمومة (وأعتقدُ أنَّني أجزلت)، وأكثرَ بؤسًا، لأنَّ وديعًا أراني مقدارَ بشاعتي الداخليَّة حينَ بادرَني بموت استباقيّ، قبل أن تقدَّ جسدَه مديةُ الخيانة... يومَ دفنِه اندفنتُ ملثَّمًا بين الجماهير الغفيرة التي جاءت لدفنه (فالناس لا يتذكَّرون البؤساء إلَّا أمواتًا)، وبكيتُ لأنَّني لم أكن أستحقُّ صداقته الكبيرة، وقطعتُ على نفسي يومها نذرًا بأن أحجَّ إلى قبره كلَّما سمحت الظروف، أشذِّبه وأضع عليه باقة نرجس، وأسقيه زجاجة جِعَة مثلما أوصى! «عاش ما كسب، مات ما خلّى»؛ مثَلٌ يلبسُ سيرة وديع.

مضيتُ أجرجرُ خلفي تاريخًا من البؤس الذي لا يراه ولا يستشعرُ ثقله إلّا أنا. كنتُ مؤهَّلًا لصُنوف الضياع. وكلُّ تلك الأشياء القذرة التي يتهرَّبُ المرء منها، ويخافُ أن يُضمِّخَ يديه بها، كنتُ أهلًا لها. يمكن أن أزعمَ، بثقة كبيرة، أنَّ خلف المجتمع، خلف تلك القشرة الظاهريَّة للمجتمع، عالمًا أسودَ خفيًّا؛ عالمَ المغضوب عليهم والضالِّين.

ما عدتُ أصلحُ، والشرطة تحصي خطاي، لأيّ عمل قار، يعتمدُ الظهور بشكل علنيّ. حين انتقلتُ إلى طنجة اتَّجهتُ رأسًا إلى الميناء، لكنَّ العيون المبثوثة في كلِّ مكان كادتْ توقعُ بي. عادت الجرائد إلى بثِّ سيرتي وصورتي، ونسبتْ إليَّ، إضافة إلى جريمة الشروع في قتل وديع، جرائمَ أخرى لا صلة لي بها، ووضعتْ أرقامًا في حالة رؤيتي. هكذا، استحلتُ ببراءة أمِّي إلى واحد من أخطر المجرمين المطلوبين للعدالة.

هناء/ طنجة

في مدينة طنجة، لذتُ ببيت أوَّل عاهرة تبتسمُ في وجهي. علَّمني المنزلُ الذي كبرتُ فيه أنَّ العاهرة مستودعٌ للأسرار، وأنَّ بيتها بقعة لا تصل إليها دوريَّةُ الأمن، لأنَّها تدفعُ من لحمها ضريبة ذلك! كان اسمها هناء، وهو على أيِّ حال اسمٌ مستعار، ذلك بأنَّ من الغباء أن تنتظر من عاهرة أن تمدَّك باسمها الحقيقيّ.

تحملُ في قلبها حزنًا كبيرًا وحكاياتٍ لا ينضبُ مَعينها. تهبُ جسدها لمن يدفعُ أكثرَ، وتمارس الحبّ مع من تحبُّ. تلحُّ دائمًا على أنَّ بَوْنًا شاسعًا يقومُ بين الأمرين. تعلِّقُ في شقّتها صورًا لا تليق بطبيعة

حياتها، بل تبعثُ على السخرية: صورًا كبيرة لكارل ماركس وإنجلز، للينين وستالين وماوتسي تونغ ورموز آخرين للماركسيَّة. كنتُ معجبًا بهذه الرموز التي تحدَّثت عنها وأنا أستعيد كتب مراد «س»، لكنَّني لم أتجاوز يومًا حدود الإعجاب... أمّا هي، فقد نهبتْ من الحياة الجامعيَّة الكثيرَ من الأفكار، وإن ركبها باسم الأفكار نفسها كلُّ رفاقها...

قالتْ إنَّها أحبَّتني، لأنَّني جَسور ومجنون وثوريّ، ولأنَّني مثلها ضحيَّة للصراع الطبقيّ. وحين ضمّنا السرير التصقتْ بي أكثر. كان قلبي بناءً عشوائيًّا لا يصلحُ للإقامة، وقد تأكَّدتْ هي من ذلك مبكرًا، لكنَّها ـ تقول ـ لا تملكُ إلَّا أن تحبَّني. فقد كان وجودي يرمِّمُ روحها الآيلة إلى السقوط. كانت في حاجة إلى من تهبُه كلَّ شيء من دون مقابل، وليس إلى من يخطفُ جسدها عنوة من دون رغبة منها. كنتُ فارسها.

لم أكن أخرج من المنزل إلَّا لمامًا. تأتي هي بكلّ شيء: النبيذ؛ السجائر؛ الأكل والكتب. لكنْ لم يكد يمرُّ شهرٌ حتى أحسستُ بوطأة الأسر الذي كنتُ أكابده. أخطأتُ حين اعتقدتُ أنَّ اعتكافي في منزل هناء هو مصدرُ هذا الشعور. حين اندفعتُ بعد ذلك في تيّار الحياة الجارف، اكتشفتُ أنَّ السجن ليس بقاء المرء بين أربعة جدران فحسب. إنَّه فكرة؛ لوثةٌ تقبعُ في الذهن كمخاطٍ لزجٍ تلتصقُ بتجاويفه، وتنبِّهُ صاحبها باستمرار إلى أنَّه فاقد للحرِّيَّة. وأنا كنتُ أنتقلُ من مكان إلى آخر من دون أن أغادرَ سجني.

في ليلتنا الأخيرة، حين أغرقتُ القلب في زجاجة الخمر، تمنَّيتُ، وأطيافُ شامة تطلُّ من ثقوب الذاكرة، لو أنَّ هناء لا تحرصُ بسبب طبيعة عملها على حلاقة شعر عانتها. كنتُ سأجدُ لذَّة من نوعٍ

ما في حلاقته. بحتُ لها بالفكرة المخبولة، فضحكتْ. أبديتُ لها رغبتي العارمة في أن أحلقَ شعرَ رأسها، ولأنَّها كانت في قمَّة سُكْرها، فقد وافقتْ من دون تردُّد.

غادرتها فجر تلك الليلة، بعدَ أن أودعتُها السريرَ ورددتُ على الجسد الجميل الغطاءَ. كانتْ وديعة جدًّا من دون شعر، بريئةً كطفلة في الخامسة من عمرها. كنتُ لسببٍ ما لا أرى ـ بعد قتل شامة ـ براءةَ الكائن البشريّ إلَّا نائمًا (هناء)، أو مُعَدًّا للموت (وديع). انتقيتُ لي من حديقة شعرها البنِّيّ فوق الطاولة خُصلةَ شعر، وتركتُ لها من ثروة أمّي قرطين من ذهب، ومضيت.

حياة/ فاس

في كلِّ يوم تتفتَّقُ قرائحُ الصحافيِّين عن حكاية يرمِّمون بها ما يعوز جرائدهم من تشويق، ويحرِّضون الشرطة على التسريع في وتيرة البحث عن المجرم الأشقر. ولأنَّ هناء قد أكَّدتْ لي من قبلُ ـ في أحاديث عابرة ـ أنَّ كثيرًا من الرفاق في فاس يرون في جامعة ظهر المهراز حصنًا لا يجدُ النظام إلى اقتحامه سبيلًا، فقد التجأتُ إلى ظهر المهراز. اندمجتُ مع الرفاق سريعًا بعد أن تقبَّلوا حقيقتي، وغضُّوا الطرْف عن عدم أهليَّتي للوجود في الجامعة. لقد وجدوا أنَّ جسدي يصلحُ لحروبهم مع الملتحين!

تلك الشهور التي أمضيتها معهم كانت جميلة، لأنَّها حرَّرتني، إلى أبعد حدٍّ، من السجن المعشّش في دماغي. أحسستُ لأوَّل مرَّة، مذ قتلتُ شامة، بالأمان.

ما كنتُ أعتقدُ أنَّني سأصاحبُ فتاةً تحملُ اسمَ أمِّي. كانت تنتمي

مثلي إلى فصيل الطلبة القاعديِّين. جميلة ودائمَة الحزن والأسى، ولاسيَّما حين تلسَعها غربتها المريرة. لم أمسسها قطُّ على الرَّغم من أنَّها كانت تزورني في غرفةٍ اكتريتها في حيٍّ متاخم للجامعة، وقد أكبرتْ فيَّ هذا الفعل. أحبَّتني وتمنَّتْ أن تربطَ حياتها بي على نحو «يُرضي الله». عجبتُ كثيرًا لتناقضاتها!

حينَ أقبلَ الصيفُ، انفضَّ من حولنا الرفاق، كلٌّ يطلبُ رزقه في مدينة أخرى، وما عادت الساحة الجامعيَّة آمنة بوجودهم. في الصيف، بدأت عربات الأمن تتجرَّأ على التوغُّل بعيدًا في الساحة الجامعيَّة من دون أن تردعها الحجارة! في آخر ليلة جمعتني بحياة، ألحَّت على ضرورة أن نؤطِّرَ ما بيننا بخطبة على الأقلِّ. لذَّ لي أن أتركها تتمادى في حلم «يُرضي الله». وحين أرادت أن تشاركني (فيما لا يُرضي الله) في كأس الويسكي، أهملتُ زجرها وتركتُها تشربُ الكأس تلو الأخرى، إلى أن فاضَ فمها بحكاياتها الآسنة، وانقشعَ عنها ثوبُ العفَّة.

كان جزاؤها ـ بعد أن امتطيتُها ـ أن زنَّتْ آلةُ الحلاقة في جمجُمتها. راقبتْ بدهشة خصلات شعرها وهي تسقطُ، الواحدة تلو الأخرى. تركتُها فجرًا نائمة، وديعة بدون شعر. يمكنُ أن نقول إنَّها ـ على الرَّغم من لؤمها وازدواجيَّتها ـ ضحيَّةٌ للمجتمع وتناقضاته. . . لم تكن حياةُ، الماركسيَّةُ، تشبهُ حياةَ، أمِّي، في شيء إطلاقًا.

خولة / الريف

في الشمال، أقصد في القرى الأمازيغيَّة الشماليَّة المعلَّقة بين جبال الريف، نمطٌ اجتماعيٌّ مغايرٌ تمامًا لتركيبة المجتمع المغربيّ

المعتدل في كلِّ شيء. أكثر ما كان يهمّني في المجتمع الريفي، أنَّه مهمَلٌ، ولم تتغلغل فيه يدُ النظام الأمنيَّة بما يكفي. كان يشبهُ في كثير من النواحي المجتمعَ الصعيديَّ في مصر: محافظًا مثله، ومزاجيًّا مثله في كلّ ما تعلَّق بالنظام، وتحكمه الحساسيّات القبليَّة.

جلستْ خولة إلى جواري في الحافلة التي ستقلُّني إلى الريف. لفتَ انتباهي إليها عيناها الواسعتان كعينيْ مهاة، الزرقاوان كسماء في يوم رائق، وأهدابُها الطويلة كسيوف منتصبة. ضحكتْ حين علمتْ بأنَّني متوجِّه إلى الريف، هكذا من دون أن أحدِّدَ مكانًا معيَّنًا. علمتُ منها بأنَّها قدمتْ إلى فاس من أجل استصدار حكم طلاقها من مهاجر زُفَّتْ إليه، فخانتْه فُحولته بعد أن سكبَ رجولته بين أفخاذ الشقراوات، ولم يبقَ له ما يُقيمُ به عزيمته أمام زوجته، فأعادها على نحو سافل إلى المغرب، ثم طلب الطلاق. لكنَّ الطلاق لم يكنْ ذريعتها الوحيدة لتحجَّ إلى فاس، وهذا ما عرفته فيما بعد. كان هناك سببٌ آخرُ، لم تفصح عنه وإن قرأتُ بعضه في بريق عينيها.

نهضَ بيننا استلطافٌ متبادَلٌ في الطريق إلى قريتها. تبدو كما لو أنَّها تبحثُ عمَّن يرمِّمُ كسرًا ما في قلبها، فكنتُ فارسها الذي أجلستهُ الصدف الجميلة إلى جوارها في الحافلة المتداعية، التي منحنا بطؤُها الشديد فرصةَ ابتناء علاقة عاطفيّة وتبادلُ أرقام الهواتف.

أنكرتني حينَ وصلنا إلى القرية الجبليَّة، وردَّت على شعرها الأشقر الحجابَ، ومضتْ تشقُّ طريقها صوب منزل ذويها. خلَّفتني أفتِّشُ عن منزل أو غرفة أكتريها.

امتهنتُ ما راج في تلك القرى من مهن. في البداية، اشتغلت في

التهريب، فكنتُ أشتري السلع المهرَّبة من مدينة مليليَّة المحتلَّة، وأقومُ ببيعها. كلَّما ابتعدتُ بها عن نقطة الشراء زاد ثمن السلع. أقومُ بكلِّ هذا بسيّارة ميرسيدس مهترئة لا تعرفُ الطرقَ المعبَّدة، وبدون حيازةِ رخصة سياقة، وكان هذا شأن المئات أمثالي ممَّن امتهنوا الـ «ترابانِدو». لكنَّي استشعرتُ خطر المهنة حين طاردتني دوريَّة الدرك ليلًا، ولولا أنَّني كنتُ خبيرًا بالمسالك التي اخترتها طريقًا لَأُلْقيَ عليَّ القبضُ، وجرَّت عليَّ جريرةُ التهريب لائحةَ الجرائم الأخرى.

اشتريتُ بثمن السيّارة بغلًا (قد لا تصدِّق! لكنَّ ثمنَ سيّارة مهرَّبة تحملُ لوحة دولة أجنبيَّة قد يساوي في كثير من الأحيان ثمن بغل أو حمار جيِّد...) وطفقتُ أجوب به مسافات شاسعة بين الريف وحقول منطقة كتامة، حيثُ منابتُ الحشيش... أشهدُ عمليَّة تحضير المخدِّرات بجميع أنواعها، وأسرجُ الرائج منها في البغل، وأجوب به الخلاء أوزِّعُ بعضه في الطريق على صغار الموزِّعين، وينتهي الأهمّ إلى شواطئ الشمال، حيثُ يهرَّبُ في صفقات مهمَّة إلى أوروبا... يمكنُ أن أزعمَ أنَّني، بفضل شجاعتي الزائدة، قد صرتُ، بعدَ بضع صفقات مهمَّة، أحدَ أهمّ مموِّني مافيا المخدِّرات في أوروبا.

كانت خولة أجمل صدفة أرتطمُ بها، وأتورَّطُ معها في خطر الألفة. جميلة ورقيقة، وفوق ذلك تجيد فنَّ الإصغاء. لا تبوح بصوت إلَّا مضطرَّةً. عيبها الوحيدُ وسرُّها الأكبر، أنَّها كانت كلَّما ملتُ عليها بجسدي وضلعتُها إليَّ في لحظة جنس، نهجتْ ببكاء يُفسد عليَّ متعتي بجسدها الفتنة، ويُشعِرُني بذنبٍ ما! حين سألتُها عن الأمر، قالت إنَّها تبكي فرحًا. لم أصدِّقها، لكنَّني كذلك لم أُلحَّ في السؤال. في الأخير، كلُّ واحد يحملُ داخلهُ علبةَ أسرار!

كانَ جسدها يتساقطُ شيئًا فشيئًا كشجرة تعرِّيها من أوراقها رياحُ الخريف. وجاءت ليلة تسلَّلتْ فيها إلى بيتي، وطلبتْ أغربَ طلبٍ: أن أحلقَ رأسها!

قالتْ إنَّها تحملُ في نهدها الجميل قنبلةً موقوتة... سرطانًا ملعونًا.

لم تكن زيارتها لفاس من أجل استصدار حكم الطلاق فحسب، بل لتكشف سرَّ ورم نتأ فجأة أسفل نهدها. قالتْ إنَّها تبكي إذ أضاجعها، أسفًا على حلاوة قد لا يمهلها الموتُ من العمر ما يكفي للاستزادة منها. استبدَّ بي حزنٌ شديد، ورأيتُ فيما حدثَ إشارة ما. قرَّرتُ الرحيل فجرًا. انتقيتُ من شعرها الأشقر خصلة أودعتها حقيبة أسراري، ونمتُ إلى جوارها بعد أن استسلَمَتْ للنوم. كانت أجمل من دون شعر، وديعة كطفلة رائعة. طبعتُ على جبينها أجملَ قبلة، وملأتُ أصابعها ـ من دون أن تدري ـ بخواتمَ من ذهب حياةَ، ومضيتُ.

نيكول / باليرمو

أضحى المقام في المغرب عسيرًا بعد أن ضاقتْ بي أسلاك البوليس الشائكة. عرَّجتُ بعد تغريبة الريف على البيضاء، زرتُ قبرَ وديع، وتنفيذًا لنذرٍ قطعتُهُ، وضعتُ على قبره باقة نرجس وسقيته زجاجتيْ جِعَة، وقرأتُ له من محفوظي قرآنًا، وطلبتُ له رحمةً يستحقُّها، ومضيتُ.

في الرحيل الكبير، أمعنتُ في جدوى الحياة فأُصبتُ بالكآبة. كنتُ فائضًا عن الدنيا وزائدًا، بعد أن أخطأت بوصلتي طريقها في إثر حادثة سير عاطفيَّة. تسلَّلتُ إلى الحدود الجزائريَّة موقنًا بأنّني بذلك

دشَّنتُ التيه الأكبر. لم أكن وطنيًّا بليدًا يتلذَّذ بالأغاني الوطنيَّة، ولم أؤمن يومًا بجدوى الوطن ولا ترابه. كنتُ في المغربِ أحملُ غربتي مثلما حملتها في الجزائر وتونس وليبيا. كانت شامة هوّيتي، موطني، بلدي، وكنتُ أنتمي إلى التراب تحتَ قدميها فقط، لأنَّها تمشَّتْ عليه. حين خانتْ، ثم حين حسمتُ كلَّ شيء بحفلة دم، وجدتُ قناعاتي في الحياة تتداعى، ثم تتهاوى مُحْدِثةً ضجيجًا أصمَّ أذنَيَّ عن الحياة بشكلٍ نهائيّ.

أعرفُ البحر... فقد أطنبَ عجوز البيضاء في وصف حالاته وتحوُّلاته. أحاديثُ كلُّها مبالغاتٌ يدفعُ بها العجوز مللَ الساعات الطوال التي نُمضيها معًا مبحرَين، لكنَّ بحر بنغازي غريب وموحشٌ، له رهبة تقشعرُّ لها الأبدان. كانت فكرة الهجرة السرِّيَّة حماقة لا مندوحة لي عنها بعد أن ضاقتْ بي بلادي...

(وسُمعَ لقذيفة سقطتْ غيرَ بعيدٍ دويٌّ حادٌّ، تحرَّكتْ لهُ إطاراتُ صور العائلةِ المعلَّقةِ على الجدارِ. قبلَ أن تسقطَ صورة الأب، كانتْ في متناولِ يدِ الأشقر، حملها، تأمَّلها هنيهةً ثم رماها بعنفٍ غيرِ مبرَّر. تساءلتُ في سرِّي إن كانت البيوت تتألَّمُ لغيابِ ساكنيها، إن كانتْ تتأثَّرُ بما يلحقهم من أذًى، أو تشتاقُ إليهم مثلما يشتاقونَ إليها!)

استرسلَ الأشقرُ قائلًا:

«على ساحل بنغازي، سقطتْ بطاقة تعريفي الوطنيَّة. تلوَّت بها النيران كأفعى وجدت عسرًا في ابتلاع ضحيَّتها. كانت تلك الوثيقة التافهة كلَّ ما يربطُني بالوطن، وها قد احترقتْ أخيرًا، وتحوّلتْ بركلة إلى نثار تبدَّدَ مع الرمل.

كان جنونًا ما حدث، يا وليد؛ حماقةً أخرى تُضاف إلى قائمة الحماقات! اعتلى صهوة قارب الموت الأزرق نحو ستِّين مهاجرًا سرِّيًا، بعضهم من دول جنوب الصحراء وآخرون من شمال أفريقيا. كنتُ في ذلك القارب الأشقر الوحيد، كأنِّي أوروبيٌّ من هواة الحماقات لا غير... وقد بتُّ محلَّ شكٍّ حينَ أشحتُ عن الموت المحوِّم وجهي، وبدتْ أساريري أكثر انطلاقًا كأيِّ ناسك يودُّ لقاء ربِّه بوجه بشوش.

كان البحر ثقيلًا بين بنغازي وباليرمو. القارب يترنَّحُ ذات اليمين وذات الشمال بعد أن أتعبه ثقل ما يحملُ من بشر وهموم. شاختْ الوجوه في يوم واحد وعافت الطعام، وامتلأ البحر بقيئهم وبَوْلهم، كلٌّ يُطفئ صفرة بَوْله في البحر. أمّا من اشتدَّت أزمات بطنه، فكان يغتنم حلكة الليل ويجلسُ بفخذيه على طرف القارب مسلِّمًا مؤخّرته وبِرازه للبحر!

مخيفٌ هو الليلُ في عرض البحر. سوادٌ سرمديٌّ ونجومٌ قريبة أشبه بقطوف دانية. كان السواد يحاصرنا من كلِّ جانب، كأنَّنا نسبحُ في الفضاء. فاليسيا، تلك المهاجرة الأفريقيَّة التي أزعجنا بكاءُ رضيعها في الليلة الأولى، وحرمنا أن نحتميَ بالنومِ من وحشة المكان، قفزتْ إلى البحر في الصباح الباكر هي ورضيعها الذي لم يبلغ بعد الشهورَ الثلاثة. لم يجازف أحدٌ في إنقاذها، فقد أكّدَ قائدُ رحلتنا قبل بدء الرحلة أنَّه لن يتوقَّف لمعالجة طيش الحمقى!

راقبتها وهي تتخبَّطُ في الموج. لا يكادُ جسدها يغيبُ حتى تندفع إلى الأعلى متمسِّكةً بعناق رضيعها. غابا تمامًا، ثم اندفعا إلى الأعلى، إلى أن فضَّ الموتُ عناقهما وشرعتْ تباعدُ بينهما الأمواج.

تذكَّرتُ حياةَ ومرارة اللعبة التي ورَّطتني فيها، وتمنَّيتُ لو أنَّها كانت بمثل شجاعة فاليسيا.

شاختِ الوجوه في يوم من السفر، فيها تقرأ بؤس البشريَّة وضحالة الإنسان... ترى في رجفة الأصابع حجمه الحقيقيّ أمام بطش الطبيعة. أمّا حين يخلعون ملابسهم ويديرون للبحر ورياحه الدبقة مؤخّراتِهم، فإنَّك ترى أنَّ جسد الإنسان عالةٌ عليه. لم آكل قطُّ لئلّا أقعَ في الموقف السمجِ، اكتفيتُ بزجاجات الويسكي التي يكون البول ضريبتها الوحيدة.

تلك الأضواء التي أسعدتنا في الليلة الثانية تبدو بعيدة. قال قائد الرحلة إنَّنا انحرفنا عن مسار الرحلة، فتفشَّت الخيبة، ثم قال إنَّ تعديل المسار سيكلِّفنا ليلة أخرى. كان القرصان كابيَ الوجه باديَ الحزن، يظهر من كثرة تطلُّعه إلى السماء أنَّ بوصلتهُ قد خانته. انتبهتُ إلى الكارثة التي كانت تقترب ببطء، وحين همستُ في أذنه بالخطر المحدق تهجَّى عبارات الأسف، وانتزعَ منِّي وعدًا بأن أُبْقيَ الأمر طيَّ الكتمان. لكنَّ الكارثة لا تأبه تكتُّمَنا. كانت قادمة بكلِّ جبروتها. وفي فجر الليلة الثالثة، غير بعيد عن باليرمو، اندلعتْ.

مثلما تتلاعب الرياح بريش حمامة تلاعبت الأمواج بالقارب، قذفت بنا في الظلمة الدامسة والماء المالح البارد، وطوَّحتْ بكلِّ واحدٍ منّا في اتِّجاه. كنت محظوظًا حينَ سافر بي بريد الموج إلى أقرب ساحل!»

وسكت الأشقرُ فجأةً. أصاخَ السمعَ إلى دَوْرِيٍّ يغرِّد غيرَ بعيدٍ، لربّما ألجأتهُ الحربُ أو زخّاتُ المطرِ إلى النافذة. تهلّلتْ، على الرَّغم

من تعبهِ الفادحِ، أساريرُه. بدا مستمتعًا بتغريد الطائر، قبلَ أن يُخرسه اندلاعُ رصاص غزير. تطلَّعَ إليّ الأشقرُ بنظراتٍ متعبةٍ، تنهّدَ ثم استرسلَ قائلًا:

«نيكول طبيبةُ تخصُّص لم أفهمه، على الرَّغم من أنَّها أسهبتْ في شرحه. اقتحمتْ بسيّارتها رمال شاطئ باليرمو في ذلك الفجر العاصف، وقد عقدت العزم على وضعِ حدٌّ لحياتها. درستِ الطبَّ بشغف كبير. هذه المعرفةُ التي أقبلتْ عليها بنهم بالغ كانت سببَ مأساتها. نيكول كانت دائمة الاعتقاد بأنَّ أختها الكبيرة ليستْ ابنة أمِّها وأبيها، تختلفُ عنهما وعنها في شُقرة رأسها، وزرقة عينيها، وفي كثيرٍ من طباعها. كانت لا تشبهها ولا تشبه والديها في شيء.

حين تمرَّسَتْ في عالم الطبِّ دفعتها الغواية إلى اختبار شكوكها... لتكتشف في الأخير أنّها هي، لا أختها، دخيلةٌ، لا تنتمي إلى تلك العائلة. أخرستها الصدمة. أعادتْ الفحوصات المرَّة تلو الأخرى من دون فائدة. بكتْ إلى أن نضب الدمع، ثم قرَّرتْ بعدَ أن تركتْ وصيَّتها وضعَ حدٌّ لحياتها...

حين ترجَّلتْ من سيّارتها، ومشتْ صوب البحر الهادر متحرِّشة بالموت، رأتْ جثَّتي تتلاعبُ بها الأمواج قبل أن تلفظها على مقربة من قدميها.

فتحتُ عينيَّ، وأنا مسجًّى على رمال باليرمو فجرًا، على شفتين تطبقان على شفتيَّ ويديْن تخبطان صدري. تلقَّفتني نيكول كرشوة من البحر في مقابل أن تنثنيَ عن جنونها؛ فرَّتْ بي إلى سيّارتها ثم إلى بيتها، تتحشرجُ دموعها وهي تدلقُ كلمات لا أفهمها. كانَ قليلُ الفرنسيَّة كلَّ

نصيبي من اللغات الأجنبيَّة، وبها انتهينا أخيرًا إلى حوارٍ، أقلُّ ما يقالُ عنه إنَّ نصفَه لغةٌ ونصفَه الآخر إشاراتٌ. كانتْ عيناها المخضلَّتان بالدموع جميلتين. طرحتْ عن جسدي حقيبة الظهرِ والملابس المبلّلة الثقيلة، وتفحَّصتْ بأصابعها جسدي الذي تقصَّفَ بين الأمواج، ثم أسعفتني على مغادرة السرير والاستلقاء في حوض استحمام ساخن... يااااه، يا وليد، كنتُ محظوظًا أكثر ممّا يجب ذلك اليوم.

دلَّكتْ جسدي بالصابون ثم ببعض المستحضرات الزيتيَّة، قبل أن تعيدني إلى سريرها. كان الأمر إذ أستعيده أشبهَ بحلم لذيذ. استيقظتُ لأجدها إلى جواري في السرير. قابلتني بابتسامة عذبة... سعيدةً كانت كما لو أنَّها تركتْ عند الشاطئ ذاكرتها القديمة، بعد أن وهبتها السماءُ الغاضبة ذاكرةً جديدة.

عاملتني كصبيَّة تعثرُ على دمية بحجم جسدها، صرتُ ـ ساعاتٍ بعد اكتشافها أنَّها لا تنتمي بيولوجيًّا إلى عائلتها ـ كلَّ عائلتها. تقولُ في قمَّة الفرح إنَّني ابنها ووالدها وزوجها. منذ أن عثرتْ عليَّ صدفة، لم تعد تفارقني إلَّا حين يذهبُ أحدنا لقضاء ما لا بدَّ لآكل الطعام منه.

أحبَّتني بهبلٍ، كأنّي كلُّ الرجال، وتعلَّقتُ بها كثيرًا. كنتُ ممتنًّا لها، لأنَّها بقبلات الفجر تلك أسعفتني. كذلك كنتُ معجبًا بها. كانت تملكُ جسدًا ممشوقًا طريًّا وطازجًا، عيناها عسليَّتان وشعرها حريريٌّ ضاربٌ إلى الحمرة. علمتُ منها بأنَّني أوَّلُ رجلٍ تنامُ معهُ، وأنَّها كانت قبل ذلك أكثر ميلًا إلى بناتِ جنسها!

اقترحتْ أن تستصدرَ لي أوراقًا ثبوتيَّةً، فرفضتُ. اقترحتْ أن

نتزوَّجَ، فرفضتُ؛ أن تموِّلَ مشروعًا أسيِّره، فرفضتُ. كانت تعلمُ بأنَّني طائرٌ أفريقيّ مهاجرٌ صوب ما لا يعرفُ، وأنَّني، مهما طال بي المقامُ، راحلٌ راحل. تمسَّكتْ بي كأنِّي السببُ الوحيد الذي يربطها بالحياة. طُفنا أوروبا معًا؛ عشنا الهبل واقترفنا الحماقات، وساعدتها بعد أكثر من سنة أمضيناها ملتصقين على أن تنفطمَ عن وجودي في حياتها... أن تواصل بجسارة حياتَها الجديدةَ غير آبهة بجرح الهويَّة.

في ليلتنا الأخيرة في فندق راديسون بلو في مدينة نيس، أسلمتْ إليَّ رأسها طواعيَّة، حلقتُه وانتقيتُ لي أجملَ جديلة، ووعدتُها ـ كذبًا ـ بأن أزور باليرمو كلَّما وجدتُ إلى ذلك سبيلًا، وتركتُها على أروع إغفاءة، ومضيتُ.

إيڤا / روتردام

مُهرةٌ لم تبلغ الثامنة عشرة بعدُ. شقراء، جميلة، صافية الملامح، دقيقة الأنف، علقتْ بي بعد أن التمستُ منها بوقاحة، وبفرنسيَّة ركيكة، قبلةً. التصقتْ بي على الرَّغم من أنَّنا نتواصل فيما بيننا بمشقَّة، وألحَّتْ في أن تصحبني صنمًا إلى منزل عائلتها. ذكَّرتني سنُّها، فتوَّتُها، شَغبُها الجميل وكركراتها التي لا تنتهي بشامةَ. كانت تنكأُ من دون أن تدري جرحي الكبير. كان يعجبني كعكُ والدتها، ومواظبةُ والدها على مشاهدة الأخبار ومناقشة كلِّ تفاهاتها. لم أكن أعرف ما يقولونه إلَّا إذا تفضَّل أحدهم وترجمهُ. أمّا حديثنا أنا وإيڤا، ولغتنا الوحيدة التي لا نجيد غيرها، فهما حديث الجسد ولغته، من قُبَل ساخنة إلى عناقات حارَّة.. قادتني لهفتي إلى فضِّ التحام فخذيها؛ أرقتُ دمَ البداية وغيَّبتنا جماليّاتُ لغتنا البديعة؛ اللغة الوحيدة التي

توحّد الجنس البشريّ، لا نفيقُ منها إلّا لنعود إليها. قبل أن يُقْبلَ الموسمُ الدراسيّ، ويُبديَ والداها نحوي بعض الفتور، انتقيتُ لي من شعرها خُصلةً، وتركتُ عينيها مخضلّتين بالدموع وغادرتُ روتردام.

كارولين / بروكسيل

مهاجرة أفريقيَّة من دول أفريقيا، جنوبيّ الصحراء، سمراء فارعة الطول على قدر مهمٍّ من القبح، تذكِّرني دائمًا بحداثة بودلير وعلاقته بامرأة سوداء. لا يمكن أن نسير أنا وهي في شارع من دون أن نثير السخرية. احتميتُ بحرارة جسدها من شتاء بروكسيل القارس. وقبل أن أغادرها، بعد شهور من الجنس والألفةِ، أضفتُ إلى قائمتي خُصلةً من شعرها الأشعث.

أليسيا / برشلونة

اختطفتني من بروكسيل، وطارتْ بي إلى برشلونة بواسطة طائرة خاصَّة سيِّدةُ أعمال ناجحة، عجوز، حملتُ إلى سيّارتها الفارهة صندوق الخمر حينَ كنتُ أعملُ في حانةٍ، فكان اللقاء. حملتني كدميةٍ جنسيَّة معها أينما حلَّتْ. . . أُطفئُ مراهقتها المتأخِّرة وحاجتها إلى العاطفة، وأروِّضُ شبقها، لكنَّها بعد أن ترشَّحتْ لانتخابات ما، تخلَّتْ عن خدماتي، بعد أن دسَّتْ في حقيبتي مبلغًا طائلًا.

رأيتُ في أوروبا الكثير من النساء، يا وليد. أذكرُ المؤثّرات منهنّ. أعملتُ آلتي في كلّ قُفل. ضاجعتهنّ في الشقق، في سلالم العمارات، في مرائب السيّارات، في المراحيض والكنائس والحدائق والفنادقِ والسطوحِ. . . عرفتُ نساءً بعدد شعرات رأسي، أغلبهنَّ يعلقنَ

في الذاكرة للحظات، ثم يسقطن كأزرار القمصان المتعبَة من دون أن يُحدثَ سقوطُهنّ أيَّ ضجيج. تصوَّر أنَّني ملأتُ الحقيبة بخصلات شعورهنَّ، وكنتُ لأستحقُّ دخول موسوعة غينيس للأرقام القياسيَّة تحت أكثر من مسمًّى!

مطلعَ 2008 عادت سفني أخيرًا إلى نيكول، جميلة باليرمو.

أنطونيا / باليرمو

جنوبيّ باريس، في حديقة مونت سوري (mont souris) الجميلة، تربَّص بي مجموعة من الشباب. حين انتهيتُ إلى شارع مقفرٍ، ضاقتْ بي خطواتهم ثم حاصرتني سيّارة متواطئة معهم. قالَ أحدهم إنَّها قضيَّةُ شرفٍ، وقالَ آخرُ إنَّني ضاجعتُ زوجتهُ أمس. كانوا خمسة شبابٍ، وكنتُ ذئبًا لم تقلِّم صحبةُ الحسناوات مخالبَه. انتهتْ معركتي بجرحٍ فجّ في جنبيَ الأيسر، أرديتُ منهم اثنين بطعنات تعمَّدتُ أن تكون في أماكن غير قاتلة.

طاردني آخرون، وطاردتني الشرطة الفرنسيَّة. استصدرتْ بحقِّي مذكّرة بحث، فركبتُ أوَّل قطار يغادرُ باريس. قرأتُ في جرائد اليوم الموالي أنَّ مهاجرًا سرِّيًّا عربيًّا قد هاجمَ شبابًا بالسلاح الأبيض، جرحَ اثنين منهم: الأوَّل جروحه طفيفة، والثاني في العناية المركَّزة بعد أن نزفَ دمًا كثيرًا. تتوسَّطُ المقالَ صورةٌ لي اعتقلتها إحدى الكاميرات المثبَّتة في تلك الحديقة.

وصلتُ إلى باليرمو عند الساعة الثالثة صباحًا. سرتُ الهوينى متعَبًا بين الأزقَّة والدروب، إلى أن وصلتُ أخيرًا إلى منزلٍ آوى فرحتي أنا ونيكول، واحتضن جنوننا المشترك.

هاتفتُها وأنا أقفُ على مقربة من بيتها، فطارتْ فرحًا، وهبَّتْ إلى فتح الباب من دون أن تتذكَّر ارتداءَ ملابسها. واجهني عريها الصادمُ. التحمتْ بعناقي، قبل أن تهمسَ، بنوع من الغبطة، أنَّ في غرفتها تنامُ صديقتها الجديدة أنطونيا، وأنَّني سأكون سعيدًا بالتعرُّف إليها...

شعرتُ بالقرفِ، وأنا أستمعُ إلى حديثها عن علاقتها السحاقيَّة بصديقتها، لكنَّني تكتَّمتُ. كان حديثنا الذي بلغ بنا الصباحَ لذيذًا، وكانت رؤية تلك الصور التي أرسلها إليها أينما حللتُ مرَّة أخرى ألذَّ. ذهبتْ عند التاسعة صباحًا إلى عملها، وتركتني مجندلًا على الأريكة التي تتوسَّطُ منزلها، إلى أن أيقظتني أنطونيا. أصابني جمالها بالخرس، وأربكَ فيَّ جسدها الذي يتقطَّرُ شهوة أكثرَ من رغبة. كانت جسدًا منحوتًا بفنِّيَّة عالية. المجنونة تمشّتْ أمامي عارية متذرِّعة بفرنسيَّة ركيكة، بأنَّ الأمر له علاقة بوعد قطعته على نيكول بألَّا تدخلَ منزلها إلَّا وهي في كامل عريها. كانت عانتها غيرُ الحليقة أوَّلَ ما قاد المودَّة بيننا، ذلك بأنَّني التمستُ، وأنا أفركُ جسدها في الحمّام الساخن، أن أجزَّ حديقتها السفليَّة. لم تمانع قطُّ!

أمّا ما تلا ذلك، فلا بدَّ من أنَّكَ تعرفه جيّدًا. لم أكن أغادر بيت نيكول إلَّا لمامًا. أزهى أيّامي في أوروبا أمضيتُها بين جسدين باذخين، أجمعُ بينهما على السرير الواحد، إلى أن طرقتِ الشرطة ذات يوم بابَ فرحتنا، وكان ما كان...

آخرُ عهدي بهما الساحلُ. التحمنا ثلاثتنا على قبلة مضرَّجةٍ بالشهوة. أسلمتني لحظتَها نيكولُ خُصلةً من شعر أنطونيا، بعد أن أطلعتها على آفتي الغريبة، وتمَّ حشري بعدها على متنِ باخرة لفظتني أنا وحقيبتي على الساحل التونسيّ.

التيه الكبير

كنّا أنا والأشقر الثملُ جارَيْ حربٍ دامية. . . لكنَّنا لم نشأ أن ننخرطَ فيها. كان عُذره هو أنَّ بقيَّة الجسد المنهَك لا تُسعفُ. أمّا أنا، فلم أشأ أن أتخلَّى عن الأشقر وحكاياته التي لا تنتهي. كانت الشمعة تقدِّمه كابيَ الوجه ضامرَ الملامح، منتكسَ الهامة، تنفرجُ شفتاه عن ابتسامة، لا أدري كيف يمتلكُ شجاعتها والحربُ تحفُّنا من كلِّ جانب.

الرصاصُ لا يزالُ يضجُّ في عين العرب، والقذائف العمياءُ الثقيلة تدكُّ أرضها فتهتزُّ بنا البناية أحيانًا، حتى لَنظُنّ أنَّها ستنخسفُ بنا. أمّا عن المتناحرين من الطرفينِ، فلا نسمعُ منهم سوى تكبيرات، كلٌّ باسم الربِّ يعلنُ جنونه وتهوّره أمام رصاص عشوائيٍّ يُصيبُ ويُخطئ. . .

على الساحلِ التونسي، توقَّفَ الأشقرُ عن سرد الوقائع العجيبة. تحرَّكَ يسحبُ ساقه المعطوبة صوب النافذة. أماط عنها الستارة، فأضاءت الحربُ غرفتنا، وأكَّدتْ يُتْمَ الشمعة أمام حرائق الحرب، «لن

تُصلحَ الحربُ ما أفسدَ الربّ...» قال، ثم أعاد الستارة إلى سابق عهدها، فاستعادت الشمعة وهجها. ارتمى على الأريكة متعَبًا، ثم أخذ زجاجة النبيذ بقبلة طويلة وأشعلَ السيجارة، قائلًا، وقد بدا منسحبًا أكثر من أيّ وقتٍ مضى إلى أعماقه:

«حزينٌ جدًّا، يا وليد... أستشعرُ في أعماقي أنَّني ما عدتُ آمنًا. دائمًا، كنتُ أحملُ يقينًا سرِّيًا بأنَّ الربَّ إنَّما يستبقيني في الأرض ليمتحنَ بي قدرةَ مخلوقه الهشّ على التحمُّل.

أعتقدُ أنَّ الربَّ الذي يُكبِّرون باسمه، كلَّما ضغطوا على أزندة رشّاشاتهم، وكلَّما رموا قنابلهم، وكلَّما هدَّهم التعب، قد اصطفاني ليختبرَ بي هشاشة الكائن البشريّ، وليعرفَ من خلالي كيف يضعُ للبشريَّة تاريخَ صلاحيَّة. أنا نبيٌّ من دون نبُوَّة يا وليد، هكذا هم أنبياء الزمن الرديء.

حسنًا. بعدما ترجَّلتُ عن سماء أوروبا وصولاتي وجولاتي بها، اكتشفتُ ـ قد يبدو الأمر حقيقة صادمة ـ أنَّني ورثتُ عن حياةَ عهرَها كذلك. كنتُ عاهرًا أمنحُ جسدي مَن تشتهيه من دون حبٍّ. الفرق الوحيد بيني وبين العاهرة ـ بعد الجنس طبعًا ـ أنَّني لم أكن آخذُ مقابلًا لخدماتي، اللهمَّ إلّا مع آليسيا البرشلونيَّة... وكنتُ أستحقُّ كلَّ ما دَفَعتْ. كانت تأتيني بجسد معطوب أَوْدَعَ فيه الربُّ شبقَ الدنيا، فأسهر الليالي الطوال أقلّبها ذات اليمين وذات الشمال مرمِّمًا جوعها، حتى إنَّني في كثيرٍ من الأحيان أفقدُ إحساسي بآلتي داخل رحمها المتيبِّس. ولولا أنَّها كانت تحرصُ على استقدام مُهرة، في عمرِ لوليتا، تحرِّضني عليها، لكان اللعبُ في أرضها محنةً بالغة الإيلام.

كنتُ عاهرًا أقتفي سيرة حياةَ، وأستلذّ الأمر، وأزهو كديك يرفلُ في ألوانه. العهرُ ليس حكرًا على النساء. الرجلُ الذي يُعمِلُ مفتاحه في كلِّ قُفل هو عاهر، بقدر ما هي عاهرةٌ المرأةُ التي تفتحُ أبوابها لأيِّ طارق. كنتُ أحملُ في جسدي لوثةً ما؛ طاقةَ عهر شديدةَ الكثافة، وقدرةً مهمَّة على أن أبلغَ بالمرأة السقف، سقف الشهوة، ولعلَّ هذا الأمر هو ما جعل فراشات أوروبا يحمْنَ حولي، ويجرِّبنَ لذَّة الاحتراق بناري.

دُفعتُ إلى الساحل التونسيّ دفعًا. كنتُ الأشقر والأبيض الوحيد الذي حُشر في الباخرة التي أعادتْ الكثير من المتسلِّلين الأفارقة إلى الساحل الأفريقيّ، ووأدتْ أحلامهم الورديَّة. لم ألبثْ طويلًا معهم على الساحل الغابونيّ، ذلك بأنَّني تعرَّضتُ لعنصريَّة معكوسة. فهمتُ وقتها أنَّنا لا نتعرَّض في كثير من الأحيان للعنصريَّة نظرًا إلى أنَّنا مختلفون، بل لأنَّنا أقلِّيَّة...

كانت تونس الخضراء مفترقَ طُرُق. حرتُ بين العودة إلى المغرب أو الاتِّجاه شرقًا، أو المجازفة مرَّة أخرى ومحاولة العودة إلى أوروبا! في كثير من محطّاتِ حياتي كنتُ آنسُ لظنٍّ غريب: أنَّ الحياة لا تنتظرُ منّا سوى أن نباركَ اختياراتها لنا، فهي لا بدَّ من أن تُنضجُ ظروف كلِّ تجربةٍ جديدة. والحقيقة، أنَّ ذلك ما حدث. آويتُ في إحدى الليالي إلى بيت قرويّ في ضواحي بنزرت. كان الرجلُ يسبلُ لحية غزيرة تغطّي أساريره الضامرة، وتضفي عليها وقارًا مهيبًا. ولأنَّني كنتُ قد أمضيتُ أيّامًا بحالها أفترشُ الأرض في الغابة، فقد استغرقتُ في نومٍ يشبهُ الموتَ على فراشه الممدود. لم يكن يُعيدني إلى الحياة سوى صوته إذ يناديني للأكل...

بعد أن أفقتُ أخيرًا من غيبوبة التعب، بدأ يطرقُ أبوابي الموصَدة. عرضَ عليَّ العملَ معه، فوافقتُ. وحينَ رأى أن يسترَ بعزوبيَّتي جموحَ كبرى بناته، أبديتُ ممانعة شديدة. . . كانَ فيها بذرة تعهُّر سَقَتْها العنوسةُ واليأس. كانت دائمة السعي إليَّ، تأتيني إلى تلكَ الخربة المنزوية غير بعيد عن منزل القرويّ، لأَسقيَ أرضها المجدبة. وكانتْ تشترطُ فوق ذلك أن تأخذ مقابلًا لـ «خدماتها»، فكنتُ أعطيها ما أتقاضاهُ من والدها!

فيما بعد، تأكَّدتُ من أنَّ والدها لم يكن يُسبلُ لحيته تلك عبثًا، وأنَّ عمله في الحقل لم يكن سوى غطاء لتجارة أهمّ. في ليلة مقمرة، رأيتُ أسطولًا من السيّارات الرباعيَّة الدفع يستقرُّ قبالة منزله، قبلَ أن يترجّل منها جيشٌ من الملتحين. وما هي إلَّا أيّام قليلة حتى اقترحَ عليَّ أغربَ اقتراح: أن أسافرَ إلى أفغانستان لنصرة المجاهدين. كان كلامه مبطَّنًا بالتهديد بأن يسلِّمني إلى الشرطة التونسيَّة. بالنسبة إلى أحمق مثلي، أعتقدُ أنَ آخر ما كنتُ أفكِّر فيه هو الشرطة، لكنَّني طربتُ للفكرة. وجدتُ فيها بديلًا لحياتي الراكدة بين حقلين: أرض العجوز وأرض ابنته.

لم تكن علاقتي بالله تستحقُّ أن أدافعَ عنه. كبرتُ في بيت دعارة، ولا نكاد نسمعُ أخبار الربِّ إلَّا في شهر رمضان والأعياد الدينيَّة. لم تحطَّ جبهتي على الأرض يومًا إلَّا اضطرارًا. لم أكن أشعرُ بأنَّني مدينٌ له بشيء، كما لم أكن أشعرُ بأنَّه معنيٌّ بهمومي. لم أكن أحبُّه مثلما لم أكن أكرهه، على أنَّني لم أكن أنفي وجوده. كان أمرهُ بالنسبة إليَّ بعيدًا، كأنَّني وُلدتُ وأنا على يقين بأنَّني أقعُ في منطقة لا تقعُ ضمنَ اهتماماته.

لكنَّني أخيرًا، وجدته يجتذبني إلى أكثر البقع حلكةً في العالم. كان يمكنُ أن أهرب، أو أن أستسلم للشرطة كما هدَّد القرويُّ. كان يمكنُ أن أقوم بالكثير بدلًا من الاستكانة لتلك الكلمات البرّاقة، التي لم تكن تحرِّك فيَّ وفي قناعاتي شيئًا، لكنَّ أمرًا ما كان يحُثُّني على الرحيل. منذُ بداية حياتي وأنا أشعرُ بأنَّ الحياة قد انتدبتني لأمر ما، لم أكن أعرف على وجه التحديد ما هو، لكنَّني عشتُ على انتظاره. بعد ضجيج حياة التشرذم، بعد كلّ ما رأيتُ، آنستُ لقناعة مفادها: أنَّ الحياة انتدبتني كي أعيش في جبَّة حياة أضيقَ ممّا أريد؛ حياة كلُّ ما فيها يقتلُ الإنسان فيَّ.

في تونس، أيقنتُ أنَّ العظمة المنشودة إنَّما تكمنُ في صبري على هذه الحياة، التي تقتادني دومًا صوب المزالق الحرجة وتتخلَّى عنِّي. أدركتُ، بفطنة المجرِّب، أنَّني إنسانٌ فارٌّ من الموتِ، وأنَّ كلَّ ما أعيشه من حرِّيَّة هو غنيمةٌ أستحقُّها، فقد كان يُفتَرَضُ أن أموت بعد شامة التي دمَّرت فيَّ كلَّ شيء، وفي أحسن الأحوال كان يُفترَضُ بي أن أُمضيَ بقيَّة عمري بين جدران السجن، لكنَّ شيئًا من ذلك لم يحدث. كنتُ محظوظًا، ليسَ لأنَّني أستحقُّ ذلك الحظَّ، بل لأنَّني كنتُ دائمَ السعي إلى الفناء.

لم أعش الصخبَ الوجوديَّ وأنا أفكِّر في الموت. كنتُ واضحًا: أشتهي الموت ولا أخافه. عشتُ ما يكفي لأفهم أنَّني لا أستحقُّ الحياة بالقدر الذي لا تستحقُّني هي كذلك، وأنَّ السعادة غيرُ موجودة، وحتى إن وُجدتْ فلا بدَّ من أنَّها امتيازٌ طبقيّ، لا يستحقُّه أمثالي ممَّن وُلدوا بجرحٍ عميق في الهويَّة؛ أمثالي ممَّن وُلدوا بهزيمة لا بدَّ من أن يواصلوا هزائمهم في الحياة، ويكون الموتُ فرصتهم الرائعة للخلاص.

كلُّ شيء كان مُعَدًّا سلفًا بمهارةٍ لا تعرفُ الخطأ، وما نحنُ إلّا ممثّلونَ تافهونَ صدَّقوا أدوارهم وسمُّوا مسرحَ الله دنيا. تكونُ البطولة حينَ ينتفضُ المرءُ على دوره، ويعبثُ ـ وإن نسبيًّا ـ بحبكة النصّ، وأنا بقتل شامةَ تمرَّدتُ على دوري التافه، الدراميّ والموغل في البساطة. أفسدتُ الحكايةَ وسرقت البطولة. أليسَ مشينًا أن يعيشَ مجنون مثلي بطلًا من دون بطولة؟!

لا بدَّ من أنَّ الحياة لا تهبُ الإنسان ما يتمنّاه. لا بدَّ من أنَّها تقاومُ ما يريد، وكان الموتُ كلَّ ما أريد. صدِّقني، يا وليد، لم أَبْرَأْ من شامةَ ولم أخرج من مداراتها. كنتُ أعتقد، وأنا أطفئ حياتها بإحدى عشرة طعنة، أنَّني سأنتصرُ على الجرح الغائر داخلي، لكنَّني اكتشفتُ أنَّني عمَّقته أكثر، ووهبتها ما كان يجدرُ أن أهبَهُ لنفسي: الموت.

قلبي في طريقهِ الملتوي إلى شامة أدماني كثيرًا، وهشَّمَ داخلي ما سبقَ وهشَّمتهُ ظروفي المريضةُ. لقد أودعَ الربُّ في جسدِ المرء أكبرَ أعدائهِ: قلبًا يميلُ دومًا عكسَ ما يريد؛ عُقَدًا نفسيَّةً تنهبُ أيّامكَ وحياتكَ على مرأى منك، ولذَّةً آسرةً في الخاصرة مشروطةً دائمًا بهواجس التناسل! لقد أودعَ الربُّ في هذا الجسدِ أعظمَ أسراره، وتركنا في وعائهِ نكابدُ متطلباتهِ الملحَّةَ... بدءًا من أعتاها: الحبّ، وانتهاءً بأتفهِ ما يُطلَبُ: أن تتخلَّصَ على نحوٍ يوميّ من حفنةِ خراءٍ تزدحمُ في أمعائك...

لم أسمع بأفغانستان هذه في خبر طيِّب يبعثُ الأمل في القلب. في العادة، كان يرتبطُ الاسمُ بالحرب وبتنظيم القاعدة، وبالخوف والإرهاب... وكنتُ أعتقدُ أنَّها بلادٌ قفرٌ، تسكنها الكواسرُ والوحوش

والمتطرِّفون والنساء المبرقَعات...

كانَ رحيلنا مطلع ربيع 2008 من بنزرت في سربٍ من سيّارات الجيب الرباعيَّة الدفع. كنتُ أعتقدُ زمنًا أنَّ هؤلاء الملتحين قومُ نسكٍ وزهد في الحياة، لكنَّ بدايات اتِّصالي بهم هدَّمتِ الأصنامَ التي كرَّسها الإعلام في الذهن. إنَّهم لا يركبونَ إلَّا ما استُحدثَ من السيّارات، ولا يأكلون إلَّا أفضل المأكولات. لم يسألني أحد عن الربِّ الذي أحمله في القلب، ولم يكن أحدهم ليحفلَ بدرجة تديُّني. لم أكن بالنسبة إليهم أكثرَ من جسدٍ قادرٍ على أن يفردَ طوله، ويَدين قادرتين على حمل السلاح. كان أكثرُ ما يهمُّهم ألّا يتخلَّفَ أحدُنا عن الصلاة. لا تُقبلُ في هذا الأمر أعذارٌ، لذلك غالبًا ما كنتُ أُقبِلُ على الصلاة من دون وضوء، وأتسمَّرُ بينهم مثلَ خشبةٍ: أقفُ إذا وقفوا وأنحني إذا انحنوا، وأحرِّكُ شفتيَّ بكلمات لا تصلهم، ولا أعتقدُ أنَّ لها معنًى.

أخيرًا بنغازي، المدينة التي انطلقَ منها ذاتَ يومٍ قاربُ تيهي الكبير، وقادتني الغواية إلى أجمل سواحل العالم، وكافأَتِ الحياةُ صبري على حياة الزبل بأجمل الأقدار. الآن، أتطلَّعُ إلى البحر بخجل كبير، وأشيحُ عنه بوجهي لئلّا يفضحني الحنين، فأصطدمُ باللحى التي تحفُّني من كلِّ جانب، وتبشِّرُ بتيهٍ آخرَ. البحرُ أمامي والصحراء ورائي. جرَّبتُ البحرَ وخبرتُ لعبته الخبيثة. أمّا الصحراء ـ هذا القفر القاحل اللامتناهي ـ فوحده الربُّ يعرفُ ما تُضمر من جنون.

كنّا أينما حلَّتْ سيّاراتنا استقبلنا ملتحون آخرون بحفاوة بالغة، وأولموا لنا ما لذَّ وطاب، قبل أن نستأنف المسير، وقد انضاف إلى قافلتنا مجاهد أو اثنان. كانوا يتحدَّثون عن الآخرة كأنَّ موعدها الغد، ويُسفِّهون بإقبالهم الأهوج على الحياة مزاعمَهم.

توغَّلنا إلى جوف الصحراء الليبيَّة بعدَ أن تفرَّقنا مخافةَ أن يثيرَ تجمُّعُنا شبهةً من نوع ما، واجتمعنا مرَّة أخرى في حيِّ الزاوية في منطقة متغلغلة في الصحراء، تُدعى «الجوف». استقبلنا ملتحونَ آخرون وأولموا لنا. كان كلُّ شيء مرتَّبًا بإتقان، فالتنظيم قد ضرب جذوره في كلِّ مكان. كان هناك جنونٌ ما يختمر؛ ماردٌ لا يزالُ قابعًا في قمقمه يتحيَّنُ أنسبَ الفرص ليُطاول بقامته السماء. أعتقد الآن، بعد كلّ ما شهدتُ، أنَّ المارد كان ينتظرُ ما يُعرفُ بـ «الربيع» ليُؤْذَنُ له بالظهور!

لبثنا في الجوف أسبوعًا كاملًا. أُدخلَ سربُ السيّارات مرأبَ رجلٍ مترف استقبلنا في قصره، ثم أُعدَّت لنا قافلة النوق التي سنمضي بها جهة الصحراء. كان الأمرُ برمَّتهِ جنونًا، وكانت تلك الأيّام أشبهَ بحلم غريب. افتقدتُ كثيرًا مقعدَ الجيب المريح. سقطَ الكلامُ بيننا. واستنتجتُ أنَّ الصحراء تأكلُ الإنسان شيئًا فشيئًا، وعلى المرء الذي يرجو النجاة أن يستفيد من النوق، وأن يسلكَ مسلكها في الصمت والاقتصاد على الطاقة وحسنِ تصريف الجهد.

أخرستِ الصحراء لَغْطَ الجميع، واستوقفتْ حركة لحاهم البليدة، وتركتْ لقيحِ الذكريات أن يسيلَ على مهلٍ، ذلك بأنّ الحاضر في حضرة ذلك الفضاء اللامتناهي يُصابُ بعطبٍ بالغٍ. أمّا المستقبلُ، فيبلغُ به الضمور حدَّ الانطفاء، والبقاء كلُّ البقاء للماضي، يسعى في حنايا القلب من القيظ الذي يلفحُ الوجوه؛ من الأقدام التي تصلى الرمال الحامية، وتتوغَّلُ فيها كلَّما تعبَ المرء من القعود على صهوات النوق. يسعى الماضي إلى المرء من خلال البحَّة التي تستوطنُ الجوف؛ من الوسواس الذي يخزُ المرء ويجعله دائمَ الإحساس بأنَّ الموت قريبٌ جدًّا...

انثالتْ عليَّ الذكرياتُ غزيرةً. رأيتُ بعض التفاصيل التي كنتُ أعتقد أنَّ النسيان أدركها. الصحراء تأكلُ إرادة المرء وتنهبُ رويدًا رويدًا صبرَهُ، وتُضعفُ حصونه التي يقاومُ بها أوجاع الذاكرة، فيصبحُ فريسة سهلةً لمخاوفه وأحزانه. شرعتِ الذكرياتُ المريرة تنخسُ القلبَ بميسم شامة. أوجعتني الصحراء وهي تنكأ كلَّ الجراح التي عبرتْني. تذكَّرتُ ملامحها، خُزرتَها الرائقة وكركراتِها التي لا تنتهي، وخلصتُ إلى أنَّني لم أَبرأ منها، وأنَّ جيش الجميلات بعدها ليس في الحقيقة أكثر من مهدِّئات أدمنتُ بها الهروب بعيدًا عن مأساتي. أمّا والصحراء تستنطقُ ذاتي وخيباتي، فإنَّ أكثر من لغمٍ ينفجرُ داخلي ويُعيدُ تشويهَ ما كلَّفني ترميمُه الكثيرَ. لا نَبْرَأ من الذاكرة إلَّا بالموت، ولن يطبِّب ذبحةَ شامة في القلب غيرُ انتحارٍ خانتني شجاعته. أخطأتُ إلى الانتقام السبيلَ، أهديتُها إلى الموتِ قربانًا لعلِّي بذلك أتَّقي حزنًا يلوكني ويدكُّ العظام، ونسيتُ أنَّ أصيص القلب قد هوى من ناطحة سحابٍ، واستحال إلى شظايا.

في الصحراء، يتلاشى الزمن ولا يحتفظُ المرء منه إلَّا بما هو واضحٌ: تعاقُبُ الليل والنهار. أمّا ما دون ذلك، فإنَّ الصلةَ بالزمن تكادُ تختفي. بعد أيّامٍ طوال، ساد استياء عارمٌ في صفوف المسافرين، فقد تلبَّدت السماء بدكنة غريبة، وقالَ لنا الدليلُ إنَّ العاصفة قادمة من بعيد... شخُصت الأبصار، ودبَّ الخوفُ في المآقي، حين شرعَ دليلُ رحلتنا يحرنُ في الوجوه، ويأمرُ بأن تظلَّ النوق مرصوصة، وأن نندفنَ خلفها، مشدِّدًا على ضرورة ربط أغراضنا بها.

آه، يا وليد، إنَّ الإنسان ليتقزَّمُ حقًّا أمام الطبيعة حين تنتفضُ وتبدِّلُ أقنعتها. كانت لحظات عسيرة يرى المرء فيها الموت رؤيةَ

العين، ويشتهي أن يُريح بقبضته إحساسَه الفادح بالاختناق. قضى منّا ثلاثة رجال: اثنان منهم اختنقا، أمّا الثالث فقد كان ابنَ الأُوراس، شبَّ بين الجبال ولم يَخْبَر الصحراء. حين رأى أمواجها الهادرة جفلَ، فسحبتْه العاصفة بعيدًا وجرَّحتْ جسده، ودفنته في الرمال. ولولا حذاؤه الذي نتأ من ثوب الصحراء الجديد لَما كنّا لنهتديَ إليه. وارينا القتلى الثرى على نحو لائقٍ، وواصلنا المسير.

كانَ سقوطُ ثلاثة قتلى ضرورةً لنجاة البقيّة! حسابات القدر كانت دقيقةً جدًّا، ذلك بأنَّ تلك العاصفة كانت قد غيَّرتْ ثوب الصحراء، وأتلفتْ بوصلة الرجل المكلَّف بتوجيهنا. التبسَ عليه الأمر فكان يسيرُ قليلًا ثم لا ينفكُّ يتوقَّفُ، يجيلُ رأسه صوب الجهات، ثم يميلُ على واحدة ويأمرُنا بأن نتبعهُ، حتى اكتشفنا بعد يومين أنَّنا عدنا إلى القبور التي وارينا فيها أصحابنا، خرَّ لحظتها باكيًا معترفًا بأنَّ الصحراء خانته، ومعلنًا ضياعَنا.

ثارَ أكثرُنا في وجههِ. بعضهم أوسعهُ ضربًا. أمّا أنا، ولسببٍ نفسيٍّ غامض، فقد ابتسمتُ، ثم حاولتُ أن أدفعَ عنه غضب الآخرين. ليست الصحراء وحدها من تخون، الناسُ كذلك يخونون. الذينَ قضوا نحبهم في العاصفة، يا وليد، تركوا لنا ثلاث نوق لولاها لَما نجا أحد منّا.

تذكَّرتُ تيه حياةَ، وأحسستُ بالوحشة التي أحسَّتْ بها... الصحراء، على شساعتها، تضيقُ بالقلب، ويتسلَّقُ اليأس كأغصان اللبلاب نوازعَ القلب. اغرورقت العيون المتعَبةُ، وضمرتِ الملامح وانقطعوا عن الصلاة، وصارَ أكثرُ ما يشغلُ تفكيرهم أن يغنموا أكبر قَدْر من المياه. كنتُ الوحيدَ الذي أظهرَ الكثير من الجَلَد المبطَّن باللا

مبالاة، ذلك بأنّني كنتُ أكثرهم استعدادًا للموت. حين قلَّبتِ الصحراء أوراقيَ كاملةً، لم تجد سببًا واحدًا يجعلني أتمسَّكُ بتلابيب الحياة وأجهش ـ كالآخرين ـ بالبكاء. لم أشتِهِ من الصحراء وقتها ـ إن كانت تعدني بموت ـ سوى أن تحسمَ عذاباتي سريعًا. احتضاراتي بدأت منذُ خيانة شامة، وأنا أريدُ حسمًا هانئًا يليقُ بصبري على شططٍ لا أستحقُّه.

لكنَّني، كلَّما توغَّلتُ صوب الموت نأى عنِّي وابتعد. بعد عشرة أيّامٍ، عقرنا الناقة الأولى. شربتُ من دمها الشاخب، فامتعض الرِّجالُ، لكنَّهم تراجعوا عن عتابهم حين لم أزاحمهم على الماء القليل. أولمنا الولائمَ تلك الليلة، ثم ملَّحنا لحم الناقة ونشرناهُ على ظهور النوق الأخرى، وواصلنا المسير... كلَّما توغَّلنا أكثر تفشّى اليأسُ بيننا مهشِّمًا قلوبَ الرجال. بعدَ شهرٍ، أو أقلَّ قليلًا، عقرنا الناقَة الثانية. كان اليأسُ قد أكل الوجوه وأكلَ الرغبة في الحياة، فضمرتِ الأجساد، وكان الدليلُ في رحلتنا أوَّل من قضى نحبه بعد العاصفة. قيلَ إنَّه ماتَ حزنًا وقيلَ أرهقهُ ضميرهُ، لكنَّ الحقيقة التي لم ينتبه لها أحدٌ أنَّه كان قد امتنعَ من شربِ نصيبه من الماء منذ زمن، وكنتُ كلَّما نبَّهتُهُ إلى الأمر، ردَّ تنبيهي بابتسامة طيِّبة، وعالجَ انزعاجي منهُ بكلمة أو كلمتين.

وعلى الرَّغم من أنَّ الماء لم ينفد بعدُ، وعلى الرَّغم من أنَّه كان لدينا فائض من اللحم، فإنَّ الرجال يتساقطونَ الواحدَ تلو الآخر. كلَّ يومٍ، كنّا نحفرُ لواحد حفرةً تحتَ الرمال، ونمضي. لماذا كانوا يموتون؟ شغلني هذا السؤال طويلًا، قبل أن أستنتجَ أنَّ اليأسَ يقتلُ المتعلِّقين بالحياة أكثر من اللازم...

بعدَ أن ابتلعتِ الصحراء أزيدَ من عشرين قتيلًا، حملتْ إليّ الرياحُ تلك الرائحةَ الغامضة أخيرًا. التقطتها حاسَّة شمِّي كبارقة أملٍ، فتعلَّقتُ بها وتقفَّيتُ أثرها. اقترحتُ عليهم المسارَ، لكنَّهم قابلوا اقتراحي بسخرية شديدة، على أنَّ منهم مَن اطمأنَّ إلى اختياري. ولأنَّ جمعنا كان قد تفتّتَ منذُ بدأ المجاهدون يسقطون في شرك الموت، الواحد تلو الآخر، فلم يكن ليضيرَ أحدًا في شيء انشقاقُنا، أنا ومن صدَّقَ حاسَّة شمِّي. وما هي إلَّا مسيرة ساعتين حتى لاحتْ في الأفق أطيافُ الخضرة. هزَّنا الخوفُ من أن يكون الأمر مجرَّدَ سرابٍ زائف... تسابقنا إلى الأفق الأخضر، ولم نصدِّق أنَّنا نجونا أخيرًا إلَّا حين اندفعنا بطيشنا، بتعبنا، وأوساخنا، في النيل!

سرنا بعد ذلك بمحاذاة النهر جهةَ الشمال، وانتهينا أخيرًا إلى منطقة تُسمَّى دنقلا، شماليّ السودان؛ هناك حيثُ تخلَّصنا من النوق ببيعها، وانفضَّ جمعُنا، ومضى كلٌّ في طريق...

لبثتُ أسبوعًا أتنقَّلُ بين القرى السودانيَّة المتاخمة للنيل، وحرتُ في الطريق التي يجبُ أن أسلكَها، ذلك بأنَّني كنتُ أفتقرُ إلى أيِّ ورقة تافهة تثبتُ من أكون، وأعرفُ أنَّ المشاكلَ ستتعقَّبُني أينما ولَّيتُ وجهي. فكَّرتُ في التوجُّه إلى الخرطوم، إلَّا أنَّني عدلتُ عن الفكرة واخترتُ الشرق، من دنقلا إلى الدامر وكسلا، مرورًا بعددٍ لا حصرَ له من القرى والمغامرات... والنساء.

اقتحمتُ الحدود الغربيَّة لأريتريا، ثم الحدود الشماليَّة لإثيوبيا. همتُ على وجهي بين القرى، أوزِّعُ دولارات آليسيا البرشلونيَّة هنا وهناك، قبل أن أقتحمَ الحدود الغربيَّة لجيبوتي وصولًا إلى الصومال. فيما بعد، سرتُ على سواحل خليج عدن، وانقضت دولاراتي أخيرًا

على طاولة قمار في مدينة بوساسو الساحليَّة. لم أشأ أن أبدِّدَ ما تبقَّى لديَّ من ذهب أمِّي، لذلك وجدتُني بعد أيّام أطلبُ الرزق في الميناء، فقد أكسبتني صحبة البحر مهاراتٍ كثيرة. الصعوبة التي واجهتها هي أنَّني كنتُ أتعرَّض للعنصريَّة تارةً، لأنَّني مسلم، وتارة لأنَّني أبيض، وتارة لأنَّني أشقر!

تذكَّرتُ، وأنا أقتحمُ البحر مرَّة أخرى على متن قارب صغير، ذلك العجوزَ الذي اشتغلتُ معه في البيضاء. اشتغلتُ في بوساسو مع عجوز آخرَ لا يقلُّ عن الأوَّل شحًّا، واضطررتُ إلى تركه أيّامًا بعد بدء العمل، لأنَّ ذلك القليل الذي يجود به لا يغطِّي تكاليف الحياة التي اعتدتُها، منذ خرجتُ من منزل حياةَ وسرقتُ ثروتها من الذهب. لقد عشتُ أميرًا، ولم أعرف الفاقة إلَّا لمامًا. الآن فقط، عرفتُ قيمة ما عَبَرَ حقيبتي من أموال. لكنْ، ولأنَّ سيرتي ترتبطُ بالعاهرات أينما ولَّتْ سُفني، فقد وضعَتِ الحياةُ في طريقي نورَ؛ العاهرةَ السمراء اللعوب التي تديرُ الميناء بفخذيها، أو هكذا زعموا. كانت، على الرَّغم من سمرتها الضاربة إلى السواد، باذخة الحُسن، لا تجدُ قلبًا في الميناء سليمًا من لوثة جمالها.

وعلى الرَّغم من أنَّها لم تكن لتعالج طلبات الجميع، وكانت في الغالب الأعمِّ تكابرُ ولا تسلِّمُ نفسها كصيد سهلٍ، فإنَّها ما كانت لتُعامَلَ معاملةَ العاهرات. كانت تحظى بتقدير واحترام كبيرين، لأنَّ في قلبِ كلّ من يعلقُ في شباكها أملًا صغيرًا في أن يحالفه الحظُّ الكبير ذاتَ يومٍ فيُهدهد ظهرها الليِّن.

كانت المليكةَ السمراء التي توَّجتها المدينة... ولأنَّني كبرتُ في وسطِ عاهرٍ، وأنفقتُ عمرًا في صحبة المومسات، فقد كنتُ أعرفُ

جيّدًا كيف أبيعُ الهوى وأروِّضُ العاهرة بسلعتِها. لم أتعبْ كثيرًا في معرفة من أين تؤكَلُ كتفُ نور. العاهرة أكثرُ مخلوقات الربِّ حاجة إلى العاطفة، لأنَّ ذلك وحده يوقظُ الإنسانَ فيها من سُباتِه، ويُشعرها بأنَّها أكثرُ من ثقبٍ في لحم... العاهرة حفنةُ نورٍ هشَّةٌ، وخلفَ رمادها جذوةٌ إنسانيَّة تقاومُ الانطفاء. وحدَه من يُجيدُ فنَّ الإصغاء قادرٌ على إنقاذها من أتون التلاشي... حياةُ مثلًا، لم تعلق في شَرِكِ مراد «س» إلَّا لأنَّه كان مستمعًا أنيقًا، يعاملُ أوتارها معاملةَ عازف يحترمُ غواياته، وهذا بالضبط ما قمتُ به أوَّلَ ما طرقتُ أبواب قلب نورَ السرِّيَّةَ، وإن لم تُسعفني عربيَّتها، على الرَّغم من أنَّها كانت تحملُ في صدرها القرآن؛ لم أصدِّق هذه الحقيقة لولا أنَّني دفعتها ذات ليلة إلى استظهاره. لم أستوقفها إلَّا بعد أن أتتْ على «سورة البقرة» ونصف «آل عمران»!!

غريبٌ أمرُ هذه الدنيا حقًّا! لم أجد بين جيشِ المجاهدين حافظًا واحدًا لكتاب الله مثل نورَ العاهرة؛ ولا مواظبًا مثلها على الصلوات في مواقيتها، حتى إنَّها كانت في كثير من الأحيان تغتالُ فيَّ شهقة الجنس مبكرًا، وتقومُ للاغتسال استعدادًا لصلاة الفجر. كما أنَّها لم تسلِّمني فتنَتَها إلَّا بعد أن انتزعتْ منِّي وريقةً تافهةً، نُقرُّ فيها معًا بأنَّنا زوجان على سُنَّة الله ورسوله، وأبقتْها في جيبِ بنطالي، وتركتْ لي حرِّيَّة أن أمزِّقها متى شئتُ، وأن أتملَّص منها بكلمة الطلاق متى عنَّ لي ذلك...

كانت تسلُكُ هذا المسلك مع جميع زبائنها. لا ترتبطُ برجل إلَّا وهي - في عُرفها - زوجتُه. راقني نمطُ بغائها، وإن كنتُ أشاكسُها باعتراضات جمَّة. كنتُ حبيبها الفقير، واستثناءها الصغير. كبُرتْ

منزلتها في عيني بعد أنْ عرفتُ أنَّها دُفعتْ إلى هذا المصير دفعًا، لتَعُولَ أبًا كسيحًا دَكَّت قدميه آلةُ الحرب الأهليَّة، وأمًّا عمياء، وإخوةً حسَكَ الجوعُ والمرض أجسادَهم.

انضافَ إلى قائمة من تَعُولهم زوجٌ أشقر خامل. كانت تسجِّلُ في كُنّاشةٍ قائمةَ الأزواج ونبذة عن صفاتهم وطباعهم من باب الذكرى. كنّا متواطئَين على هذه الغواية، غير أنِّي لا أقف عندها بل أحلق الشعر أيضًا... (أطلعتها على آفتي فلم تحفل، كانتْ تستهويها الشعور المستعارة!)

شهران مرّا وأنا أعيشُ في كنف نور، لا تقيمُني عن جسدها سوى صلواتها الكثيرة. ولأنَّني كنتُ سريع الضجر، فقد التمستُ منها أن تُسعفَ محنتي بتدبير عملٍ يليقُ بي. تعلَّمتُ من حياةَ أنَّ العاهرات مفاتيحُ المدن. لم يطُلْ بها التفكير، كأنَّها كانت تعلمُ بأنَّني في حاجة إلى مثل ذلك العمل الذي اقترحتْ. اتَّقدتْ عيناها ببريق مدهشٍ، وعجبتُ أنا من الحياة تقتادني دائمًا إلى مسالكَ موغلةٍ في التيه، وتتركني أتحسَّسُ بقَدَري المعطوب طريقَ العودة وحيدًا.

لم أكن أشاهدُ الأخبارَ ولا أختلطُ بالعامَّة، وإن بادرَ الكثيرون إلى محاباتي والتودُّد إليَّ، لعلَّ ذلك يقرِّبهم من المليكة السمراء... وعلى الرَّغم من عزلتي وخلوتي بالجسد الأسمر السخيّ، فإنَّه كانت تصلُني نتفٌ عمّا يحدثُ في الصومال. صيفُ 2008، كان الحديثُ، كلُّ الحديث، عن القرصنة وما تدرُّه من مبالغ طائلة. راقتني الفكرة، على الرَّغم من أنَّني قد سمعتُ أنَّ هذه التجارة تدنو من خريفها، وأنَّ بارجات حربيَّة روسيَّة وأميركيَّة وأوروبيَّة بدأت تزحفُ إلى المنطقة، وتواجه الظاهرةَ بحزم شديد.

قبلتُ اللعبة. حياتي فائضة عمّا أشتهي. إن لقيتُ الموت فهو كلُّ ما أريد، وإن غنمتُ فلأنّني جديرٌ بذلك. فتحتْ نورُ عينَيَّ على ميليشيات القرصنة؛ فقد كانت لها يدٌ في كلِّ عصابة. اللعبة كانت نظريًّا بسيطة: يتحرَّكُ القراصنة في زوارقَ متخفِّفة مدجَّجين بالأسلحة، ويتمُّ شلُّ حركة السفينة وقطعُ اتِّصالاتها، ثم اختطافُ مَن فيها كرهائنَ والمطالبة بعد ذلك بفدية باهظة. وقد وجدَ القراصنة لهذه التجارة أكثرَ من ذريعة يُريحونَ بها ضمائرهم: هي انتقامٌ من السفن التي تتطاولُ على السيادة الصوماليَّة للحدود المائيَّة؛ انتقامٌ من الغرب الذي يستغلُّ الخيرات البحريَّة الصوماليَّة، ويجعلُها مصبًّا لنفاياته الخطيرة؛ وفي أسوأ الأحوال يقالُ إنَّ القرصنة انتقامٌ من الغرب الكافر!

تذكَّرتُ، وأنا أخوضُ غمارَ اللعبة الجديدة، تجارةَ المخدِّرات وكيف برعتُ فيها. اقتحمتُ الأمواج أوّلَ مرَّة مقنَّعًا، ومقتنعًا بأنَّ الممنوعات أكثرُ ما أبرعُ فيه. هاجمنا سفينةً دانماركيَّة، واحتجزنا طاقمها المتعدِّد الجنسيّات، وأوعزنا إلى فريقٍ آخر بأن يباشر المفاوضات. هذا كلُّ ما في الأمر. بعد أسبوعٍ، تمَّ الإفراج عن السفينة ومَن فيها في مقابل سخيّ جدًّا. كان نصيبي منه يفوق ربع مليون دولار. اشتريتُ منزلًا وسيّارة فارهة، وأغدقتُ على «عيونِ الأمن» من فيضِ ما جنيتُ، كي تغضَّ الطرف عن وجودي اللّامشروع وهويَّتي المجهولة.

وتوالت العمليّات. وعقبَ كلِّ عمليَّة تزدادُ ثروتي، وتتوطّدُ علاقتي باللوبيّ الذي يديرُ لعبة القرصنة وتجارة المخدِّرات، من دون أن أتخلَّى عن المليكة التي اقترنتْ باسمي، إلى أن جاء ذلك اليوم المشهودُ الذي ستنقلبُ فيه الأشياءُ رأسًا على عقب، وأنتهي إلى قناعة

راسخة: أنّني محكوم بالتيه بين منافي الربّ.

كانت آخرُ عمليَّة أقومُ بها في نيسان 2009. انطلقنا في ثلاثة زوارق متربِّصين بسفينة أوروبيَّة، وحين اقتربنا منها ملتمسين السبيلَ إلى اعتلاء صهوتها، بادرنا طاقمها بإطلاق نارٍ كثيف. كان رصاصهم غزيرًا مركَّزًا، وتشتَّتت طلقاتُ بنادقنا في السماء. أمّا ما حدثَ فقد كان سريعًا، حتى إنَّ اللغة لَتعتريها هشاشةٌ طارئة إذ تحاولُ أن تقبض على ذلك الزخم من الأحداث. أهملتُ البندقيّة مرَّتين بعد أن لعلعَ أزيز الرصاص: الأولى حين شعرتُ بوخزٍ طفيف في كتفي، اكتشفتُ فيما بعد أنَّ رصاصة قد قدَّتْ لحمه. أمّا المرَّة الثانية، فبعد أن انتبهتُ إلى أنَّ مَن معي من قراصنة في الزورق قد قضوا نحبهم جميعًا.

توقَّفَ المحرِّكُ، وأُصيبَ الزورق بأكثر من ثقب. كان يغرق، وكنتُ مثله أغرق في أتونِ من الدهشة، وأقتحمُ بؤبؤَ ظلام دامس. كنتُ أقتعدُ أجسادًا تشخبُ بدمائها، وأغيبُ رويدًا رويدًا. الحيَّ الوحيد كنتُ في زورقٍ تعانقَ فيه الماءُ والدمُ. الجرحُ في كتفي فجّ يسرقُ أنفاسي، والغيابُ كان يطرقُ بابي بإلحاحٍ كي أستجيب لنداء الغيب. الشهقاتُ نفسُها شهقاتُ الموت، والضجيجُ هو نفسه ضجيج الموت، لكنَّ الرائحة لم تكن رائحته، كان الجوُّ يعبقُ بروائح شامةَ!

قد لا تصدِّقُ، يا وليد. لكنَّ الحقيقة أنَّ شامةَ كانت هناك في مكانٍ ما، حيثُ كنتُ واقفًا، في تلك المساحة الهشَّة بين الحياة والموت. تلصَّصتُ على البياض اللانهائيِّ خلف وشاح الموت. . . كان آخرَ عهدي بالحياة حين تلقَّفتني الأيادي، أشعرُ بذلك وأنا أحاولُ، من دون جدوى، أن أفتحَ عينيَّ، وأغادرَ صديد ذكريات تندلقُ من دون إرادة منِّي. كانت آخرَ ما رأيتُ المديةُ وهي تستقرُّ جهةَ قلبها؛

آخرُ ما سمعتُ شهقاتِها وأنا أطعن جسدها؛ كان آخرَ الروائح عطرُها، وكان آخرَ ملمسٍ جسدُها وهو يلتصقُ بي، ويوقِّع على شفتيَّ قبلتيه، وكانت آخرَ مذاقٍ ملوحةُ دمِها. كانت كاملة الحضور، وكنتُ كامل الغياب. تأكَّدتُ، وأنا أنطفئ، من أنَّني مسكونٌ بها، وأنَّ الموتَ وحده كفيلٌ بمعالجة ما ألحقتهُ بحياتي من عطب...».

سالتْ على خدِّه دمعة... برقتْ على ضوء الشمعة الذّاوي كنيزك يحترق، ثم تنهَّد بعمق وكفكفها بظهر يده. كان يعتورُ حديثَ الأشقر وحركاتِ وجهه هشاشةٌ مفرطة، ولم يهزَّه المنزل إذ حرَّكته القذائف، ولم تنفرط حبّاتُ عِقْد الحكاية ولو مرَّةً واحدة. كان خاشعًا طوال مدَّة الحكي، منفصلًا تمامًا عن واقعه، لا يهزُّه ضجيجُ الرصاص، ولا التكبيرُ، ولا اهتزازُ البناية المتكرِّر، كأنَّه انسحبَ بكلِّه إلى داخله، وابتلعته رمال ذاكرته المتحرِّكة.

لكنَّ جسده السامق قد بدأ يتخلَّى عنه. ألحَّ عليه ارتجافُ أصابعه (ذكَّرني ذلك بوالدي الذي عانى طويلًا متلازمةَ باركنسون قبل أن تستوديهُ إلى القبر)، كما أنَّ ملامحه امتقعتْ، وواصل جرحُه الغائرُ نزفَه. كان كلُّ شيء فيه يشي بأنَّ صحَّته قد تضعضعتْ، وأنَّ ساعاته، إن لم يُسعفهُ تدخُّلٌ طبِّيٌّ عاجل، باتتْ معدودة. الإنسان كلَّما اختلَّ حاضره أمعنَ في الماضي جيِّدًا، واستطاع النفاذ إلى التفاصيل التي يُربكها إمعاننا البليد في اللحظة...

الحربُ تدكُّ عين العرب. وحدَها هذه البناية التي آوينا إليها وبعضُ البنايات المجاورة لا تزالُ ناتئة في هذا المدى الخرِب. كلَّما سافرت القذائف والصواريخ إلى هذه المدينة أخطأَتْها! تُرى، هل نحنُ محظوظان بهذا القَذر، أم أنَّني أندسُّ كقطٍّ خائفٍ خلف حظِّ الأشقر؟

يبدو كما لو أنَّ الموتَ يستمهله، والحياةَ تستبقيه رويدًا. «الحياةُ ليستْ جميلةً، في أيِّ حال، وأفضلُ ما يمكنُ أن يفعلهُ الإنسان، أن يغنمَ فرصةَ موته ويغادرها، قبل أن تُنشبَ فيه مزيدًا من المخالب»؛ هذا ما قاله الأشقر وهو يمدُّ يدًا ثقيلةً مرتجفةً صوب زجاجة الخمر، ثم أردف بتعب:

«تحرَّشتُ بالموت، لكنَّني لم أمتْ. غبتُ حينَ كانت شامة كاملة الحضور. كان يجدرُ ألّا أغيب؛ أن أُمعنَ أكثر فيها، علَّني أطردُها من القلبِ، وأدفنها في سديم النسيان لآخر مرَّة. أخطأتُ إذ تداويتُ منها بالتيه. حبُّها كان سرطانًا خبيثًا يأكلُ خلسة منّي، ويتغلغلُ في الأعماق، ويشوِّه فيَّ كلَّ جميل...

على قدر خيبتي كانَ حظّي. كلَّما التفَّتِ الخيبة حولي كأفعى واعتصرتني، دسَّتْ يدُ الغيب في كفِّي قليلًا من الحظِّ يُسعفُ على النجاة. كانَ يمكنُ أن أنفقَ العمرَ كلَّه سجينًا بأكثر من تهمة لو كنتُ أقلَّ حظًّا. ولولا فائضُ الحظِّ لَما كان بريدُ الموجِ ليُقلَّني إلى الشاطئ، ويضعَ قدري عندَ قدمَيْ نيكول الإيطاليَّة. لو لم أكن محظوظًا بما يكفي لما اهتديتُ في الصحراء إلى برِّ الأمان... ولو كنتُ تعيس الحظِّ لَأَهْمل إنقاذي القراصنةُ، وعادوا يحملون جراحاتهم والهزيمةَ. شيء أقلُّ من القدر وأكثرُ من الصدفة كان يستبقيني، سمَّيته الحظّ. قد يكون شيئًا آخرَ! أحيانًا، لا يغدو للمفاهيم معنًى، بدليل أنَّ الكثير من أحاسيسنا تَضمرُ أمامها اللغةُ، وتُصابُ بعطب...

لبثتُ مغيَّبًا طوال أسبوعين؛ هذا ما قالتهُ قدِّيستي السمراء بحزن شديد، وقد اغرورقتْ عيناها دمعًا، وتعانقَ في وجهها الحزنُ والسعادة. حين فتحتُ أخيرًا عينَيَّ، قامت من مكانها لتصلِّيَ ركعتين.

يا الله... لقد اشتبكَ نشيجُها بقرآنها على نحو حزين.

كانت الوحيدة التي استطاعتْ أن تضيفَ وشمًا إلى قائمة الوُشوم... انظرْ هنا، يا وليد، هنا حيثُ أضعُ سبّابتي ... عذرًا أصابعي تخذلني... ماذا ترى؟ حسنًا، إنَّه وشم لزهرة التوليب، وقد خطَّته في أثناء غيبوبتي القدِّيسةُ نور. لو فقط تُسعفك الشمعة اليتيمة، لَكنتَ سترى خلف الوشم أثرَ الرصاصة التي كسرتْ عظمة الترقوة، وتحرَّشتْ شظاياها بجدار القلب. ولولا تدخُّلُ سربٍ من الأطبّاء، تناوبوا على سدِّ الخرم الذي انفتحَ في لوحة الكتف، لما كنتُ حيًّا.

أَكْبَرْتُ في القدِّيسةِ نورَ كلَّ ما قامتْ به من أجلي. كانت طيِّبةً جدًّا، كريمةً وخلوقة، لم أستعد لياقتي إلَّا بعد شهرٍ كامل. وحين دبَّت الحياة في شراييني، اتَّخذتُ قرارًا آلمني كثيرًا، لكنَّني لم أجد عنه مندوحةً: الرحيل.

كانت ليلة حزينة جدًّا تلك التي أمضيتها أنا ونور. كانتْ ليلةَ جنس مخضلَّة بدموع الوداع. قبل الفجر بقليل، اغتسلنا معًا، وعدتُ بها إلى غرفة النوم حيثُ أحرقنا معًا تلك الورقة التي لم تبرح جيب بنطالي، وحلقتُ شعرها، ثم انتقيتُ منه خُصلةً للذكرى، وأسمعتها عبارة الطلاق، ومضيت. تمسَّكتْ بي طويلًا، كطفلة يرحلُ عنها والدها. أوجعَها كثيرًا رحيلي، لكنَّها في الأخير استسلمت...

امتطيتُ الزورق الأزرق الذي كتبنا على جنباته ـ أنا ونور ـ اسمينا، وصار يُعرَفُ بين القراصنة بزورق العاشقين. استبدَّت بي الحيرة، وأنا أتوغَّلُ في البحر من دون هدف معيَّن؛ من دون نقطة وصول! هل أتَّجه إلى جزيرة سقطرى المتاخمة للقرن الأفريقي، أم

أتَّجهُ جنوبًا جهةَ كينيا وتانزانيا، أم أتَّجه شمالًا صوبَ الساحل اليمنيّ؟ كان للخيار الأخير هوًى في نفسي، ذلك بأنَّني في كلِّ الدول ذات البشرة السمراء تعرَّضتُ للعنصريَّة، إمّا بسبب بياض بشرتي، وإمَّا بسبب شُقرة رأسي! وفي كثير من الأحيان، كنتُ أصطدمُ بمطبّات اللغة وفخاخها التي توقعني في أكثر من سُوء تفاهم...

بعدَ أن توغَّلتُ عميقًا في البحر، أخرستُ محرِّك الزورق. لم أكن أريد أن أنتهي إلى الساحل اليمنيّ نهارًا: سأكون مكشوفًا.

تمدَّدتُ على الزورق، وجعلتُ أقلّب أوراق حياتي، وأستعيد ما عشته من جنون. آه، تدحرجتُ ولا أزال أتدحرجُ صوبَ ما لستُ أعرفُ. مرَّت بي ذكريات غزيرة وأنا واقف بين زُرقتين، بين السماء والبحر. في كفِّ الزورق الجميل متَّسَعٌ للأسئلة القَلِقة، ولاستعادة ما تدفنه الأيّام من تفاصيل هشَّة...

عند الغروب، انطلقتُ سهمًا إلى السواحل الجنوبيَّة لليمن. بعتُ الزورق لبحّارٍ «بدراهم معدودة» في منطقة جلعة، واستحلفته ألّا يمحوَ خربشاتنا أنا ونور. أكَّدَ لي، وهو يقسمُ بأغلظ الأيمانِ، أنَّه لن يفعل. من يدري؟ ربَّما تدفعه الأيّام إلى ذلك... لا يهمّ.

رحلتُ عن تلك البلدة قريرَ العين بالصفقة. تهتُ في اليمن السعيد. كانت البلاد على شفير حربٍ أهليَّة، وكان شكلي الدخيل وملابسي تُثير الريبة، لذلك استوقفني رجال الأمن كثيرًا، وغنموا من ورائي الكثير من الرِّشى. ليسَ هناك في بلاد العرب من لا يُشترى، لكنَّ إلحاح الشرطة على التحقيق معي، المرَّةَ تلو الأخرى، غدا مصدر إزعاج حقيقيّ. ضقتُ ذرعًا بهم، فاتَّجهتُ أخيرًا إلى شمال غربيّ البلاد.

قد لا تصدِّقُ يا وليد، لكنَّ المرَّة الأولى التي أسمعُ فيها كلمة «الحوثيين» كانت يوم العاشر من آب 2009. يومٌ واحد قبل اندلاع ما يعرف بـ «عمليَّة الأرض المحروقة». كنتُ قد انتهيتُ صدفة (أو لعنةً) إلى صعدة، بعد أن دلَّني أكثر من محسنٍ إلى أنَّ الطريقة الوحيدة التي آمنُ بها بطشَ النظام اليمني وتحرُّشه الدائم بي، هي اللجوء إلى عدوِّه. وجدتُ نفسي في المكان الخطأ، والتوقيت الخطأ، واقفًا فوق أرض ملغومة، وقبالة رجالٍ يتمحّكون بقوَّة أكبر ممّا يطيقون...

طفقتُ أجوب قرى تلك المنطقة، إلى أن وجدتُ نفسي أشرب الشايَ وأمضغُ القات في إحداها، وأراقبُ الوجوه التي تراقبني بحذر شديد. كنتُ دخيلًا بين أناس لا يحبُّون الدخلاء، وفي وقتٍ غير مناسبٍ إطلاقًا. في البدء، اعتقدوا أنَّني عميلٌ غربيٌّ مندَسّ، ثم قالوا: «أحدُ» عيون النظام اليمني. استجوبوني أكثر من مرَّة، لكنَّ ما أُفضي لهم بِهِ كان دائمًا مثار استغراب وتشكيك.

كان اسمه عبد الملك. شابٌّ من صعدة، صدَّقني وآمنَ بهبلِ بما قصصتُ مرارًا على مسمعه. شابٌّ نحيلٌ، طويلُ القامة، متنوِّرٌ، وجدَ نفسَه مدفوعًا إلى هذه الحربِ دفعًا، فلا تراهُ إلَّا وهو يحتزبُ رشّاشَهُ. مؤمنٌ حدَّ العظم بالحياة، لأنَّه عاشقٌ، والعشّاقُ أكثرُ حبًّا للبقاء. قاربَتْ بين مجنون ليلى (هو) وعمر بن أبي ربيعة (أنا) أحاديثُ العاطفة. حدَّثني عن حبِّه لريم، وعنْ تمنُّع والدها عن لمِّ شتات حبِّهما، لأنَّ بين عائلتيهما ثأرًا قديمًا...

درجتُ، منذُ أوَّل لقاء بيننا، على الإصغاء إلى أوتار قلبه وهي تتقطَّعُ، بعد أن ائتمنني على سرِّه، الذي كانَ مشاعًا؛ هو حبٌّ شكَّلتهُ النظرات، فاستحالَ مع مرورِ الوقتِ ماردًا أقوى من كلِّ شيء. الحبُّ

دائمًا يقودُ أصحابه صوب المزالق الصعبة، ويتركُ لهم معالجة الأسئلة والحزن بالصبر حينًا، وبالنصر والهزيمة أحيانًا. كان عبدُ الملك واقعًا في الفخِّ الصعب بين نارينِ، واحدةٌ يصلاها قلبهُ صباحَ مساء، وأخرى قد تهبُه موتًا سريعًا!!

ولم يأمنوا جانبي إلَّا عندما أكَّدتُ لهم عمليًّا أنَّني لا أريدُ بهم شرًّا. ولم يطل الأمر في أيِّ حال. حلَّقتْ طائرات الجيش اليمني في سماء صعدة، ودكَّتْ المنازل، وخلَّفتْ قتلى بالعشرات. في ذلك النهار القائظ، الغائر كحدِّ السيف في لحم الزمن، رأيتُ الحرب أوَّل مرَّة، وداهمتني أمامها الرجفةُ الأولى وأنا أقتحم أتونها. لا أدري إن داهمتك الرجفة نفسُها من قبل! الحرب لا تحتملُ بروفا تمتحنُ قدرتك على الصبر وتحمُّل فظائع ما ترى؛ الحرب، إمّا أن تقبلها وتقبل اللعبة وتلتحمَ بتيّارها العنيف، وإمّا أن تبالغَ في تأمُّل الهشاشة وتكونَ لها لقمةً سائغة؛ الحرب لا تقبل الترقيع والحلول الوسطى، إمّا أن تكون محاربًا، وإمّا أن تكون قتيلًا (ويدخلُ في الخانة الأخيرة اللاجئون والهاربون وغيرُهم).

أُصبتُ حينَ رأيتُ أشلاء البشر الممزَّقة بحمَّى، كتلك التي أصابتني حين أقدمتُ على قتل شامة، ثم العبثِ بجثّة وديع. للجسد البشريّ حُرْمة في النفوس، وصورةٌ بهيَّة يصيبنا تعرُّضها للتفسُّخ أو التشوُّه بالحمَّى والحزن، لا تعاطفًا كما يعتقدُ الكثيرون، بل لأنَّ جسدَ أيٍّ منَّا يرى نفسه مكان الجسد الآخر، ويحرِّضنا على رفض احتمال أن يصيبه ما أصاب الآخرين من عطب أو تشوُّه.

بادرتُ إلى حمل السلاح والقتال إلى جانب الحوثيّين، لأنَّ الحرب كانت أقرب طريق إلى قلوبهم. ولكَ، يا وليد، أن تتخيَّل الحفاوة التي

قابلوني بها حين ساعدتُ بنصيب في إسقاط طائرة للنظام. كانوا بالغي الكرم، حتى إنَّ أكثر من شيخ أنكحني ابنته. تخيّل!

والحقيقة، أنَّني طوال مكوثي بين الحوثيّين ذقتُ الأمرَّين، وافتقدتُ العاهرات اللواتي كنَّ يفترشنَ بفتنتهنَّ أيَّ أرض أحلُّ بها! بعد شهورٍ من القتال، أصبحَ آلتي كصنبورٍ لم يُحكَم إغلاقُه، فلا أكادُ أغمضُ عينيَّ بين جولتين من الحرب، حتى يتدفَّق في غفلةٍ منِّي ما لم يتدفَّق منِّي في سنّ المراهقة.

كنتُ، أنا وعبد الملك، من أوائلِ من تنكَّروا في أزياء نَسَويَّة لعبور الحدود السعوديَّة، وفي طليعة من اقتحموا الحدود بعد ذلك، وتسلَّقوا جبلَ الدخان. كانت أيّامًا مشهودة راسخة كنَدْبٍ في الذاكرة. صحيح أنَّني كنت جاهلًا تمامًا بأسباب هذه الحرب، على الرَّغم من أنَّ عبد الملك يُطنبُ في الحديث عن بؤسها، كما أنَّني لم أكن أعرفُ على وجه التحديد إن كنتُ أساندُ الجهة التي تستحقُّ المساعدة، أم لا! لم يكن الأمرُ ليضيرني في شيء، لقد كنتُ أحملُ في داخلي جرحًا عميقًا، نفذتُ من خلاله إلى بؤس التفكير في جدوى الحياة.

لم تكن أيّامُ الحربِ العبثيّةِ إلى جانب الحوثيين سيِّئةً، على الرَّغم من افتقارها إلى الجنسِ. كان كلُّ يومٍ امتحانًا لشجاعتي وجُبنِ الموت. لم أمتْ... كأنَّ الربَّ حين جدلَ مصيري في الحياة، خصَّني بعمرٍ سرمدٍ لا موتَ يدركهُ ولا حياةَ يدركُها... منحتني الحربُ احتضاراتٍ نفسيَّةً كثيرة، تهتُ بفضلها بين تجاويف ذاكرتي. أجملُ ما في الحرب أنَّها مثل الصحراء، تلغي حاضرَ المرء وتلزمه بإقامةٍ جبريَّة في الماضي؛ تنعشُ الذاكرة، وتبتلعُ الذكرياتُ صاحبَها من دون أن تشتِّتَ تركيزَهُ أمام العدوّ.

بعدَ شهور من القتال الدامي، وبالضبط في الثاني عشر من شباط 2010، توقَّفت الحربُ أخيرًا. قتلتُ الكثيرين. هناك، شرعتُ أخطُّ على جباه من أقتلُ أرقامَهم! عادَ الناسُ رويدًا رويدًا إلى أيّامهم الرتيبة ومنازلهم العامرة بالفرح، وبقيتُ الوحيدَ المصابَ بالوحدة، تتقاذفني المقاهي ومجالسُ الرجال، أهرقُ في جوفي كؤوسَ الشاي وأمضغُ القاتَ، وأتجرَّعُ الأغاني الحزينة!

ولأنَّ الناسَ في صعدة محافظون أكثر ممّا يجب، فقد أضحى وجودي مصدرَ إزعاجٍ تفاقمَ في غفلةٍ منِّي. بدأتْ تسقطُ من أذهانهم تضحياتي، وما عادوا يتذكَّرون سوى أنَّني أشقرُ أعزبُ قدْ يُصيبُ بناتهمُ بأكثرَ من سهمٍ حرام، ولاسيَّما أنَّني رفضتُ مرارًا أن أنكحَ من يانعهم حلالًا...

وقد بلغني بكثير من المواربة، في عصر أحد الأيّام، والقاتُ يدور بين الفكوك، أنَّ مقامي لا يستقيمُ في صعدة من دون زواج. كان الخيارُ واضحًا: إمّا أن تتزوَّج وإمّا أن ترحلَ، فاخترتُ...».

وتوقَّفَ الأشقرُ عن الكلام، بعد أن اهتزَّ البيتُ ودوَّى في فضائه ضجيجٌ مُجلجلٌ يصمُّ الآذان. تمايلتِ الغرفةُ وانتفضَ الغبارُ في السماء. سقطتْ من السقفِ صورتانِ. لم نُصَب بسوءٍ، لكنْ يبدو كما لو أنَّ المنزل قد أصابته قذيفة، لا أدري هل خسفتْ ظهرَه أم أسفلَه! سُمِعَ للجرحى عويلٌ، وللفارِّينَ من لعبة الموت صوتٌ أشبهُ بالعواء، وكان الأشقرُ في عزِّ الثمالة والخوف من المجهول يطلقُ كركرات تشبه هديل الحمام... ثم قال، وهو يكابد مشقَّة رفع صوته ليعلو على صوت الحرب:

«تزوّجتُ مضطرًّا. . .لم أكنْ أعرف لا العروسَ ولا عائلتَها. أوعزتُ لهم بكلِّ شيء، وخرجتُ إلى الخلاء أنا وعبد الملك. لا أحبُّ الزواجَ، وأكثر من ذلك لا أحبُّ الأطفال. لا أريد أن يخرجَ من صُلبي طفلٌ أكونُ سببًا في شقائه. . . هذا ما قلتُ لعبد الملك، فقابلَ مخاوفي بسخريةٍ مريرة. أمّا حين سألني عن العروس، مَنْ تكون، وأجبتُ بجهلي لهويَّتها وهويَّة أهلها، فقد زادتْ سخريته. لم يستوقفه سوى وقوفي منه موقفَ المنزعج. . . وقتها فقط، أدارَ دفَّةَ الحديث، وقد تقنّعتْ ملامحه بحزن جافّ، وتنهَّد بعمقٍ، بعدما حرّكَ حديثُ الزواج الحزنَ الذي يعتملُ في صدره. قال إنَّ أكثرَ ما يتمنّاه هو أن يجمع بينهما سقفٌ يأوي إليه حبُّهما، لكنّ والدها يمنعُ عنه ريمَ، قدِّيستَه، التي لا يستطيعُ أن يواصل حياته من دون أن يعلِّقَ نظراته على بيتها، ويكلّمها من خلال نافذتها التي تنفتحُ له في الهزيع الأخير من الليل.

حين قفلنا عائدَين، انشغلنا بالحديث عن هذه الزوجة التي ستختارها لي القبيلة. في الحقيقة، لم يكن يعنيني أمرها كثيرًا، فيَ الأخير لن تكون أكثر من ذريعة للبقاء في صعدة لا غير. لكنَّ ما حدثَ ذلك اليوم، وبالضبط بعد عودتنا أنا وعبد الملك، كان من الكثافة والجنون، بحيث إنَّه لا يمكنني أن أستعيدَه من دون أن أُصابَ بالحزن، ويستقرَّ في قلبي يقينٌ أعمى بأنَّ الحياة بنتُ كلبٍ بحقٍّ. . .

أُقيمتْ سرادقُ العرسِ أخيرًا.

سرادقُ ممتدَّة عبر الأزقَّة؛ فقد انخرطتْ كلُّ القبائل في الاحتفاء بالأشقر المغربيّ (كان هذا لقبي بينهم). حين انتهينا إلى الجمع أنا وعبد الملك، حفَّتنا نظراتٌ مريبةٌ وابتساماتٌ متحفِّظةٌ لا تشي بخير

مطلقًا؛ نفسُها النظراتُ التي حفَّتني منذ زمن غابرٍ حين انتشرَ بين الناس ذلك الشريطُ الإباحيّ، وكنتُ آخرَ من يعلم... لا أدري! ربمّا أولموا لي فضيحةً من نوعٍ ما. استشعرَ عبدُ الملك مثلي غرابة نظراتهم، فابتسم وهمسَ إليَّ سرًّا «لا تعجبُني نظراتهم... لا بدَّ من أنَّهم يضمرون أمرًا يتعلَّقُ بالعروس»، ثم صمتَ لبرهة قبل أن يضيف بسخريته المعهودة هامسًا «قد تكونُ عرجاء أو عمياء أو نطيحةً أو ممّا عاف السبع...» والحقيقة أنَّ أمرَ هذه العروس لم يكنْ يعنيني كثيرًا، فكلُّ ما سيجمعني بها، في أحسن الأحوال، ورقةٌ تافهة وليالٍ جنسيَّة... هذا إن كانت تملكُ جسدًا يؤهِّلها لذلك...

انطلقَ عبدُ الملك في طريق وحدته المريرة، والتحقتُ بالجمع. كنتُ العريسَ المحتفى به. التقيتُ حمايَ العجوز أخيرًا؛ شيخًا أعطبتْه الحرب، هذا ما قال، لكنَّ الحقيقة أنَّ ثأرًا قديمًا أورثَه عطبًا أقعده على الكرسيِّ المتحرِّك.

قيلَ لي إنَّ العروسَ في الثامنة عشرة، سليمةٌ كاملةُ الأعضاء، حسَنَةُ السيرة والسريرة. وأسهبوا في الحديث عن صفاتها، بعد أن لاحظوا عدمَ إلحاحي على طلب النظرة الشرعيَّة. كانَ أكثر ما كدَّرَ مزاجي في حديثهم عنها أنَّ اسمها ريم. انقبضَ قلبي، واهتزَّتْ أحشائي داخلي بعنف. خفتُ أن تكون ريمُ هذه هي نفسها ريم التي يعشقُها عبد الملك...

حملتُ هذا الخوف في صدري، وأنا أجوبُ الأزقَّة وأتلقَّى التهاني... في النفس كانتْ تعتملُ رغبةٌ واحدة: أن ألتقيَه مرَّةً أخرى، ليطمئنَّ قلبي، وأحسمَ الصراع النفسيَّ الناهضَ في القلب بضراوة.

أقبلَ المساءُ أخيرًا... ولا خبر عنه. لعلعَ الرصاصُ في السماءِ، وألبسوني تلك الملابس التقليديَّة الجميلة، وحفَّني الرجالُ بحبِّهم وتقديرهم. وكنتُ كلَّما تأخَّر عبدُ الملك عن العرس استقرَّ في النفس يقينٌ بأنَّني ربَّما سأنهبُ شيئًا يخصُّه. أضاءَ الرصاص المسافر في السماء ليلةَ عرسنا. أكادُ أجزمُ، يا وليد، بأنَّ ما يُطلَقُ في أعراس صعدة من الرصاص يساوي ما يضيعُ في حروبها.

مرَّتْ ساعةٌ... ساعتانِ، ولم يأتِ.

خرجنا إلى الخلاء في سيّارات رباعيَّة الدفع، فقد كانت تقاليدُ المنطقة تقضي بأن يُمتحَنَ العريسُ ليلةَ عرسه في فنّ الرماية، وذلك ما كان. نصبَ البعضُ أهدافًا، عليَّ أن أصيبها ببندقيَّتي. طبعًا يا وليد، قد خَبِرَ الجميعُ في الحربِ مهارتي العالية في التصويب، ورأوا كيف قنصتُ الكثيرَ من جنود النظام من أماكن بعيدة. كان الأمرُ أشبهَ بإجراءٍ روتينيٍّ عاديّ، لكنَّني، يا وليد، فشلتُ فشلًا ذريعًا! على الرَّغم من أنَّ الأهداف كانت واضحةً وقريبةً جدًّا. كان التفسير الذي يقابلُ فشلَ الرجل في إصابة الهدفِ أنَّه يشكو عجزًا جنسيًّا، ولن يفنِّد هذا الأمر سوى دم العروس...

وجدتُ الأمر برمَّته سخيفًا، لكن ما أثار استغرابي هو فشلي، المرَّةَ تلو الأخرى، في إصابة هدفٍ أصبتُ أبعدَ منه بأضعاف، كأنَّ على ذلك الهدف حجابًا، فلا تكاد الرصاصة تدركه حتى يبادر بتحريف مسارها. تطيَّرتُ من الأمر، ورأيتُ فيه إشارةً ماحقة لبؤسٍ ما، لا بدّ من أنَّه قادم. وقد أكَّد ذلك تخلُّفُ عبد الملك. كان هناك شيء ما لا يسيرُ كما ينبغي له، على الرَّغم من أنَّ الوجوه كانت تتَّشحُ بالفرح وتفتعلُ البهجة، إلَّا أنَّ سرًّا وشرًّا كانا ثاويَينِ خلف العيون. كنتُ

رويدًا رويدًا أقتربُ نحو الحقيقة. وحينَ سألتُ، تلقَّفتْ سؤاليَ الألسنةُ التي تحُفُّني ودفنَتْه في أجوبةٍ بليدة. تضاءلَ حزني كثيرًا، حين رأيتُ عبد الملك أخيرًا يقفُ غير بعيدٍ من الجمع...

صدَّه الرجال حين اقترب. كانت عيناه اللامعتان كعينَي فهدٍ غاضبٍ تقدحان شررًا. استوعبتُ لحظتها الكارثة. هي ريم إذًا؛ تلك الغزالة الذي أسهبَ عبد الملك في الحديث عنها، وعن جمالها وحبّه لها، كأنْ ليسَ في الأرض إلَّاها...

ريم هي العروسُ. لربّما أرادَ أهلها أن يُؤلموه مزيدًا من الإيلام، وأن يثأروا بها منه ومن عائلته. حين شَهَرَ مسدَّسه في وجهي شُهِرَ في وجههِ أكثرُ من رشّاش. كان هناكَ فائضٌ من الرصاص يتهدّدُ أرتال اللحوم المتزاحمة، لكنَّ رصاصة لم تغادر رشّاشها. كنتُ أملك من الجسارة ما يكفي لأتقدَّمَ صوبَه، على الرَّغم من خطر الرصاصة الطائشة، فالخطر كلُّ الخطر من العاشق إذا انجرحتْ أعماقهُ، وأنا لم أكن أريدُ للصدعِ بيننا أن يستحيلَ إلى هاوية سحيقة.

سحبتُه من ذراعه، ومضيتُ أجرُّه صوب الخلاء. كان كمشةً من هشاشة. لم نكد نبتعدُ قليلًا عن الحشد حتى اندفعَتْ دموعه غزيرة. كان جرحُه ينزُّ. ذكَّرتني حاله بحالي يوم أعطبتْ شامةُ حياتي بذلك الشريط المرِّ. كنتُ أتقاسمُ معه أكثرَ من هشاشةٍ وأكثرَ من نزف، لكنَّ وضعنا في مأدبة الذئابِ عصيٌّ وصعبٌ... الانسحابُ قد يذكي نعرات الثأر، ولا بدَّ وقتها من حربٍ ضدَّ عبد الملك وضدِّي إن تراجعتُ عن الزواج. في صعدة، أسهلُ ما يمكنُ أن يقوم به المرء في لحظة غضبٍ أن يُفرغَ رشّاشه في جسد عدوِّه/ أو عدوّه المحتمل، من دون أن يُطفئ غضبه. كلُّ ثانية تمرُّ هي مجرَّدُ تفكير في أنَّ ما حدثَ ويحدثُ يمرِّغُ

الكبرياء أرضًا. حدَّثته طويلًا عن احترامي لحبِّهما وعن عدم علمي بما حيكَ في الخفاء. صدَّقني أخيرًا. كان كلامه نشيجًا.

وصلنا إلى اتِّفاقٍ أوَّليّ بأنَّنا غيرُ راضيَينِ البتَّة عمّا حدثَ. لكن ما العمل؟ إذا أنا تراجعتُ عن الزواج، فذلك سيكونُ انتصارًا لغضبه ولإرادته، وسنكون معًا في مرمى نيران أهل العروس، ولا بدَّ من أننا هالكان...

وبعد حوار مرهقٍ، دامَ زهاء الساعة، أقنعتُه أخيرًا بأن يتركني أواصلَ هذه التمثيليَّة السخيفة، ولهما في الغد أن يهربا معًا أو يفعلا ما يريانه مناسبًا. طبعًا، استحلفني أكثرَ من مرَّة ألّا أنزعَ عنها الطرحة؛ طرحة العرس، لأنِّي سأكون قد أوغلتُ مديةَ الغدر عميقًا في ظهره، وقد التزمتُ بذلك حتى قبل أن يهمسَ بذلك. لقد عافتْ نفسي هذه الريم.

ابتلعتْ جراحَه عتمةُ الليلِ، وتنفَّستُ أخيرًا الصعداء، وأضاء برحيله الرصاصُ سماء صعدة مرَّةً أخرى، واندلعت الأهازيجُ والأغاني تشدو ظاهرًا، وترقصُ سرًّا بصلف المستبدّ على وجع عبد الملك. الناسُ، كلُّهم، يعرفون ما بين ريم وعبد الملك من حبٍّ نتأ في مقبرة الثأر والقتل والقتل المضادّ، والكلُّ، من دون استثناء، يُظهرونَ له المودَّة والتعاطف، ولا تكادُ تجدُ فيهم من لم يتوسَّط لعبد الملك لعلَّ قلوب أبناء عائلتها تلين. لكن الآن، ها هم ينتشونَ برؤيتهِ وهو ينزلقُ صوب فوَّهةِ رحًى ستسحقُ أشلاءه!

كانَ في رقصهم وهمسِهم، وفي كلامهم وصمتهم، نشوةٌ عارمةٌ. في الإنسان، يا وليد، حقارة متأصِّلة، وأكثرُ ما يستهويهِ أن يرى غيره

ينسلخُ ويتمزَّق! ألا تجدُ في نفسكَ، يا وليد، أحيانًا رغبةً جامحة في الاستزادة والإمعان في مراقبة فضائحِ الآخرين، أو عراكهم أو ـ في أتفه الأحوال ـ الاستماعِ إلى إشاعة تسيء إليهم، أو نميمةٍ تنهشُ لحمهم؟ الإنسان يحبُّ أن تُبْتَخَسَ كرامةُ غيره على مرأى منه. فرِحَ الناسُ في تلك الليلة كما لم يفرحوا منذ أمدٍ بعيد، ربَّما يمتدُّ إلى ما قبل حروب الألفيَّة الجديدة مع النظام... كانوا منتشين، لا لأنَّ الأشقر تزوَّج، وإنَّما لأنَّ قصَّة عبد الملك وريم قد وجدتْ أخيرًا قبرًا يُؤْوِيها.

وكان من تقاليد المنطقة أن تُزَفَّ العروس إلى بيتِ زوجها على ناقة، لكنَّ الناسَ في صعدة يزعمونَ، بثقةٍ لا تقبل الشكَّ، أنَّ الناقة إن بركتْ في فترة مشيِها من منزل والدَيِ العروس إلى منزل العريس، فإنَّ للأمر معنًى واحدًا: أنَّ العروس قد أضاعتْ عذريَّتها، وأنَّها تسيرُ إلى بيتِ زوجها امرأةً لا بنتًا!

ولأنَّ الأمور قد تعقَّدَت أكثر ممّا ينبغي لها، ولأنَّ الأقدارَ والصُّدَفَ الملعونة لا تكونُ في صفّ العشّاق دائمًا، فقد كانتْ تلك الناقة... آه، يا وليد! كانت كما لو أنَّ تعبَ نوقِ الدنيا يقيمُ في سيقانها، أو لكأنَّ جبلًا لا نراهُ ينزلُ بثقله على سنامها، فلا تكادُ تفردُ طولها حتى تنوء بثقله وتخرَّ أرضًا.

وتحرَّكتْ ألسنةُ الناسِ، في إثرِ كلّ مرَّةٍ تبركُ فيها الناقة، نميمةً ونهشًا في سيرة ريم التي لطَّخها هيامُ عبد الملك بها، وزاد في سوادها هذه الناقة، التي كما لو أنَّها تحالفتْ مع الأقدار لتجرَّنا جميعًا صوب المآزق الصعبة.

استشاطَ إخوتُها غضبًا، وهم يواجهون العيون المستهزئة الساخرة من ضياع شرف فتاة يحفُّها خمسةُ إخوة أشدّاء، وتأكَّد للجميع أنَّ ما تناقلتْه الألسنة من دون مللٍ، عن أنَّ نافذة ريم تُفتَحُ ليلًا في وجه أكثر من زبون، لم تكن مجرَّدَ افتراء. زمجرَ أخوها الأكبرُ في وجه الحاضرينَ ممَّن عجّلتْ ألسنتهم بالفضيحة، وأطلقَ جملةً ظلَّ صداها يسافرُ في الأذهان قبل أن يستلذَّها الجمعُ: «لا بدَّ من دمٍ يسيلُ، فإن لم يكن من فرجها، فلا بدَّ من نحرها». قالها بغضبٍ، قبلَ أن يسحبَ الخنجر الحادّ من قرابهِ ويمرَّ به على نحر الناقة، بعدَ أن ثبَّتها بقيَّة الإخوة. كانَ عقرها أقرب إلى الطعنِ؛ الأمر الذي أثارَ استياء الحاضرين الذين انسحبوا عنها ودمها يشخبُ. كانتْ الناقةُ واقفةً في الخطِّ الحرج بين الحياة والموت، من دون أن يتوَّجَ بطلٌ في إنهاء عذاباتها بضربةٍ حاسمة!

أفسدتِ الناقة العرس بخمولها وتقاعسها، وأكثر من ذلك، يا وليد، أفسدتْ ما اتَّفقنا عليه أنا وعبدُ الملك، ذلك بأنَّه لم ينفضَّ من حولنا الجمعُ حين انتهينا إلى المنزل، مثلما يحدثُ عادةً، فقد استبقاهم الإخوة ليكونوا شهودًا على براءة أختهم، أو موتها دونَ ذلك.

ودُفعتُ إلى المأزق الصعب. طلَبَ منِّي الإخوة أن أجيئهم بدمها، أو أؤكِّد لهم أنَّ شرفهم مستباح! لقد قوبلتُ بنظرات إشفاقٍ وازدراء من طرف الإخوة أوَّلًا، ثم بقيَّة الحاضرين، لأنَّ عدم إصابتي للأهداف يقومُ دليلًا على ضَعفٍ جنسيّ مفترضٍ لا بدَّ من أن تؤكِّده ريم... كان الأمر معقَّدًا كخيوطٍ متشابكة، يصعُبُ فكُّها من دون تمزيق بعضها».

وتنهَّدَ الأشقرُ بعمقٍ. تطلّعَ إلى شقوقِ السقف، والتمعتْ عيناهُ

ببريقٍ حزينٍ. تفحَّصَ جرحهُ، ثم شرعَ يعرجُ صوبَ النافذة، في الوقتِ الذي شرعتُ أتحسَّسُ فيهِ طريقي صوبَ دورةِ المياه. قال حينَ رآني عائدًا:

«حين اختليتُ بها علا نشيجُها. حدَّثْتُها عمّا اتَّفقنا عليه أنا وعبد الملك، فلم تعلّق برأي. كان في جوفها غصَّةٌ حرَّى. حاولتُ أن أحملها على الصبر والرضا بقضاء الله، لكنَّ ذلك لم يقلّل من جزعها. ومن دون أن أطلب منها أن تخلعَ الطرحة، فعلتْ ذلك!

يااااه، يا وليد، كانَ إسهابُ عبد الملك في الحديث عن جمالها قليلًا أمام بهائها. اشتهيتُها يا وليد. كان بيني وبين الجسد مسافةُ حربٍ وأيّام طوال، لكنَّني تمالكتُ زمامَ نفسي، فقد كان عبد الملك ـ على الرَّغم من غيابه ـ واقفًا بيني وبينها، أراهُ كلّما سوَّلتْ لي نفسي أمرًا. . .

تحدَّثنا أنا وريم طويلًا. كان كلامها بكاءً. . . لاحظتُ أنَّها لم تكن تأتي على ذكر عبد الملك وعلاقته بها. أكثر ما تفكِّرُ فيه كان خيانةَ الناقةِ لها، وكرامةَ عائلتها التي عفَّرتْها الفضيحةُ. كانتْ حزينةً جدًّا، لأنَّها انتهتْ إلى هذا المآل الضَّحل. وأسرَّتْ إليَّ، وعيناها الجميلتان مخضلّتان بالدمع، أنَّها عندما كانت طفلة سقطتْ على صخرة ناتئة، وهي تلعبُ مع صبايا حارتها، وقد فاجأها نزفٌ شديد من فرجها. وحين انتهى الأمر إلى أمِّها أكَّدتْ لها أنَّها بداية الدورة الشهريَّة، وقد أكَّدَ ذلك دوامُ النزف أسبوعًا كاملًا، لكنَّها ظلَّتْ تحملُ في قلبها وسواسًا وخوفًا مبهمًا من أن تكون تلك الصخرة قد سرقتْ منها ورقةَ التوت.

كنتُ في مأزقٍ بين نارين: هو (عبدُ الملك) يطلبُ أن أصونَ شرف حبيبته، وهي (ريم) تطلبُ أن أقتلَ وسواسًا أرهقها. تريدُ أن تنزفَ ذلك الدم ليعرفَ الآخرون أنَّها لم تفرّط في شرف العائلة، أو تموتَ دونَ ذلك. بين مطرقة عبد الملك وسندانها كنتُ حائرًا، لا أعرفُ: أَأَخونها، أم أخونه؟ صعبٌ جدًّا أن ينحشرَ المرء بين عاشقَيْن، يخزهُ كلٌّ واحدٍ بأسبابه ومبرِّراته.

كان يقفُ بيني وبين جسدِها الوارف حائطٌ سميكٌ، اسمه عبد الملك. تحاولُ ريم ببكائها المتواصل هدمه، ويحاول الإخوة بطَرْقهم الملحّ على الباب هدمَه... صمدتُ طويلًا، ولم تلِن إرادتي إلَّا حين همَّتْ بي. لم أكنْ يوسف ولم يكن الربُّ بجانبي ليُريني برهانه. كنتُ وحيدًا مترهِّل الإرادة، وهي تتخفَّف رويدًا رويدا من ملابسها. كانت تعرفُ السبيل إلى تهشيم الوعد الذي قطعتُهُ لعبد الملك. هي تعرفُ ما تريدُ. أمّا أنا، فقد كنتُ ضائعًا. كلَّما حاولتُ ترميمَ ما تهالكَ من إرادتي، أنختُ بشهوتي، وأذعنتُ لها مزيدًا من الإذعان.

كنتُ كلَّما ركدَ في الذهن ما دار بيني وبينه من شجن، تملَّصتُ منه بنظرة في جسدها الذي يضجُّ شهوةً. أمّا حين ندَّتْ عن شفتيها ابتسامة، فقد انتصبتُ كاملًا، وتأكَّدتُ من أنَّ في نفسينا معًا قَدْرًا كبيرًا من الخِسَّة. ولأوَّل مرَّة، دُفعتُ إلى تقمُّصِ دورِ أخي! وقد وجدتُ في الأمر لذَّةً عارمة، وأنا أرى شامةَ من زاويةٍ أخرى غير زاوية المغدور بهِ والضحيَّة.

امَّحى عبد الملك، وأنا أقتربُ بحذر منها وأقعُ في شرك الشهوة. مددتُ إلى جسدها البضّ أصابعَ من ندّى، بها تتبَّعتُ تفاصيلَ جسدها المنحوت بإتقانٍ، حرَّضتْني عليها بهمساتها. قالت إنَّها طاردتني من

نافذتها طويلًا. قالتْ إنَّها أحبَّتني، وإنّ عبد الملك ليس أكثرَ من صبيّ غرٍّ، أحبَّها ولم تبادله يومًا ذلك الحبَّ. همسَتْ بما يليِّن صلادة ضميري، ويجعلني أُقْبلُ عليها غيرَ عابئٍ بما قطعتُ لصديقي من وعود.

طازجةً كانت، يانعةَ الثمرِ دانية القطوف، وكان عمرُ شهوتي ينوف على عمر حرب! مرَّرتُ أصابعي على استدارتَيْ نهديها، فشهقَتْ بعنفٍ، كأنّي أسحبُ روحها من حلمتيهما النابقتين كحبّتي كرز، ثم ضلعتُها إليَّ. اعتصرتُ ردفيها، ورشفتُ رضابها، وكنتُ أرى عبد الملك يبرقُ في الخيالِ كلّما أغمضتُ عينيَّ إمعانًا في الشهوة، لكنَّه سرعانَ ما يضمحلُّ أمامَ ما يضجُّ به جسدي من رغبة.

بيضاءَ كانت ريمُ. حملتها عاريةً كتمثالٍ بلُّوريٍّ إلى السرير. كان كلُّ شيء بديعًا على نحو استثنائيّ، وحدهُ الطَّرْقُ المتكرِّرُ على باب غرفتنا يُذهبُ بعض رونق ما عشناهُ. أنضجتُ جسدَها بخبرتي الطويلة لافتضاضها، وحينَ التحمنا، لم يَطل الأمرُ حتى سحبتُ آلتي متوَّجةً بالدم الزهريّ، وسال منه على بياض افترشناه. حملتْ إلى إخوتها برهانَ الشرفِ وصفقتُ الباب في وجوههم، قبلَ أن يرسلوا امرأةً مشهودًا لها بالحصافة وبُعدِ النظر، لتتأكّدَ من أنَّ الدمَ دمُ شرف.

كانت عذراءَ، إذًا...

هاجَ إخوتها. أطلقوا رصاصهم بجنون، حين زفَّتْ إليهم تلك المرأة البشرى. أمّا ذلك الثوب المضمَّخُ بالدم، فقد تلقَّفته الأيادي، كلُّ واحد يمعنُ فيه قليلًا ثم يدفعه في يدِ غيره، كأنّهُ تهمةٌ لا تعنيه قبل أن يطلقُ العنان لرشّاشه ولجنونه. كان أغرب أعراس صعدة، بل كان العرسُ مُبْطلًا لتقاليدهم، فقد أخطأتْ بندقيّتي الأهداف، لكنْ لم

تخطئ فحولتي سبيلها إلى ريم. وقد بركتِ الناقة بين منزلها ومنزلي، لكنَّ الأمر لم يكن يعني أنَّ هناك مَن سرق البكارة.

وأنا أداعبُ عانتها الملطاء وأتأهَّبُ للنومِ، كنتُ أفكِّرُ في إيڤا الهولَّنديَّة وأيّام روتردام. كانت إيڤا أوَّلَ فتاة أفتضُّها. أمّا وقد افتضضتُ ريمَ، فإنِّي شعرتُ كما لو أنَّني هضمتُ حقَّ غيري في هذه المتعة الشرقيَّة البليدة. ورويدًا رويدًا، شرعَ ضميري يصحو، ويلسعني بأسئلة قاسية!

لا أدري كم من الزمن مرَّ وأنا نائمٌ، قبل أن أستفيقَ فزعًا مرتعدَ الفرائص! دوَّى صوتُ طلق ناريّ. كان الصوتُ قريبًا وبعيدًا في آن. تحسَّستُ أعضائي، فقد كنتُ ـ ولا أزالُ ـ أعتقدُ جازمًا أنَّ الرصاصة التي ستقتُلني لا بدَّ من أنَّها لن تؤلمَني. روحي والجسد سيقفان بين الحياة والموت، وسيكون الألم غير ذي جدوى. فكَّرتُ، ربمّا تكون الرصاصة قد استقرَّتْ في جسد ريم، وأنَّه لهذا السبب لم تستفق ولم تُبدِ أيَّ تأثُّر بالصوت المجلجل، ثم عدتُ أتساءلُ ماذا لو أنَّ الصوتَ هلوسةٌ محضةٌ، لا غير؟!

كنتُ أمرُّ بمرحلة نفسيَّة دقيقة، وقد يحدثُ أن تدفعني متاهة التلاشي إلى اضطرابات في الحواسّ. مددتُ يدي إلى الرشّاش النائم أسفل السرير، أزحتُ بخفَّة الملاءةَ عن جسدي، واحتزبتُ الرشّاش ومددتُ يدًا مرتجفة، أُشعلُ نور الكهرباء، وأخيلةُ عبد الملك وأطيافه لا تنفكُّ تزاحمُ خطواتي. جبتُ متَّقدَ الحواسّ أرجاء المنزل. تفحَّصتُ النوافذ والأبواب، من دون أن أجد أمرًا يقومُ دليلًا على اقتحامٍ أو حدوث طلقٍ ناريّ، فعدتُ إلى السرير وفي الصدر يعتركُ صراع نفسيّ مرير. كان ندمي ينهضُ، وكنتُ أعتقد أنَّه هو الذي حرَّضَ عليَّ حاسَّة

السمع، لكنّ صرخة شرسة مزَّقتْ وشاحَ الصمت، ثم أعقبتها صرخات أخرى، قبل أنْ يعمَّ الهرجُ في الزقاقين اللذين يحفّان المنزل. خطوات مسرعةٌ، وكلام تَعْجَلُ به الألسنة من دون أن أستبين منه شيئًا...

في البدء، اعتقدتُ أنَّ الأمر يتعلَّقُ باجتياح مفاجئ لقوّاتِ النظام... وحين أشعلتُ نور الكهرباء مرَّة أخرى، طالعتني عينا ريم البهيّتان. لم تقلْ شيئًا. مثلي كانتْ تُصيخُ السمعَ إلى تلك الأصوات المختلطة التي لا تبوحُ بخبر واضح. تركتها، وسعيتُ إلى الباب كي أجلوَ الخبرَ اليقين. فيما بعد تمنَّيتُ لو أنَّني لم أبرح السرير، ولا رأيتُ ما رأيتُ!

كانوا متحلِّقين حول أمرٍ ما جاثم على مقربة من بابِ منزلي. لم أتجشَّم مشقَّة شقِّ طريقي بين الجموع الغفيرة، فقد أفسحوا لي الطريق كأنِّي فاتحٌ من زمن غابر. حتى الذين لم ينتبهوا لوجودي تمَّ تنبيههم أو سحبُهم عنوةً. أقحمني ما رأيتُ في بؤبؤ الدهشة. تلك الدقائق القليلة التي أمضيتها هناك، لمستُ فيها السقف الخشن للخيبة، وانفجرَ قلبي داخلي بغتةً.

واصلتُ السير وبكائي يتفاقمُ في طريقٍ ـ على قِصَرهِ ـ بدا طويلًا كأنَّه لا ينتهي. في الوجوه، وجوهِ العابرين، أقرأ حزنًا مبطَّنًا بالشفقة، فأتوغَّل في حزني أكثر... كنتُ صاحيًا تضجُّ بي الصدمةُ، بعد أن استقبلتُ الفضيحة مثلما تستقبلُ بحيرةٌ نيزكًا؛ تعتقد أوَّلَ الأمر أنَّه مجرَّد صخرة، لكنّه في الأخير يعرِّيها من مائها على نحو مفاجئ!

كان عبد الملك مجندَلًا وسط بركة من الدم، معفَّرَ الملابس، طلقَ الملامح. هزَّ المنظر أعماقي. تحرَّكتُ صوبه بخطى وئيدة وكلُّ ما

فيَّ شرعَ يتداعى. ساقاي تصطكّان وأصابعي ترتجف، وأنا أميلُ عليه. سبقتني إليه الدموع، تهاوتْ على الجسد المضرَّجِ بدمائه ساخنةً غزيرةً، واستفحشَ في القلب حزنٌ جافٌّ. أمّا النظراتُ التي كانتْ تحفُّني وتحفُّ الفقيد، فقد كانت صمّاء باردة، إمّا لأنَّها من كثرة ما رأتِ الموتَ والأمواتَ لم تُحرِّك فيها رؤيةُ عبد الملك قتيلًا أيَّ شيء، وإمّا لأنَّ الأمر كان متوقَّعًا!

يااااه، يا وليد... كان ينبذه أهلُ ريم لأنَّهم يناصبون أهلَه العداءَ، وينبذه أهله لأنَّه يحبُّ ابنة من يتَّموهُ. ماتَ العاشق الحقيقيّ. «عاش ما كسب ماتَ ما خلَّى»! في القلبِ دفق شجن صاخب، وأسفلَ اللهاة غصَّةٌ بحجم قبضة اليدِ.

تلقَّفتِ انخذاليَ الأيادي، وسحبَتني بعيدًا عنه، بعدما شرعتُ أخبطُ على صدره بإلحاحٍ وأحثُّه على الاستيقاظ، علَّ ذلك يستوقفُ سَيَلان شلّال الندم داخلي. تمنَّيتُ لحظتها لو تنخسفُ بي الأرض، وأصير بعدهُ خبرًا بعد عين. لو تُسعفني مثله شجاعةُ الانتحار!

كانت أصابعه لا تزالُ عالقة بمسدس FN-FNP45 الذي أهديته إليه أيّامًا بعدَ وصولي إلى صعدة، عربونَ شكر وامتنانٍ لما بذله من أجلي. وكان ذلك المسدَّس الحديثُ الصنع آنذاك غنيمةَ قرصنة أحد السفن الأوروبيَّة، ويتَّسعُ لستّ عشرة طلقة، أنفقَ صاحبه أربع طلقاتٍ كي يمنعَ وصولنا إلى صهوة السفينة، وأنفقتُ إحدى عشرة طلقةً في أمورٍ شتّى تافهة، وأبقيتُ على رصاصة واحدة في جوفِ المسدَّس. لم أكن أعلمُ بأنَّني أهديتُ صديقي طريقًا مختصرًا للخلاص ورصاصة رحمة. كانت فوَّهةُ المسدَّس مائلة نحوي كإصبع اتِّهامٍ، وكان إقدامه على الانتحار بالمسدَّس الذي أهديته إيَّاه وبالرصاصة اليتيمة التي كانت

تقبعُ داخله، رسالةً مشفَّرة لا تقولُ سوى أمر وحيد: إداناتي.

قضى الشابُّ الوديع بعدِ نزفٍ عاطفيّ مرير... أخرسَ حياته بطلقةٍ يسارَ صدره. لم يَمِلْ إلى جهة القلب ليحسمَ موته بل ليقتُلَ في قلبه حبّها. كان هو المضرَّجُ بدمه وسيمًا كملاك ضاق به ثوبُ البشريّ، فانسلخ منه وعاد إلى سمائه.

لكنْ، ما كان يجدرُ بذلك الملاك أن يموتْ. آهٍ... أتذكَّرُ خفَّة ظلِّه؛ روحَهُ المرحة ونزفَ بوحه، فأوقن بأنَّ الموتَ يخطئ دومًا في اختيار ضحاياه. كنتُ أقبلُ أن يستهلك تلك الرصاصة اليتيمة انتقامًا منّي، أو من ريم، أو من إخوتها. كنتُ أقبل أن ينتعلَ جنونَ نيرون ويُحرقَ صعدة بما فيها ومَن فيها. في الأخير، نستحقُّ أسوأ من هذا المصير. لكنْ، بدلًا من أن يقذف بكرة الغضب الملتهبة صوب الآخرين، تركها تنتكسُ داخله وتدفعهُ نحو الانتحار.

عدتُ مدحورًا إلى غرفة النوم. تبادلنا أنا وريم نظراتٍ مشحونةً بقلق واضح، وخوف من شيء ما لا نعرفه. تفشَّى الصمتُ بيننا وصار يضغط على رئتي كلٍّ منَّا، ويبعثُ في نفسينا ضِيقًا شديدًا. ابتعدتُ عن السرير وقد ألحَّتْ عليَّ فكرة واحدة، لا أكاد أفكِّرُ في أمرٍ آخر إلَّا وأجدني أعود إليها: الرحيل.

اقترفتُ في صعدة أشياء جميلة، لكنَّني كذلك اقترفت أفدحَ الأخطاء، ووجدتُني مضطرًّا إلى ذبحِ صاحبي بمدية الغدر. دار المفتاحُ دورتينِ في رَحِم قُفل تلك الغرفة التي لا يدخلها سوايَ. كنتُ قد أودعتُ فيها حقيبة الظهرِ وما تضمُّه من أشياء عجيبة، سحبتُ منها آلة

الحلاقة وخلخالًا ذهبيًا وعدتُ إلى السرير، أرشقُ ريم بكلماتِ الوداع وتقابلها بدموعٍ زائفة.

حين أطلعتها على جنوني، جفلتْ وهدَّدتْ بالصراخ إن أنا حاولتُ أن ألمسَ بآلة الحلاقة شعرة من رأسها. ناغيتُ خوفها مؤكِّدًا أنَّ الأمر برمَّته مجرَّدُ مزحة لا تستحقُّ فضيحة، ثم التفتُّ إلى عريها الفاضح، تركتُ أصابعي تتوغَّلُ في الجسدِ الفتنة، وتسافر نحو التخوم السحيقة حيثُ تتدفَّقُ الشهوة.

حين شرعَ يعلو فحيحها، تمكَّنتُ من أن أطوِّقَ بخفَّة يديها بشالها وأخرستُ فمها بوشاحٍ، ثم زنَّتْ في جدران جمجمتها آلةُ الحلاقة. كانت هادئة كقطَّة خائفة وهي تراقب خصلات شعرها الكستنائيّ الجميلَ تتهاوى على السرير.

أمّا ما تلا ذلك، فقد كان جنونًا لا أدري على وجه التحديد كيف التبس بي لحظتها، ولا الأسباب الخفيَّة التي دفعتني إليه! في الإنسان، أيِّ إنسان، جنونٌ نائم، وأشياءُ هو نفسه لا يفهمها. وحدها اللحظاتُ الحرجة التي تتعانقُ فيها كلُّ المشاعر المتناقضة كفيلة بإيقاظ الجنون فينا، ودفعنا صوب ما لا نعرفُ، وأنا ما كنتُ أحسبُ قبلَ تلك اللحظة، بل قبل تلك الليلة برمَّتها، أنَّني مسكون بكلِّ تلك الفظاعة، وأنَّني قد أستلذّ مزيدًا من التوغُّلِ في متاهات الخطايا.

كان لرؤيتها والشعر يتساقط من رأسها لذَّةٌ في نفسي. رؤيتها ذليلةً وضعيفةً بينَ يديَّ مبالغة في هذه اللذَّة. أمّا وأنا أتأمَّلُ جسدها الفتنة ولحمَها البضَّ المتماسك، فقد انتصبتْ شهوتي وأبطلتْ كلَّ الأفكار التي تعبرُ برأسي. كانتْ طوعَ يديَّ غوايةً لا محيدَ عنها. ما وقعَ بعد

ذلك أنَّني تجاسرتُ واقترفتُ الحماقة. ملتُ على جسدها ألثمه في أكثر من مكان، ثم تفاقمَ جنوني وصرتُ أمزِّقُ قليلَ الملابس التي كانت تستترُ بها. كانتْ أطيافُ عبد الملك تتمحَّكُ بي في تلك اللحظات التي كنتُ أحترقُ فيها شهوةً. كانَ يبرقُ في أنفاق الخيال ويضمحلُّ، فلا يزيدني ذلك إلَّا إصرارًا على هدم كبريائها جنسًا...

كنتُ، بشكل أو بآخر، أحسُّ بأنَّ الأمر يرأبُ داخلي صدعًا ما، وأنَّني بذلك أقتصُّ لعبد الملك منها. أمّا هي، فقد كانتْ هادئة أوَّلَ الأمر، تستقبلُ اندفاعي الشرسَ فيها من دون أن تُبديَ أيَّ استياءٍ أو مقاومة. ورويدًا رويدًا بدأتُ أقرأ في أساريرها أماراتِ الرضا قبلَ أن تتفاعلَ معَ عنفواني الجنسيّ الصاخب. شرعتْ تتلوَّى كأفعى وتستزيد بعد أن انزاحَ عن فمها الوشاح، امتدَّ بنا ذلك الجنون زمنًا قبلَ أن نسقط مكدودَينِ أخيرًا.

نامتْ وعيناها مضرَّجتان بدمعها، أمّا أنا فقد توَّجتُ قدمها العارية بخلخال ذهبيّ، ووقفتُ طويلًا أتأمَّلُ نومها الهانئ. كانت كالأخريات وديعةً من دون شعر، رائعةً بهيَّة الملامح، كاملةَ الأنوثة... انتقيتُ من شعرها خصلةً دفنتها في الحقيبة...

وطلّقتُها، بينَ نفسي وبيني، وطلّقتُ صعدةَ.

التيه الأكبر

تمايلَ بنا المنزلُ بعد أن أصابته قذيفةٌ. تراقصَ ضوء الشمعة اليتيمة وتلاعبَ بالظلال، وتساقطَ من سقف غرفتنا بعضُ القشور الإسمنتيَّة، ثم سقطتْ آخرُ الصورِ المعلَّقة. هدأ كلُّ شيء بعد أن صمَّتِ القذيفةُ آذاننا، ثم لم تنفكَّ الأصواتُ نفسها أن اندفعتْ مرَّة أخرى: رصاصٌ يصدحُ بزغاريده الزائفة، وتكبيرٌ وتكبيرٌ مضادٌّ في حربِ الله ضدَّ الله. تنهَّدَ الأشقرُ ثم تأفَّفَ، عدَّل من جلسته، ومدَّ يدًا مرتجفة صوب زجاجة النبيذ وألصقها بفمه، يكرعُ ما فيها بشراهة واضحة.

يبدو أنَّ جسده قد تهدَّمَ، وأنَّه أُصيبَ بتلفٍ لا يُصلحه سوى تدخُّل طبِّيّ عاجل. أملنا الوحيد أن يظفرَ «الأخُ الكبير» في حربه. فقط لو ينتصرُ سيمنحُ الأشقر بيبرس عمرًا آخر قد يتّسعُ لحماقات أخرى! لا يزالُ شابًا في مقتبل العمر، على الرَّغم من أنَّ بوحه يقولُ إنَّه شيخ صغير.

الواحدةُ بعدَ منتصف الليل في ساعة الأشقر. في القلبِ دبَّ قنوطٌ وضِيق، لم أشعر بمثلهما منذ أن زلَّتْ بي قَدَمي في أتون داعش. كيف لا، وأنا بين أربعة جدرانٍ؛ أغلبُ الظنِّ أنَّها أصبحتْ معلَّقة في السماء، تمنحنا أنا والأشقر أمانًا موقَّتًا، وتسلبُ منّا الحرِّيَّة.

الأشقرُ لا تُرعبهُ الحربُ الطاحنة في عين العرب، ولا القصفُ العشوائيّ. يبدو مستسلمًا لموتٍ يتلصَّصُ عليه من مكانٍ قريب، ويدبِّبُ نصلهُ الذي سيغرسهُ في روحه المرهقة. أمّا أنا، فأخاف الموت، ولي أسبابي الثاويةُ في القلب.

هذه الغرفة ـ يقول الأشقر ـ أشبه بعشّ غرابٍ، ويُضيفُ أنَّ القصف العشوائيَّ قد دكَّ السلالم وبقيَّة الطوابق، وأنَّ تمايلَ عشّ الغرابِ هذا يعني أنَّه لا تسنده سوى سَوارٍ قليلة. وأردفَ، بعد أن تنهَّد بعمق، أنَّ الفرق بيننا وبين الغربان أنَّها تطيرُ إذا أحسَّتْ بالخطر يداهمها، أمّا نحن (وانفلقتْ شفتاه عن ابتسامة ساخرة) فهالكان.

انقبضَ قلبي. كانت الكلمات تكزُّ بين أسنانه وتنسحبُ من فمه كأنَّها الحقيقة. لا أريدُ أن أموت. أنا، عكسَ الأشقر، أعلن تشبُّثي بالحياة وخوفي من الموت! ربَّما لأنَّه شهدَ الكثير وعاشَ حياةً حافلة بالمغامرات، انتهى إلى تلك القناعات العَدَميَّة. أمّا أنا، فلم أرَ بعدُ إلَّا ما يراه عامَّةُ الناس: لوعةُ مريم، ومغامرتي غير المحسوبة مع تنظيم داعش، هما كلُّ رصيدي من الاستثناء!

رفع الأشقر ساقه كي يُسعفه ضوء الشمعة الشاحب على رؤية الجرح. فكَّ الثوب الذي لفَّه حولها، فظَهَرَ الجرح متفسِّخًا تورَّمتْ على سطحه أكياسُ صديد تبعثُ في النفس إحساسًا بالقرف. مرَّ

بأصابعه على الجرح الذي لا يزالُ ينزُّ دمًا وقيحًا. كان واضحًا أنَّ الجرح يقتاتُ منه، ولا بدَّ من أنَّه سيستوديه إلى الموت، إن لم يسعفهُ «الأخ الكبير» ويحسم معركة «عين العرب» بسرعة. وعلى الرَّغم من أنَّ الأشقر ممَّن يُضربُ بهم المثلُ في الجَلَد، فإنَّ وجهه الذي يتفصَّدُ عَرَقًا يفصحُ عن حقيقة واحدة: أنَّه يتوجَّعُ، وأنَّ ألمهُ قد تفاقمَ كثيرًا...

كانتْ تخزني تلك الذكرى السيِّئة، كلَّما رأيتُ جرحًا مفتوحًا، ويزدادُ يقيني بأنَّني سأحملُ معي في الضمير هذه الذكرى البالغةَ الإيلام؛ تلك الفتاة التي افترعتُ في رأسها الحليق ذلك الكهفَ الغائر.

تمنَّيتُ لو أنَّ «الأخ الكبير»، الأخَ الحقيرَ، أطفأ عطشي إلى رؤية ضحيَّتي الأولى، لكنَّه ردَّني بذلك المنطق السمج: «وجه المرأة عورة!» لكأنَّه يعتقدُ أنَّ وجهها سيكونُ مادَّةً دسمة للاستمناء!

أعاد الأشقرُ الخِرَق إلى الجرح المتفسِّخ. مدَّ يده إلى زجاجة الخمر، يشربُ ما فيها بنهم، ثم حطَّها على الطاولة، وقد انطبع لأصابعه التي أدماها الجرحُ أثرٌ في زجاجة النبيذ. قال بصوتٍ يتجشَّمُ مشقَّة، رفعه ليعلوَ على صوتِ القذائف والرصاص والتكبير:

«غادرتُ صعدة متخفِّيًا. لم أطمئنَّ إلى أنَّ الفضيحةَ لن تتعقّبني إلَّا بعد أن بلغتُ العاصمة صنعاء. لم ألبث هناك طويلًا. كانت البلادُ تعيش غليانًا أمنيًّا وسياسيًّا، وكان وضعي معقَّدًا جدًّا. النظام اليمنيّ وقتها قد أعلن حربه ضدَّ الإرهاب، بعد تأسيس «تنظيم القاعدة في جزيرة العرب» بتحريض من الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، ثم بمباركةٍ منها، هذا ما تفشّى على ألسنة الناس...

كان وضعي بعد انتهاء حرب النظام مع الحوثيّين مريحًا في صعدة، فقد كانت تلك اللحمة القبليَّة المنغلقة تضمنُ لي، أنا المتشرِّدُ في بلاد الربّ، العيشَ الآمنَ، بعيدًا عن أيِّ مساءلة قانونيَّة أو مطالبة بأوراق ثبوتيَّة. أمّا في صنعاء، فبمجرّد أن جلستُ إلى طاولة في مقهًى، قدمَ صوبي شرطيّان يطالبانني بأوراقي الثبوتيَّة. كنتُ أرتدي ملابسَ يمنيَّة أصيلة، لكنَّ ذلك لم يُبعدني عن دائرة الشكوك. شُقرتي، بقدر ما تستجلبُ النساء، تستجلبُ المشاكل دائمًا... كلَّفني الفكاكُ من ذلك المأزق رشوةً باهظة.

شهرُ تمُّوز من سنة 2010 أكثرُ الشهور التي أحسّ فيها بالغربة والكآبة والضَّياع. طفقتُ أجوبُ قرى اليمن ومدنه على نحو بوهيميّ. فكَّرتُ في العودة إلى الصومال، لكنَّني في العادة كنتُ أتطيَّرُ من العودة إلى الأماكن التي عبرتها. فكَّرتُ في اختراق الحدود السعوديَّة، لكنَّ الفكرة لم تجد هوًى في نفسي.

مذ غادرتُ مدينتي مضرَّجًا بدمِ شامةَ وأنا أشعرُ بأنَّ يدًا للغيبِ تقتادني في الدروب الصعبة. صحيحٌ أنَّها تنقلُني من أرض إلى أخرى، لكنَّها لا تتخلَّى عنِّي، ودائمًا ما تهيِّئ لي ملاذًا ونساءً وآفاتٍ شتَّى.. لكنَّ تمُّوزَ كان شهرَ الخواء؛ كانَ شهرًا ثقيلًا مريرًا، لا تكفُّ ثوانيه ودقائقه عن وخزي...

مطلعَ آب، انتهيتُ صدفة إلى مدينة لودر. لم أكن متابعًا متحمِّسًا للشأن السياسيّ، لكنَّني فهمتُ، من خلالِ الوجوه العابسة والوشوشات الهامسة، أنَّ المدينة تقع تحتَ قبضة تنظيم القاعدة. لم يكن الأمر ليضيرني في شيء، فكثرة الحلّ والترحال جعلتني حربائيًّا قادرًا على أن أنسجمَ مع أيّ وسط وأتلوَّنَ بألوانه. وهناك، على وجه التحديد، بدأتُ

أقتحُم دائرة الظلام، وأعلقُ برماله السوداء اللزجة.

كنتُ مُعَدًّا لهذا المصير. وكنتُ لَأتحالفُ في سبيلِ الأمان مع الشيطان. أنا هاربٌ من حكمٍ غيابيّ بالإعدام؛ هاربٌ من الموتِ والحرائق القاتلة. وأنْ أتحالفَ مع الظلّام والظلاميين؛ أن أتحالف مع القضايا التي أنبذُها وأمقتُ سيرتها، أهوَنُ عليَّ من أن أمضيَ عمرًا في السجنِ، أراقبُ لحمي وهو يتفسَّخُ وعظامي ينهشها البردُ والرطوبة الدبقة. خسرتُ الحياة من زمن بعيدٍ، منذُ أن خانتْ شامةُ وقطّعتْ بمشرطِ غدرها أوصاليَ. آه، يا وليد الطيِّب، يا صديقَ المنتهى. لقد أفلستُ منذ زمنٍ بعيدٍ، وما عادَ يهمُّني أن أنتميَ إلى الأشرار أو الأخيار. صرتُ لا أعبأُ إلَّا بأمرين: أن أطلبَ حياةً تليقُ بصبري على الحياة، وأن أرجوَ موتًا يليقُ بجنوني وبطولتي!

دخلتُ مدينة لودر منتكسَ الهامة. طفقتُ أجوب شوارعها، هائمًا كمن يبحثُ عن شيء لا يعرف ما هو على وجه التحديد. استقرَّت بي الحالُ في مطعمٍ صغيرٍ ألتمسُ ما أسدُّ به جوعي. أجهزتُ على ما جيء لي به من طعامٍ، ولبثتُ أراقبُ المارَّة زمنًا، أراهم يعبرون الزقاق ولا أراهم. عَبَرَ الكثيرُ من الملتحين والقليلُ من النساء المبرقعات في سوادٍ لا تبينُ منه إلَّا عيون، هي بالنسبة إلى ظمآنَ مثلي مبتلى بالعهر والعاهرات، مثارُ غواية لا سبيلَ قطعًا إلى بلوغها.

حينَ كنتُ أهمُّ بالمغادرة، استوقفني رجلان فارعا الطول مسبلا اللحيتين! سألني أحدهما عن اسمي وعن هوّيتي، أجبتُ صادقًا، وذُهلتُ حين سألني إن كنتُ قد مررتُ بتونسَ. أجبتُ بالإيجاب ذاهلًا، قبلَ أن يقولَ بثقة كبيرة إنَّه صهرُ القرويّ التونسيّ الذي اشتغلتُ في ضيعته زمنًا! عجبتُ وأحسستُ بأنَّ الأرض ـ على رحابتها ـ

صغيرةٌ جدًّا، ولاسيَّما حين أكَّد لي أنَّ ابنة القرويّ، تلك العانسَ الشبقة، هي التي رأتني، وحدَّثتْ عنّي زوجها.

طفقتُ أجوبُ أزقَّة الذاكرة، أستعيد ما كان بيننا: كيف أنَّ لوثةَ العهر في جسدها وروحها متأصّلةٌ. تذكَّرتُ الليالي التي كانتْ تلوذُ فيها بجسدي، وتنعشُ بمائه أرضَها القفرَ المجدبة، وتطالبني صباحًا بدفع ثمن المتعةِ. لا تتركني إلَّا وقد أخذتْ كلَّ شيء.

عاملني الرجلان بحفاوة بالغة، واقتادني زوجُ «عشيقتي السابقة» إلى منزلهما، ووفَّرَ لي أسباب الراحة كلَّها: حمّامًا ساخنًا، ملابسَ نظيفة، وأكلًا تونسيًّا أصيلًا، بل أفردَ لي غرفةً في منزله أيضًا. كان يتعاملُ معي بكرمٍ زائد، لذلك كنتُ أنتظرُ أن يطلبَ منّي شيئًا ما. كنتُ أتوقَّعُ ما سيطلبُهُ، ولم أكنْ لأرفض في أيِّ حال. قلتُ لكَ، يا وليد، إنَّني يمكنُ أن أتحالفَ مع الشيطان نفسه من دون أن آسفَ على شيء، لكنَّه لم يطلب منِّي ذلك. لم يطلبْ منِّي حتى مجرَّد الالتزام بصلواتي: كان عبد الله (وهذا هو اسمُهُ) رجلًا هادئًا قليلَ الكلام كثيرَ الشرود، لا يتحدَّثُ إلَّا لمامًا، وحينَ يفعلُ ذلكَ فإنَّما ليرحِّبَ بي، أو ليسألَ إن كنتُ أطلبُ شيئًا. لم أكن أريدُ لمقامي في بيتِهِ أن يطولَ لولا أنَّه كان يلحُّ على بقائي، ويقسم بأغلظ الأيمان بأن أفعل.

العجيب، في تلك الأيّام، أنَّه لم يكن ليبدوَ على عبد الله أيُّ تزمُّتٍ أو تحجُّرٍ في الفكر، على غرار الجمعِ الذي غادرَ تونس ذات يوم صوب «القاعدة»، ثم تبدّد في الصحراء. بعد ثلاثة أيّام، بدأت تحدثُ أشياء غريبة. لقد كنتُ أعتقدُ أنَّ ما سيقعُ هو أيُّ شيء آخر غير ما وقع. كنتُ أعتقدُ مثلًا أنَّه سيدعونني إلى الانضمام إلى التنظيم، أو حضور الاجتماعات، أو التعرُّف إلى عناصرَ أخرى. وفي أسوأ

الأحوال، كنتُ أظنُّ أنَّه سوف يدعوني إلى الالتزام بمواقيتِ الصلاة، أو الامتناع من حلق لحيتي!

لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدثْ! ما حدثَ، يا وليد، هو كلُّ ما يتوقَّعُ المرء أنَّه لن يحدثَ. أصبح عبدُ الله يتركُ المنزلَ! في الأيّام الأولى، كان لا يبرحُه إلَّا بعد أن أرافقه؛ يغادرُ هو إلى الأمكنة التي لا أعرفها، وأهيمُ أنا على وجهي في الشوارع والأزقَّة، لا أعودُ إلَّا حينَ أتأكّد من أنَّه عاد قبلي. بعد أيّامٍ، شرعَ يغادرُ المنزلَ مبكرًا، ويتركُني في خلوة مع زوجته التي أعرفها وتعرفني جيِّدًا؛ أوّلَ الأمر، خلتُ أنَّها تغادرُ معه. كنتُ أجد الأكل على الطاولة، وأطمئنُّ إلى أنَّني وحيدٌ في المنزلِ. لكنْ، بعدَ يومين لم ألتفتْ فيهما إلى وجودها في المنزلِ، جاءني صوتُها رقيقًا عذبًا كشربةِ ماء بعد صيامٍ طويل. اهتزَّ قلبي وتضاءلَ بين جوانحي، كأنَّ يدًا تعتصره. شعرتُ بالخوف، لا أدري لماذا! لكنَّ قلبي انكمشَ داخلي، وحرَّض عليَّ الأدرينالين!

تماطلتُ سهوًا عن الإجابة، فتمادتْ هي أكثر ممّا يجب. أطلَّتْ عليَّ بوجه سافرٍ تسألُ إن كنتُ أشتهي شيئًا. قالت ذلك بإغراء وغنجٍ، وكانت عبارتها حمّالةَ أوجهٍ... لا أدري لماذا! لكنَّني رأيتُ عبدَ الملك الذي لم يبرأ جرحه في قلبي بعدُ، فانتصبتُ واقفًا، وغادرتُ المنزل على الفور.

يمكنُ أن أزعمَ، يا وليد، أنَّ بعض الخطايا لا فكاك منها. بمجرَّدِ أن تصوِّبَ شباكها صوبكَ فإنَّها تطاردكَ، ولا يهدأ لها بالٌ إلَّا حين ترديكَ في المستنقع الآسن. وهذا ما حدثَ طبعًا. هربتُ من المنزل ذلك اليوم، وأعادني إليه عبد الله مساءً، وهو يؤكِّدُ أن لا شيء يدعو إلى القلق... قبل أن يُفضيَ إليَّ بكلِّ شيء!

قال إنَّه مثلي ألجأهُ إلى ذلك القرويِّ التونسيّ يأسُه، بعدما حاول مرارًا أن يعبرَ إلى الضفّة الأخرى، وأنَّه تزوَّجَ ابنته العانس اضطرارًا. وأضاف بحسرة كبيرة أنَّ العجوز قد ضبطهُ متلبِّسًا بجسدها. وفي مكاشفة صادمةٍ، قالَ إنَّ صدمةَ ضبطه، والضربَ المبرِّحَ الذي تعرَّضَ له من قبلِ ملتحين كانوا برفقة القرويّ التونسيّ العجوز، قد أورثاه ضَعفًا جنسيًّا، بحيثُ لا يكادُ عضوُهُ ينتصب حتى ينيخَ ويصيبَه ضمور شديد، فيعجزَ عن إخماد شبق العانس. لم يَدْعُني صراحة إلى مضاجعةِ زوجته، لكنَّني فهمتُ ذلك من كلامه!

الأيّامُ التي تلتْ تلك المكاشفة، كانتْ غريبة وغامضةً، كأنَّها مبتورة من واقعٍ موازٍ وجدتُني أُحشَرُ فيه. صبيحة اليوم الموالي، قال حينَ رآني واقفًا أهمُّ مثله بالمغادرة، «في إمكانك البقاءُ إن شئت!» وهكذا بقيتُ. تعرفُ جيِّدًا، يا وليد، ما يمكنُ أن يقعَ بين جسدينِ ناضجينِ بينهما سوابق جنسيَّة!

من دون كلام كثيرٍ، اندفعنا في اللعبة التي خطَّطَ لها زوجها، وهيَّأ لنا ظروفها. فيما بعد، لم تعدْ أمرًا مهمًّا مراعاةُ حضوره من عدمه، فقد أخلى لنا غرفة نومه، والتجأ إلى الكنبة المقابلة للتلفاز في غرفة الجلوس. وكانَ كلَّما ضجَّتْ بها الشهوة وعلا فحيحها، يزيدُ في صوتِ التلفاز أو يتركُ المنزل. في كثيرٍ من الأحيانِ، كانتْ تصرخُ أو تشهقُ بتأوُّهاتها على غير عادتها حين كنّا في تونس. . . أغلبُ ما تقومُ به يكون افتعالًا؛ هي رسالةٌ مشفَّرة تنكأ بها جرحه، وتذكِّره بأنَّه ليسَ رجلًا؛ ليس رجلًا بما يكفي ليحرِّكَ براكينها الخامدة.

ما حدثَ بعدَ أسبوعين تقريبًا من الجنون، في الثامن عشر من آب، ما كانَ ليحدثَ لولا أنَّ لوثة عهرٍ تسكنُ أعماقي. ما حدثَ كانَ

يمكنُ تجنُّبه بسهولة، لكنَّ قدري المعطوب؛ قَدَري المريض باختياراتي التي تحرجُ سلطته وجبروتَ مشيئته، دائمًا يزجّ بي في البُرَك الموحلة. سيِّئ يا وليد، أن تقترفَ جريمة جنس في مدينة محافظة. الأسوأ أن تقترفها في مدينة يحكمها متشدِّدون دينيُّون!

الناسُ في اليمن، مثلُ الناس في جميع المدن العربيَّة التي عبرتها، لا ينفكُّونَ يحرِّكون ألسنتهم بالنميمة، بالإشاعات وتسقُّط الأخبار. ولأنَّنا ثلاثتنا كنّا نربّي من دون قصدٍ فضيحةً كبيرة، فقد جاءَ ذلك اليوم؛ ذلك اليوم الأسودُ الحالك الذي لا يشبه أيَّ يومٍ آخر. غادرَ عبدُ الله صباحًا. انتبهتُ إلى ذلك حين صُفِقَ البابُ الخارجيّ. كنتُ ممدَّدًا على السرير عاريًا إلّا من تبّانٍ يسترُ سوأتي، وكانتْ هي عاريةً تمامًا هادئة كبحيرة في يومٍ مشمس. جسدها الذي أنهكته العنوسة بدا أكثرَ ترهُّلًا من أيّام تونس وأقلَّ طراوة. جسدٌ لا يشجِّعُ على اقتراف الآثام، ولا يستحقُّ كلَّ ما سيلحقني جرّاءه!

فيما بعد، وأقصدُ بعدَ أسبوعٍ، سأفهمُ يا وليد، سأفهمُ أمرًا قد لا يعني الشيء الكثير، لكنَّه يعني لَي أشياء كثيرة؛ سأفهمُ أنَّ الأقدار، الأقدار الملعونة التي أعطبتْ حياتي، لم تعلِّبْ هذه العانس وترسلها في بريدِ «القاعدة» إلى اليمن إلّا لأنَّني أهملتُ جزَّ شعرها، ونسيتُ أن أُثريَ بقصفةٍ منه مجموعتي!

اندلعتِ الفضيحة في الثامن عشر من آب. هاجمَ غرفةَ النوم ملتحون يحتزبون رشّاشات. استيقظنا ذاهلَين. كانتْ رؤيتهم أشبهَ بكابوس مرعبٍ يا وليد. رفعتُ يدَيَّ معًا أمامَ كثيرٍ من العيون الغاضبة، في حين تلفَّعتْ هي بإيزار، بحيثُ لا يظهرُ منها سوى وجه طفرتْ منه دموعُ الخوف. كانت تنشجُ وتُصدرُ أصواتًا أقربَ إلى النعيب.

منذ أن فتحتُ عينيَّ على لفيف المتشدِّدين، وأصواتهم الصاخبة الأقرب إلى الضجيج منها إلى الكلام السويّ، وأنا أحسّ بأنَّ ما يحدثُ حلمٌ محضٌ، وأنَّه غيرُ حقيقيّ. وقد لازمني ذلك الإحساس مدَّة، وأعتقدُ أنَّ له كبير الفضل عليَّ. لولاه، وحده الربُّ يعرفُ أيَّ ردِّ فعلٍ أرعنَ كنتُ سأقترف.

أمهلنا المتشدِّدون ريثما ارتدينا ملابسنا، وتمَّ اقتيادنا معًا، ثم دُفعنا في سيّارة سوداء أوصلتنا إلى منزل غير بعيد؛ هناكَ حيثُ زُجَّ بي في غرفةٍ ضيِّقة. لاحظتُ أنَّ تعاملهم كان لبقًا قياسًا للجرم الذي اقترفتُ. قيلَ لي إنَّ المحاكمة ستكون علنيَّة في الغد. اهتزَّ قلبي بعنفٍ، وإن خفَّفتْ دهشتي العارمة وشرودي من وطأة الصدمة.

استقدموا لي طعامًا جيِّدًا. وعلى الرَّغمَ من أنَّني مُدانٌ بجريمة عقوبتها القتل، فإنَّني نمتُ نومًا هانئًا. كنتُ مستسلمًا أنتظرُ موتًا لطالما كنتُ أنشده. ينضُجُ المرء كثيرًا حينَ يكونُ محكومًا بالموت. ما كان يُقلقني هو أنَّ تلك الوطاويط التي هجرتْ ليلها قد لا تهبني موتًا سريعًا.

صباحًا، بعد حمّامٍ ساخن (كي أرى الله طاهرًا)، تحلَّقَ جمعُ المتطرِّفينَ حولي وحولها. كانت مبرقعة في خيمة سوداء. وسرعان ما غصَّتْ تلك الساحة بمئات من الرجال الآخرين، وانفتحتِ النوافذُ على رؤوس نسوة، واشرأبَّتِ الأعناق. كلٌّ يريد أن يجلوَ تفاصيلَ ما يحدثُ. لكنَّ ما حدثَ كانَ شيئًا آخرَ غيرَ ما كان يجدرُ به أن يحدث، كأنّي كلَّما همَّ بيَ الموتُ استبقتني بصلف القادر المستبدّ حياتي!

لم تكد أطوار المحاكمة تُستهَلُّ، حتى جأر من الصفوف الخلفيَّة للجماهير صوتٌ يقولُ ما معناه أنَّ قوّات النظام تقتحمُ المدينة. أسجى في إثر كلامهِ الجمعُ برهةً، وسرعانَ ما اندلع الهرجُ والمرجُ قبل أن

يختلط الحابلُ بالنابل، كلٌّ يبغي مسلكًا يُنجِّيه من نار هذه الحربِ المباغتة.

أربكَ الخبرُ ملائكةَ السواد. ما عادوا يعرفونَ أيواصلونَ ما بدأوه، أم يلوذون بالفرار، أم يواجهون؟ كنتُ مقيَّدًا إلى عمود الكهرباء، أصيخُ السمعَ إلى ثرثراتهم، وأراقبُ رؤوسهم التي تدورُ في كلّ اتِّجاه؛ واغتنمتُ الفرصة المواتية لأشتري صكَّ براءتي. استوقفتهم وهم يهمُّونَ بالانسحاب، والتمستُ منهم أن أقاتلَ إلى جانبهم ـ كنتُ اقترحتُ عليهم ذلك قبل المحاكمة ـ. انصرفَ أغلبهم غير آبهينَ بما أقولُ، لكنَّ كلماتي استوقفت بعضهم. فكُّوا وثاقي، ومضيتُ خلفهم في ذلك اليوم الشؤم، الذي طالَ أكثر ممّا يجب.

أفلَ نهار كامل من دون أن تنتهي تلك الحرب المباغتة. قصف وقصفٌ مضادّ، وتبادلٌ كثيفٌ لإطلاق النار، وتكبيراتٌ لا يعقبها سوى المفاجآت غير السارَّة. انسحبتُ من مدينة لودر برفقتهم، بعد أربعة أيّام من القتال الدامي. انسحبنا إلى خلاء متاخمٍ لمدينة زنجبار في مقاطعة أبْين اليمنيَّة. . في تلك المعركة، اشتُهرتُ بلَقبِ «الأشقر بيبرس»، وهو لقبٌ ظلَّ لصيقًا بي طوالَ رحلتي القاسية مع «القاعدة».

في زنجبار، التقينا واحدًا من أشرس مَن قاتلتُ إلى جوارهم، أشادَ ـ بعدَ أوَّل معركة لنا معًا ـ بقدراتي العسكريَّة التي كانتْ حاسمة. كان يفوقني رتبةً ويفوقُ كلَّ من نزحَ من أنصار الشريعة من لودر، علمتُ فيما بعد بأنَّه مهمٌّ في التنظيم. . . ثم علمتُ بأنَّهُ أحد رؤوس التنظيم في اليمن. ازدادتْ مودَّتي وتقديري له، حين غفرَ لي زلَّتي، بل أنكحني فوقَ ذلك إحدى سباياه. ذلك المحاربُ تعرفه، يا وليد، تعرفه جيِّدًا. . . هو «الأخ الكبير»!

في تلك الأيّام العصيبة المشحونة بالقلق والخوف، عدتُ متسلِّلًا إلى مدينة لودر. فقد خلّفتُ في منزل عبد الله، منزل الخطيئة، ثروتي وأشياءَ مهمَّة تخصُّ الذاكرة، ولا مناصّ من الحيلولة دونَ ضياعها. كانتْ ابنة القرويّ التونسيّ قابعةً في المنزل، وكانت تلك فرصةً لأقتصَّ منها، وأقومَ بما أهملتُ القيامَ به في تلك الخربة المجاورة لمنزل والدها، ضواحي بنزرت. قرَّرتُ أن أحلقَ رأسها خوفًا من أن أرتطمَ بها في مكانٍ وزمانٍ آخرينِ.

لم تسلِّم لي رأسها إلَّا تحتَ التهديد. كان المسدَّسُ الفارغ الذي أَخرسَ حياةَ عبد الملك في صعدة نائمًا في الحقيبة، وقد استخدمتُه لتهديدها، ثم لحلاقةِ شعرها من دون مقاومة.

عدتُ إلى «الأخ الكبير». كنّا نُقيمُ بخيام، نصبناها متاخمةً لمدينة زنجبار. لم أكن أدري أنَّ مصيري سيلتصقُ بمصيره. صحيح أنّني ارتميتُ في أتون التطرُّف والتشدُّد مضطرًّا، لكنْ، وأنا أحملُ حقيبة الظهرِ عائدًا، اخترتُ طوعًا أن ألتحقَ بصفوف «القاعدة»؛ ليسَ قناعة، بل إمعانًا في العبث.

أفلستْ حياتي، يا وليد، من زمنٍ بعيد. يااااه، كم كنتُ أحلمُ بمصيرٍ آخرَ يناقضُ تمامًا ما آلتْ إليه أيّامي، لكنَّ الإنسان حينَ يبالغ في الحلم والتفاؤل، فإنَّ الحياة تدفعه سريعًا إلى الإفلاس. كان عليَّ أن أعرفَ قدْري؛ لستُ أكثر من ابن عاهرةٍ، لا يعرفُ أيّ كلبٍ أورثه هذه الشقرة ومضى. لو تنغلقُ فقط صنابيرُ الرجال كلَّما همُّوا بالعاهرات، لكانَ ذلك ليُعفيَ أمشاج الخطيئة من أن تشرئبَّ أعناقُها من الأرحام المفتوحة، وتتفتَّقَ بعدَ ذلك كشقائق النعمان في المقابر!

اخترتُ «القاعدةَ» طوعًا. مثلما تسلَّلتُ إلى مدينة لودر، كان يمكنُ أن أتسلَّلَ إلى مكانٍ أبعدَ من مقاطعة أَبْيَنْ، لكنَّني لسببٍ ما أجهله، اخترتُ طريق الشوك. الآن، وأنا أستعيدُ تلك الأيّام التي تندفعُ في الذاكرة كدخان حمّام قديم، أؤكِّدَ لك أنَّني لستُ نادمًا، لأنَّني اخترتُ تيه القاعدة بدلًا من أيّ تيهٍ آخرَ. كان هناكَ أمرٌ ما يصوِّبني نحو تلك الخيام السوداء؛ صوبَ أولئكَ الرجال الغلاظ الأشدّاء الملتحين، الذينَ لا أحبُّهم ولا أحسّ بأنَّني أنتمي إليهم. شيء يجرُّني صوبهم، لم أعرف ما هو إلَّا بعد عودتي؛ بعدَ عودتي بأيّام طويلة قاسية. لا بدَّ من أنَّ الإنسان لا يسيرُ في هذه الحياة على نحوٍ عبثيٍّ. لا بدَّ من أنَّ اختياراته لا تكونُ دائمًا بإرادته. هناكَ مشيئة ما؛ مشيئة خفيَّة تحكمُ أتفهَ اختياراتنا.

عدتُ أحملُ حقيبتي، وأشدُّ في جيبي على مفتاح قُفلها الصغير. لم يسأل «الأخ الكبير»: أينَ كنتُ ولا ما تلك الحقيبة. حيَّيتُه، فردَّ التحيَّة بمثلها. لم يكنْ قد أسبلَ لحيته على النحو الذي تعرفه، كما أنَّه كان أكثر شبابًا... لا يذهبنَّ بك الخيالُ بعيدًا وتعتقدَ أنَّ «الأخ الكبير»، «نيرون كوباني»، كما سمَّيتُه في زمنٍ ما... لا تعتقد أنَّه طاعن في السنِّ. يكبرني بعشر سنوات، مهلًا: عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة لا غير، لكنَّه حملَ على كاهله المصائبَ ورأى الأهوال، وشابَ سريعًا. لم أرَ مَن شابَ على نحوٍ أسرعَ منه!

آه، لا بدَّ من أنَّه الآنَ يذرعُ عين العرب شبرًا شبرًا بحثًا عنّي، وأنا هنا، أصمّ أذنيّ عن نداءاته. تعبتُ، وسمعي أنهكهُ الموجُ الهادرُ داخلي والصفيرُ. كانت حياةُ تقولُ لي، صبيًّا، إنَّ الصفير في أذنِ المرء يعني أنَّ الموت قريبٌ منهُ، وإنَّ على المرء أن يردَّهُ بالاستغفار وتلاوة

آية الكرسيّ. . . آه، يا وليد، لقد نهشني هذا المرضُ، والرصاصة التي انتشلتُ من لحمي لا بدَّ من أنَّها خلَّفتْ داخلي سُمَّها.»

برقتْ في مدى عينيهِ الزرقاوينِ دمعةٌ. تطلّعَ إلى الأعلى وهو يعبُّ الهواءَ إلى صدرهِ العاري، ثم يُفرجُ عنهُ على مراحلَ. الشمعةُ اليتيمةُ تضيءُ تعبهُ ووُشومه الغريبة. بدا مخلوقًا غريبًا كأنَّهُ جنسٌ «فوقَ بشريّ». كنتُ أتأمَّلُ انخذالهُ، وأنا أقولُ في سرِّي إنَّ الأشقر، قبل بَوْحِهِ، هو بلا شكٍّ غيرُ الأشقرِ بعد البوح. جزءٌ مهمٌّ ممّا نحنُ عليه تحدِّدهُ حكاياتنا. . . أسماؤنا أو وجوهنا ليست أكثر من اختزالٍ مقتضَبٍ لحكاياتنا. في الأخيرِ، قد تتشابهُ الأسماءُ والوجوه، لكنّ بصماتِ بطولتنا في حكاياتنا الخاصّة تظلُّ متفرِّدة!

«انعقدتْ بيني وبين «الأخ الكبير» صداقةٌ كبيرة؛ صداقةُ أرواح كبيرة. كنتُ أعرفُ أنَّه ليسَ رجلَ دينٍ بالمعنى الحرفيّ، على الرَّغم من أنَّه كان موسوعةَ فقه وشريعة، وكان يعرفُ أنَّني مُكْرَهٌ لا بطل. أمّا كيف التقينا؛ كيف تعارفنا وانعقدَ ما بيننا، فأذكر تفاصيلَ ذلك جيِّدًا. فاللقاءات والعلاقات المهمَّة والراسخة في العادة تسقطُ من الذاكرة تفاصيلُها؛ يسقط كثيرون ممَّن ينهبونَ بعضَ حياتنا أو الحياةَ برمَّتها. تغيبُ عنّا في كثيرٍ من الأحيان شتلةُ اللقاء الأوَّل وطريقةُ تبرعم العلاقة! تصوَّرْ يا وليد، عندما كنتُ طفلًا، كنتُ أجلسُ الساعات الطوال أمامَ الوردة، أرجو رؤيتها وهي تنمو، آملُ أن أُلقيَ القبض على الطريقة التي تفعلُ بها ذلك، لكنْ عبثًا أحاول! هكذا العلاقات البشريَّة في كثيرٍ من الأحيان، يصعبُ علينا أن نمسك بتلك اللحظات الشفّافة التي تتطوَّرُ فيها الأمور وتتشابك. . .

لكنْ، بالنسبة إلى علاقتي بـ «الأخ الكبير»، بجنكيزخان الزمن

الأخير، فإنَّ التفاصيل تجثم بعضها فوق بعض في الذاكرة. كان لقائي إيَّاه أوَّل مرَّة في مدينة زنجبار. الحربُ كانت رحًى كبيرة تدفعُ الرجال إلى أتونها وتلفظهم مِزَقًا وأشلاءً. كنتُ أقاتلُ إلى جانبه، من دون أن أعرفَ من يكون... وكان يعرفُ عنِّي الكثير، كلَّ شيء تقريبًا، منذ وَطِئَتْ قدماي اليمن.

أربكتْ وقفته رصاصةُ قنّاص ماهرٍ، فرَّتْ به مترين ورمته قربَ قدميَّ يتخبَّطُ كمن به مسّ. الكلمات تخرجُ من فمه حشرجةً وأنا أسنده إلى كتفِي، وأجرُّه أبعدَ من الحرب. كان الرجلُ واقفًا على بساط الهشاشة يردُّ عنه النزع الأخير بإرادة صُلبة وبسالةٍ لا تعرفُ الهوادة.

أمّا ما حدثَ بعد ذلك، فقد كان جنونًا لا بدَّ منه لتنضجَ بيننا الصداقة وتضربَ جذورها في قلبينا معًا... ما حدثَ أنَّني لم أجد أيَّ سيّارة تُقلُّه أبعدَ من الحرب، وتقرِّبُه إلى طبيب «القاعدة»، لذلك اقترفتُ جنونًا، لا يقلّ عن جنون اليوم. قرَّرتُ أن أبقرَ جنبه وأُخرجَ الشظايا وأحاول إيقاف النزف. كنتُ مضطرًّا إلى فعل ذلك. الرجلُ ميّتٌ إن أنا تركتُه، والأفضلُ أن أحاول.

طبعًا، كنتُ مدجَّجًا بخبرة متواضعة لا تؤهِّلني لأن أفعل ما فعلْت، لكنْ تؤهِّلني لأن أجرِّبَ على جسدٍ/ جثَّة. تعلَّمتُ من نيكول، الطبيبة الإيطاليَّة، أشياء كثيرة، وفي الصومال وصعدة، رأيتُ عن كثبٍ كيفَ يُسعَفُ كلُّ من قدَّتْ جسدَه رصاصةٌ، لكنَّني لم أُجرِّبْ التعاملَ مع جسدٍ في وضع حرجٍ كهذا، وكانتْ تعوزني الأدواتُ اللازمة لإنجاح ما كنتُ أراه نظريًّا ممكنًا، لكنَّني حاولت.

حين شقَقْتُ جنبه بالمديَة، اندلقتْ الدماء. كان واضحًا أنَّه كان

يعاني نزفًا داخليًا. غابَ عن الوعي، فتوقَّف تنفُّسه، فأنعشته بتنفُّسٍ اصطناعيّ، لكنَّه غاب عن الوعي مجدَّدًا. حاولتُ أن أوقف النزف بالكثير من الخِرَقِ. . . مسافرًا بين بطنه وفمه، كلَّ مرَّة أضعُ أذني قربه لأتأكَّدَ من أنَّه لا يزالُ في قيد الحياة. فيما بعد، بعد شهرٍ تقريبًا ـ وهذا هو عمرُ غيبوبته ـ سيخبرهُ الأطبّاء بأنَّ تدخُّلي الميدانيَّ كان حاسمًا، وأنَّه لولايَ لَما كان ليواصلَ حياته.

كمن اندفعَ حيًّا من مخاض عنيف، فتحَ عينيهِ على وجهي وتمسَّكَ بصداقتي، كأنَّها أُمُّه التي أنجبته من جديد. سمعتُ في أثناء غيبوبته الكثيرَ عنه؛ الكثيرَ عن جلفته، خشونته وصلافة طبعه. لكنْ حين أفاقَ، استحالَ إلى رجلٍ آخرَ غير الأمير الذي يعرفُه الجميع. يُقسم كلُّ من يعرفه بأنَّ الربَّ قد أبدلَ الروح التي تسبحُ في طينه بروحٍ أخرى!

أنا و«الأخ الكبير» كنّا روحين مصوَّبتينِ الواحدة نحو الأخرى. . . هو ابنُ عين العرب، وحلمه أن يحرِّرها من الطواغيت. مطلعَ التسعينيّات من القرن المنصرم، نحرَ النظامُ والدَهُ، كما تُنحَرُ الشاة! وفي أواخر التسعينيّات، نحرَ هوَ أمَّه حينَ ضبطها متلبِّسة بخيانة ذكرى والده، ثم مضى لا يرجو العودةَ إلى مدينته إلَّا فاتحًا. كان يجمعنا الكثير، وأجملُ ما في هذا الكثيرِ لعلَّه التيه، وأبشعُ ما فيه خيانةُ الفُروجِ التي قذفتنا إلى الحياة!

أهديتُ «الأخ الكبيرَ» عمرًا آخرَ عربونَ صداقة، وردَّ الهديَّة بما لا أجدُ طريقًا إلى تسميتهِ. هل أُسمِّي هديَّته أروعَ قَدَرٍ، أم أسمِّيها حادثةَ ذاكرة؟ صدقًا لا أدري.

أعتقدُ أنَّ الموتَ، إذ يجسُّ نبضي ويقيسُ حرارتي ويؤهِّلني لأليق

بما يُعِدُّه لي، فإنَّما يدفعني لأرى الأمورَ من زوايا لم تنكشف لي من قبلُ. الآن، إذ أستعيدُ تلك الهديَّة، أوقنُ بأنَّني معطوبٌ بقَدَري، وأنَّ الإنسانَ قد ينفقُ أيّامه وسِنِيّه ابتغاءَ أمر واحد، وتتسلَّلُ الأيّامُ من بين الأصابع من دون أن يدركهُ!

أهديتُ «الأخ الكبيرَ» (ولم يكن اسمُه أيّامها كذلك. . . كان اسمه الأمير، وكنتُ حينَ أخلو به أشاكسه بلقب «ميكيافيلي». كانت قراءته خارج علوم الدين منعدمة، لذلك كان يرى الأمر نُبْزة، والاسمَ أقرب إلى شخصيّات الرسوم الكرتونيَّة)؛ قلتُ: أهديتُه الحياة، وأهداني تذكيرًا دائمًا بالموت. لم يكن يقصدُ ذلك، لكنَّني ملعونٌ بماضيَّ وقَدَري. بقدرِ ما يهربُ الإنسان من ماضيه بقدر ما يتوغَّلُ فيه. الملعون هو من يعيشُ مستقبله ماضيًا، وهذا ما حدثَ.

كانَ يومًا غائرًا في رَحِم الزمن؛ نشازَ عمر كاملٍ. التقيتُه بعد الزوال. تحدَّثنا طويلًا عن أشياءَ كثيرة، ذلك بأنَّنا حين نجلسُ، أحدنا إلى الآخر، نأتي بلا كلل على أكثر من موضوعٍ، لكنَّني أذكرُ ذلك اليومَ جيِّدًا. لقد حدَّثني عنها!

كان اسمها ليلى. أحبَّها بعنفٍ، قبلَ أن يعرفَ حساسيّات مدينته، هذه التي نقبعُ فوق رمادها، يا وليد. أحبَّها طفلةً، وحينَ يعشقُ المرء طفلًا، فإنَّه لا يعبأ بالحسابات التافهة والأمور الصغيرة. وحدها شريعة القلب تبرِّرُ كلَّ شيء. لكنَّ المدينة، هذه التي كانت فيما مضى مدينةً، كانت تنامُ، كغيرها من المدن العربيَّة، على تناقضات جمَّة. حين نضِجَ ما بينهما، شرعا يستفيقان من غيبوبة الحبّ رويدًا رويدًا على الأسلاك الشائكة التي تنتصبُ بينهما وما كانا يريانها. . .

ليلى، لم تكن عربيَّة مثلَهُ. كانت كرديَّةً. ولم تكن سنِّيَّةً مثله. كانت أيزيديَّة، نزحتْ عائلتها من جبلِ حلب (جبل الأكراد) إلى عين العرب. بينه وبينها كانت تقومُ تناقضاتٌ جمَّة. حينَ جمعتهما فصولُ الدراسة، لم يحفل أحدٌ بقلبين ينجذبان، أحدهما إلى الآخر، لكنْ ما إن لفظتهما الأقسامُ حتى أضحى «ميسور ما يرجى عسير»، على رأي أبي نوَّاس...

اختنقَ في جوفيهما الحبُّ، فسارعا إلى ترميم ما يتهدَّمُ منهما بالتماس القرب. لكنْ، ولأنَّه كان عربيًا سنِّيًا ولأنَّ ليلى كرديَّة أيزيديَّة، فقد انتصبتِ اللعنةُ بينهما، وبدأ الأهالي يُطلقون رصاص تلك الكلمات السمجة القاسية، ويجترُّونها المرَّةَ تلو الأخرى من دون مللٍ... كان أهلهُ يردُّونَ توسُّلاته المتناشجة بقولهم «لو أنَّها سُنِّيَّةٌ على الأقلِّ...!» وكان أهلُها يردُّون توسُّلاتها المخضلَّة بالدموعِ بقولهم: «لو أنَّه كرديٌّ على الأقلّ!»

في بداية التسعينيّات، اغتيلَ والده من قِبَل النظام السوريّ. كان قياديًّا في جماعة الإخوان المسلمين. أربكَ الأمرُ كلَّ حساباته. لم يُسقط حبَّها من قلبه، لكنَّه دفع في قلبه حممَ الألم التي حاصرتْ حبّها في حجرة ضيِّقة. قاتل على أكثر من جبهة، يحاربُ يومه وينزعُ من بين فكَّيهِ ما يسدُّ به جوعَ العائلة، ويحملُ على عاتقه همَّ انتقامٍ لا يجدُ إلى بلوغه سبيلًا... يفكِّرُ في تلك التي تنفقُ أيّامها هدرًا، وتردُّ الخطيبَ تلو الآخر، علَّ ذلك يليِّنُ قلوب أهلها ويدفعهم إلى قبول حبيبها زوجًا، قبل أن يجفَّ عودها، وتمتصَّ أخضرَه العنوسةُ...

أواخر القرن المنصرم، صيف 1997، انذبحَ «الأخ الكبيرُ» على

أيدي من يحبُّهم. أتعرفُ، يا وليد، معنى أن تذبحكَ نصال من استهلكتَ عمرَكَ وأنتَ تحبُّهم؟ أتعرفُ فداحةَ هذا الإحساس؟ إنَّ الجنونَ ينهشُ أحشاء صاحبه قبل أن ينتهي إلى رأسه؟ أحسستُ بكلِّ كلمةٍ سالتْ منه على نحو أقرب إلى البكاء. وهو يمعنُ في الذكرى، كان يحرِّكُ بشجنه ذاكرتي التي حاولتُ أن أُبقيَ في قعرها كلَّ السواد. هو مثلي مزَّقَ من يحبُّهم قلبَه، وأصابوه في الأعماق بهرسٍ لا يُشفى...

تهدَّمَ كلُّ شيء فجأةً. عادَ ذاتَ ليلةٍ متعَبًا. كان قد أخبرَ والدته بأنَّه لن يبيتَ تلك الليلة في المنزل، ذلك بأنَّه كان يشتغلُ في مجال التهريب على الحدود السوريَّة ـ التركيَّة، لكنَّ تلك الليلة تغيَّبَ عنه السائق وسيّارته، فقفل راجعًا إلى المنزل. كان يملكُ مفتاحًا احتياطيًّا فدخلَ. حين مرَّ على مقربةٍ من غرفة النوم، في طريقه إلى المطبخ، تناهى إلى مسمعه لهاثٌ وأنين. وحينَ أصاخَ السمعَ كان الأمر فحيحًا. فركَ أذنيه غيرَ مصدِّقٍ، واستعاذ بالله مرارًا قبلَ أن يأتيه صوتُها المتغنِّجُ. كانتْ باشتهاءٍ طافحٍ تطلبُ المزيدَ. فتحَ البابَ (تمنَّى فيما بعد لو أنَّه لم يفعل) وفاجأ أمَّه... كان يركبُها رجلٌ ملتحٍ يعرفهُ، هو صديق لوالده. حين رآهُ هاجمه على الفور، لكنَّه انزلق من بين يديه كسمكةٍ. فرَّ عاريًا خارجَ المنزل. طارده في شوارع عين العرب وأزقَّتها، لكن لم يظفرْ به!

عادَ إلى المنزلِ مكلَّلًا بالعار. نزعَ عن الفأس في الحديقة حدأتها، واتَّجهَ رأسًا إلى غرفتها. واجهتهُ بدموعها وتوسُّلاتها. كان غضبُهُ أكبرَ من أن يردعهُ كلام. الضربةُ الأولى ـ يقولُ ـ كانت

كافيةً. . . فقد طفرَ الدم وانتهى الأمر، لكنَّه لم يهدأ إلَّا حينَ أسقطهُ التعبُ مكدودًا، يتحسَّسُ بأصابعه رأسها المهشَّم. . . الذي اندفعَ من بين شقوقه البياضُ!

لك أن تتخيَّلَ يا وليد. . . !

هامَ على وجهه عند الحدود السوريَّة ـ التركيَّة، ثلاثةَ أيّامٍ بعدَ ذلك. تناهى إلى علمه أنَّ عدوَّهُ قد غادرَ المدينة، بعدَ أن تفشّى بين الناس خبرُ خروجه عاريًا. كان يعلمُ بأنَّ «الأخ الكبير» لا بدَّ من أن يسعى وراء انتقامه، لذلك رحلَ، ريثما تُلقي الشرطة القبض على قاتل أمِّه.

عاد «الأخ الكبيرُ» ليلًا، فاغتصبَ زوجة غريمه. كان أوَّل اتِّصالٍ جنسيّ له اغتصابًا. . . في الليلة الموالية، اغتصبَ أمَّ غريمه. كان عمرُها ينوفُ على السبعين بقليل! لكنَّ ذلك لم يَشفِ غليله. كان يعرفُ أنَّ النارَ التي اشتعلتْ داخلهُ لا يطفئها سوى الدم الذي سيطفرُ من جسدِ عشيقِ والدته!

في الليلة التي تلتْ اغتصابَ العجوز، بلغهُ خبرٌ من ليلى؛ رسالةٌ عن طريقِ صديقٍ مشتركٍ تقولُ فيها الألمَ كتابةً. قالتْ إنَّها دافعتْ عن حبّهما أكثرَ منه، وكانت لتواصل دفاعها لولا أنَّه تخلَّى عنها في الوقت الذي كانَ يجدُرُ به أن يحتميَ بها من أحزانه. . . ناغتْ جراحه الغائرة بكلمات، واختتمتْ رسالتها بقولها إنَّها تزوَّجت، وإنَّه في الوقت الذي يقرأ رسالتها تكون قد غادرتِ المدينة. وتوسَّلت إليه أن ينساها، وألَّا يلحَّ في طلبها، لأنَّ بينهما يقفُ المستحيلُ، وأنَّها بعدَ تلك الرسالة أضحتْ ملك غيره.

انخذل «الأخ الكبير». . . بلغهُ من بعض أصفيائه أنَّ عدوَّه قد غادرَ سوريا إلى العراق، وبلغه بعد ذلك أنَّ حبيبته قد زُفَّتْ إلى رجل موصليّ، فامتهنَ مثلي التيهَ. كانت تجمعنا الفجيعةُ والجريمة وضِيقُ الأفق، ويفرِّقنا الكثير. كان تشرُّده في بلاد الله لغاية يطلبُها، وكانَ تيهي لمجرَّد التيه لا غير! كان يطلبُ ثأرًا ويقتفي بارقة أملٍ، أمّا أنا فلا. كان وجهتَه العراقُ؛ بلادٌ جمعتْ عدوَّه الأكبر وحبيبتَه الصغيرة. . .

أذكرُ جيِّدًا، يا وليد، ذلك اليوم الغائر في لحمِ الزمن: تنهَّدَ «الأخ الكبير» كأنَّه يحاولُ بذلك أن يهدِّئ ما اعتركَ داخلَه، بعدَ أن تلا في حضرتي آياتِ يأسهِ الكبير. زفرَ بعمق، وتطلَّعَ إلى الشمسِ تغربُ في الأفق البعيد، قبلَ أن يقول بلهجةٍ عانقت فيها تأوُّهاتُه كلامَه:

ـ «لم أدركْ لا ثأري ولا وَصْلَها. كانتْ أرضُ العراق مقبرةَ أحلامي. الربُّ لم يفتعل كلَّ تلك المأساة إلَّا لغرضٍ واحدٍ: أن أذهبَ إلى العراقِ، وأرتطمَ هناكَ بقَدَري. . .».

واستلَّ من شفتيه ابتسامةً حزينة، وأردفَ قائلًا بلهجةٍ من يضعُ حدًّا للقاء:

ـ ستجدُ في خيمتكَ ما وعدتُكَ به. . . هديَّة تليقُ بما أستشعره نحوكَ من مودَّة. . . هيَ سبيَّة صبيَّة أَسَرْتُها قبلَ سنة في العراق. . . هي كرديَّة وأيزيديَّة، وفوق ذلك اسمها ليلى، لكنَّها ليستْ ليلايَ. احتفظتُ بها وحملتُها معي مثلما تحملُ أنتَ حقيبتكَ الغامضة، لأنَّ هذه الصبيَّة تعني لي الكثير. كنتُ أُعدُّها لأبرأ بها من وجعِ ليلى، لكنْ حينَ رأيتُ الموتَ رأيتُها، رأيتُ ليلايَ التي أحببتُ، فأيقنتُ بأنَّني لن أُشفى. لكلٍّ

ليلاه وأنا أضعتُ ليلايَ... أضعتها للأبد!

ودَدتُ لو أقولُ للأمير، أو «الأخ الكبير»، إنَّني مثله أضعتُ ليلايَ، إذ أودعتها الثرى بإحدى عشرة طعنة، لكنْ وجدتُ في حزنه انسحابَهُ إلى داخله، وآثرتُ أن أتركهُ يخلو بنفسه... حينَ استأذنته بالرحيل، قالَ ممازحًا:

ـ هي مُهرة... مُهرة مليحة تستوقفُ سَيَلانَ صنبوركَ... أزعجتنا كلَّ يومٍ تنشرُ تُبَانًا بلَّتهُ أحلامك!

وضحكنا معًا. كان في ضحكته شيءٌ من الحزن، لذلك كانَ كلَّما تمادى فيها صارتْ أشبهَ بالبكاء.

حادثةُ شَبَه

«الأخ الكبير» يسملُ «عينَ العرب». هل يمعنُ في خرابها ليرمِّمَ داخلَه الخَرِبَ، أم يريدُ أن يستعيدَ الأشقر، رفيقَ رحلته وصندوقه الأسود؟ أم أنَّ هناكَ مَن يُمْلي على الأمير ما يفعل؟ انطفأتْ شمعتُنا من فرطِ ما سحَّتْ من دموع، لكنَّ الحربَ خارجًا كانت كفيلةً بإنارة سجننا المشترك. بعد أن عادَ من الحمّام، أكَّد لي الأشقر أنَّ القصف قد خسفَ سلالم هذه البناية، كما هدَّم غرفة مجاورة وجزءًا من المطبخ. لا أدري كيف انتهى إلى هذه الحقيقة وسط الظلام! لكنَّني صدَّقته. . .

قالَ، بنبرة أسًى، إنَّنا في قفصٍ معلَّقٍ في السماء، قد تمُدُّه يدُ الصدفة قربانًا لقنبلةٍ طائشة، وقد تحجبهُ اليدُ نفسُها. آه، أتفهُ ما في الحياة أنَّها ترهنُ حياتنا أحيانًا للصُّدَف!

كانت الحربُ تُشعلُ ليلَ غرفتنا، فأُمعنُ النظرَ في الأشقر؛ في وُشومِ صدره؛ في تعبِ ملامحه؛ في كلِّ شيء. ربَّما بسببِ وعيٍ مبكرٍ

بأنَّ حياةَ رجلٍ مثله لا يجدرُ أن تضيعَ ويطمرها النسيانُ، وجدتُني في هذه اللحظات العَصبيَّة التي انبلجَ فيها بَوْحُه الصادمُ، أحفرُ تفاصيلَ حاضري في الذاكرة غيرَ آبهٍ بحقيقةٍ ظاهرة: أنَّ حياتينا معًا في كفِّ عفريتٍ، وأنَّني لستُ أفضلَ منهُ حالًا. كلانا في بحرٍ هادرٍ قد تتقصَّفُ بينَ أمواجه عظامُنا، وقد تندفنُ الحياةُ الغريبة للأشقر بيبرس المغربيّ، وأُدفنُ معها تحتَ أنقاض هذه الشقَّةِ، بعدَ أن تربكَ وقفتها قذيفة.

العنف والهمجيَّةُ لا يأتيان من فراغ، بل يقبعان في أعماقِ الإنسان، ينتظران خياناتٍ تحرِّكُهما ليندفعا من قُمقُمهما ويدمِّرا كلَّ شيء، لكنْ في أعماقنا يقيمُ إنسانٌ طيّبٌ شاحبٌ وضعيفٌ كورقة في خريف، يشهدُ عليه في داخل «الأخ الكبير» حديثُ الأشقر عنه، ويشهدُ عليه في داخلِ الأشقر حديثُه لي... الإنسانُ يسقطُ في السواد، ليسَ لأنَّه أرادَ ذلك، بل لأنَّه لا يجدُ مندوحةً عن ذلك.

بعضُ الحرائقِ، بعضُ الخياناتِ ـ ولاسيَّما تلك التي تتورَّطُ فيها الأمَّهات ـ تورثُ الواحد كسرًا نفسيًّا بالغَ الخطورة، وتشوّهُ الحياة في أعينهم مبكرًا، على نحوٍ يصل إلى حقيقة أنَّ الحياةَ لا شيء إطلاقًا. حينَ يستهينُ المرءُ بالموت، لا يخافه أو يشتهيه، فإنَّه يكونُ قادرًا على ارتكاب أشدّ الحماقات بشاعةً بدمٍ باردٍ وروحٍ محطَّمةٍ وتوقٍ نبيلٍ إلى الخلاص.

تنهَّدَ الأشقرُ وأَنَّ أنينًا، كلَّما حاولَ كتمهُ زادَ إلحاحًا. هدأتِ الحربُ فجأةً، كأنَّ أطرافها قد تواطأوا على ذلك، واكتسحَ الهدوء غرفتنا. كان يخزُ ذهنيَ سؤالٌ واحدٌ: «ما هيَ هديَّةُ «الأخ الكبير» إلى الأشقر؟»

طبعًا، فكَّرتُ في أن أستحثَّه بسؤال، لكنَّني تراجعتُ عن الفكرة. قدَّرتُ أنَّ التعب امتصَّ كلَّ قواه، وأنَّه أحوجُ إلى النومِ أكثر من حاجته إلى الكلام... تواطأنا على الصمتِ، أنا والأشقر. كان الصمتُ بالنسبةِ إليه متَّسَعًا للتأمُّل، وكان بالنسبة إليَّ مضيقًا للَّهفة.

حينَ سمعتُ خشخشةً، انتبهتُ. أمعنتُ في الظلامِ الدامسِ. اندلعتْ ولّاعةُ الأشقرِ بنارٍ فقيرةٍ كانتْ كافية لإشعال سيجارة ترتجفُ بين شفتيهِ. التمعتْ زرقةُ عينيهِ بوميضٍ غريبٍ، كأنَّهُ كان يُقيمُ بكبريائهِ سدًّا يمنعُ بحيرةَ دمعهِ من أن تسيل. لم أكنْ أرى سوى نقطةِ لهب السيجارة وهي تسافرُ في استعلاء واستفال، ولم أكن أسمعُ غير أنينه. قال أخيرًا، بعدَ أن تنهَّدَ بعمق:

«كانتْ الهديَّة ذاتَ معنى لـ «الأخ الكبير»؛ اسمها ليلى، مثل حبيبته، كرديَّةٌ كحبيبته وأيزيديَّة مثلها. وكان يجدُرُ به أن يُبقيها ضمنَ محظيّاته بدلًا من أن يهديها إلى غيره. لم يكن يدري أنَّهُ أهداني صفعةً قَدَريَّة مجلجلةً، اهتزَّتْ لها أركانُ حياتي. لم أكن راغبًا في دميَةٍ جنسيَّةٍ. وعلى الرَّغم من أنَّني اقترفتُ أشنعَ الآثامِ، فإنَّني كنتُ أجدُ في ممارسةِ الجنسِ مع جسدٍ ضعيفٍ خائفٍ سماجةً وجبنًا ليسا من شيَمي. اللواتي وطأتُهنَّ اغتصابًا اقترفنَ جرمًا، ودفعنَ ثمنهُ جنسًا. لم أكنْ أملكُ أن أرفضَ هديَّةَ الأمير، ليسَ لأنَّني وجدتُ أنَّ من المعيبِ ردَّها، بل لأنَّني أحسستُ بأنَّي في حاجةٍ إلى شخصٍ ما يؤنسُ وحدتي، وكفى.

قفلتُ عائدًا إلى خيمتي، أفكِّرُ في هذه المُهرة التي بشَّرَ بها «الأخ الكبير». تبرقُ في البال تصوّراتٌ وألبسها من خيالي وجوهًا شتَّى. من خلالِ حديثِ «الأخ الكبيرِ» عنها، أيقنتُ أنَّها جميلةٌ، لكنْ إلى أيّ حدٍّ

هي جميلةٌ؟ كم عمرها؟ ما شكلها؟ شقراءُ أم سمراء؟ كانتْ هذه الأسئلةُ وغيرها تستحثُّني على الإسراع.

كنتُ، يا وليد، أدنو من دون وعي منّي صوبَ الكارثةِ. في السماء نيزكٌ يتَّجهُ إلى الخيمةِ، وكنتُ مثله وجهتي الخيمة، تحملني على جناحيها اللهفةُ؛ لهفةُ أن أرى هذه الـ «ليلى». حينَ دخلتُ الخيمةَ، استقرَّ النيزكُ في قلبي، غارَ في القلبِ واستوقفَ الزمنَ. خفقَ القلبُ خفقةَ الموتِ الأخيرةَ من دون أن أموتَ. أُصبتُ بالدهشةِ والخوفِ، بالغرابةِ واليأسِ، وعبرتْ قلبيَ أحاسيسُ شتَّى، وأنا واقفٌ في حيِّزٍ أضيقَ من الحياةِ وأوسعَ من الموتِ. الحياةُ تضربُ لنا مواعيدَ فادحة مع الغيبِ، والمُهرة التي وعدَ بها الأمير كانتْ أبعدَ صورةٍ يمكنُ أن أتوقَّعها. غبتُ طويلًا؛ أبحرتُ في ملامحها الوثنيَّةِ صوب الأدغالِ القصيَّة للذاكرة؛ اصطدمتُ في الطريقِ إليها بتاريخي كاملًا، واستوقفتني لأسباب نفسيَّة أجهلها بعضُ التفاصيلِ التافهة.

كلَّما أفقتُ من دهشتي، كانت عيناها تعيدانني إليها. ألم تكنْ إحدى عشرة طعنةً كافيةً لتمنحها إقامةً جبريَّة في عالم الغيبِ؟ هل نفضتْ عنها غبارَ القبرِ، وانتفضتْ كالعنقاءِ معلنةً أنَّها لا تموت؟ سالتْ من دون إرادةٍ منّي دموعي، لا أدريَ إن كانتْ دموعَ فرحةٍ أم دموعَ إحباطٍ!؟

صدقًا، لا أدري.

كانتْ كثيرًا من شامةَ وقليلًا من ليلى... وجهها العذبُ الجميلُ المفعَمُ بالطفولةِ هو نفسُهُ وجهُ شامةَ. عيناها اللوزيَّتان الواسعتان كعيني ملاكٍ هما نفساهُما عينا شامةَ. شَعرُها الكستنائيّ الشلّالُ هو نفسُهُ شعرُ

شامةَ. أنفُها الصغيرُ المرتفعُ بأنفةٍ أنفُ شامةَ. ذقنها البارزُ ذقنُ شامة. وحدهُ كلامها ـ نبرةُ صوتها ولهجتُها حين تتحدَّثُ ـ هو ما يثبتُ أنَّها ليلى وليسَت شامةَ. مرَّتْ أيّامٌ بحالها، وأنا أكتفي بمجرَّدِ تأمُّلها، لا يرتوي ظمأُ عينَيَّ فأستزيدُ وأستزيدُ، وأسهرُ الليالي الطوال أحرسُ نومها.

هل أحببتُها؟!

لم تكن الأيّامُ الأولى تتَّسعُ لغير الدهشة؛ دهشةٍ أقربَ إلى البلاهة، ذلك بأنَّ الإنسانَ، يا وليد، قد تعبرهُ أُوَيقاتٌ عصيبةٌ يفقدُ فيها زمامَ عقله تمامًا. لا أقولُ هنا إنَّه يُجَنُّ، ولكنَّه لا يكونُ عاقلًا كذلك! يسلِّمُ أمره إلى حالةٍ عصيَّة من البياض والهشاشة.

مسروقًا كنتُ من حاضري، ومغدورًا بهذهِ الصدفة القاتلة.

أفقتُ من دهشتي ذاتَ يومٍ على ابتسامتها، لم يكن قد مرَّ بيننا أيُّ حوارٍ، فقد كنتُ مشدوهًا بفتنتها واستنساخها لشامةَ جمالًا وقوامًا. كانت ابتسامةً تنتمي إلى ليلى وليس إلى شامة... وكان الحديثُ عن جمال ابتسامتها أوَّلَ ما قادَ المودَّة بيننا. سمَّيتُها شامةَ، فرضيتْ بالاسم على الفور. فيما بعد ـ وأقصدُ بعد شهورٍ طويلة ـ ستخبرني بأنَّ اسمها رَوَند وليسَ ليلى. قالت إنَّها حاولت تمويه «الأخ الكبير» بعد أن طالبها بخشونةٍ بأن تصرّحَ باسمها. كانتْ في السابعةَ عشرة من عمرها أو أقلّ بقليل. قالتْ إنَّها تجهلُ تاريخَ ميلادها على وجه التحديدِ، وتشتاقُ إلى أمّها كثيرًا، وإلى أخيها الوحيد... متأكِّدةٌ من أنَّ أمّها نزحتْ إلى البعيد، أمّا أخوها (إيلان) فقد اعتقله المتشدِّدون، ولا تدري على وجه الدقَّة، هل قضى نحبهُ أم أنَّ الغيبَ أذِنَ له بمزيدٍ من الحياة! والدها

ماتَ منذُ زمنٍ غابر، تذكرهُ ـ تقولُ ـ أو يتهيَّأُ لها أنَّها تذكره، يقفُ في منابتِ الذاكرة شفّافًا: لا هو الوهمُ كاملًا ولا اليقينُ. ما يبرقُ في الذاكرة من أشباح ـ تضيفُ ـ قد لا يكونُ في الأخيرِ سوى ما تودُّ هي أن تراه لا غير...

لا أجدُ اسمًا واضحًا يناسبُ ما كنتُ أستشعرهُ تجاهَ هذه الصبيَّة. أعتقدُ أنَّه كانَ يعمرُ في قلبي تجاهها زحامٌ من المشاعر الطيِّبة، أهمُّها الحبُّ حينَ أضعفُ، والأبوَّةُ حينَ تَضعفُ...

لم أسعَ إليها جنسًا. كان الأمرُ بالنسبة إليَّ امتحانًا عسيرًا بحقّ. أن ألجمَ عنفواني الجسديّ أمامَ فتاة عذبةٍ رائقة لها تاريخٌ حافلٌ في أعماقي. تنامُ إلى جواري، وتغيّرُ ثيابها على مرأى منّي. كانَ قلبُها كمشةَ بياضٍ ونور. خفيفةٌ كريم في البراري، حلوةٌ كإشراقةِ شمسٍ؛ بريئةٌ كملاك، وطيّبةٌ سديدةُ الرأي. أوّلُ ما رأيتُها، قلتُ إنَّ أجملَ ما فيها أنَّها تشبهُ شامة. مع مرور الأيّام، تزحزحَ هذا اليقينُ، وصارَ أسوأ ما فيها أنَّها نسخةٌ طبقَ الأصلِ لمعذِّبتي.

كانتْ أيّامًا جميلةً بحقّ، تلك المتوَّجةُ بحضورها الأنيقِ... أمضينا أنا «والأخ الكبير» وسائر المقاتلينَ بقيَّةَ سنة 2010 وبدايات 2011 في معاركَ هنا وهناك، وبأعداد محدودة من المقاتلين. كانت أيّامًا قاسية، لكنْ لم تكن هناكَ سعادة تُضاهي سعادتي وأنا أعودُ متعَبًا إليها، حاملًا بين ضلوعي شوقًا عارمًا...

سمَّيتُها شامة، وعشتُها شامة. كانت نادتني حينًا «طاووس ملك» وحينًا آخرَ «عزازيل»، وكلاهما للمسمَّى نفسه في الميثولوجيا الأيزيديَّة. هو أوَّلُ ملاكٍ خلقهُ الله ليكونَ تعبيرًا عن قواه وحكمته، قبلَ

أن يوعزَ إليه بخلق ستَّة ملائكة آخرين، وينيطَ به بعدَ ذلك مشقَّة إكمال الكون. الغريبُ أنَّها سمّتني باسمِ ملاك يقابلُ في الديانة الإسلاميَّة «إبليس»، لأنَّ عزازيلَ كذلك رفضَ أن يسجدَ لآدمَ. يختلفُ عزازيل عن إبليس في المنطق الذي دفعَ كلَّ واحدٍ منهما إلى الممانعةِ، الأوَّل لأنَّه التزمَ بما أمره الله من قبل، ألّا يسجدَ لغيره؛ أمّا إبليس، فأنتَ تعرفُ قصَّته، يا وليد!

سمَّتْني ـ ربَّما عن غير قصد ـ باسمِ حمّالِ أوجهٍ: يعني الملاكَ في دينها، ويعني الشيطانَ في ديني!

ليلةً قبل مغادرة اليمنِ (عقب اندلاع الثورتين اليمنيَّة والسوريَّة)، أنضجَ خوفُنا من المجهول ليلةً من ليالي العمر. كان قد نبتَ في أعماقنا رونقُ الحبِّ، ونسجتِ الألفةُ بيننا خيوطها، فكنتُ لا أكادُ أنسحبُ من حضرتها حتى أشتاق إليها، وكانتْ لا تتسلَّمُ أضلعي المتداعيةَ في الحربِ حتى تدمعَ عيْنُها فَرِحةً. حدثَ بيننا أغربُ ما يمكنُ أن يحدثَ بين مقاتلٍ وسبيَّة؛ بيننا اشتعل الحبُّ! حبٌّ يسري في روحينا، ويُشعلُ الخيمة من دون أن يفصحَ أحدنا عنه.

وكانَ «الأخ الكبيرُ» مرتابًا ممّا نهضَ بيني وبينَ هديَّته، ينصحني دائمًا بألّا أتورَّطَ في حبِّها، فالمحاربُ ـ يقولُ ـ يُحاربُ أعداءه ببأسه ويحاربُ قلبَهُ بآلته؛ ويضيفُ: لا يُبطلُ العشقَ إلَّا الجنسُ. الجنس وحده يؤكِّدُ على الدوام أنَّ النساءَ سواء، وهو أقوى منوِّم للعواطف، ثم إنَّ المحاربَ يضعُ حياتهُ في كفّ عفريت. كلُّ خروجٍ يكونُ بمعنى الفقد. حينَ تكونُ الحياةُ مقابلًا للفقد، يصيرُ من العبث التعلُّقُ بأيّ شيء يشدُّنا إلى الحياة، لأنَّ تلك اللحظة، تلك اللحظة التي يتوغَّلُ فيها الموتُ في جسد الضحيَّة، لا تتحمَّلُ شوقًا مضاعَفًا للحياة والأحياء.

كانَ كلُّ شيء مُعَدًّا ليحدثَ ما حدثَ، في الليلة التي سبقتْ رحيلنا الذي قرَّره «الأخ الكبيرُ» على حين غِرَّة. . . العواطفُ اختمرتْ في دواخلنا، ولم يكنْ ينقُصها إلَّا إقرارٌ خجول، تواطأنا عليه في تلك الليلة. لا أدري إن أحببْتُها حقًّا! كانتْ مشاعري كرةً من خيوطٍ متشابكةٍ، كلَّما حاولتُ شرحها بالغتْ في التعقيد. هل أحببتُها، أم أحببتُ شامة من خلالها؟ الأمرُ بالغُ التعقيد.

ولستُ أدري إن كانت قد أحبَّتني مثلما كانت تصرِّح، أم أنّها متلازمة ستوكهولم. . . يحدثُ أحيانًا أن تقعَ الضحيَّة في أحابيل الجلَّاد.

توَّجنا تلك الليلةَ بأروعِ هَبَلٍ. يمكنُ للإنسان، يا صديقي، في حالاتٍ نادرة، أن يعيشَ عمرًا فاتهُ من خلالِ عمرِ غيره. في تلك الليلة وفي الأيّامِ الطويلة الشيِّقة التي تلت، كنتُ مراهقًا مثلها في السابعة عشرة من عمري، أعيشُ الأيّامَ البيضاء التي أنفقتُها أتوسَّلُ شامةَ أن تهبني بصيصَ أملٍ يرمِّمُ زجاجَ القلب!

كانتْ تلك الليلةُ كما لو أنّها مبتورة من زمنٍ لم يكن جديرًا بمثلي أن يعيشه. رأيتُ الكثيرَ من الأحداثِ الشنيعةِ، بقدرِ ما رأيتُ أحداثًا جميلة. أمّا أن أصطدمَ بالأجملِ، فما كنتُ لأُقيمَ لذلك حسابًا. أجملُ الأقدارِ تلك التي تباغتُ أيّامنا الحالكة ببياض مشعٍّ يسبي القلوب!

وكانت شامة. . . عفوًا: كانتْ ليلى رحيقَ العمرِ وأجملَ ما عشت من هَبَلٍ. في تلك الليلةِ، مدَّتْ إليَّ الحياةُ أصابعَها المرتجفةَ بعدَ أن أدارتْ لي ظهرها زمنًا وشرَّدتني. قبلتُ هديَّتها الجميلة من دون أن يطولَ بي التفكير، قبلتُ جسدها الذي كنتُ أستحقُّهُ من فرط ما

انتظرتهُ. أتعرفُ معنى أن تسيلَ كلَّ ليلةٍ حلُمًا إذ ينامُ إلى جوارِكَ ملاكٌ غضٌّ شهيٌّ، ويكبحَ شهوتَكَ المتدفِّقةَ حِممًا صبرُكَ؟ لم أشأ أن آخذها كما شاءَ «الأخُ الكبيرُ» اغتصابًا. صحيحٌ، أنَّني رغبتُ فيها أوَّلَ ما هزَّتْ قلبي بشبهها الغريبِ بشامة، لكنْ أردتُ أن أظفرَ بقلبها أوَّلًا. في الليلةِ التي سبقتْ رحيلنا إلى بلادِ الرافدين، اقتنعتْ أخيرًا بأنَّ قَدَرها أن تحبَّ هذا الأشقرَ الإرهابيّ...

توغَّلنا على مهلٍ في طريق الشهوة. كنتُ على يقينٍ بأنَّه، بعدَ «إيفا» مراهِقةِ روتردام و«ريم» فتنةِ صعدة، ستكونُ عذريَّةُ ليلى ثالثَ دم يراق، ولاسيَّما بعدَ أن أكَّد لي «الأخ الكبير» أنَّهُ لم يطأها، لكنَّها لم تكن عذراءَ، كما افترضتُ!

في أواخرِ مطلع شهر آذار 2011، بعد الحراك العربيّ في اليمن وسوريا، أسرَّ إليَّ «الأخ الكبيرُ» بأنَّ قادة تنظيم «القاعدة» في بلاد الرافدين قد استدعوه هاتفيًّا، وألحُّوا في طلبه لاجتماعٍ هامّ ـ كان لا يحدِّثني عن علاقاته الغامضة بالتنظيمِ إلَّا لمامًا، ولاسيَّما إذا خاضَ في أمرٍ لا يستقيمُ إلَّا بسرٍّ من الأسرار ـ. قال إنَّهم سينتدبونه لأمر هامٍّ، هو نفسه لا يعرفُه. كانَ مقرَّرًا أن يمضيَ نحوهم منفردًا، لكنَّه تمسَّكَ بصداقتي، واقترحَ أن يصحَبني معه، فاشترطتُ أن أصحبَ معي ليلى. وافقَ على الفورِ مؤكِّدًا أنَّه سيحشُرُها مع حريمه.

وكان مسيرُنا في آذار 2011. لا أذكرُ التاريخَ جيِّدًا، لكنْ أذكرُ أنَّ تلك الأيّامَ كانتْ محفوفةً بأمل زائف. جيوشٌ من البشر الحالمينَ تقودهم أحلامهم الورديَّة إلى الساحات والميادين، مطالبينَ بإسقاط الأنظمة. ثورةٌ مزعومةٌ هنا ووعودٌ هناك، وقتلٌ وتصفياتٌ. كنّا، أنا «والأخ الكبيرُ»، نستبشرُ خيرًا بهذا الحراك وننتظرُ منه الكثير. أعيُننا

كانتْ لا تحيدُ عن القنوات الإخباريَّة، وكان حديثُنا كلُّه في تلك الأيّام مشحونًا بالقلق والانتظار والترقُّب.

كانَ حالمًا بالتغيير، وكنتُ أجدُ في الانقضاض على أحلامه وانتظاراته مجالًا أصرفُ فيه عدميَّتي. كانَ حلمُه بسيطًا: أن يُسقطَ الربيعُ في سوريا قَتَلةَ والده.

مضيْنا إلى العراق مخترقينَ الأراضي السعوديَّة، بمساعدةِ رجال ملتحين وجدناهم في استقبالنا، وقد هيَّأوا لسفرنا كلَّ ما يلزمُ من أسباب الراحة والرفاه. حرَّكَ اختراق الحدود السعوديَّة ذكرياتٍ وأوجاعًا لم تندمل. عبرَتْ في الذهن ذكرياتُ عبد الملك، يومَ تجاسرنا أنا وهو على عبور الحدود متنكِّريْن بزيَّيْن نسائيَّيْن. عبرتْ في الذهن ذكريات الحرب مع الجيش السعودي وجبل الدخان، وأشياءُ أخرى كان عبدُ الملك خيطًا شفّافًا ينظمُ عِقدها.

بالأمس، اخترقنا الحدودَ بأسمالٍ مغبرَّة، أنا وعبدُ الملك، ووجدنا الرصاصَ يرصدُ خطانا! واليوم، أعبرُ أنا والأميرُ الحدود نفسها بثيابٍ نقيَّةٍ، ونجدُ في استقبالنا رجالًا بيضًا فاضَ بنا كرمهم... كانت المقارنةُ عصيَّةً على التأمُّل، تحرِّضُ في الروح أكثر من سؤال وغضب.

في صحراء شمال غرب السعوديَّة، على مقربةٍ من الحدود العراقيَّة، هدأت محرِّكات السيّارات الفارهةِ بعد خمسةِ أيّامٍ من السفرِ المتواصل. نُصبتِ الخيامُ في عرضِ الصحراء، ونُحرتْ غزلانٌ كثيرة، وأُقيمتْ مآدبُ على شرف «الأخ الكبير». كان واضحًا أنَّ لديهِ بين الجمعِ حُظوةً.

حينَ جرى الحديثُ عن السياسة، بدا بينهم بحرًا (يناقضُ أحلامه التي يُسِرُّ إليَّ بها)؛ وحينَ كان الحديثُ عن الدينِ، بدا عالمًا لا يُشَقُّ له غبارٌ؛ وحينَ سألوه عنّي قالَ فيضًا من الكلام، وأطنبَ في الحديثِ عمّا ليسَ فيَّ من خصالٍ (أو ما لا أعتقدُ أنَّها فيَّ إن تحرَّينا الدقَّة)، وأسرفَ في الحديثِ عن مهاراتي الحربيَّة؛ عن دقَّتي في التصويب وحِدَّةِ حاسَّةِ شمّي، حتى افتتنَ بي الجمعُ والتمسوا مودَّتي...

وفي الهزيعِ الأخير من الليلِ الذي سبق عبورنا إلى أرض العراق، انسحبَ الرجالُ إلى خيامهم، وبقيتُ أنا «والأخُ الكبيرُ» في خيمةٍ مفتوحةٍ نتجاذبُ أطراف الحديثِ. كان بي شوق إلى ليلى، لكنَّني لم أشأ أن أتخلَّى عن الأمير. في عينيهِ مدُّ دموعٍ وشيكٌ، لولًا أنَّ كبرياءه جَزْرٌ حاسمٌ. لم أتركهُ لوحدتهِ وأحزانهِ، لأنَّني أعرفُ جيِّدًا ماذا يعني لجرحه العراقُ. كانت تنخرُ رأسَه فكرتان أعرفهما من فرط إلحاحه عليهما.

في سكينة الصحراء؛ ذلك الخرابِ الأنيق، على مشارفِ العراق، على مقربةٍ من سماءٍ تمدُّ للرائي نجومَها رُطبًا جنيًّا، سال جرحُ «الأخ الكبيرِ». كانَ حديثهُ عن ليلاهُ عذبًا حزينًا. قالَ إنَّه يحملُ في قلبهِ أملًا في أن يلتقيها. في كلّ مرَّة يقتحمُ حدودًا تعاودهُ حلاوةُ هذا الأمل، فيلهثُ خلفَ قلبهِ الجريح، يسألُ هنا وهناكَ علَّ خبرًا يحملُ قلبه إلى سابعِ سماء! قالَ إنَّه لم يعدْ يرجو إلَّا أن يلتقيها؛ أن يراها ولو من بعيدٍ، وليَكُنْ بعدَها الموتُ، لا يهمّ. سيموتُ وقد اكتحلتْ عيناه أخيرًا برؤيتها.

مثلما تحدَّثَ عن الأمل في قلبه، تحدَّثَ عن الألم! لا يزالُ يُقيمُ في قلبِه النَّدْبُ القديمُ الذي شرَّدَ مصيرهُ في الحياة. كان يمكنُ ـ لو أنَّهُ

ما فاجأ أمَّه في سريرِ الذكرى تخون ـ أن يعيشَ الحياةَ التي اشتهى من دون أن يخسرَ كلَّ شيء؛ من دون أن يخسرَ ليلاهُ! في قلبه نَدْبٌ لا يمحوه سوى دم يراقُ حارًّا من أوردةِ الخائنِ. «ماذا لو ماتَ؟» سألته، فرمتْني عينُه شزرًا، قبل أن يقولَ وقد استشاطَ غضبًا: «أحرقُ جثَّتهُ». وتجهَّمتْ ملامحهُ أكثر، كأنَّهُ وجدَ في نفسهِ تساهلًا مع غريمه، وأردفَ محتدًّا «وأصهرُ العظامَ... ثمّ أملأ برمادهِ أفواهَ الأحياءِ من نسله»، وتنهَّدَ بعمقٍ، قبل أن ينسحبَ غاضبًا تقدحُ من عينيهِ شرارةُ الغضب...

سرتُ في الغبشِ إلى خيمتي، وحينَ نشرتِ الشمسُ أوَّل خيوطها الذهبيَّةِ على الصحراء، داعبتِ النسائمُ وجهينا الباسمينِ، أنا وليلى. كنتُ أسحبُها من يديْها بعيدًا عن الخيام، بعيدًا جدًّا. لا أدري لماذا، لكنَّ فكرةَ الهروبِ بها طرأتْ على البال وألحَّتْ بقوَّة. توغَّلنا في الصحراء، حتى بدأنا نرى الخيامَ في الأفق البعيد نقطةَ سوادٍ وسطَ مدٍّ من الصفرة. الشمسُ لا تزالُ تمدُّ رأسها بخجلٍ ظاهرٍ، كأنَّها تتلصَّصُ على عاشقين تائهينِ في بحر الرمالِ. كلَّما تقدَّمنا أكثر تخفَّفنا من ملابسنا. طرحتْ عنها السواد، وشاغبتْ هيَ نسائمَ الصباحِ الباردة بنهدينِ نافرين إلى الأمام.

في ذلك الصباح الباكرِ، وسطَ صحراءَ شاسعة، سرى في روحينا يقينٌ بأنَّنا محكومانِ بالحبِّ. صحيحٌ أنَّ هذا الحبَّ يقومُ على أنقاض تفاصيلَ معقَّدة، لكنْ، لطالما كان الحبُّ... كذلك.

افترشنا الرمال وتلحَّفنا النسائمَ العليلة. تسلَّقتُ بلساني قمَّتيْ صدرها. فحَّتْ كأفعى، وتلوَّتْ وأنا أضلعُها إليَّ، وتوغَّلتْ أصابعها كمخالبِ فهدةٍ في ظهري، وعضَّتْ كتفي حينَ عضَّها الشبق. أبهى من ملاكٍ كانت وأشهى من كلِّ خطايا الكون، تئنُّ تحتي وتتوجَّعُ، فتتدفَّقُ

فوقها شهوتي حممًا، وتفجِّرُ حزامَ النشوة الناسف!

يمكنُ أن أزعمَ، يا وليد، أنَّ تلك الصبيحة التي انتُزعتْ من زمن آخرَ، مستحيلٍ، واحدةٌ من اللحظات القليلةِ النادرة التي أشعرُ فيها بأنَّني حرٌّ؛ حرٌّ كوعلٍ بين الجروف، وأنَّ التحامي بجسدها البضِّ الموغلِ كحدِّ السيف في الذاكرة، في صحراء مترامية الأطرافِ، كانَ في الحقيقةِ مناسبة للحرِّيَّةِ. سَرَقْنا في ذلك الصباح صخبُ الجسدِ. لم نتنبَّه للوقتِ كيفَ انزلقَ من بينِ أصابعنا، إلَّا حينَ ألهبتْ جسدينا سياطُ الشمسِ وتلظَّينا بالرمالِ الحارقةِ.

انتصبنا واقفينِ، ننفضُ ما علقَ بجسدينا من رملٍ، وننزعُ من بينِ فكَّيِ الصحراء ثيابنا. كانَ واضحًا أنَّ الخيامَ قد فُكَّتْ، وأنَّ القومَ هناكَ على أهبَّةِ الرحيل. كانَ مرورنا أمامَ الجمعِ محرجًا. انسلَّتْ ليلى بخفَّة مُهرة واندسَّتْ إلى جوار النساء. أمّا الرجالُ فبعضُهم يتطلَّع إليَّ بابتسامات تكاد تنقلبُ ضحكًا، وبعضُهم يرمُقني بنظرات ناقمة، وأنا أمرُّ إلى جوارهم مطأطئ الرأس، وأصيخُ السمعَ إلى تحرُّشاتهم اللفظيَّة التي كانت أقربَ إلى التهكُّم. أذكرُ جيِّدًا ابتسامةَ «الأخ الكبير» والفرحةَ الثاويةَ خلف الصرامةِ في عينيهِ. قالَ حينَ انفردَ بي:

ـ أينَ ذهبتَ؟ بحثنا عنكَ طويلًا . . .

فجنحتُ إلى التمويه مجيبًا:

ـ ذهبنا لقضاءِ حاجة.

ـ وما هذه الحاجة؟

فأجبتُ بصوتِ أبي نوّاس:

ـ حاجةُ الديك إلى الدجاجة!

ومضينا لاختراق حدود العراق. في النفسِ فرحٌ شحيحٌ. كنتُ أحاولُ أن أفرحَ باقتصادٍ، لأنّي كنتُ أجد في هذا الفرح أمرًا عصيًّا على الفهم، كأنَّه لا يليقُ بي، وكأنّي لا أليقُ به، لأنّي مذ أرقدتُ شامة بإحدى عشرة طعنة في حفرة من ترابٍ، دفنتُ معها كلَّ أرصدة السعادة. . . ونذرتُ العمرَ، كلَّ العمرِ، للحزن! فلماذا الآنَ تصحو داخلي هذه البهجةُ التي لطالما تجشَّمتُ مشقَّة افتعالها. قال لي «الأخ الكبيرُ» إنَّني كنتُ أبدو أسعدَ من أيِّ وقتٍ مضى. صدَّقتهُ من دون أن أردَّ التهمةَ، وواصلتُ الإصغاءَ إلى عزف الفرح الجميل داخلي وأنا أتأمَّلَ أرض العراق؛ هذه الأرضَ الشاحبة التي ما كنتُ أدري أنَّها تضمرُ لي أشرس عاصفةٍ؛ هذه البلادَ التي ستُغمِد في القلبِ سكّينًا صدئةً لن تتحمَّلها هشاشتي. كنتُ في الطريقِ إلى الموصل أشهقُ باسمها، لا أدري على وجه التحديد: أأُسمِّيها ليلى مثلما موَّهتِ «الأخَ الكبير»، أم أناديها «روند»، أم أسمِّيها مثلما تشتهي خيبتي: شامة!

كانت ليلى نسخةً عن شامة وتذكيرًا دائمًا بها، لا تنفكُّ تقعُ عينايَ عليها إلَّا وتستيقظ أوجاعُ شامة في القلب. لكنْ لسببٍ نفسيّ غامضٍ، كنتُ أستلذُّ الأمر وأُقْبلُ عليها بودٍّ مضاعَف، كأنّي أحاربُ بنُسختها الوجعَ الدفينَ في أقبية القلب. لكنْ، حينَ أطارحُها الغرام، في تلك اللحظات التي أشهقُ فيها بلذَّة الجسد البديع، فإنَّ شامة، التي أعرف، والتي ترافقُ نهاري وتكونَ طرفًا ثالثًا في علاقتنا، تتلاشى. . . حين أطارحُ ليلى الغرامَ، فإنَّها تتملَّصُ من شبهها بشامَة، وتكون ليلى هي نفسها ليلى في استقلال عن تلك التي أورثتني الخراب.

لا أدري، على وجهِ الدقَّة، إن كنتُ قد أحببتُ ليلى لأنَّها شبيهة وجعي، أم أحببتُ من خلالها شامةَ، أم علقتُ بجسدها فحسب؟! كلُّ

ما كنتُ أعرفه، ونحنُ ندخلُ الموصل، أنَّ حياتي قد ارتبطتْ على نحوٍ بالغ التعقيد بحياة هذه المُهرة الجميلة، وأنَّني مثلما أحملُ ذاكرتي المثخَنة بالوجع وحقيبتي المليئة بالذكريات، سأحملها معي. بها عرفتُ غباءَ حبِّي العذريّ الأوَّل، وبلاهةَ تمنُّعي عن هتكِ حجاب السرِّ بيني وبين شامةَ. الحبّ في كثيرٍ من الأحيان، حينَ تخذله نشوة الجنس، يصيرُ أتفه من صداقةٍ عابرة في حديقة تافهة أو حافلة مهترئة!

في الموصل، وجدنا رجالًا ملتحينَ في استقبالنا؛ رجالًا أشدّاء، في وجوههم قسوةٌ واضحة، وفي كلامهم، مهما بالغوا في إبداء الحفاوة، جلفةٌ من نوعٍ ما. أسكننا إلى جواره «الأخُ الكبيرُ» في منزلٍ من طابقين، بعيد نسبيًّا عن حاضرة الموصل. أقمنا أنا وهي بشقَّة في الطابق العلويّ، تقابلها شقَّة «الأخ الكبير» في الطابق نفسه، بعد أن أودعَ في الطابق السفليّ حريمَه.

أعتقدُ أنَّ أجمل الأيّام، تلك التي أمضيناها في الموصل، أنا وليلى. تبرَّأتُ من تلك اللحية التي التصقتْ بوجهي، وكان ذلك بإيعازٍ من «الأخ الكبير» تمويهًا لجنود النظام وللجيش الأميركي الذي يتصيَّدُ بغاراته المتطرِّفين.

يا أللهُ، كم تورَّطتُ فيها تلك الأيّام!

كنّا مراهقَيْنِ مهبولَيْن، فاجأهما خصب الجسد، فابتدعا ألعابًا شتَّى يملآن بها فيضَ الوقتِ. كنتُ أُمضي وقتًا طويلًا وأنا أتأمَّلها، وأتعشَّقُ فيها أو في شامة من خلالها... وأُمضي وقتًا أطولَ وأنا أسقي أرضها. لا تنتهي بيننا جولةٌ إلَّا ونستهلُّ أخرى. كان شبَقُها يذكِّرني بريم، وتذكِّرني ريم عادةً بعبد الملك، الأمرُ الذي ينكأ جرحًا في القلب...

كلُّ الأفراح التي تستدرجنا صوب سيرةِ الوجع أفراحٌ مزوَّرة، لكن بالنسبة إلى مدحورٍ مثلي بالخيبة؛ بالنسبة إلى فقيرٍ مثلي إلى الفرح، أسقطَتْ عنِّي نكبةُ الزمنِ الغابر ملكةَ التمييز بين الفرح والفرح المزيَّف. كلُّ فرحٍ ـ وإن قادني إلى الذاكرة وفخاخها ـ هو مِنَّة قَدَريَّة، لا أملكُ إلَّا أن أتمسَّكَ كنحلةٍ بها، وأستنزفَ رحيقها.

في تلك الأيّام الجميلة، كنتُ لا ألتقي «الأخ الكبير» إلَّا لمامًا، يخرجُ و«الطيور في وكناتها»، ويعودُ ساعات بعد المغيب، تمتدُّ أحيانًا إلى منتصف الليل. كان يعودُ باديَ الأسى، طائشَ اللبِّ، سريع الغضب، نشاهدُ التلفاز ونتداولُ أمور السياسة. في كثيرٍ من الأحيان، يقتربُ من البوحِ بأمرٍ ما مهمٍّ، لكنْ تحدثُ صدفة تكسرُ نسق الحديث. كانتْ هناكَ أمورٌ تُطبَخُ في الخفاء. كنتُ أقرأ في عينيه رغبةً ملحَّةً في الحديث، لكنَّني كنتُ أقرأ فيهما كذلك بحثًا عن أيِّ ذريعةٍ، مهما بدتْ تافهة، لئلّا يفعل!

كنتُ سعيدًا بتلك العطلة المفتوحة. كلَّ صباحٍ نستيقظُ أنا وشامة، فتكونُ أمنيتُنا الوحيدةُ أن يكون اليومُ الجديد امتدادًا للعطلة. أحببتُها، أو أحببتُ فيها شامةَ؛ أدمنتُها، أدمنتُ جسدها ـ الفتنة بكلِّ ما يعنيه لذاكرتي العليلة... لم ننتبه معًا إلى أنَّ الهدوء الذي كنّا نتفيَّأ معًا بظلاله، لم يكن سوى ذلك الهدوءِ الذي يسبق العاصفة...

لم أكن أستحقُّ الفرح، لذلك عاقبني به الربُّ. أحيانًا، يكونُ أفدحُ عقاب له، أن يرميَكَ بفرحٍ فوقَ ما يطيقُ قلبكَ الهشّ، ثم يجرِّدَكَ منه بصلف. لطالما اعتقدتُ، وقد اهتديتُ أخيرًا إلى ليلى، أنَّ الربَّ قد قرَّرَ أخيرًا أن يضمِّدَ بها جراحاتي، ويمنحَني السلامَ الذي لم أتمنَّهُ يومًا، مذ شرَّدتني خُطايَ. أعنفُ الأقدار، تلك الأقدارُ الجميلةُ التي ما

أقمنا لها حسابًا، ولا أنفقنا في انتظارها جزءًا من الثانية. مثلما تأتي من تلقاء نفسها كذلك تمضي ساحبةً خلفها حشاشةَ الكبدِ، ناهبةً قليلَ النور في أعيننا وما تبقَّى فينا من صبر ومكابرة.

أوَّلُ الغيثِ المرير دويُّ القصف الذي هزَّ مكانًا غير بعيدٍ عن مقرِّ سكنانا. كانَ صوتًا مجلجلًا مخيفًا نهضَ في إثره الخوفُ في عيوننا، أنا وليلى. واضحٌ أنَّ القصفَ أميركيّ، وأنَّ روائحَ ما يطبُخُه «الأخ الكبير» وبقيّة الأمراء قد انتهتْ إلى أنوف الذئاب المترصِّدة. جاءني الخبرُ العاجلُ في مساحةٍ حمراء، اقتصَّت نصيبًا من شاشة تلك القناة الإخباريَّة: «القوات الأميركيَّة تقصف شمالَ الموصل وأنباء عن مقتل أربعة إرهابيّين». طَفَتْ صورة «الأخ الكبير» في تلك المساحة الحمراء، وسافرَ وجهُهُ بين بياض الكلمات...

قد أخونُ الصدقَ إن قلتُ إنَّ قلبيَ لم يهتزَّ، ولم ينبض بإلحاحٍ وقوَّة. ضاقتْ بي الدنيا واختنقَ قلبي داخلي. أصبحَ مثلَ سمكة غادرت إناءها وتتخبَّطُ، لعلَّ ذلك يقرِّبها من بقعة ماء تؤجِّلُ بها موتها، ولو إلى حين. اقترحتْ ليلى أن أخرجَ للبحثِ عنه. وجدتْ كلماتُها صدًى طيِّبًا في داخلي... تردَّدتُ طويلًا، وقد تذكَّرتُ توصياته بألّا أبرحَ المنزلَ ـ لأسباب أمنيَّة ـ لكنْ قدَّرتُ أنَّ أنسبَ ما يمكنُ القيامُ به هو الخروجُ والبحثُ عنه.

لم يكن البحثُ عن مكان القصف عسيرًا. كان عمودُ الدخان لا يزالُ منتصبًا، أصلهُ ثابتٌ في الأرض ورأسه في السماء. تقدَّمتُ صوبهُ على أرض من سوادٍ؛ أرضٍ تخالُها من فرط الخوف مساحاتٍ لزجَةً تبتلعُ قدميكَ شيئًا فشيئًا. لم أصل إلى تلك المنطقة... صادفته في الطريقِ يتدحرجُ بجراحاته، ويقاومُ غيابًا يطرقُ بابه بإلحاحٍ. حينَ رآني

أتقدَّمُ صوبه، انفلقتْ شفتاهُ عن ابتسامةٍ قبلَ أن تخورَ قواهُ دفعةً واحدة. حملتُه إلى المنزل. كانت تفوحُ منه رائحة الشياط. تنبَّهتُ مبكرًا إلى يده اليسرى وأجزاء أخرى من جسده قد احترقتْ وتضرَّرتْ على نحو بالغ.

طبَّبتُ، أنا وليلى، جراحاته أيّامًا. وحينَ استفاق، لبستْ يسراه ذلك القفّاز الأسود الذي عُرفَ به. استفاقَ من غيبوبته وهو يردِّدُ «أدينُ لك بحياتين...». أذكرُ جيِّدًا أنَّني أجبتُه في السرّ «وأنا أدينُ لك بأروع الأقدار...». أخبرني، وهو طريحُ سريرٍ، هو نفسه معقلُ شهوتنا أنا وليلى، عن السرِّ الذي أعادهُ إلى هنا. قالَ إنَّه عقدَ العزمَ هو ومجموعةٌ من الأمراء على تطليقِ «القاعدة»، وأسهبَ في الحديثِ عن الأسباب التي تدفعُه إلى ذلك من دون طلبٍ منِّي. تحدَّثَ عن إقامةِ الدولة الإسلاميَّة. كانَ حديثهُ وقتها عن المخاض العسير الذي أنجبَ «داعش».

بعد أيّامٍ... لا أدري على وجه التحديد عددها ـ فالأيّامُ حينَ تكونُ جميلةً نُبادرُ إلى نهبها والاستزادة منها، من دون أن نعبأ بالحقيقةِ المُرَّة: أنَّنا نستنزفُ مِنَّة القَدَر! ـ قلتُ، بعدَ أيّام جميلة حدثَ ذلك... أعنفُ الهزّات تلك التي تهتكُ رَحِم فرحٍ عشناه، وتمسَّكنا كأطفالٍ بأذيالهِ غير عابئين بالقَدَر وهو يتربَّصُ بنحورنا، قبل أن يرسلَ فيها سكِّينهُ المثلومة التي لا تقتلُ بقَدْر ما تعذِّب.

استفقنا أنا وهي على أزيز الرصاص. تطلَّعتْ إليَّ بوجهٍ مخضوضٍ قبل أن تفرَّ إلى ملابسها. دسَّتْ الرشّاشَ في صدري وأنا أهمُّ بالانسحابِ. كان في عينيها الجميلتينِ الصافيتينِ شيءٌ أبعدُ من شامةَ وأعمقُ؛ كان فيهما شيءٌ أصدق بكثير. آفةُ الإنسان ومصيبته الكبرى أنَّهُ

لا يفهمُ بعضَ الأمور إلَّا بعدَ فوات الأوان! وذلك السرُّ في عينيها؛ ذلك البريقُ الصادقُ الذي تغلغلَ وقعه عميقًا في الذاكرة؛ تلكَ الخُزرةُ، تلك النظرةُ التي تتعانقُ فيها الوداعةُ بالرضا والطمأنينة، مرَّت بي في بعدٍ آخرَ من الزمن لم يُتِح لي ضجيجُ واقعي أن أتوغَّلَ بعيدًا في مداه...

قالتْ كلامًا عَذْبًا، كلَّما تذكَّرتُ أنَّني كنتُ ساهمًا عنه، تعمَّق شعوري بالفداحة. كان يبدِّدُ تركيزيَ لحظتها صخبُ الرصاص. عانقتها عناقَ من يَمضي إلى عملٍ روتينيّ، وهو على ثقةٍ بأنَّه سيعودُ سالمًا معافًى. تمنَّيتُ، فيما بعد، لو كان العناق أطولَ؛ لو كانت قبلاتنا أكثرَ؛ لو أنّني لم أستجب لنداء الحرب، لنداء الربّ! تمنَّيتُ لو أنَّني لم أستنزف سريعًا تلك الدقائقَ التي ما كنتُ أدري أنَّها ستكونُ الأخيرة... يااااه، يا وليد، ما كان يجدُر بي أن أحرِّكَ هذه السيرة الدامية، وأنكأ بها الجرحَ العميق.

خرجتُ بعدَ أن انتزعتْ منِّي وعدًا بأن أعودَ إليها سالمًا. فردتُ رشّاشي في السماء وسرتُ بحذرٍ. التقيتُ في سلالم البناية «الأخ الكبير»، وتحدَّثنا بإشاراتٍ نفهمها معًا، وسرنا جنبًا إلى جنبٍ. كانَ نهارًا شاقًّا مُسرَّجًا بألف خيبة، حاربنا فيه أنا و«الأخ الكبير» ولفيفٌ من جنوده فيلقًا من الأكراد الشرسين... لعلعَ الرصاص، وسرقَ في ذلك النهار أكثرَ من حياة؛ سرقَ حياتي!

الحزنُ ينغلُ في روحي، كلَّما تذكَّرتُ ما حدثَ...

ما كانَ يجدُرُ بها أن تتلصَّصَ على الحربِ من شقوق النافذة، فالرصاص الطائش يستجلبُ الخيبة في كثيرٍ من الأحيان أكثر ممّا

يستجلبها الرصاص المُصوَّب بمهارة. هل كانتْ تلك الرصاصة التي أسقطتْ ضوءًا بلَّوريًا أطلَّ برأسه من النافذة رصاصةً طائشةً حقًّا، أم أنَّ اليدَ التي سرقتها كانتْ تعرفُ ما تريد؟! لستُ أدري!

اقترفتْ ليلى، رَوَند، أو شامةُ الثانية، حماقةً لا بدَّ منها! حين دفعتْ خشبَ النافذة العالية، اشرأبَّتْ وجأرتْ بعنفٍ وهيَ تمدُّ يدًا من ندًى... كانتْ صرختها تُضمرُ كلمةَ: «لا». لم أذعن لكلمتها إلَّا بعد أن انتهى كلُّ شيء. كانتْ سبّابتي قد سحبت الزناد لتُنْهِيَ جسدًا يطلقُ رصاصه صوبي: عينٌ عليه وعينٌ تكادُ تغادرني إلى ليلى. قبلَ أن تصلَ رصاصتي إلى وجهتها؛ قبل أن تنتهي تلك الـ «لا» التي صرختْ بها ليلى، في ذلك الزمن الضئيلِ الذي تمدَّدَ على غير عادته، انخطفَ صوتُها. أربكَ وقفتَها جرحٌ افترعتهُ رصاصةٌ أسفلَ عظمة الترقوة، تهاوتْ في إثره خلف النافذة. كان رشّاشُ ذلك الشابِّ الكرديّ الذي أرديته بطلقتي، يطلقُ رصاصه بغزارة في كلِّ اتِّجاه... كشُهبٍ ناريَّةٍ في السماء، انفجرتِ الفجيعةُ داخلي. شلَّتْ تفكيري تمامًا، ودفعتْ قدميَّ صوبها...

لم تخطئ الصُّدفةُ جسدي. كانتْ تتحيَّنُ مناسبةً يغادرُ فيها العقلُ طيني، لتقتصَّ منِّي. الرشّاشُ الذي رقصتْ به يدُ الشابِّ الكرديّ في السماء حينَ عضَّتهُ أنيابُ الموتِ، أحصى خطى الخوف التي تسبقني إلى ليلى. شعرتُ بوخزٍ طفيفٍ لم يستوقف جَزَعي الناهض. لم أنتبه إلى إصابتي إلَّا حينَ سالَ من كعبي خيطُ دمٍ، وعانقَ بركةَ الدمِ التي كانتْ ليلى تنامُ فوقها.

كانَ الدمُ يسيلُ من صدرها شاخبًا لا تستوقفه يداي ولا قِطَعُ الملابس. كانتْ تضيعُ منِّي من دون أن أجدَ إلى نجدتها سبيلًا. آه...

كانتْ تتهجَّى الموتَ بوداعة الأطفال الصغار. ضممتُها إلى صدري، وأنا أصرخُ فيها ألّا تتخلَّى عنِّي. عدتُ إليها مثلما وعدتُها، لكنَّها تركتني. كانتْ أخفَّ من ريشةٍ في يدَيَّ، أحرِّكها، أحاولُ عبثًا أن أَشغلها عن الموتِ. كان اندفاعُ الدم من فمها إشارةً سيِّئةً ذكَّرتني في عزِّ الوجع بشامة. تكوَّرَ الحزنُ أسفلَ لهاتي، وأزكمت أنفي رائحةُ الدم... واختنقتُ، يا وليد، بالحزن.

علَّقتُ على ملامحها الوديعة الكابية كلَّ خيبتي. جأرتُ باسمها وغسلتُ بدمعي وجهَها، وبصدري حاولتُ أن أسدَّ الثقبَ في صدرها. شعرتُ، وهي تضيعُ منِّي رويدًا رويدًا، بالعجز. أتعرفُ فداحةَ العجز؟! حينَ يسرقُ الموتُ من بين يديكَ عنوةً أغلى ما لديكَ من دون أن تجدَ طريقةً تَحُولُ بها دونَ ذلك؟ كانت تردِّدُ بصوتٍ أقرب إلى الهمس كلمةً بالكرديَّة لم أستبنها لحظتها:

«برا... برا...»

يااه... يدفعني الخمرُ والوجعُ وهذا الإحساسُ الذي يشبهُ اليقينَ بأنَّ الموتَ، ثالثنا يا وليد، إلى تجرُّع قيحِ الذاكرة! أتعرفُ مرارةَ ذلك؟ مضتْ ليلايَ الجميلةُ من دون أن تصارعَ موتها. رحلتْ هي المُقيمة بينَ ذراعيَّ، أخلخلُ شعرها بأصابعي وأضمُّها إليَّ بقوَّة، وأنا أُصغي إلى أشياءَ كثيرة تتقصَّفُ داخلي. كنتُ ولم أكن، حاضرًا مِلءَ المكان؛ حاضرًا في اللامكان؛ متوغِّلًا كسهمٍ مدبَّبٍ في خاصرةِ زمنٍ توقَّف ليستريح من وعثاء سفره الأبديّ؛ حزينًا بقلبٍ خَرِبٍ وهرْسٍ في الأعماق؛ غريبًا؛ ذاهلًا؛ مشدوهًا؛ أُبحرُ في أعماقي السحيقة المتأكِّلة. بهتُّ فجأةً وانخطفَ من شراييني الدمُ، واستحلتُ في غفلةٍ منِّي إلى رميمٍ يقرضه الحزن.

لم أنتبه، وغوّاصةُ أحزاني تسافرُ بي بعيدًا في الأعماق، إلى خيط الدمِ يسيلُ في غفلة منّي من الكعب، ويلتحم بدمِ ليلى. سرقني الحزنُ الذي ينهشُ داخلي فلم أنتبه إلى جسدٍ يجفّفه النزف. لم أكن «آخيلَ». كنتُ أقلَّ حظًّا من أن تغمرني حياة في نهرِ الخلود وتهملَ الكعب... من حسن حظّي أنّني لم أكن «آخيلَ» في الإلياذة، ومن سوء حظّي أنَّ الطلقة/الصدفة كانت في الكعب!

ظللتُ في مكاني وسط بركةٍ من دمٍ متخثّرٍ، متمسّكًا بعناق ليلى التي فاضتْ روحها، أسحُّ الدموعَ الثقيلةَ. سالتْ داخلي لوعةٌ حرّى، وأنا أشدُّ إليَّ ليلى، فترتجفُ أصابعي ويكادُ يخذلني العناق... كانتْ تلوب في مخيّلتي، في تلك اللحظات الهشّة التي سبقت انطفائي، ذكرياتُنا الصغيرةُ المشتركة بجنونها وجمالها، فيتورَّمُ اليأسُ داخلي ويستفحشُ الحزن. قبل الغياب، وأنا أهدهدُ بالذكريات الوجعَ، في تلك اللحظات الأخيرة التي يتعاظمُ فيها السوادُ، ويتضخّمُ فيها صفيرٌ حادٌّ يكاد يفتقُ طبلة الأذن؛ في تلك اللحظات التي يستقرُّ فيها في روع المرء يقينٌ بأنّه سينطفئ لا محالةَ، صوَّبتني حاسّةُ شمّي أبعدَ من حاضري؛ تغلغلتْ بي في الكهوف السرّيَّة للذاكرة. كانَ أنفي عالقًا بروائح شامةَ؛ شامة الجرح الكبير، كأنّها في مكانٍ ما قريب. تمسّكتُ وأنا أقف على عتبة الغياب بعناقِ ليلى، كأنّي أحتمي بها من تسلُّط شامةَ، وأقاومُ بها خيانات الذاكرة.

حروب الأزمنة الرديئة

عينُ العرب نامتْ منذ زمنٍ غابرٍ، و«عينُ العرب» لا تنام...

ما زالُ «الأخُ الكبيرُ» يمعنُ في إشعال عتمتها. هل يطلبُ ثأرهُ من مدينةٍ لفظتهُ منذ زمنٍ بعيدٍ، بعدما أرقَدَتْ في أعماقه أشدَّ الخيانات إيلامًا، أم يستجديها على طريقته أن تهبهُ صاحبَهُ ورفيقَ رحلته: الأشقر؟!!

الغرفةُ لا تكاد تستسلم للظلمة حتى تضيئها الحرب. الغرفةُ قفصنا المشتركُ أنا والأشقر، علَّقتنا فيها خيبتُنا وسوء حظّنا، إمّا أن تطيشَ قذيفةٌ وتهزَّ دعائمَ هذا البيتِ السفليَّة ونموتَ تحتَ الركام، وإمّا أن يباركَ الربُّ «فتح» «الأخ الكبير» لعينِ العرب، فنترجَّل، بطريقة أو بأخرى، عن هذا القبر الذي يرفعنا أنا والأشقر قربانًا للسماء.

توقَّفَ الأشقرُ عن الكلامِ حينَ استحالَ البوح مديةً تعبثُ بجراحاته. تحشرجتْ كلماته وارتجفتْ قبل أن يتوقَّفَ. كان واضحًا من صوتِ مُنخُريه، إذ يعبّان الهواء، أنَّ دمعَهُ قد طفحَ. هزَّتني رجفةُ

حزنٍ في الأعماق. لم أشأ أن أُحرجَ صمتَه الممضّ بأيِّ كلمةٍ. انسحبت عينايَ إلى النافذة، وسرحتْ بي جراحاتُ الأشقرِ العاطفيَّةُ بعيدًا في ذاتي. تذكَّرتُ ـ أذكر ذلك جيِّدًا ـ مريم!

كنتُ أعتقدُ أنَّ هذه المجازفة التي تورَّطتُ فيها كانتْ لغرضٍ نبيل: أن أكشف للعالم حقيقةَ ما يحدثُ في بقعة الزيتِ الحارقة هذه! كم كنتُ أحمق وساذجًا حين اعتقدتُ أنَّ طريقي إلى ما أريدُ سيُفرَشُ وردًا. كنتُ بليدًا حقًّا حينَ ارتميتُ على نحوٍ أرعن في أتون داعش. لم أكتشف قَدْرَ حماقتي إلَّا حينَ قذفَ «الأخ الكبير» بتلك الفتاة، ذاتِ الرأس الحليق والعينينِ المعصوبتينِ، تحتَ قدمَيَّ، وأخمدَ في يدي المسدَّس آمرًا بأن أقتلها. وقتها فقط، عرفتُ أيَّ جنون اقترفتُ. لم تكن تعوزني الحكمةُ، لكنَّ الخيارات كانت أضيقَ ممّا ينبغي لها أن تكون.

أسقطتُ تلك الفتاة مثلما أسقطتُ العشرات غيرها قتلًا بالرصاص، أو ذبحًا أمامَ الكاميرات، لكنَّ سقطتَها لا تشبهُ أيَّ سقطة أخرى، فقد خلَّفتْ داخلي صخبًا قويًّا وضجيجًا يتفاقمُ يومًا بعدَ آخر. كانتْ هي جريمتي الوحيدة. كلُّ قتلايَ بعدها ليسوا في الواقع إلَّا امتدادًا أكثرَ بشاعةً لها.

زنزانتنا المعلَّقة على مشارف السماء تنداح كأراجيح الأطفال كلَّما اهتزَّتْ قرب المنزل قذيفةٌ، والأشقرُ العليل، تدهورتْ صحَّته وتضرَّرَ بَوْحه كثيرًا. بعد جرعة زائدة من صديد ذكرياته، كانت الطريقة التي يعبُّ بها الهواء بمُنخُريهِ تشي بأنَّ دمعه قد طفحَ. لم أكن أراه. فحتى في اللحظات التي تشتعلُ بها الغرفة بالحرب خارجها، يحجبُ عنِّي ظلُّ الأريكة وجهَهُ، لكنَّ في قلبي استقرَّ إحساسٌ بأنَّه ينتحبُ؛ إحساسٌ

أكَّده صوته المختنق الواجف أوَّلَ ما تحدَّث. . . وهو يعدِّلُ من جلسته، ثم وهو يمدّ يدًا مرتجفةً صوب الولّاعة يبحثُ بنورها عن سيجارة. حينَ تطلَّعتُ إلى ملامحه المتعبَة، رأيتُ خَيْطَيْ دمٍ يسيلان من أنفه، يتجاوزان شفتيه اليابستين، ويكادان يلتقيان أسفلَ ذقَنه. قبل أن أنبِّهَهُ إلى الأمر، تنبَّهَ هو إلى جزعي قائلًا:

ـ «كلَّما ضاقتْ بيَ الدنيا، واختنقتُ داخلي. . . نزفَ أنفي!»

أَشعلَ السيجارة. مدَّ يدًا مرتجفة صوبَ زجاجة النبيذ، وتنهَّدَ بعمق. هدأت الحربُ خارجًا وعمَّ هدوءٌ ملغوم. برقتْ في الذهن فكرةٌ كأنَّها اللعنة: تساءلتُ، وصورةُ ضحيَّتي الأولى تلوبُ في مخيِّلتي برأسها الحليق: ماذا لو كانتْ لتلك الضحيَّة صلةٌ بالأشقر؟ أليستْ إحدى غواياته أن يحلقَ شعرَ كلّ من عبرتْ تاريخَه؟ اضطرمَ السؤالُ داخلي واكتويتُ بناره، لكنَّهُ سرعانَ ما ضمر في صدري حينَ واصلَ الأشقرُ بوحهُ من دون أن يحفلَ بالرعف. كان في الوجه الأنيق الضامر، الذي رأيتُه على ضوء الولّاعة، هدوءُ مَن اطمأنَّ إلى أنَّ أفضلَ ما يمكنُ أن يفعلَه هو أن ينتظر الموت، ويُيَسِّرَ له عملَهُ الروتينيّ بالدفعِ بجسده وروحه معًا إلى الإفلاس.

«كان وجهُ ليلى الوديعُ، الذي يشقُّ فمَه العذب خيطُ دمٍ آخر، صورةً تمسَّكتُ بها قبل أن يزحفَ على عينَيَّ السوادُ. وكان صوتها، وهي تهمسُ بالكرديَّة كلمة «برا»، التي لم أفهمها، آخرَ ما تناهى إلى مسمعي قبلَ أن تستحيلَ الأصواتُ إلى ضجيجٍ لا يطاق. . . كان عناقها آخر ما ملأ حاسَّةَ اللمسِ، وكان ملحُ دمها حينَ وقَّعْتُ على شفتيها قبلةَ الوداع آخرَ مذاقٍ قبل الغياب. كانتْ ليلى تملأ بحضورها الجارف الحواسَّ الأربعَ قبل أن يُغمى عليَّ. وحدها حاسّةُ الشمِّ خذلتْ

فجيعتها، وحلَّقتْ بي صوبَ فجيعة أقدم.

الذاكرةُ، يا وليد، لعنةُ الإنسان! من تلك الروائح التي تغلغلتْ بي بعيدًا في الذاكرة، بزغتْ شامة، في اللحظات الأثيريَّة التي سبقتْ موتي الموقَّت، لتذكِّرني، للمرَّة التي لا أذكرُ عددها، بأنَّها لا تزالُ تضيء بحضورها الخنادقَ السرِّيَّة للقلب، وتوغلُ أصابعها المرمريَّة الرقيقة في الذاكرة. حزَّ في نفسي، وأنا أغيبُ، أن أتذكَّر شامةَ، وأنا أضمُّ إليَّ أنثى كاملةَ البهاء. أحسستُ بأنَّ في الأمر خيانةً لليلى!!

استفقتُ سريعًا. قال «الأخُ الكبير» والطبيبُ الذي جاءَ معهُ إنَّ استجابة جسدي للدواء كانتْ ممتازة، وإنَّ الإصابةَ في الكعبِ لا تقتلُ، لكنَّ النزفَ كاد يفعلُ. أسهبَ الطبيب في الحديث عمّا يجدرُ بي أن أقوم به وما ينبغي لي أن أتفاداه، بعد أن سحبَ شظايا الرصاصة، ورمّمَ برقائق الجصّ قدمي. وحينَ سألتُ عن ليلايَ، طأطأ «الأخ الكبيرُ» رأسه، وعَلَتْ سحنَتَهُ أماراتُ الحزن. لم يجبْ. ناولني عُكّازًا يُسعفُ على الحركة، واستوقفَ الطبيبَ الذي همَّ بإعادتي إلى السرير...

مضيتُ إلى غرفةِ نومنا. كان قلبي يجرُّني صوبها. أغلقتُ الباب ورميتُ العكّاز، وارتميتُ بدموعي على بياضٍ كانَ يلفُّها، ثم أزحتُ عن وجهها الملائكيّ ذلك الغطاءَ. سألتُها بعينينِ مخضلَّتين بالدمع: لماذا تخلَّتْ عنِّي؟ لماذا فتحَتِ النافذةَ على مصراعيها، وأسلمتْ جسدها للرصاصة المتربِّصة؟ قلَّبتُ الأمر في ذهني طويلًا وأنا أتأمَّلُ نومتها الوديعة، ولم أجد سببًا واحدًا يدفعها إلى أن تطلَّ من النافذة سوى أنَّها فعلتْ ذلك انتحارًا. ثم عدتُ أفكِّرُ مجدَّدًا، وأصابعي تلاعبُ شعرها الكستنائيَّ الجميل، في السببِ الذي قد يدفعها إلى الانتحار؟

كنّا أجمل عاشقَينِ. كنّا زهرتين هزَّتا ترابَ هذه الأرض المَقْبَرة، ونمَتا متعانقتين... ما الذي دفعها إلى أن تقترفَ هذه الحماقة؟ ظلَّ السؤالُ ينخرُ ذهني وأنا أُعِدُّها للثرى، ولم أشأ أن أحلقَ رأسها كاملًا. اكتفيتُ بخصلةٍ من شعرها... قبّلتُ جبينها، ورددتُ على وجهها الجميلِ الغطاءَ.

تحايلتُ على وجعي، ومضيتُ متَّكئًا على العكّازِ، أسحبُ خلفي رِجْلِيَ العليلة. خارجًا، كانت الشمسُ تغوص في سماءٍ نبيذيَّة، وتنزلقُ رويدًا رويدًا في المدى البعيد. دفنَ «الأخ الكبيرُ» جثث مقاتليه بعد أن فرَّ المقاتلون الأكراد مدحورين، وخلَّفوا نصف مقاتليهم مُسَجَّيين حول هذا المنزل النائي. سرتُ بين الجثث. إحدى غواياتي أن أعود إلى الجثث التي أرديتُها، لأتأكَّد من موتها، وأخطَّ على جباهها أرقامها. كانَ دمعي يسيلُ من عينيَّ بغزارة، فقد كانَ الجرحُ، جرحُها، لا يزالُ مفتوحًا.

أعرفُ قتلايَ جيِّدًا. حينَ أُوجِّه الرشّاش صوبَ شخصٍ ما، فإنَّ ذاكرتي لا تُسقطُ من سجلّاتها وجهَهُ الخائفَ وجَزَعَه الأخير. أمّا حينَ أضغطُ على الزناد، فإنّي أؤكِّد الذكرى برصاصة جهةَ القلب أو الرأس. أمرُّ بين القتلى وأنا أجرُّ قدمي العليلةَ التي أثقلَتْها رقائقُ الجبس. أنحني بينَ حين وآخرَ على جثَّة، أجسُّ نبض العنق باليد نفسها التي تحملُ المدية، قبل أن أرسلها في جبين الضحيَّة تخطُّ رقمها الترتيبيّ. ابتدأتُ بالجثَّة الرقم 51، وانتهيتُ بالجثَّة الرقم 58. الجثَّة الأخيرة كانت فعلًا آخرَ جثَّة أُرديها قبلَ سقوط ليلى. شتَّت ظهور ليلى المفاجئ في النافذة انتباهيَ، لكنَّ رصاصتي سبقتْ رصاصته، وأسقطتهُ قبل أن تَسقطَ ليلى ببضع ثوان. حينَ جسستُ نبضهُ كانتْ أوردةُ عنقه تهتزُّ ببقيَّة

نبض، فمعَ ظهور ليلى المفاجئ ارتبكَ تركيزي فأخطأتُ قلبَهُ. كان مسجًّى فوقَ بحيرة من الدمِ. نزفَ كثيرًا، ولم يبقَ منه سوى فمٍ يعبُّ الهواء بعسرٍ، وعينينِ دامعتين تنغرسان في وجهي، تحاصرانني، تُدينانني. حين ضقتُ ذرعًا بهما، وأتعبتني قدمي العليلة من فرط الانحناء، أهديتُه السلامَ. مررتُ بمديَتي على نحره. شخبَ الدمُ من عنقه وانطفأ بسرعة.

يااااه، يا وليد، ليت رصاصتي أخطأتهُ؛ ليت رصاصه كان أكثر دقَّة! في ذلك اليوم الذي يشبهُ صيفًا في جهنَّم، تأكَّدتُ من أنَّني محكومٌ بعمرٍ من الخيبة، وأنَّ الربَّ لم يزرع شتلةَ هذا الجسد في رَحِمِ حياةَ، ولم ينفث فيها هذه الروحَ الساخنة، إلَّا ليختبرَ بي هشاشةَ كائنه الأنيق، وليعرف بي حضيضَ عجزه أمام ألعابه القَدَريَّة التي يجدلُها بمهارة. تمنَّيتُ لو أنَّني لم أقتلهما معًا بطلقةٍ واحدة.

حينَ لدغتْ مديتي نحر الشابّ الكرديّ واضعةً حدًّا لاحتضاراته، هزَّتْ أعماقي وداعةُ ذلك الوجهِ. كانَ لهُ شَبَهٌ في الذاكرة. لم أكن أعلمُ، قبل ذلك الشابّ الكرديّ، بأنَّ الوجوه يبدِّلها الموتُ، وأنَّها تتنازلُ عن كلّ أقنعتها وتعودُ مع الهدأة الأخيرة إلى طبيعتها.

انحنَيتُ على جثَّة الشابّ مرَّةً أخرى، أتفحَّص جيوبهُ بحثًا عن أيِّ شيء يدلُّ عليه. وجدتُ حافظة نقوده. فردتُها بسرعة، وبيدٍ مرتجفة، كأنّي - في مكانٍ عميقٍ من عقلي اللاواعي - كنتُ على يقينٍ بأنَّني لا بدَّ من أن أرتطم بفجيعتي. ومثلما يحدثُ للمجرم حينَ يواجههُ المحقِّقُ بدليلٍ حاسمٍ يفضحُ جرمهُ، اهتزَّتْ كلُّ ذرَّة فيَّ. طفحتْ دموعي وكادَ العكَّاز يخذلني. كانتْ صورتُها تجاورُ صورًا أخرى في محفظة الكرديّ. لمْ يطلْ بي التساؤل عمّا تفعلُه صورة ليلى في محفظته. كان

واضحًا أنَّها تعني له الكثير، وإلّا لَما حملَ معهُ صورتَها. وكانَ واضحًا أنَّه يعني لها شيئًا، وإلّا لَما صرختْ بكلمة «لا»، حين همَّ كلّ واحد منّا في قتلِ الآخر.

أحسستُ بكلِّ شيء داخلي يتقصَّفُ فجأة. فاجأني وجعٌ حادٌّ في الرأسِ أعقبهُ رعفٌ حادٌّ، وغُصتُ عميقًا داخلي. عادتْ بي صورتها النائمة في حقيبة الجثَّة الرقم 58 إلى تلك الليالي اليمنيَّة الشجيَّة، التي كنتُ أصيخُ فيها السمعَ إلى تقطُّعات ليلى وأوجاعها التي لا تنتهي. تذكَّرتُ حديثها عن أخيها الذي غيَّبهُ اقتحامُ المتشدِّدين لقريتها. تُراهُ «إيلان» أخوها؟ تراهُ كانَ لقاءَ وداعٍ؟

حين حطَّتْ على كتفي يدُ «الأخ الكبيرِ» الثقيلةُ المسربلة أبدًا في القفّاز الأسود، كنتُ أسكبُ كلامًا غير مفهوم، قال، مثلما كنتُ أسكبُ دمًا من أنفي ودمعًا من عينيَّ. كنتُ أراهُ يدلقُ كلماتهِ كَرُجلِ إطفاءٍ محترفٍ يصارعُ النيرانَ التي اشتعلتْ بها. كنتُ أراقبُ فمهُ وهو يعجَلُ بالكلام، من دون أن تصلَ كلماتهُ إلى مسمعي واضحةً. سألته بكلماتٍ مضطربةٍ، ما الذي تعنيه كلمةُ «برا» بالكرديَّةِ، فجاءتْ إجابتهُ لتنحتَ روحي. قالها، فتغلغلتْ كسهمٍ مدبَّبٍ عميقًا في أذني: الأخ.

آه، يا وليد. ما أبشعَ أن يتمحَّكَ المرء بأقدار الربّ اللعينة. اختارها «الأخ الكبيرُ» أوَّلًا، لأنَّها كرديَّة وأيزيديَّة، وفوق ذاك اسمها ليلى. اختارها لأنَّها ترادفُ إلى حدٍّ بعيدٍ حبيبتَهُ، قبل أن يأنسَ إلى ظنٍّ آخر. في الوقتِ متَّسَعٌ ليجدَ ضالَّتهُ، فأهدانيها سبيَّةً من دون أن يعلمَ بأنَّه أهداني مرادفَ خيبَتي. حينَ تأكَّدتُ من أنَّ القتيلَ كان أخاها، انكسرَ داخلي كلُّ شيء. أحسستُ بأنَّ مسامّ جلدي تنغلقُ دفعةً واحدة، وأنّني أختنقُ. في أعماقي، كرة الحَنَق الملتهبة تكبرُ شيئًا فشيئًا، فلا

أملك أمام احتراقي غيرَ الدموع التي بدلًا من أن تُخمدَ ناري فإنَّها تبالغُ في إشعالها. . .

تذكَّرتُ، وأنا أعودُ إليها محمَّلًا بفجيعةٍ مضاعَفة، نظراتِهِ التي تقاومُ الموتَ بكبرياء وشموخ، كأنَّه في تلك اللحظة التي تلتْ سَفرَ الرصاصة في أحشائه، رآها تسقطُ من معراجها. نظرةٌ واحدةٌ محمَّلةٌ بأشواق الدنيا وآلام الوداع. ظلَّ معلَّقًا بين الحياة والموت ربمّا لأنَّه لم يستوعب عبثيَّة الأقدار. عَلِقَ في منطقةِ الهشاشةِ. ربَّما كان يحسُّ بأنَّه، بسبب ظهوره المفاجئ، كان سببًا في موتها. . . آه، يا وليد، كثيرة هي الأسبابُ التي تُبقي المرءَ «بيْن بيْن»؛ بين حياةٍ ناقصة وموتٍ لا يكتمل. . .

عدتُ إليها أجرُّ قدمي وأشلائي النفسيَّة. لم أكد أصلُ إلى بياضها حتى تهاويتُ كعكّازٍ تخلَّى عنهُ صاحبُهُ فجأةً. سبقتني إلى بياضها دموعي الثقيلة، قبلَ أن تدركني مرَّةً أخرى يدُ «الأخ الكبير»، يدُه اليسرى. كانَ يعرفُ مقدارَ حبِّي لها، ويعرفُ حادثةَ الشَّبَهِ الغريب بينَ ليلى وشامة. حينَ ذرفتُ أمامهُ الحكايةَ، كيفَ قُتلتْ، ولماذا؛ حينَ بكيتُ في حضرتهِ كلامًا، اغرورقتْ عيناهُ، وعزّاني بكلماتٍ قبل أن يُسعفَني على الوقوف، ويساعدَني بعد ذلك على حمل ليلى إلى السيّارة. . . حملها هي وأخاها. كنتُ أريدُ لهما مكانًا ودفنًا يليقُ بحجم أسفي ويقومُ اعتذارًا ولو رمزيًّا. بعدَ أن وضعتُ المعولَ في السيّارة، سألَ «الأخُ الكبيرُ»:

ـ إلى أينَ. . . وقد حلَّ الليل؟

ـ في إمكانكَ البقاء. . .

ـ لن أتخلّى عنكَ... تعرفُ هذا. فقط أريدُ أن أعرفَ وجهتكَ؟!

ـ «لالش النوراني».

التفتَ «الأخُ الكبيرُ» إليَّ غيرَ مصدِّقٍ. وحينَ أزعجهُ صمتي، تنهَّدَ بعمقٍ، ولاذ مثلي بالصمت. قالَ، ونحنُ نقتربُ من معبد «لالش»، بعد صمتٍ طويلٍ تواطأنا عليه أنا وهو:

ـ كنتُ أعتقدُ أنَّكَ تحملُ بين أضلعِكَ بدلًا من القلبِ صخرةً صلدةً!

أجبتُه وصورة ليلى، خُزرةُ ليلى، بهاءُ ليلى الجميلة، تبرقُ في الخيال وتضمحلُّ كلَّما أمعنتُ في الذكرى:

«وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ، وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماء»

ترجَّلتُ من السيّارة وحيدًا، بعدَ أن أقنعتُ «الأخ الكبير» بأن يظلَّ مع الجثّتين. فاجأتني النسائمُ العليلةُ. اندفعتْ داخلي فجأة وأنا أصعدُ الجبلَ المتاخمَ لوادي لالش ومعبده (60 كلم عن الموصل) بخطى ثقيلة، أعلِّق المعولَ على كتفي، وأسحبُ خلفي قدمي النائمةَ في البياض. لم يسبق أن زرتُ معبدَ لالش؛ أقدمَ المعابد في العالم وقبلةَ الأيزيديّين، لكنَّني تجوَّلتُ بينَ مقاماته، وتعمَّدتُ بمياهه الطاهرة، من خلالِ حكايات ليلى وكلامها الذي لا ينتهي عنه...

حين انتهيتُ إلى رأس قمَّة من القمم الثلاث التي تحفُّ المعبدَ، شرعتُ في الحفرِ تحتَ شجرة توت كبيرة. توغَّلتُ عميقًا في ترابها وأنا أسكبُ دموعي ودمي الذي طفرَ غزيرًا من أنفي. في تراب تلك الأرض الطاهرة، شيءٌ من روائح ليلى. ليسَ مجازًا ما أقول. في

أرض لالش التي توغّلَ فيها معولي عميقًا رائحةٌ من ليلى، من عَرَق ليلى على وجه التحديد. رائحةٌ حرَّضتني على مزيدٍ من البكاء. لم أحفر قبرين. قبرٌ واحدٌ فسيحٌ كافٍ ليضمَّ رفاتَيْ أَخوين، ضربتُ لهما معًا موعدًا مع الموتِ. ساعدني «الأخ الكبيرُ» في صمتٍ على نقلِ الجثَّتينِ معًا.

حين أهالَ «الأخ الكبير» التراب على جسديهما، خارتْ قوايَ فجأة، وانخذلت. كان نزيفُ أنفي قد سرقني في غفلةٍ منِّي. سقطتُ على ركبتيَّ. أسندني «الأخ الكبير» الذي لم يلاحظ نزيفي في عتمة الليل. غازلتْ جفنَيَّ أشباحٌ وأطيافٌ وأنا أنطفئ مرَّة أخرى كجهازٍ خَرِبٍ، لكنّني لم أغِبْ تمامًا. سمعتَه يقرأُ آياتٍ من القرآن باكيًا، ورأيتُه يزيِّنُ القبر المشتركَ بأغصانٍ من شجرة التوت الكبيرة، قبلَ أن يُعيدني إلى السيّارة حيثُ سينتبهُ أخيرًا إلى نزفي.

وغبتُ بعد ذلك. قالُ «الأخ الكبيرُ» إنَّني نمتُ يومينِ كاملين. وحينَ أفقتُ، شممتُ روائحَ ليلى البهيَّة. تحسَّستُ السرير آملًا أن تشتبكَ أصابعي بلحمها، ولا يكون ما عشتُه أكثرَ من حلمٍ كئيبٍ، لكنْ هيهات!

أدركَ «الأخ الكبيرُ» فداحةَ حزني، فنادى بالرحيل متذرِّعًا بحجج كنتُ أعرفُ، وكان يعرفُ، أنَّها أوهى من بيوت العنكبوت. هاتفَ قادته، فوضَّبوا لنا منزلًا بعيدًا عن الموصلِ؛ بعيدًا جدًّا عن الموصل، في قرية نائية خضراء، كأنَّها، حينَ كان الربُّ يؤثِّثُ جنَّته، كانتْ فائضًا رمى به الأرض، فاستقرَّت في هذه الرقعة من العراق غيرَ بعيدٍ عن النهر؛ غيرَ بعيد عن البحر!

لم ننشغل بأيِّ حربٍ كما جرت العادة، كنّا ـ أنا «والأخ الكبير» وفيلقٌ من جنوده ـ نعيشُ في قصرٍ فخم. قال لي إنَّنا نعيشُ راحة ما قبل الحرب الشاملة، وكانَ يدفعُ إلى شقَّتي كلَّ ليلةٍ صنوفًا من الخمور والسبايا العذارى. كنتُ أترعُ من زجاجات الخمر ما يذهبُ بي بعيدًا عن ضجيج الألم وشغب الذاكرة، وأهدهدُ بأصابعي خوف السبايا. كان أقصى ما أرجوه منهنَّ أن يحكين ويحكين... قبلَ أن أعيدهنَّ صباحًا إلى «الأخ الكبير» عذارى مثلما دخلنَ بابي... بعدَ ليلى الجميلة، التي لبستْ ملامحَ شامةَ وتغلغلتْ في القلبِ، لم تتسلَّل إليَّ من النساء سوى واحدة، كان اسمُها...»

وقبلَ أن يأتي الأشقرُ على ذكر اسم آخر نسائه، اهتزَّتْ بنا الغرفةُ، لا أدري على وجه التحديدِ ما وَقَعَ! تفقَّدتُ جسدي حين اندلعَ الضجيجُ واندفعَ الدخانُ الكثيف. لم أكن أريدُ أن أموتَ وأنا غيرُ واعٍ بأنَّني أموت! تمسَّكتُ بالأريكة، فقد كانت الغرفةُ الوحيدةُ معلَّقةً في الطابقِ الثالث، لا يُسعفُ وقفتَها الشمّاء في الفضاء سوى الصدفة وقليل من الأعمدة الإسمنتيَّة. تخيَّلتُ الغرفة تنزلقُ بنا فتمسَّكتُ بالأريكة، ولم أفكِّر في الأشقر الجريح إلَّا متأخِّرًا. أدركتُ أنَّ المرء، أمامَ الموت، يجبنُ ولا يفكِّرُ إلَّا في نفسه، وما سيؤولُ إليه طِينُه...

فاجأتني ضحكتُه... انطلقتْ في وقتٍ نشاز. بعد أن هدأ دويُّ الانفجار، أمعنتُ في الظلام فملأ عينَيَّ الغبارُ. أردتُ أن أتحدَّثَ، لكنَّ خَرَسًا مفاجئًا تورَّمَ أسفل لهاتي. هدأ الأشقرَ. ابتلعَ ضحكته مثلما ابتلعَ الصمتُ دويّ الانفجار، وتبدَّد الغبارُ شيئًا فشيئًا، وفاجأنا جديدُ قفصنا المشترك. لم تكتفِ القذيفة (أو شظيَّتها) بنسف النافذة، بل خسفتْ الجدارَ المطلَّ على الحرب كاملًا. هكذا، انفتحَ القفصُ فجأةً

على لوحةٍ كاملة الخراب، وصرنا أنا «والأخ الكبيرُ» نطلُّ من علٍ على خرابِ عين العرب في غرفةٍ بثلاثة جدران!!

مكشوفَينِ صرنا، أنا وهو، على مرمى من قذائفهم. نملكُ قليلًا من الليلِ يسترُ انفضاحنا المفاجئ، وأملًا ضئيلًا في أن ينتصرَ «الأخ الكبير» في حربه ويستردَّ رفيقَهُ ومدينتَهُ الأثيرة. حرَّكَ الأشقرُ أريكتهُ. أسندها إلى الجدار المقابل للجدار الذي انخسفَ، ومثلَه فعلتُ. كنّا كضيفَيْ شرفٍ في قاعةِ سينما، لكنَّ المَشاهد واقعيَّةٌ. مدينةٌ انطمستْ معالمها؛ نارٌ هناكَ في البعيد؛ ضجيجٌ ودويُّ قنابلَ؛ كرٌّ هنا وفرٌّ هناك، وأبطالٌ باسم الربّ يكبِّرون، يسكبونَ صخبَ رشّاشاتهم ثم يعودونَ للاختباء، وأنا والأشقرُ مُشاهِدانِ محايدان، يستجديانِ الصُّدَف ألّا تزجَّ بهما في الشاشة الكبيرة!

انفتحَ القفصُ بهزَّةٍ قَدَريَّة طفيفة، بدلًا من أن تفتحَ النافذةَ خسفت الجدار كاملًا. لأوَّل مرَّةٍ، أحسدُ العصافيرَ الوديعة على أجنحتها، وأتمنَّى صادقًا لو أنَّ لي مثلها أجنحةً وقدًّا هشًّا لا تسحبُه الجاذبيَّةُ إلى الأسفلِ... كنتُ لأمنحها في مقابل ذلك آدميَّتي! تنهَّدَ الأشقرُ بعمق. لمحتُه، على ضوء قذيفةٍ أشعلتْ منزلًا غيرَ بعيدٍ، يضعُ إصبعينِ على مُنخريه ليستوقفَ نزفهُ. رأيتُ وُشومًا في جسده، أدركتُ من خلال بوحه أسرارَ بعضها، واستعصى عليَّ بعضُها الآخر! رأيتُ قدَمهُ التي شوَّهها تدخُّله الجراحيّ، وقد تخثَّرَ الدَّمُ فيها، بعدَ أن توقَّفَ نزفها أخيرًا.

«فقيرٌ أملُنا في النجاة من الموتِ، والأجدرُ ألّا نخون الحكايةَ يا وليد!»

قالَ الأشقر، وقد تناولَ زجاجة الخمر مرَّة أخرى، يشربُ ويشربُ من دون أن يبلغَ منزلةَ السُّكْر البيِّن، وأردف:

«علقتُ بالخمر بعدَ أن واريتُها. صحيحٌ أنَّني كنتُ أشربُ قبلها؛ صحيحٌ أنَّ براميلَ خمرٍ عبرتْ بطني قبلها، لكنْ، بعدها ما عادَت الخمرُ ترفًا زائدًا، بل صارت ضرورةً لأنسى. فحينَ خسرتُ ليلى، امتلأتُ بخيباتي كلّها. لم يجدْ قلبي طريقةً لإدارة هذه الخيبة مفردةً، فكانتْ اختصارًا شنيعًا لكلِّ الخيبات التي عَبَرَتْني. كنتُ أكرعُ صنوفَ الخمر التي يحاولُ بها «الأخُ الكبيرُ» إخمادَ النار التي شبَّتْ في الروح، فلا يَلُوحُ في الأفق أيُّ أملٍ في أنَّها ستُخمَدُ. أكرعُ الخمر، وأُعيدُ إليه العذارى الخائفات من دون دمٍ يسيل.

لم تحمل لي حياةُ البذخ في تلك القرية العراقيَّة الجميلة سوى مزيد من الإمعانِ في الذكرى؛ مزيدٍ من الألم والبؤس. وعدا الوقتِ الذي نُمْضيه أنا «والأخ الكبيرُ» قبالة التلفاز نرصدُ مَدَّ «الربيع العربيّ» وجَزْره، فإنَّنا لا نجدُ ما نقومُ بهِ. حتى الكلامُ بيننا تلاشى. يلوذُ هو باجتماعاته السرِّيَّة مع كبار القادة، وأقبعُ أنا في غرفتي أشربُ وأقلّبُ جمرَ الماضي وأحترقُ بهِ، في انتظار تلك الأحداث الكبيرة التي وعدَ بها «الأخُ الكبير». ذاتَ يومٍ، فاجأني بخبرٍ طيِّب: قالَ إنَّه سيعودُ إلى عين العرب، متسلّلًا لغرضٍ مهمٍّ، وطلبَ أن أرافقه. وافقتُ على الفور...

في عين العرب، وكانتْ وقتَها أجملَ من شريط الخراب الذي تراهُ الآن، انصرفَ «الأخ الكبير» إلى اجتماعاته الغامضة، وأوعز إليَّ بمهمَّة القيام بتحرّيات تخصُّ ذاكرته: البحث عن الخيط الرفيع الذي قد يقتاده إلى ليلاه، أو إلى عشيقِ أمّه!

تُهتُ في المدينة، أُغدق رِشًى كثيرة من دون أن أظفرَ بخيطِ أملٍ أعلِّلُ به هشاشةَ «الأخ الكبير»... كان غارقًا في اجتماعاته التي لا تنتهي. حينَ عدتُ إليهِ بخُفَّي حُنَيْن، تنهَّد بعمقٍ، ثم أمعنَ النظر في الجدار المقابل بضعَ ثوانٍ، قبل أن تنفلقَ شفتاه عن ابتسامة، قائلًا بصوتٍ هامسٍ كأنَّه يخاطبُ نفسه: لا بدَّ من أن أجدهما...

لم تكن تليقُ بأحزاني حياةُ الترف؛ هذا ما استنتجتُه بعدَ رحلتنا إلى سوريا. فالفراغُ ميسمٌ ينكأ الجراح كلَّما اندملتْ أو كادتْ تندمل. المنذورون مثلي للبؤس لا يجدرُ بهم إلَّا أن يتوغَّلوا بعيدًا في تخومه. في الأخير، لا يمحو الجرحَ إلَّا جرحٌ آخر، وكنتُ أضعُ حياتي دائمًا في مهبِّ الجرح الأكبر: الموتِ.

بعد العودة من عين العرب، انخرطتُ بإلحاحٍ منِّي في مجموعةٍ من العمليّات، كان «الأخ الكبيرُ» يردِّدُ باستمرار أنَّنا في فترة نقاهة نفسيَّة، والأفضل أن أغترفَ مثلَهُ من ملذّات الحياة لئلّا أموت وفي النفسِ شهوةٌ منتكسة. لكنَّني كنتُ أكتفي، من كلّ تلك الملذّات، بالخمر. نصحَ مرارًا بأن أجرّبَ نسيانَ ليلى بغيرها، وأضاف بخبثٍ أنَّ الجنسَ وحدهُ كفيلٌ بإخماد لواعج الهوى، لكنَّ كلامه لم يجدْ في نفسي هوًى.

انخرطتُ في حروبٍ كثيرة لأنسى أو أموت. كانَ في قرارة روحي رغبةٌ في الموتِ، لكنَّ شجاعةَ اقتراف خطأ عامدًا كانت تخونني! وُجِّهَتْ نحوي، يا وليد، مسدَّساتٌ ورشّاشاتٌ وبنادقُ بعددِ شعرات رأسي، لكنْ لم تنجح أيٌّ منها في تدشينِ نزفٍ حقيقيٍّ يحسمُ لعبتي مع الحياةِ بالضربة القاضيةِ. كنتُ في تلك الأيّام الطوالِ في العراق، أقودُ عمليّاتٍ ضدَّ الجيش الأميركيّ؛ ضدَّ الأكراد، بحسب التعليمات.

أتقشَّفُ كثيرًا في استخدام الرصاص، وأعودُ كلَّ يومين أو ثلاثةِ أيّامٍ برقمٍ جديد.

نهايات 2012، بدأ يتفشّى بين المجاهدين حديثُ «الدولة الإسلاميَّة». كانتْ ألسنةُ المجاهدين البسطاء تطيرُ بالخبر، وتوزِّعهُ على الآذان إشاعةً تحتملُ الكذب. يتحدَّثون عن الأمر بوَجَلٍ مخافةَ الزجرِ الذي قد ينالهم من رؤسائهم. تعرفُ النظامَ، وتعرفُ أنَّ انتشارَ الإشاعات، إذا انتهى إلى «الأخ الكبير»، فلا بدَّ من أن يطيحَ الرئيسَ والمرؤوسَ، على حدٍّ سواء. لكنَّ الخبرَ كذلك، كانَ يدورُ بحماسة كبيرة، فالحمقى والمُغرَّرُ بهم، القادمون من كلِّ فجٍّ عميق، جاؤوا متأبِّطينَ أحلامًا مثاليَّة، وأفكارًا مغلوطةً وأحيانًا ساذجة.

كانَ واضحًا، على الرَّغم من أنَّني كنتُ منصرفًا عن تلك القريةِ إلى الحروب الصغيرة، أنَّ عددَ المجاهدينَ في تزايد مستمرٌّ. معَ مرور الأيّام، لم يَعدْ هناكَ تحفُّظٌ عن الحديث عن «الدولة الإسلاميَّة». كان كلّ واحد محمومًا بهذه الكلمة، كأنَّها مفتاحٌ سحريّ سيفتحُ لنا أركان العالم. سارَ بالموازاة مع تلك الشائعات حديثٌ عن طلاقٍ حبِّيّ بين «القاعدة» في العراق و«القاعدة» الأمّ، قبلَ أن تنطلقَ ألسنةُ شيوخ الدين بإيعاز من «الأخ الكبير» وبقيَّة القادة، تسكبُ على المجاهدين الهاربينَ من بؤس بلدانهم الفتاوى والمحاضراتِ التي تعلن بينهم، بتلك النبرة الجادَّة والقاسية، النيَّةَ في إقامة «الدولة الإسلاميَّة»...

كانَ الحديثُ عن العراقِ، لكن عينَ «الأخ الكبير» كانتْ على الشام. يُسِرُّ إليَّ في لحظاتِ صفائهِ، أنَّهُ لطالما تمنّى أن يعودَ إلى بلاده غازيًا. هو يعرفُ عدوَّه ـ يقولُ ـ والذينَ قتلوا والدَهُ في ذلك الزمنِ الغابر لم يغيبوا يومًا عن عينه، وإن أتيحَ له ـ يضيف ـ أن يجرَّ بساط

السواد إلى سوريا فلن يتردَّد... وهذا ما حدثَ فيما بعد، يا وليد. هذا ما حدثَ.

لم أكنْ معنيًّا بذلك الضجيج الذي لا ينفكُّ يتفاقم. كانَ القادةُ يريدونَ السُّلطة والمال، وكانَ البسطاء الذين جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميق يريدونَ «حُسْنَ الخاتمة»، ويحلمونَ بالحُوْر العين وكلِّ تلك الأشياء الشفّافة الوديعة. القادةُ عشّاقُ الدنيا، والجنودُ، وقودُ الحربِ، حالمون بالآخرة، وأنا الوحيدُ الذي لم يكن يعرفُ ما يريد... شامةُ كانتْ كلَّ ما أريدُ. حينَ أرقدتُها في سرير المنتهى بإحدى عشرة طعنة، صرتُ مثلَ حجرٍ دُفعَ إلى الهاوية، لا أملكُ أن أريدَ... مدفوعٌ أنا بالخيباتِ المتتالية، في تلك الهاويةِ التي قد أستقرُّ هذا اليومَ في قرارِها مضرَّجًا بعمرٍ من النزف المتواصل.

فكَّرتُ في الرحيل... ولاسيَّما حينَ رفرفَ السواد. لم أكن معنيًّا كثيرًا بتلك الحروب التي يتحدَّثُ عنها «الأخُ الكبير» بحماسة تتضخَّمُ لها أوداجُه. فكَّرتُ في الرحيل، حينَ أحسستُ بأنَّ القتلَ أضحى عبثيًّا. طرحتُ الفكرة على «الأخ الكبير» فتمسَّكَ بصداقتي... وأقسمَ ألّا يفارقني ولو اضطرَّ إلى التنازل عن أحلامه جميعها. فكَّرتُ في الرحيل، لكنَّني لم أكن أعرفُ ما أريدُ من الحياة. اقترفتُ أفعالًا شنيعة. لا يمكنُ أن أعودَ إلى بلدي، لأنَّ دمًا كثيرًا لا يزالُ يطلبُني للعدالة. ولا يمكن أن أسيرَ إلى أيِّ بقعة في الأرض من دون أن أحملَ الخوف مرَّةً أخرى، لأنَّني لا أجدُ في حوزتي أوراقًا ثبوتيَّة. وجودي قرب «الأخ الكبير» يمنحني، إلى جانب تلك الامتيازات التي لا حصر لها، الأمانَ.

لم أَبْرَأْ من وجعِ ليلى، يا وليد. كنتُ أتفقَّد قبرها تحتَ شجرة

التوتِ الكبيرة، كلَّما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا: أسقيه بدموعي ومياه المعبد المقدَّسة، وأنثرُ الوردَ فوقه، ثم أهربُ حينَ أحسُّ بأنَّ قدمَيَّ ستبلعُهما رمالُ الذاكرة المتحرِّكة. حياتي، بمعنى من المعاني، توقَّفتْ في ذلك اليوم الكئيب الذي قتلتُ فيه إيلان، أخا ليلى/رَوَند، وقُتِلَتْ هي برصاصةِ الصدفة القاتلة. منذ ذلك اليوم، أُصيبتْ حياتي بشللٍ فادحٍ. صحيحٌ أنّني آكلُ وأسكرُ وأمشي في الأسواق، لكنَّ الحياةَ ما عادتْ كما كانتْ. أصبحتُ كمن يمثّلُ مرغَمًا دورًا في مسرحيَّةٍ لم يقرأ نصَّها كاملًا!

تدفَّقتْ على التنظيمِ بعد فتوى «جهاد النكاح» الشهيرة نساءٌ شبقاتٌ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، يحاولنَ بفُروجهنَّ إيجادَ مكانٍ لهنَّ في تلكَ القوائم المُعَدَّة لدخولِ الجنَّة. فتوى انتزعتْ منِّي في زمنِ الأسى ضحكةً حقيقيَّة، بعدَ أن صارَ فرجُ المرأة ـ وربَّما شرجُها ـ أحدَ أبواب الجنَّة. كانَ القادةُ ـ وعلى رأسهم «الأخُ الكبير» ـ يعرفُون أنَّ كثيرًا من المجاهدينَ ستجرُّهم إلى التنظيمِ آلاتُهم، التي لا تجد في بلدان الخشبِ والكبتِ غيرَ الاستمناءِ لتطفئ فائضَ الشهوة!

«الأخ الكبيرُ» وغيرُه من الزعماء كانوا واقعيّين، يعرفونَ جيِّدًا من أينَ تُؤكَل «كتفُ» الأغبياءِ الحالمينَ بتلبيةِ شهواتِ الدنيا، من دون خسارة الآخرة.

بعيدًا عن بالوعاتِ الصرف الجنسيّ العموميَّة التي دشَّنها التنظيمُ للخدمات الجنسيَّة، كانَ «الأخ الكبيرُ» يضعُ تحتَ تصرُّفي أجملَ المجاهدات. منهنَّ، إضافةً إلى العربيّات، شقراواتٌ جميلاتٌ، وحده الشيطانُ يعلمُ أيّ حِيَلٍ استدرجتهُنَّ إلى التنظيم! مذهلات القوام،

فارعاتُ القدّ ومتأنّقاتُ الملبسِ، رائقاتُ الروائحِ كأنّهنَّ خرجنَ للتوِّ من مسبحِ عِطْرٍ. كاملاتُ الحسنِ والأناقةِ كأنّهنَّ سيُلاقينَ ربّهنَّ! كنَّ يحرِّكنَ داخلي شهقةً أكتُمها احترامًا لليلى، فقد كنتُ أواصلُ ـ غيرَ عابئ ـ هبوطي النفسيّ، لكنَّ تلك الرغبةَ الآثمة التي تشعلها خادماتُ الربّ كانتْ تبطئ سقوطي في مزالق السواد. كنتُ أرى ـ وإن كان الأمرُ غير منطقيّ بالمرّة ـ أنّني أخونُها، فأسارعُ إلى طردهنَّ بصفاقة، فيُسارعنَ إلى «الأخ الكبير» لتقديمِ شكاوى بهذا الأشقرِ، الذي لا يساعدهنَّ على إتمام مهامهنَّ، ولا يقدِّر تضحياتهنَّ.

الحقيقةُ، أنَّ أمرَ خيانة ليلى ليسَ وحدَهُ ما كانَ يقفُ بيني وبينهنَّ. كنتُ في قرارة نفسي أحتقر ابتخاسهنَّ العلاقاتِ الإنسانيَّةَ. ومثلما كنتُ أربأ بنفسي عن اغتصاب السبايا، كنتُ أعتقدُ أنَّ أمرَ هؤلاء المجاهدات يدخلُ في باب الاغتصاب، لأنَّهُ تمَّ التغريرُ بهنَّ. بأنوثتهنَّ اشترينَ صكوكًا مزيَّفةً لجنَّة أكثرَ زيفًا!

علَّمتني العاهراتُ اللواتي افترشتُ أجسادَهُنَّ وسِيَرَهنَّ في دروب الحياة، أنَّ العاهرة تُعطي روحها لواحدٍ، وتتركُ الآخرينَ يجذِّفونَ فوقَ جُثّتها، ينطفئون ويشتعلونَ كمصباحٍ مضطربٍ في مستشفى مهجور، من دون أن توصلهم تلك الجثّةُ إلى حالٍ أفضلَ من تلك التي كانوا سيُدركونها بقَبضاتِ أيديهم!

تغيَّرتْ أمورٌ كثيرة؛ تغيَّرتْ الدنيا من حولي، وأنا كوتدٍ مضروبٍ في هذه الأرضِ المجدبة، تنمو الأزهارُ حوله وتذبلُ؛ تغمرُه الرمالُ وتكنسُها الرياحُ؛ يغمرُه المطر، وهو ثابتٌ، ثابت... تغيَّرتْ أحوالُ «الأخ الكبير» أكثرَ ممّا يجب. تدفَّقَ عليه الجُندُ والمالُ، وعقدَ صفقات سرِّيَّةً مع أباطرة السلاحِ في المنطقة، وجاءهُ ذاتَ يومٍ الخبرُ السعيد،

حَمَلهُ كبساطِ الريح ورفرفَ به مطاوِلًا عنانَ السماء. جاءَهُ أخيرًا الأمرُ بالتحرُّكِ إلى سوريا!

نهبَ منهُ الخبرُ بوصلةَ إيمانه، فالتجأ إلى خمّارتي، وقد استيقظَ داخلهُ ثأرُه المنسيُّ. كلُّ كأسٍ يعقبُها وَعيدُ امرئ القيس: «اليومَ خمرٌ وغدًا أمرٌ». وجاءَ غدُهُ الموعود. تبرقعَ «الأخُ الكبيرُ» في بزَّته السوداء وسيَّرَ عرباتِه وآلاته إلى سوريا. كنتُ أنتظرُ أن تستوقِفنا الحربُ قبلَ أن نصلَ إلى الشام. لا بدَّ من أن الأميركيّينَ على علمٍ بهذا الجيش الذي يسيرُ مكشوفًا. حينَ أطلقتُ العنان لهواجسي على مسمعٍ من «الأخِ الكبيرِ»، ندَّتْ عن شفتيهِ ابتسامةٌ هازئةٌ قائلًا: «كلُّ شيءٍ مرتَّبٌ بمهارة!» ولم أتمادَ في السؤال. كنتُ أعلم بأنَّهُ يضمرُ أمرًا ما مهمًّا.

ـ تُراكَ صدّقتَ خرافةَ «الدولة الإسلاميَّة» التي تلهجُ بها الألسنة؟

سألتُ مشاكسًا أحلامه، فردّ بحنقٍ ظاهر:

ـ حتى وإن لم أفعل. في الأخير، هذه الخرافةُ لم تنزل من الفضاء. هذا ما درسناهُ في مدارسنا، من المحيطِ إلى الخليجِ، وبمباركة الأنظمة العربيَّة نفسها. ما يحملُ هؤلاء الشباب على تركِ أوطانهم، والركضِ خلف سراب «الدولة الإسلاميَّة»، هو فِصامُ الأنظمة العربيَّة. أمّا أنا، فلا أملكُ أن أصدِّقَ شيئًا. أنا طالبُ ثأر!

اقتحمَ «الأخُ الكبير»، بتجربتِه الحربيَّة الحافلة وكاريزماه، هذه الحربَ... الذينَ اقترحوا اسمَهُ يعرفونَ أيّ طينةٍ من الرجالِ هو. يعرفونَ جنونَ العظمة الذي يتملَّكهُ. يعرفونَ حنكته الحربيَّة. وأكثر من ذلك، يعرفونَ القصَّةَ كاملةً: يعرفونَ أنَّ في هذا الرجل المسكون بملاحمه الغابرة لوثةً جاهليَّة، وأنَّ ما بينَه وبينَ سوريا ثأرًا قديمًا!

لم أكن راضيًا عن كلِّ تلك البشاعات، لكنَّني كذلك لم أكنْ هناك. كنتُ لا أزالُ قابعًا في الدركِ الأسفلِ من الخيبةِ. أرى الناسَ من حولي ولا أراهم. كانَتْ مرحلةُ ما بعد ليلى غيبوبةً نفسيَّةً مريرة، لا تقلُّ عن الغيبوبةِ التي علقتُ في شَرَكها بعدَ أن قتلتُ شامة. أتدري ماذا كان يلزَمُ كي أفيق؟ الموت.

لم أكنْ راضيًا عن ذلك القتلِ المجّانيّ. كنتُ أعتقدُ أنَّ القتلَ، حتى وإن كانَ ضروريًّا، فيجدرُ ألّا يأخذَ ذلك البعدَ الإعلاميّ، وأن يكونَ على نحوٍ لائق بدلًا من أن يكونَ قتلًا تمثيليًّا لا غير. كنتُ أكاشفُ «الأخ الكبير» بهذه الأمور، وأطنبُ في الحديثِ عنها، وكانَ يشاطرني الرأي في كثيرٍ من الأفكار، لكنَّ أوامره تكون مناقضةً لتفكيره. لم أكنْ راضيًا، لكنَّني كذلك لم أكنْ أحفل بما يجري من حولي. كنتُ هناكَ في تلك الأرض المنقوعة بالخطيئة، ولم أكنْ. بيني وبينَ واقعي ما يُقاسُ بالسنوات الضوئيَّةِ. . . كنتُ بين رجالِ «الأخ الكبيرِ» ذئبًا وحيدًا.

بعد ليلى، ارتطمتْ سفني بتلك المرأة اللُّغز. حسنًا، لم تكنْ ذاتَ قيمة. مزيَّتها الوحيدةُ أنَّها كسرتْ صيامي عن النساءِ. كانتْ استثناءً جعل دخول خصلةٍ من شعرِ رأسها إلى حقيبتي مستحَقًّا!

خُصلة أخيرة

طلعَ النهار...

لم تدفعِ الشمسُ بعدُ بحبال النور لتختبرَ هشاشتنا، لكنَّها بهذا الغبشِ تعلن اقتراب ذلك. طلعَ النهارُ، و«الأخُ الكبير» لا يزالُ يمعنُ في خرابِ عينِ العرب... طلعَ النهارُ أخيرًا، متلَصِّصًا على عورة الليلِ، فاضحًا كلَّ الجنونِ الغائم الذي سرقَ ليلَ هذه المدينة، بعدَ أن أذعنتْ وأحنتْ ظهرها لكلِّ الغزاة. بطنها المتيبِّسُ يدفعُ إليه عشراتِ الرجالِ، قبل أن يتقيَّأهم أشلاء ممزَّقة وبقيَّةَ حيواتٍ لا تصلحُ للحياة.

جالسان، أنا وهوَ، على أريكتينِ في غرفةٍ، وحدها الصدفة تسندُ وقفتها في هذه المدينةِ الخراب. خسف القصفُ السلالمَ التي تُعيدنا إلى الأرض، وسرقتْ شظيَّةٌ جدارًا كاملًا من هذه الغرفة. عينُ العربِ بوّابةُ الآخرة، والنهارُ الجديدُ يعرّي هذه المدينة المنهَكة والنازفة. نهبت الحربُ كلَّ جميلٍ فيها، وأثَّثتْ بشاعتَها الجديدة بمنازلَ دُكَّتْ، وجثث أموات، وأموات/ أحياء يقاومُونَ الموت بعنادٍ فاتر.

تقمَّصنا، أنا والأشقرُ، إحدى صفاتِ الربِّ: أن نرى الأشياءَ من علٍ، ولا نُرى!

كانت اللوحةُ التي دشَّنتْها الشظيَّةُ ـ بعد أن خسفت الجدار ـ أبلغَ من أن تعبِّر عنها الكلماتُ! لكنْ، لم تكنْ وحدها الجديرة بالتأمُّل. كانتْ تجلسُ إلى جواري لوحةٌ لا تقلُّ بلاغةً: الأشقر.

عرَّى النهارُ أخيرًا تعبَه العتيد، وفضحَ كلَّ أوجاعه. تأمَّلتُه بعدَ أن أطبقَ جفنيهِ، وهمَّ بالحديثِ عن آخر خُصلةِ شعرٍ دخلتْ حقيبته بعدَ ليلاه. كانَ الأشقرُ ميِّتًا مع وقف التنفيذ، هذا ما قالهُ النهار بعد أن فضح وجعهُ. الجرحُ في ساقهِ لم يلتئم. ما زال مفتوحًا ينزُّ بخيطٍ من الدمِ والقيحِ. جسدهُ يتصبَّبُ عرقًا... أمّا وجههُ، فقد بدا شاحبًا شحوبَ من ابتلعَ الموتُ كلَّ جسده، ولم يُبقِ له إلَّا وجهًا يطلُّ به على الدنيا، وصُبابةَ روح.

بين أنفه وذقنه خيطا دمٍ متيبِّسانِ. عيناهُ تختفيانِ خلفَ شعره الأشقر الذي تهدَّل على نصف وجهه، وجسده العاري المفتولُ العضلاتِ ما زال يُبدي أمام الموتِ شموخًا مزيَّفًا ويقفُ في صفِّ الحياةِ مكابرةً. كنتُ أقرأ في صمتهِ، في تنهُّداته، في زفيره المحموم، أنَّ أعماقهُ تتأكَّلُ بسرعة، وأنَّه قد وقَّعَ عقدهُ معَ الموتِ، واحتفظَ لنفسهِ بهدنةِ ساعات لتصفيةِ حساباتهِ مع الذاكرة. كان واضحًا أنَّ الأشقر، الأشقرَ الكبيرَ كصقرٍ في السماءِ، قد نجحَ في إقناع الموت بأن يمهلهُ فرصةَ تحليق أخيرة...

في جوفه تنامُ آخرُ حكاياهُ، لكنَّها استعصتْ عليه، ورفضتْ أن تكونَ طوعَ بوحه... هل لأنَّ النهايةَ، نهايتَهُ، قد دنتْ وخانَهُ الجَهد،

أم أنَّ في القصَّة سلسلةَ ألغامٍ أحرقتْ قلبه المتعب؟ رمتني عينُهُ شزرًا، وأنا ساهمٌ أتلصَّصُ على الوشومِ التي تؤنِّثُ جسده. تاهَ بي ارتباكي أمامَ مدِّ أزرق عينيه. نظراتٌ مواربةُ الاتِّهام، عصيَّةٌ على الفهم، أمامها وجدتُ نفسي كتابًا عاريًا... أرهقتني نظرتُهُ، فأشحتُ بوجهي عنه إلى اللوحةِ الكبيرةِ خارجًا، ونهض في أعماقي خوفٌ من الأشقرِ بيبرس. كانَ في عينيهِ مدٌّ غاضبٌ، مبطَّنٌ بفيضٍ من الغموض. أربكني الخوفُ طويلًا. كنتُ أفتعلُ الهدوء وأُمعنُ في تأمُّلِ عين العربِ المطفَأة.

هذا الرجلُ الذي أخرجَ من أعماقهِ كلَّ العُلَبِ السرِّيَّةِ، وألقى على مسمعي كلَّ هبلهِ دفعةً واحدة، لا بدَّ، إن أحسَّ بقليلٍ من الندمِ، من أن يُعدِمِ القصَّةَ في قلبي برصاصةٍ أو رصاصتين... الأشقر واحدٌ من المجانين القلائل، الذين تعنيهم حكاياتُهم وحماقاتها أكثر ممّا تعنيهم حيواتهم!

نهضَ الخوفُ في أعماقي عسيرًا. تسلَّق نياطَ القلبِ، وحرَّضَه على أن يَقرعَ بصخبٍ طبوله ويرقصَ رقصة الآدرينالين. لم أهدأ إلَّا بعدَ أن زفرَ الأشقرُ زفرةً حرَّى، قائلًا بلسانٍ يذرفُ الكلام:

«كانتْ صاحبةُ خُصلةِ الشعرِ الأخيرة كائنًا لغويًّا يطيرُ على ارتفاعاتٍ شاهقة. محمومةً كانتْ بالثقافةِ والكتاب. حينَ انتهتْ إليَّ، كانتْ أرصدَتُها من الحياةِ قد أفلستْ، لكنْ في قلبها، في أعماقها، كانتْ تحملُ كائنًا من استعاراتٍ ومجاز، وأعماقًا من زجاج. كانت توأمَ جرحي؛ أختَ أحزاني؛ قرينةَ يأسي الكبير. كنّا ـ أنا وهيَ ـ طائرتين من ورقٍ في يدَيْ قدرٍ مدلَّل، رفعهما إلى السماءِ قبل أن يضعَ لهما مشروعَ صِدامٍ فجائيٍّ، ويتركهما تسقطانِ من يديهِ منكوبتين بفرحة هذا اللقاء القاتل.

كانتْ تتقمَّصُ وجعي، لكنَّها تعرفُ كيفَ تقولهُ أبلغَ منّي. منقوعةٌ حياتُها مثلي بلعنة الحبِّ الأوَّل، والذبحة الأولى. نختلفُ أنا وهي في أنَّني غادرتُ حبّي الأوَّلَ مضرَّجًا بدمهِ، بينما غادرها حبُّها الأوَّلُ وهي مضرَّجةٌ بدمٍ من مجاز... تُوحِّدُنا كلُّ خيباتِ الذاكرة؛ يوحِّدُنا أنا وهي الحبُّ حينَ يُفسدُ حياةَ صاحبه منذ البداية، فينفق العمر، كلَّ العمرِ، وهو يتكوَّرُ في حياةٍ يشعرُ دائمًا بأنَّها ناقصة!

لم أكن آبهُ كثيرًا باستقبالِ عرباتِ الغنائم القادمة من المناطق الساخنة، يعودُ بها جنود التنظيم فرحينَ بما فيها، فلا تكادُ أقدامهم تقعُ في المعسكر حتى يتمشّوْا بزهوٍ مُلتمسينَ أن يأتيَ «الأخُ الكبيرُ» في أقربِ وقتٍ، ليَبارِكَ كفاءتهم بكلماتٍ يحملونها كأوسمة، ويتباهون بها أمام غيرهم.

لم أكن أحفلُ كثيرًا، لا بهم ولا بما يحضِّرون من حروب العبث. كنتُ لا أزالُ أعلنُ الحِدادَ على روح ليلى، وعلى كلِّ المآسي التي عبرتني قبلها. لكنْ يومها، كنتُ أسيرُ بمشيئةِ الغيبِ صوبها. خرجَ «الأخُ الكبيرُ» فجرَ ذلك اليومِ منفردًا إلى العراق (كانَ هذا بعدَ شهورٍ من اقتحامه سوريا وبسطِ نفوذه على ثلثِ أراضيها). أوعزَ إليَّ بأن أقومَ مقامه في استقبال الجنود القادمينَ من الحروبِ، وإحصاءِ الغنائم التي عادوا بها وحجزها إلى حين عودتهِ. أخذتُ مساءَ ذلك اليوم لوائحَ «الأخ الكبير» من فوق مكتبهِ، لأُدوِّنَ فيها الغنائمَ التي عادَ بها الجنود؛ الجنودُ الذين ما إن طلعتُ عليهم وهم مصطفُّون على مقربةٍ من العربات المتهالكة ـ التي تذرعُ في العادةِ الطرقاتِ الوعرةَ وغير المأهولة ـ حتى قرأتُ في الغيمةِ التي تنزَّلتْ على وجوههم أماراتِ الخيبة، بعدَ أن تقصَّفتْ آمالهم في أن يحظوا من «الأخ الكبير» بنظرةٍ

رضى أو كلمة عرفانٍ. . .

الحياةُ لم تفتعل كلَّ تلك الصُّدَف إلَّا لتستدرجني إلى تلك العربةِ.

كانَتْ أصواتهنَّ نشازًا مزعجًا، وقد رأيتُ، بعد ثلاثِ عرباتٍ، أن أسيرَ إلى تلك العربةِ، وأُخرجَ من علبةِ حديدها النسوةَ اللواتي كانَ نواحهنَّ مصدرَ إزعاجٍ بالغًا. ما إن حرَّكتِ الأيادي أبوابَ العربة الخلفيَّة حتى التزمنَ الصمتَ، وتفشَّى في المكانِ هدوءٌ ملغوم. كانتِ العيونُ، كلُّ عيونِ الجندِ، مصوَّبةً صوب العربة. كلُّ واحدٍ تعتركُ في دواخله رغباتُ في أن يظفرَ من الوليمةِ بنصيبٍ؛ سبيَّة تعالجُ جوعهُ إلى النساء، وتحرِّكُ فيهِ ما تعجزُ نساءُ المناكحةِ عن تحريكه.

الحربُ تُخمدُ الشهوةَ في المحارب، ولا يُشعلُها إلَّا أخذُ النساءِ اغتصابًا، لذلك تجدُ جنودَ الربِّ المزعومينَ يُفضِّلونَ سبيَّةً يركبونها اغتصابًا، ويهرقونَ على جسدها الخائف ماءَهم وساديَّتهم، على تلك التي تقدِّمُ إليهم مدينتها طوعًا. تخونهم مفاتيحهم لأنَّهم لم يألفوا دخول المدنِ في سلام!

خرجنَ من العربةِ الواحدةُ تلوَ الأخرى، يتقدَّمنَ صوبَ طاولتي في صفٍّ منتظمٍ. كنَّ بين المراهقةِ وسنِّ الأربعين، أسجِّلُ أسماءهنَّ وآخذُ بصماتهنَّ، وآذنُ لهنَّ بمواصلةِ السير صوبَ زنازينَ مخصَّصةٍ لإيوائهنَّ، قبلَ أن يتمَّ توزيعهنَّ. كانتْ وجوهُهنَّ مذعورةً، والدموعُ لا تنفكُّ تسيلُ من أعيُنهنَّ المتورِّمةِ من فرطِ البكاء. أمّا حينَ يُرسلنَ إلى الكُرّاسة أصابعَهنَّ لوضعِ البصمةِ، فإنَّ أصابعَهنَّ تبلغُ من الارتجافِ حدًّا يدفعُكَ إلى الاعتقادِ أنَّها ستنكسرُ في أيِّ لحظة. . . وحينَ تسألهنَّ، فإنَّ أصواتهنَّ تقترفُ أفدحَ الخياناتِ إذ تتخلَّى عنهنَّ، فلا يكونُ جوابهنَّ إلَّا

سلسلةَ حروفٍ مفكَّكةٍ، أملأ فراغاتها كيفما اتَّفق!

لكنَّها لم تكنْ مثلهنَّ.

كانتْ تتذيَّل صَفَّهنَّ، لكنَّها لم تكنْ مثلَهنَّ. وقفتْ أمامي كنخلةٍ فارعةٍ، ضربتْ في خاصرة الصحراء جذورها منذ ملايينِ السنين. أبحرتُ في عينيها اللوزيَّتينِ. تأمَّلتُ وجهها الجميلَ. فتَّشتُ فيه طويلًا عن دليلٍ يُثبتُ أنَّها تنتمي إلى النساءِ اللواتي عبرنَ قبلها. واضحٌ أنَّها لم تُنفق في الجنازة الاستباقيَّة دمعةً واحدةً. كانَ يقفُ بها على مقربةٍ منِّي حِدادٌ متواضعٌ لا يُنقص من أنفتها. حينَ سألتُها عن اسمها ردَّتْ بمكرٍ لغويٍّ:

ـ لا تسألْ بناتِ اليأسِ عن أسمائهنّ. ما يريده المغتصبُ يقعُ خارجَ نطاق هذا السؤال.

تمعَّرَ وجه المجاهد الذي كانَ يجلسُ إلى جواري، وكادَ يعالجُ وقاحتها برشّاشه، لولا أنَّني استوقفتُه ثم صرفتُه بأدبٍ. راقتني عنجهيَّتُها وتجرُّؤها على الموت، فواصلتُ أسئلتي مفتعلًا نوعًا من اللامبالاة:

ـ كم مضى من عمرك؟

ـ أنا ميّتةٌ مع وقفِ التنفيذ... فأَكْمِلْ موتي برصاصةٍ حاسمة... بدلًا من هذه الأسئلة السمجة!

ـ مستعدَّةٌ للموتِ؟

ـ بقدرِ استعداد جنودكَ لاغتصابي!

ـ ما اسمك؟

ـ سمِّني ما شئت...

أطرقتُ أفكِّرُ مستسلمًا لهبلها، قبلَ أن أجيبها مستحضرًا عوالمَ رواية «الأبله» التي كنتُ في صدد قراءتها في تلك الأيّام:

ـ ناستاسيا فيليبوفنا؟!

ـ تنقصكَ بلاهةُ الأمير ميشكين.

وقعتْ في نفسي إجاباتُها الذكيَّةُ موقعًا حسنًا. أحسستُ لحظتَها، وأنا أتأمَّلُ وداعةً تنزَّلتْ على وجهها فجأةً، بأنَّها تقربُ لي بقرابةٍ غامضةٍ. سرقتُ من سبّابتها بصمةً وتركتُها تمضي، ثم حملتُها ما تبقَّى من ذلك اليومِ في ذهني فكرةً عصيَّةً، لا أكادُ أنسى مناورتها الأدبيَّة حتى أتذكَّرها. أعجبني تعنُّتها؛ لهفتُها إلى الموتِ وثقافتُها. كانت تتقمَّصُ شخصيَّة «ناستاسيا» في روايةِ «الأبله» لدوستويفسكي، لكنَّني كنتُ أميرًا بلا بلاهة.. هكذا أربكتْ حبكة القصَّةِ كاملة، وأنهتْ جولتَها معي على انتصار.

حينَ عادَ «الأخ الكبير»، حدَّثتُهُ عن رعونتها، فانفلقتْ شفتاهُ عن ابتسامةٍ ملغزةٍ، قبل أن يقولَ بصوتٍ صارمٍ:

ـ «هي منذورةٌ للموتِ... لكَ أن تلهوَ بها المدَّةَ التي تشاء، لكن شريطةَ أن تُعيدها إلىَ موتها في الوقت المناسب. هي طرفٌ في تصفيةِ بعض الحسابات».

فهمتُ كلامهُ، ووعدتُه بأن ألتزمَ بقواعد اللعبةِ، وأن أُعيدَ إليه دُميتَهُ متى أرادها. كنّا معًا نعلمُ بأنَّني إن حدثَ وتمسَّكتُ بها، فإنَّهُ لن يقدرَ، في أيِّ حال، على أن يَحرمني إيّاها...

ودفعَتْها إلى غرفة نومي مجاهداتُ النكاحِ، اللواتي أعددنَ زينتها بإتقانٍ، فقدْ كنَّ يعرفنَ مكانتي لدى «الأخ الكبير»، وكنَّ يعتقدنَ،

بسببِ صيامي عن أجسادهنَّ، أنَّني أشكو من عجزٍ، لذلك كنَّ حريصاتٍ على تقديمها في صورةٍ تحرِّكُ الباهَ مهما تحجَّر. الحقّ، أنَّني أُصبتُ بالذهول أوّلَ ما وقعتْ عيني عليها. صحيحٌ أنَّني التفتُّ منذُ اللقاء الأوَّل إلى حُسنها، لكنَّني ما اعتقدتُ أنَّ عربةَ الشؤمِ قد أسقطتْ منه الكثير!

كانتْ طازجةً، كاملةَ الأنوثةِ، لكنَّني لم أكنْ مؤهَّلًا نفسيًّا لمضاجعتها، وإن كنتُ أرغبُ في ذلك حقًّا. جئتُ بها لأنَّها كانتْ كائنًا لغويًّا أنيقَ الكلام. وبين اللقاءين كانت تسبحُ في الذهن فكرةٌ؛ فكرة أدبيَّة كأنَّها امرأةٌ من ورقٍ. حينَ رأيتُها على مأدبة السرير شهيَّةً حرَّضتْ عطشي عليَّ، لكنَّ حياتي الأولى علَّمتني كيفَ أُديرُ جسدي كما أشتهي، لا كما يشتهي!

جلستُ على حافَّةِ السرير أتأمَّلُ حزنها المكابر. هدهدتُ خوفها بكلمات أُطمئنها بها، إلى أنَّني لا أنوي اغتصابها، وأنَّ أقصى ما يرجوهُ معطوبٌ مثلي بالذاكرة أن أحظى بأُنسِها لا غير. تهلّلتْ أساريرُها. وحينَ ناولتُها كأسَ الكونياك تمسَّكتْ بها مثلما يتمسَّكُ مقاتلٌ بفتاةٍ بعد توزيع السبايا. كانتْ ممتنَّة لي امتناني للقَدَرِ الذي وضعَ في باب نهايتي زجاجاتِ النبيذ. . .

ما حدثَ بعدَ ذلك هو كلُّ ما لم يكنْ متوقَّعًا يا وليد. كنتُ أُعِدُّ نفسي لحربٍ كلاميَّةٍ شاهقةِ العلوِّ طاعنةٍ في اللغة، فإذا هي زجاجةُ الكونياكِ تحقنُ الدماء، وإذا بنا على بياضِ الوجع نوقِّعُ معاهدةَ سلامٍ من دون أن نتنازلَ عن الأدب. كنّا أنا وهي صوتينِ، كانَ يُفترَضُ حين اصطدامهما أن يُصدرا ضجيجًا، فإذا بهما يتعانقان في أروع لحن.

كنتُ، منذ وقعتْ عيناي عليها، أشعرُ بأنَّها تمتّ إليَّ بصلة، واكتشفتُ في تلك الليلة والليالي التي تلتها أنَّنا أَخوانِ بالرضاعةِ، أرضعنا القَدَرُ اليأسَ نفسه. يبلغُ القَدَرُ حدَّ الخبث، ويكونُ فرحكَ بحجم الفجيعةِ حينَ يضعُ الربُّ في طريقكَ من يتلو عليكَ كلَّ مآسيكَ على نحوِ أبلغَ منك.

كانت الحلقةَ الوحيدةَ المفقودةَ في حياتي. عرفتُ نساءً كثيرات، لكنْ لم يحدثْ أن التقيتُ سيّدةَ الكلام، تلك التي تحترفُ البلاغة والغرابةَ في آن، وتفهمُ حديثي عن تلك الكائنات الهشَّة التي تعشّشُ بينَ الكتب؛ تفهمُ وجعي من دون أن أنكأ جرحي بالبوحِ. أكَّدتْ منذُ تفشَّى الكونياكُ بيننا، أنَّها تشتهي الموتَ ولا تعبأ كثيرًا بالحياة. كانَ حديثَ مؤمنة بأنَّ أفضلَ صفقةٍ يمكنُ أن تعقدها معي هي أن أهبها موتًا شريفًا. يا لعدميَّتها، يا وليد! سكبتْ في حضرتي مأساتها بعدَ أن تغلغلت الخمرُ بعيدًا في روحها، وغمرتْ تصدُّعاتها...

قالتْ، يا وليد.. آه يا وليد لو فقط تعلم... تحرَّكتْ مديَتُها في جرحها المفتوحِ مثلي أبدًا. كانَ اسمُه زيادًا! وحبُّه كانَ أوَّل حقيقةٍ يدركُها عقلُها الصغير. فتحتْ عينيها عليهِ، فلم تكن تملك إلَّا أن تتشبَّثَ به، ولا ترى في الدنيا سواه. مثلي، دفعتْ حياتها مَهرًا لحبٍّ من طرفٍ واحد؛ حبٌّ تبرعمَ في أحشائها في الوقتِ الخطأ. بدلًا من أن تفكِّر، على غرار صويحباتها، في الدمى ولُعَب الأطفال، ربَّتْ في أعماقها حبًّا يكبُرها. سقتْ بدمعها، بآمالها وآلامها، تلك الأحاسيسَ العذبةَ التي لا تليقُ بطفلةٍ، فإذا هي تتشجَّرُ داخلها...

براعمُ الحبِّ التي سقتْها أمس تشجَّرتْ، واستحالتْ أدغالًا تأكلُ ما دونها من أحاسيس. ربَّتْ في أعماقها كثافةَ حبٍّ غامضةً؛ غابةً

ستحترقُ فيما بعد بحطبها... قالتْ ليلتها بحزن فادح:

ـ فتحتُ عينيَّ أوَّلَ ما فتحتُهما على حبّ زياد. حملتُه في قلبي، ونحنُ نكبرُ رويدًا رويدًا. هل أحببتُه؟ يبدو الكلام عصيًّا حينَ أحاول أن أهدهدَ به العواطفَ الكسولة في القلب، وتضيقُ بي الكلمات. أحبُّه!! هذه الكلمة أشبهُ بحذاء اهترأ من فرطِ ما تناوبتْ عليهِ أقدامٌ بمختلفِ الأحجام. كم تبدو الكلمة ضيِّقةً حقًّا أمامَ عنفوانِ ما كنتُ أحسُّ به!

اشتبكتْ أغصانُ حبّهِ الوارفِ بتلافيف قلبِها منذ البدايات. أحبَّتهُ طفلةً، والإنسانُ حينَ يعشَقُ طفلًا، فإنَّ ذلك يعني أنَّهُ يحفرُ بإزميلِ أيّامهِ منجمًا في عمقِ الذاكرة. يسرقُ الحبُّ منها ثروةً ما كانَ يعرفُ قيمتها، وينخرُ ذاكرتهُ من الداخل حتى تصبحَ، كعجلِ السامريّ، آلهةً مزيَّفةً لا بدَّ من أنَّهُ سينفقُ العمرَ كلَّهُ في عبادتها.

كانتْ مثلي معطوبةً بحبٍّ أربكَ طفولتها. مثلي، استهلَّتْ لعبتها مع الحياة وفي قلبها قنبلةٌ موقوتةٌ؛ مغناطيسٌ لا سلطان لها عليه، كلَّما فرَّ بها البعيدُ انجذبتْ إليهِ والتصقتْ به. أصعبُ مآزقِ الحبّ أن تجدَ نفسكَ منذُ البدايةِ ملتصقًا بشخصٍ، من فرطِ ما تحبُّه تشتهي أن تحرِّره منك!

مثلي، لاذتْ بحبّهِ طفلةً من دون طفولة. كانَ أصغرَ من أن يعي ما تحسُّ به. يأنسُ بها وتأنسُ به، وحينَ أنضجته الحياةُ ليفهمَ أنَّ هناكَ في الظلِّ أنثى تُنضِجُ له الفرحَ، تهاوتِ الدنيا فوقَ رأسيهما. وبدلًا من أن يدخلا الحبَّ فرَّتْ بهما المصيبةُ إلى شيخوخةٍ مبكرة. شاخَ قبلَ أن يعرفَ الحبَّ، وشاختْ وظلَّ الحبُّ في أعماقها طفلًا دائمَ البكاء.

وسالَ أنف الأشقرِ مرّةً أخرى بدمٍ غزير. انتبهَ للرعف، لكنَّهُ لم يُبدِ أيّ ردّ فعلٍ. ظلّ يتأمّل خرابَ عينِ العرب، وخيطُ الدمِ يتجاوزُ شفتيهِ إلى ذقنهِ وصولًا إلى صدره العاري. أحسستُ بأنّ خراب روحهِ يعادلُ خراب هذه المدينةِ المنكوبة. بعد لحظات، حطَّ منديلًا مغبرًّا على أنفهِ، واسترسلَ بصوتٍ مختنقٍ:

«كانَ من عادةِ والديهما أن يتنزَّها صبيحةَ كلّ أحدٍ برفقة الأبناء، وعدا المواعيد التي تسطّرها لهما المدرسة كلَّ يومٍ، كانتْ تلتقي زيادًا يومَ الأحد كذلك. كانتْ طفلةً مثقَلةً بحبّه، وكانَ طفلًا متخفِّفَ القلبِ، لم يعرف الحبَّ بعدُ...

طقسُ الأحد الأخير لم يكن يؤهِّلهما للنزهة، لولا أنَّ آفةَ والديهما كانت صداقةً تفيضُ عن ساعات العمل التي تجمعهما في العادة كلَّ يومٍ، فيجدانِ في يومِ الأحدِ متَّسَعًا لتلك الأحاديث الثقيلة عن الماركسيَّةِ والنظام السوريّ الجائر... خرجتْ هي ووالدها للقاء زياد ووالده، ولم تكن تعلمُ بأنّها، إذ تسبقُ والدها بفرحٍ إلى لقاء زياد، إنَّما تقرّبهُ أكثر من موته. قالتْ:

ـ لم تكنْ تلك الوجوهُ التي اقتحمتْ الحديقةَ تشي بالبراءة. كانتْ تحملُ الشرَّ. شيءٌ في هيئتها، أو طريقةِ مشيها، يشي بذلك. خمسة رجال، يلبَسونَ وجوهًا كابية، ويرتدونَ تلك المعاطف الخشنة السوداء... الرجالُ الطيِّبونَ لا يسيرونَ تحتَ المطر. وحدهم المجانين والعشّاقُ والمجرمون يقدرونَ على ذلك، ولم يكنْ في هيئاتهم ووجوههم سِماتُ عشقٍ أو جنون. تمنَّيتُ لو أنَّ والدينا يهربان بعيدًا. ركدت الدماءُ في أوردتي، وانحلَّتْ أطرافي وأنا أستعيدُ وصايا أمِّي وأطاردُ لمعةَ الخوفِ في عينَيْ زياد... في جزءٍ من الثانية، شعرتُ

بأنَّهُ مثلي تتمدَّدُ داخلهُ الهشاشة. كانَ ذلك قبل أن نسقط كلّنا في أتون الدهشة. كانوا خمسةَ رجالٍ أشدّاءَ مدجَّجينَ بمسدَّساتهم. تقدَّمَ صوبَهم والدُ زياد، لكنَّه قبلَ أن يدركَ خطوَتَهُ الثالثة، كانتْ الرصاصة قد شجَّتْ هامتَهُ وأردتهُ. سقطَ فوقهُ زياد يسكبُ على صدرِ أبيهِ شلّالًا من دموع... ولم تكدْ صرختي تشقُّ ثوبَ الصمت، حتى هوى والدي أرضًا. تطلّعتُ إليه في تلك اللحظة التي كانَ فيها يتهاوى. رأيتُ لطخةَ الدم في صدره، تكبر وتكبر!! كانتْ الكلماتُ تتحشرجُ في فمه. كان يريدُ أن يقولَ شيئًا، لكنَّ صوتَهُ الخافت وصرخات زياد الجريحة حالتْ دونَ ذلك. انتهى وتركني معلَّقةً من ضميري إلى ذلك الكلامِ الذي لم ينتهِ إليَّ إطلاقًا. انطفأ أبي وهو يحاولُ أن يلقيَ على مسمعي بوحَهُ الأخير. تحلَّقَ حولنا الناس، ودفعتنا الأيادي، أنا وزيادًا، بعيدًا عن والدينا. زفُّوا إلينا اليُتمَ سريعًا بتلك الكلماتِ المكرورة التي لا تنفكُّ تعادُ في كلِّ عزاء. كانتْ كلماتهم أشبهَ بضمّادات مستعمَلة، لا تطبِّبُ جرحنا بقدرِ ما تلوِّثهُ بقيحِ جراحات أخرى...

كانتْ حقنةُ اليُتمِ الأولى قاسيةً. نهبتْ بقايا طفولتيهما، وقفزتْ بهما صوب الشيخوخةِ... تمسَّكتْ بهِ كلَّما بكى في أحشائها الحبُّ، وأصيبتْ حياتُه هو بتلفٍ بالغٍ...

هيَ مثلي، يا وليد، مرَّغَ الحبُّ حياتَها في أرضٍ موحلة، وزادها ذلك الحدثُ تيهًا في أتون اليأس. كانَ كلُّ شيء يسيرُ كما ينبغي له، والعمرُ يهربُ بها إلى زفافه قبلَ أن تُصابَ حياتُهما بفتقٍ خطيرٍ، ويضيعَ من يدها، إذ يفتحُ أبوابَ قلبه ونوافذه لا على حبِّها، بل على الكراهية. هي مثلهُ تكرهُ القَتَلة، لكنَّها عرفتْ كيفَ تؤثِّثُ قلبها وتحجزُ للكره غرفةً، وتتركُ ما تبقَّى لحبّه الكبير. أمّا هو، فما عادَ يعبأ

بصلواتها عندَ قدميه. كانَ يحملُ بينَ أضلعهِ بدلًا من القلبِ صنمًا، لا تَبلُّ دموعُها طينَه ولا تحرِّكه ابتهالاتُها. مثلي يا وليد، كلَّما ابتعدَ عنها جرَّها المغناطيسُ النائمُ في قلبها إليه. إليهِ تحملُ نزفها وعواطفها، فيشيحُ عنها وجهُهُ متعَبًا.

ـ هذَّبتُ غضبي بكتب أبي، ولم يمهلهُ جموحُ غضبهِ ولا كرة الحقدِ التي تُلهبُ أحشاءهُ، فرصةً للقراءة. وحينَ وجدَ يدًا تسحبُهُ إلى المسجدِ انقاد إليها. بدأ الأمرُ في عزِّ المراهقةِ. كانَ يُكثرُ من الذهابِ إلى المسجد. وحينَ انتشرَ الزغبُ على وجههِ، سارعَ إلى حلاقتهِ كي يباركَ اللهُ له فيه. أمّا حينَ شبَّتْ في وجههِ لحيةٌ كثَّةٌ طمستْ معالم الوجهِ الحلو وأطفأت جماله، فلم أتنازل عن حبّهِ! وحتى في تلك الأيّام الطويلة التي يغيب فيها عنِّي، كنتُ دائمةَ السعيِ إليهِ. لم أكن لأبغضهُ على الرَّغمَ من أنَّه لا ينفكُّ يديرُ لي ظهرهُ، وحدثَ أكثرَ من مرَّة أن بالغَ في الأذيَّة. كنتُ أرى في أعماقهِ ذلك الطفلَ الوسيمَ الذي كانَهُ، لكنَّهُ كانَ باردًا. أقسمُ بأنَّه كانَ أشبهَ بقطعة ثلجٍ، لكنَّني كنتُ أغضُّ الطرْفَ وأبحثُ له عن الذريعةِ تلوَ الأخرى... يعلّمنا الحبُّ فقهَ الذرائع. حينَ نتورَّطُ في لعبتِه الخطيرة، فإنَّ أفضلَ ما نقومُ به إلى جانبِ تنويمِ ضمائرنا، هو البحثُ عن أعذار وذرائعَ تشفعُ للمحبوب، وتحفظُ صورتَهُ ناصعةَ البياض...

ابتلعهُ الظلام، ظلامُ التطرُّف. كانَ يعتقدُ أنَّ في وسعِ الظلاميّينَ أن يثأروا له من النظام... في حقِّه اقترفوا جنايةً عاطفيَّةً حينَ صدَّروهُ إلى أرض العراق للتدرُّب على الجهاد. تلك القنبلةُ الموقوتةُ التي كانَ يؤجِّلُ حضورُه انفجارَها، أطلقتْ بغيابهِ ضجيجَ الدنيا. حينَ جاءها من تلك البلاد البعيدةِ نعيُهُ، أفلستْ حياتُها وذبلتْ. مثلي، شرَّدها موتُه في

مرافئ الربِّ. جعلها تمتهنُ الغربة...

ـ كنتُ بحبّي له أعمِّرُ مدائنَ الشوقِ، وكانَ بمعوَلِ إهمالهِ يهدمُ كلَّ شيء... لكنْ حينَ جاءني نعيُهُ، غفرتُ له من قلبي كلَّ تلك الإساءات. قدَّرتُ أنَّ الجرحَ العريض في قلبهِ؛ الجرحَ الذي فتحهُ القَتَلةُ، كانَ سببًا في كلّ حماقاتهِ تجاهي. لم أَبْرأ من حبِّي لهُ على الرَّغم من الجنائز التي أعلنتُها؛ على الرَّغم من السوادِ الذي ما عشقتُ غيره. تدحرجتُ في سفوحِ الحياة، لا أحاولُ أن أنساه ولا أحاولُ أن أفتحَ قلبي لسواه. إذا طرقَ بابيَ فرحٌ ابتسمتُ له رياءً، وأغلقتُ دونَهُ نوافذي. عرفتُ الكثيرينَ بعده. كم يدًا اقتادتني إلى فرح مزيَّف. كم مفتاحًا دارَ دورتهُ في رَحِمِ قُفلي الخَرِبِ. يحسبونَ أنَّهم يفتحونَ بخيولهم المجهدةِ طروادةَ، لكنَّ الحقيقةَ أنَّني لم أكن أكثرَ من أنقاض مدينةٍ منكوبةٍ. بعدَهُ، كنتُ جسدًا يشرِّعُ أبوابه للجميعِ. أمّا الروح، روحي، فقد كانتْ ملكهُ وحده. بموتِه، موتهِ المزعومِ، ظلَّتْ معلَّقةً، لا هي تدركُ السماء ولا يستدرجُها قلبُ إنسانٍ إلى الأرضِ...

لم تكد تنتعشُ مع الثورة في سوريا حياتُها، حتى أشعرَها في غربتها في لبنان هاتفٌ يقولُ إنَّهُ قد عادَ من العراق إلى «جبهةِ النصرة». أصابتْها الصدمةُ بالخَرَس أيّامًا. قالتْ طبيبتها، بعدَ أن أُغميَ عليها، إنَّ تلك الصدمةَ، تلك الصدمةَ بالضبطِ، أورثتْ دمَها حلاوةً زائدةً وورَّطتها مبكِّرًا في داء السكَّري! أصابها الخبرُ بذبحةِ فرحٍ لم تكن مؤهَّلةً لها... اقتعدتْ سريرَ المرض والدهشة زمنًا قبل أن تفتحَ عينيها على حقائب السفر... وتخرجَ من دوخة سعادتها بتصميمٍ أعمى على البحث عنه!

ـ أعطبَ موتُهُ روحي، ثم أعطبتْ عودتُهُ من الموتِ جسدي.

تركتُ حياتي التي ابتنيتُ في بيروت، وسافرتُ إلى سوريا/الثورة. كنتُ أحملُ في قلبي ثورةً معكوسة، تحتفي بعودةِ الديكتاتور، وتتغنّى بنظامهِ التيوقراطيّ. كانَ زياد حبيبي، قدّيسي وإلٰهي الذي لا يموت... عدتُ إلى لعبتي السمجة: أبتني مدائنَ الوهمِ، وأعمِّرُها بمشاريع حياة أخرى... الحبُّ كانَ آفتي... وحتى في تلكَ اللحظات التي يجنحُ بي فيها الفكرُ صوبَ مشاريعِ الفرح التي كنتُ أُنضجُها له، كانَ في داخلي يقينٌ بزيفِ تلك العوالمِ التي لن تبرحَ رأسي. أليسَ الحبُّ في الأخير مجرّدَ وهمٍ لذيذ؟ أليسَتْ العذريَّةُ الحقَّةُ أن تهبَ قلبكَ وحقائبَ أيّامكَ وكلَّ مصيركَ لشخصٍ لا يستحقُّك، وتنفقَ عمركَ بعدَ ذلكَ بينَ سعيٍ إليه وأسفٍ عليه؟! ألا تكونُ عذريَّتُنا في الطريقِ الشاقَّةِ التي نسلُكُها من أجلِ استرداد عشقٍ، نحنُ نعلَمُ بأنَّهُ لم يكن في الأصلِ من نصيبِنا؟!

وقبل أن تهبني مفاتيحَ بوحها... قبلَ أن تتوِّجَ الحكايةَ بالنهايةِ، تمكَّنَت منها الخمر أو أذعنتْ لجنونها. لا أدري أيَّ خبلٍ تلبَّسَ بها حين انتصبتْ واقفةً بكامل فتنتها. تمشَّتْ في الغرفةِ، أخرستْ صيف فيفالدي... لم تكن مشيَتُها تشي بسُكْرٍ، لكنَّ في عينيها هبلًا طافحًا. في خاصرة الليلِ، تقفَّتْ سيرةَ شهرزاد كما لتنجو برأسها. لم أكن شهريار، وإن كنتُ معنيًّا لسبب تعرفهُ بمأساتها. ما حدثَ كانَ أجملَ ما تمنيَّتُ ألّا يحدثْ. كذبَ من قالَ إنَّ شهرزاد وشهريار أنفقا في لعبة السردِ من دون غيرها ألفَ ليلةٍ وليلةً! عادةً ما يغضُّ الطرفَ دارسو هذه الحكايةِ الباذخة عن أطفال شهرزاد من شهريار، الذينَ حالوا في الحقيقة دونَ سقوط رأسها. لم تكن لعبةُ السرد متعتهما الوحيدة!

ما حدثَ في تلك الليلة، مع تلك المرأة اللغة، هو كلُّ ما كنتُ

أفترضُ أنَّهُ يقعُ في نطاقِ المستحيل. فحينَ كانتْ تنزفُ كلامًا، أصبحتْ في مرآةِ سُكْري أشبهَ بامرأةٍ من ورقٍ غادرتْ بحيرةَ كتابٍ ما؛ سيِّدة من كلمات ومجاز.

كنتُ، أوَّلَ ما زفَّتها إليَّ المجاهِداتُ، وهي في أوج زينتها، أكابدُ ضجيجَ شهوتي. لكنْ، ما إن أشرعَتْ نوافذَ بوحها، حتى ضمُرتْ رغبتي فيها شيئًا فشيئًا، وتلاشتْ سطوةُ جسدها، ورفرفتْ في فضاء الغرفةِ فكرةٌ تسافرُ تارةً كزوارق من ورق في «بحيرة البجع»، وتعانقُ تارةً أخرى الفصولَ الأربعة! حينَ توقَّفتْ عن الكلام المباح، ثم حين انتصبتْ واقفةً، لحظتَها فقط، أعادتني إلى جسدها الفتنة.

وقفتْ بي على حافَّة شهوةٍ لاسعةٍ، حينَ شرعتْ في خلع الفستان الأبيض الأنيقِ. كنتُ أرى بحاسَّة شمّي روائحَ العطورِ وهي تنزاحُ عنها. كانَ لجسدها رائحةٌ خاصَّةٌ وهي تتعرَّى، في كيميائهِ سرٌّ ما أضرم نارًا في جسدي. كانَ جسدًا بالغَ النحافةِ، لكنَّهُ لا يصلُ إلى حدِّ النحول، ينسجمُ مع طول قامتها. نهداها الصغيرانِ نافران، وبطنها ضامرٌ إلى حدٍّ تظهرُ معهُ عظامُ خصرها بارزةً. ليسَ اتِّساقُ جسدها ما أثارني، فقبلها رأيتُ الكثيرات من الجميلات، لكنَّها الرائحةُ، رائحةُ جسدها الخاصَّة، رائحةُ عرقها. ياه، كانتْ نداءً يضجُّ بالشهوة!!

مجنونةٌ هي حينَ اقترفتْ أروعَ فعلٍ غير متوقَّع. في تلك اللحظة التي كنتُ أتأمَّلُ عريها الأنيق، تقدَّمتْ صوبي، مدَّتْ يدًا إلى زجاجة الكونياك. عالجتْ فمَ الزجاجةِ بقبلةٍ، ثم تركت الخمرَ تندلق إلى جوفها. كنتُ منشغلًا عن عانتها غير الحليقةِ بنحرها الجميل، وذقنها البارز. كانتْ، لسببٍ غامضٍ، تحرِّكُ فيَّ رغبةً في الجنس والقتل معًا! حينَ حطَّتِ الزجاجةَ فوقَ الطاولة، همستْ في أذني:

ـ أشتهيكَ اغتصابًا!

نفثتْ في أذني غبارَ عبارتها اللغز. لم يكنْ الموقفُ يسمحُ بتشريح عبارتها، ومقاومة الرائحة التي تذهبُ بي بعيدًا في الشهوة. كانت جسدًا يتصبَّبُ حِمَمًا، وكنتُ أحاولُ ترويضَ جسدي. ضغطَتْ على وجهي بأصابعِها وقبَّلتْ شفتيْ، ثم راحتْ تذرعُ المسافة بين فمي ونحري بلسانها... دهشتي كانتْ تسرحُ بي في الذاكرة. ألحَّت عليَّ صورةُ منّانَةَ، التي كانت تسرقني طفلًا كلَّما خرجتُ ليلًا إلى دورة المياه، تدفنني فيها، وتذرعُ جسدي بشبقها الغريب...

هكذا حرَّكتْ ما خلتُ أنَّ جَزْرَ الأيّام قد قام بمحوه تمامًا من الذاكرة... ما تلا ذلك الجنون لا يقلُّ جنونًا يا وليد! لا يقلُّ جنونًا عن جنونِ منْ يحدِّثُكَ عن الجنس، وأنت واقفٌ أمام باب القيامة!

امتلأتُ برائحتها. ضلعتُها إليَّ مثلما يفعلُ أسدٌ بغزالةٍ أتعبهُ الركضُ خلفها. أيقنتُ منذ تلك اللحظة أنَّني خرجتُ عن طوري... كانتْ كلَّما أبديتُ لينًا في سياسة جسدها، فحَّتْ تطلبُ «اغتصابًا يوقظُ فرحةَ جسدٍ أهملَتْهُ من فرطِ ما ادخَّرته لزياد». أرادت أن «تثأرَ لجسدها من إهماله» أو تتأثَّرَ بهِ منها... هي التي من فرط ما أحبَّتهُ، نسيتْ أن تعيش. عاشتْ به طفولةَ أملٍ، وحينَ مات ماتتْ معه، وحينَ بعثتْهُ الحياةُ مجدَّدًا لملمتْ رمادَ أشلائها كالعنقاء، وطارتْ إليهِ من دون أن تدري أنَّه، بدلًا من أن يعِدَها بترميم ما تصدَّعَ من حياتها، أعدَّ لها قبرًا آخر تسكنه...

نثرنا أشلاءنا تلك الليلة في السرير، وأفقنا ذاهلين بما أحدثنا من فوضى. حفرتْ لحمي بأظفارها، وفي جسدها تركتُ كدماتٍ خضراء

تميلُ إلى الزرقةِ. هل سَرَقَنا الكونياك، أم أنَّ تلك الرائحة أيقظتْ فيَّ الوحشَ، أم أنَّنا كنّا في حالةِ جوعٍ إلى هذا النمط من العنف... يتخفَّفُ كلٌّ واحدٍ به من صخرتهِ التي أتعبه حملها في منعرجات الحياة؟!

أفقنا على سرير خيبتنا نتوسَّدُ الذهول ونمعنُ معًا ـ وكلٌّ على حدة ـ في تذكُّر خبلِ الأمس. «كانتْ حربًا ضاريةٍ لا بدَّ منها...» قالتْ، وأزاحتْ عن جسدها الملاءة. فرَّتْ بعريها الذي تكسوه الكدماتُ إلى ملابسها... ورويدًا رويدًا، بدأت تستعيدُ الكائنَ اللغويَّ الذي كانتْه.

كانتْ صديقةَ حزني؛ أختَ يأسي البكر؛ رفيقةَ وجعي. كانتْ حينَ تجهشُ بالكلامِ تقولني على نحوٍ بليغٍ، تتركني أحيا وجعي من خلال حروفها. كانتْ شذوذًا لغويًّا بالغَ الخطورة، وجسدًا دمويًّا يغري بجريمةِ قتلٍ. كلَّ ليلةٍ حينَ ينضبُ بوحُها أو تُثقلُ الخمرُ رأسَها، تسعى كأفعى إلى جسدي، توقظُ في أعماقي كلَّ مرَّةٍ هبلَ سيِّدةٍ عبرتني، تستفزُّ كلَّ غضبٍ نائمٍ في أعماقي. في أعماقها كانتْ تشتهي الموتَ جنسًا!

كان من الحماقةِ أن تتركَ حاضرها المأهولَ بأناسه وأفراحه الصغيرة، وتسافرَ إلى فوَّهةِ بركانٍ نشيط، لكنَّ القلبَ لم يستأذنها. ما إن انتعشَ نبضهُ بخبر عودة زياد من الموت، حتى أخرس كلَّ صوتٍ ينقضُّ على اشتهاءاته. عادتْ تتأبَّطُ ذكرياتهما، وفي خيالها تنشرُ مشاريعَ ورديَّة. تفصِّلُ الآتي من الأيّامِ على مقاس فرحةٍ، وحدها تؤمنُ بإمكانيَّتها. وحينَ انتهتْ إلى حلب، ووقفتْ على حجم الخرابِ الذي آلتْ إليه، لم ترتدعْ، بل سلكتْ مزالقَ الحماقةِ باحثةً عنه. اعتُقلتْ

أكثرَ من مرَّة. وفي السجونِ، دفعتْ بلحمها صكوكَ سراحها على استكراه. كانتْ لا ترى سوى حبّه، وحينَ اهتدتْ إليهِ بعدَ زمنٍ من التيهِ في سوريا، استقبلها بحضنٍ بارد.

ما عادَ زياد الذي تعرفُ. كانَ مسخًا ابتلعَ إنسانيَّتَهُ تمامًا. هي التي بكلِّ أعراس الدنيا تعدُه، تركها تتمادى في حلمها، استدرجها، برأسه الذي يرفعهُ ويُحنيهِ باستمرار دلالةَ الموافقةِ، إلى ليلةِ جنسٍ قالَ إنَّهُ لطالما اشتهاها. فرحتْ، لأنَّه تركَ لحيتَهُ جانبًا، وأحسَّتْ بأنَّه بما أراقَ في رحمها اليابس يُعلنُ توبتَهُ عن أذيَّتها. لم تعطهِ في تلك الليلةِ جسدَها فحسب، بل الحياةَ التي لطالما تقشَّفتْ في استهلاكِ أفراحها حِدادًا عليه، لكنَّها في الصباح، وجدتْ ذراعيها فارغتين منهُ؛ هي التي نامتْ على عناقِهِ...

رحلَ عنها تاركًا رسالةً يذرفُ فيها كلامًا ملفَّقًا... ضجَّتْ بروحها الفجيعةُ. وقبل أن تتركَ سريرها داهمتها فجيعةٌ أخرى؛ مداهمةُ «داعش» لتلك القرية... ثُم شَحنُها في عربةٍ، هي وكلِّ النساء اللواتي يصلحنَ للجنس!!

تمنَّيتُ لو أَحُولُ دونَ هلاكها. كانتْ تعني لي ما أعنيهِ أنا لـ«الأخ الكبير»: صوتًا يصدحُ بالحقيقةِ، وسفينةً تمخرُ عباب الأعماق السحيقةِ. كانتْ تستحقُّ أفضلَ من الحياةِ البائسة التي عاشتها، وكنتُ على استعدادٍ لأكافئ صبرها على حياةِ البؤس، وألتمسَ لها عفوًا من «الأخ الكبير» أو أهرِّبها. لكنَّها لم تجرِّب مثلي الانتحار. آثرتْ أن تتحرَّشَ بالموتِ، وأن تطلبَهُ. كنتُ أغبطُ تجرُّؤها عليه.

التمستُ لها أمامَ «الأخِ الكبيرِ» عفوًا، لكنَّهُ أبدى ممانعةً شديدةَ

اللهجة. صرَّحَ بأنَّ رأسها يدخلُ في إطار خطَّةٍ كبيرة. كانَ يريدُ موتها، وكانتْ هي نفسها تريدُ موتَها، وكنتُ في أعماقي مؤمنًا بأنَّ الموتَ حلٌّ. . . ولكنَّني لم أكن أريدُ لها أن تموت!

في ليلةِ حزننا الأخيرِ، سالَ لسانُها بحديثٍ شجيٍّ عن غريبٍ تركتْهُ في لبنان، أنفقَ أرصدة فرحهِ في حبِّها، من دون أن يعلمَ بأنَّها رسمتْ في ظهره النقطةَ التي سيستقرُّ فيها نيزكُ خيانتها.

ـ في الكائن البشريّ، والمرأة على وجه التحديد، حقارةٌ متأصِّلة، مهما بدتْ مسكونةً بالفضيلة. في الأخير، لا تشتهي المرأة إلَّا من يروِّضها. أمّا أولئكِ الذين يتلعبكونَ بين أصابعها كقطع المخاط المتيبِّسة، فلا بدَّ من أن يجدوا نهايتَهم عندَ أقربِ جدار. . .

وبعدَ أن كانَ زياد ضيفَ كلِّ الليالي التي عبرتْ، كان في الليلةِ الأخيرة الغائبَ الوحيد. لم تشرب خمرًا، لكنَّها بكتْ بحرقةٍ كطفلةٍ سرقَ الرصاصُ والدها. كنتُ قبل تلك الليلة أعتقدُ أنَّ عينيها قد جفَّتا من الدمعِ، لكنَّهما سحَّتا دمعًا ثقيلًا. لم تهبني جسدها اغتصابًا تلك الليلةَ. ناولتني بهدوء مفاتيحَه ولاذتْ بالسرير. لم أجد في نفسي أمام إصرارها على الموتِ رغبةً في مضاجعتها. كنتُ أرى جسدها مستقبلَ جثَّة! لكنَّها أسعفتني على ذلك. أخذتْ جسدي بخشوعٍ، وطارحتني الغرامَ كراهبة تؤدِّي صلاتَها الأخيرة.

فجرًا، حينَ تحرّكتْ آلةُ الحلاقة في رأسها تُسقطُ خُصَلَه أرضًا، أوصتني بأن أنقلَ رسالةً إلى ذلك الغريبِ الذي تركته عالقًا في حبالٍ عنكبوتيَّةٍ شفّافة. طلبتْ منِّي أن أحرِّرَهُ من قيود الانتظار. تركتْ على طاولةِ سُكرنا عنوانَه ورقمَ هاتفِه، ومضى بها رجالُ «الأخ الكبير».

فترتْ في صدري أيُّ رغبةٍ في استبقائها. لم أشأ أن أقف بينها وبين ما تشتهي، كانتْ أجملَ حدثٍ مجازيٍّ. بها سرقتُ أبلغَ جولةٍ بينَ تلافيفِ الذاكرة. . .

وانطفأ صوتهُ في ذلك الضجيج الذي يصمّ الآذان؛ ذلك الضجيج الذي لا يقول سوى حقيقة واحدة: أنَّ قنبلة لا بدَّ ستنفجر غير بعيد؛ أنّ أمرًا هائلًا على وشك الوقوع. لم يطل انتظارنا. اندفع الغبار قبل أن ينهارَ كلّ شيء دفعة واحدة.

قبله، قبل الانهيار، كانَتْ أعماقي تهضبُ بهواجسَ شتّى، لكنَّ لساني كانَ كليلًا أمام الأشقر، حينَ كانَ يتحدَّثُ عن آخر نسائه! لا أدري لماذا، لكنَّ مريمَ طفتْ في الذاكرة. كانَ كلَّما توغَّلَ في بوحه عميقًا ارتطمتُ بخوفي. لم يحدثْ أن أخبرتني بأنَّ في قلبِها ينامُ حبّ رجل سواي. أمّا عن صباها، فقد صرَّحتْ مرارًا بأنَّها ابنةُ البادية، وأنَّ والدها عاشَ فلّاحًا وماتَ فلّاحًا. كنتُ فقط أودُّ لو أطبّب خوفي بسؤالٍ وحيدٍ: ما اسمُها؟ لكنَّني لم أفعل، كأنَّني ابتلعتُ حفنةَ جصٍّ، فيبستْ بعد صمتي الطويل في جوفي. أجَّلتُ كلَّ أسئلتي القَلِقةِ، وصدَّقتُ راحةَ جلوسنا إلى تينك الأريكتينِ. قدَّرتُ أنَّ بيننا من الوقتِ ما يُسعفُ لأُفضي إليه بهذا الخوف، وغضضتُ الطرْفَ عن حقيقةِ أنَّنا معلَّقانِ في قفصٍ مفتوحٍ، بينَه وبينَ الأرضِ علوٌّ شاهقٌ.

تركتُه يخبِّئُ، بآخرِ حكاياتهِ، قنبلةً موقوتةً بينَ أضلُعي. وحينَ رأينا خيط الدخان، وسمعنا ذلك الصخب الذي يكاد يصمّ الآذان، تبدَّدَ داخلي وجعُ تلك الهواجسِ، وتركَ للخوفِ من الموتِ أن يتمدَّدَ. . .

كانتْ تلك الثواني التي سبقتْ وصولَ هديَّةِ الأقدار الملعونةِ

حافلةً بفيضٍ من الأفكار والأوجاعِ والذكريات. للقلبِ والذاكرة زمنٌ خاصٌّ يطولُ ويقصرُ، بحسبَ إيقاعاتٍ خاصّةٍ: حينَ نسعدُ يسرع؛ حينَ نشقى يبقى على الحياد، يهبكَ من الوقتِ ما يهبكُ العدُّ الفيزيائيُّ؛ أمّا حينَ نخافُ، حينَ نواجهُ النهايةَ أو أشباحها، فإنَّ هذه الإيقاعات تتمطّى بصُلبها حتى ليكادُ الزمن يتوقّفُ.

في تلكَ المسافةِ الهشَّةِ التي قد لا تساوي عمرَ ثانيتينِ، عشتُ نزفًا من وجعٍ، وكابدتُ الذكرياتِ كثيفةً، متدفّقةً بشدَّة كشلّالٍ هادرٍ... في بؤبؤ الفداحة، كانتْ تلوبُ إلى مخيّلتي أطيافٌ وصورٌ ملتبسةٌ، بعضُها طاعنٌ في الطفولةِ، وأخرى تطلُّ منها فتراتٌ متباعدةٌ من حياتي. تطلَّعتُ إلى الأشقر لحظاتٍ قبلَ أن ينتهي كلُّ شيء. كانَ يُرسلُ أصابعَ يديهِ معًا مخلخلًا بها شعرَهُ، قبلَ أن يلتفتَ إليَّ بأزرقِ عينيهِ. كانَتْ تقفُ في محجريهِ دمعتان حائرتانِ لا تفكّرانِ في التراجع ولا في النزول... أنفهُ ينزّ بخيط دمٍ، ونظراتهُ البلهاء الفارغةُ من أيِّ معنى تشي بأنَّهُ يكابدُ سخطَ الذاكرة. لا بدَّ من أن تلك التي من فرط ما شغفتهُ حبًّا أفسدتْ حياتهُ، قد أرسلتْ أطيافها، روائحها وذكرياتها... لتكونُ آخرَ مَن تُغلقُ عينيهِ عن الدنيا، مثلما كانتْ أوّلَ من تفتحهما على الحياة!

في قلبي، كانَتْ تنامُ فكرةٌ تشبهُ الحقيقةَ: أنَّني لن أموت. الحقُّ، أنَّ المرء حينَ يكونُ على حافَّةِ الموتِ وتحتفظُ له الحياةُ بعمرٍ إضافيٍّ، فإنَّ رسالةً مشفَّرة من الأعماقِ تهمسُ إليه في السرِّ بذلك. لم تصبْنا القذيفة؛ لم تصبنا مباشرةً، لكنَّها هزَّتْ بقوَّةٍ الأعمدةَ الإسمنتيَّةَ التي كانتْ ترفعُ قفصنا قربانًا للسماء. تمايلتْ بنا الغرفةُ هنيهةً قبل أن ينهارَ كلُّ شيء...

ما حدثَ بعدَ ذلك، كانَ شديدَ الكثافة والغموض. كلَّما حاولتُ أن أستعيدهُ، أُربكُ الذاكرة. تحوَّلَ كلُّ ما حولنا إلى كتلةٍ داكنةٍ، تعانَقَ فيها النقعُ بالدخان، قبلَ أن تنخذلَ بنا أرضيَّةُ الغرفةِ ونهوي. . . أنا على يقين بأنَّني غبتُ عندَ أوَّلِ ألم، ذلكَ بأنَّ وعيَ المرء أمام المآزقِ الكبرى يُؤثِرُ الانطفاءَ على تأمُّل الجسدِ وهو ينسحقُ. . . غبتُ وكانَت مريمُ آخرَ ما كنتُ أفكِّرُ فيه. كنتُ أقولُ في سرِّي إنَّهُ لا يجدرُ بي أن أموتَ من دون أن تهتديَ إليها سُفني. كنتُ، وأنا أهوي معَ أطنان الإسمنتِ، متمسِّكًا بجديلةِ الأمل، يُرسلُها الحبُّ في أعماقي. كنتُ أتمنَّى لو أنَّ الربَّ يهبُني مزيدًا من العمر كي أنفقهُ بحثًا عنها!!

حديث النهايات

(أوراق محكوم بالإعدام)

الحياةُ ضيِّقةٌ بحقّ، وأضيقُ حينَ نعي ذلك. هنا، في هذه الزنزانة الكريهةِ، اهترأ لحمي زمنًا، وتسلَّلت الرطوبةُ الدبقةُ إلى عظامي. يصادفُ هذا اليومُ، إن كانَ التقويمُ الذي رسمتُهُ على الجدار صحيحًا، الذكرى الخامسةَ ليوم السقوط الكبير... في مثلِ هذا اليومِ، قبل خمسِ سنواتٍ، تعرَّفتُ إلى حقيقةِ ذلك الكائنِ الأسطوريِّ الذي كان يربكُ بحضوره الجميع: الأشقر. كان الكلُّ يعتقدُ أنَّه ينامُ على أسرار الدنيا، فإذا هو، خلفَ الغموضِ الذي يتلفَّعُ به، كائنٌ هشٌّ مجروحُ القلب...

أنا وليد معروف... عشتُ على هامشِ الحياة، على الرَّغم من أنَّني كنتُ مسكونًا بيقينٍ بليد؛ بأنَّني منذورٌ لعظمةٍ ما. الآنَ، في هذه الزنزانة المقيتةِ، طلَّقتُ كلَّ أوهامي. الواقعُ، أنَّني لستُ أكثر من مجرَّد مُفلسٍ سيِّئِ الحظّ. كانَتْ حياتي وهمًا جميلًا، سعيتُ إلى إفساده دائمًا ببحثي البليد عن الاستثناء.

الواقعُ، أنَّني محكومٌ بالإعدام... غدًا أو بعدَ غدٍ، ينتهي كلُّ شيء. سَجّاني يبرعُ في تعذيبي، إذ يجوِّعني إلى الموتِ. كلَّ يومٍ يصيحُ بي «غدًا سوف تموتُ شنقًا»! حتى إذا جاء الغد المنشودُ، يصيحُ مرَّةً أخرى «غدًا ستموتُ رميًا بالرصاص»، وهكذا... كلَّ يومٍ يرتِّبُ لي مع الموتِ موعدًا، وينتقي لي طريقةً أموتُ بها، حتى إذا تهيَّأتُ للموتِ تخلَّفَ عنِّي... مع مرور الأيّامِ، تربَّى في أعماقي يقينٌ بأنَّ موعدي مع الموت سيكونُ بعد اليوم الذي سيتخلَّفُ فيه السجّانُ عن ضرب مواعيد الهلاك الزائفة.

جرتِ السنون بيني وبينَ يومِ كوباني العجيب، لكنَّهُ ظلَّ محفورًا في أعماقي، لا أكادُ أنساهُ حتى أجهشَ به. كانت حياةُ الأشقرِ تنتظرُ كفنًا من ورقٍ لتنتهي... وهل انتهتْ حقًّا؟ لا أدري. حين تهاوتْ بنا الغرفةُ المعلَّقةُ في كنف السماء ـ وحتى قبل أن تتهاوى ـ كنتُ على يقينٍ بأنَّ الأشقرَ ميِّتٌ؛ ميِّتٌ مع وقف التنفيذ. استنزفتْهُ الرصاصةُ في ساقهِ، ثم العمليَّةُ القاسيةُ التي أخضعَ نفسهُ لها.. لُعبة السردِ هي ما أبقاهُ كلَّ ذلك الوقت. وهبني حياتَهُ في ذلك اليومِ بالتقسيط. كانَ مؤمنًا بأنَّ الحكي يمكنُ أن يؤجِّل موعده مع الموت!

وهل ماتَ حقًّا؟!

حينَ انخسفَتْ بنا تلكَ الغرفةُ التي ظلَّتْ بيدِ الغيبِ معلَّقةً في السماء، ضاعَ منِّي الأشقرُ. اندفنّا تحتَ الأنقاض، لكنْ لا أذكرُ أنَّني كنتُ واعيًا لحظةَ وصولي إلى الأرض. انطفأتُ مبكرًا. عندَ أوَّل ألمٍ حقيقيّ تخلَّيتُ عن جسدي ليسحقهُ الإسمنت، لا أدري كم لبثتُ تحتَ الأنقاض، لكنَّني حينَ أفقتُ جأرتُ كذئب جريح، وأنا أشعرُ كما لو أنَّ أنفاسي تُسرَقُ منِّي. لم أكن أرى شيئًا. أحسُّ بثقلٍ كبيرٍ يقعُ على

جسدي الذي فقدتُ الإحساسَ بأجزاء كثيرة منه. كنتُ أعبُّ الهواء، ومعه أسحبُ الأتربةَ إلى جوفي...

كنتُ أعي أنَّني كلَّما أسرفتُ في الصراخ، استهلكتُ نصيبي من الأوكسجين وعجَّلتُ بنهايتي، لكنَّني كنتُ أصرخُ. مرَّ وقت طويلٌ وعسيرٌ، قبلَ أن تدركني الأيادي، أيادي الأكراد، بعدَ أن نجحوا موقَّتًا في بسطِ سيطرتهم على عين العرب. كنتُ أكابدُ الانطفاء النهائيّ، لكنَّهم نجحوا في سحبي أخيرًا. فتَّشَ أحدهم جيوبي، وحينَ استقرَّتْ يده على بطاقة الصحافة التي كنتُ أخرجُ بها إلى الحروب متعمِّدًا، أمرَ بحملي إلى مستشفى ميدانيّ قريب...

كنتُ أقفُ بينَ الحياةِ والموتِ... لبثتُ مغيَّبًا ثلاثةَ أيّامٍ، وفي اليوم الرابع حينَ أفقتُ أخيرًا، قالَ لي الطبيبُ إنَّني أُصبتُ بأربعةِ كسورٍ، وإنَّ يدي اليسرى انسحقتْ تمامًا فاضطرَّ إلى بترها. حزنتُ لفقدها كثيرًا، وصرتُ، بعدَ ذلك اليومِ، رَجلًا ناقصًا. لم أفهم إلَّا متأخِّرًا أنَّ صحبةَ الأشقر لم تسرق منّي يُسرايَ فحسبْ، بل سرقتْ منّي كلَّ شيء!!

لا نسيرُ في المسالك التي نشتهي. غبيٌّ من يعتقدُ أنَّهُ يختارُ لنفسهِ طريقًا في الحياة. كلُّنا صدَّقنا خدعَةَ الربِّ. الحرِّيَّةُ التي يمنحنا إيَّاها ليستْ إلَّا زيفًا نفرحُ به. في الأخير، مهما كانتْ حرِّيَّتُنا فسيحة، فلا بدَّ من أن يدفعنا إلى المَزالق التي ترشحُ بؤسًا... ويتركنا قابعينَ هناك، تتناوبُ على ذبحنا أقدارُه القاسية!

بعدَ أيّامٍ قليلةٍ لبثتُها على استكراهٍ في ذلك المستشفى الميدانيّ، تاهَ بي في شوارعِ عين العرب جملةٌ من الشبابِ الأكراد يدفعونَ بي

الكرسيَّ المتحرِّكَ، بعدَ أن هادنَ «الأخُ الكبيرُ» حربهم. زعمَ البعضُ أنَّه أُصيبَ إصابةً بالغة، لكنَّ ذلك لم يكن مؤكَّدًا. حينَ انتهيتُ إلى البنايةِ التي تهاوتْ بنا، استوقفتُ الشبابَ الفرحينَ بانتصارهم الموقَّتِ على «داعش». كنتُ في أعماقي أشتهي أن أُلقيَ على الأشقر نظرةً أخيرة، وأنْ أواريَ رفاتَهُ وأوجاعَهُ الثرى، فهو يستحقُّ ذلك. كنتُ أعلمُ بأنَّني لا أقدرُ على هذا الأمر، فبعد الانهيار تفكَّكَ جسدي إلى مِزَقٍ لا توحِّدها إلَّا رقائقُ الجبسِ! لكنَّ هؤلاء الشباب، إن أنا استدرجتهم إلى إيجاده، فلا بدَّ عندها من أن يواروه الثرى.

التمستُ منهم مساعدتي على إيجاد حاسوبي الخاصّ الذي زعمتُ أنَّه كانَ معي قبل الانهيار. طبعًا، ما كانَ يدفعهم إلى الاهتمام بي والعناية بوضعي الحرج إنَّما هو بطاقةُ الصحافة التي تربطني بالمجلَّةِ البريطانيَّة، فقد كانَ يحدوهم أملٌ في أن أُخضعَ وضعهم في هذه الحرب لعمليَّة تجميلٍ صحافيَّة!

حينَ شرعوا في نبش الأنقاض، اهتزَّ قلبي وخفقَ بقوَّةٍ كأنَّهم ينبشونَ فيه. كنتُ، كلَّما صادفتُ أشياء تتَّصلُ بالأشقر، شهقتُ كأنَّ الروح تُسرَقُ منِّي رأيتُ قطع القماشِ المضرَّجةَ بدمه؛ رأيتُ شظايا زجاجاتِ الخمر وأعقابَ السجائر. عثروا على الرجالِ الثلاثةِ الذينَ داهموا الغرفةَ، لكنْ لم يعثُروا على الأشقرِ! وكانوا كلَّما كلَّتْ عزائمهم تباكيتُ على الحاسوب الضائعِ، وأسهبتُ في الحديث عمّا فيهِ من صُوَر وشرائطَ قد تسندُ عضدَهم أمامَ المجتمع الدولي! لكنَّهم، في الأخير، عادوا إليَّ بمسجَّلتي ومفكِّرة الأشقر الصغيرة من دون أن يصلوا إلى أيّ أثر له. لم أعرف إن كانَ يجدُرُ بي أن أفرحَ، أم أحزنَ؛ أن أغنمَ فرصةَ انعتاقي من أتون «داعش»، أم أعودَ إليه مقتفيًا سيرة الأشقر؟

قبل أن تنهارَ بنا البنايةُ المعلَّقةُ في السماء، دسَّ الأشقرُ في صدري رصاصةَ شكٍّ مقيتةً حملتها معي، وكنتُ كلَّما رُمتُ السلامَ مع ذاتي، أو استجديتُ الأمل، انتصبتْ في الخيالِ وسواسًا مقيتًا يضغطُ على فكري ويخنقني...

انسحبتُ من المستشفى الميدانيّ بعدَ أشهرٍ من العلاج. همتُ على وجهي في المدن والقرى السوريَّة بحثًا عن مريم. فتَّشتُ في المستشفيات والسجون والمؤسَّسات الحقوقيَّة والصحافيَّة وسجلّات الموتى.. لم أترك قرية ولا مدينة إلَّا وفتَّشتُ فيها عن أيِّ خيطٍ تافهٍ يقودني إليها. في الأخير، وكانَ قد مرَّ على تيهي في سوريا ما ينوفُ على السنة، تسلَّلتُ إلى التراب التركيِّ مع زُمَرِ اللاجئين، التجأتُ إلى السفارة اللبنانيَّة، وقمتُ باتِّصالاتٍ تُغيثُ يأسي بتذكرةٍ إلى لبنان.

ماتتْ أمِّي...

في دوّامةِ البحثِ عن مريم، سقطت أمِّي كوريقةٍ أضناها الالتصاقُ بشجرة الذاكرة. لا أذكرُ على وجهِ التحديدِ آخرَ مخابرةٍ هاتفيَّة جرتْ بيننا، ولا حتى آخرَ مرَّةٍ مرّت ببالي! الأرجح أنَّ ذلك كانَ منذُ زمنٍ بعيد. لطالما ربَّيتُ في أعماقي وهمًا جميلًا: أنَّ أمِّي لا تموت... ورحتُ بعدهُ أجوبُ بلادَ الربِّ مطمئنًّا إلى أنَّني متى ما عدتُ، فلا بدَّ من أن أجدها في انتظاري، وأهملتُ حقيقة أنَّها لا تملكُ سوايَ، وأنَّها في خريفِ العمر، ما كانت ترجو من الحياةِ سوى أن يتشجَّرَ لها من جذعي أطفالٌ كُثُر...

كنتُ كلَّ ما لها في الحياةِ، مثلما كانتْ مريمُ كلَّ ما لي. حينَ أزمعتُ الرحيلَ ـ وكنتُ أخبرتُها كاذبًا بأنَّني راحلٌ إلى أوروبا ـ بكتْ

بحرارةٍ، ثم ودَّعتني. مثلما لم أشأ أن أقف في وجهِ مريم، وغوايةُ الصحافة تجرُّها إلى سوريا، كذلك لم تشأ أمِّي أن تقفَ بيني وبينَ ما زعمتُ أنَّه حلمي...

نُسقطُ في سعينا البليد صوب مَن نشتهي مَن لا يملكونَ سوى حبّنا. نحنُ بالنسبةِ إليهم كلُّ شيء، وسقوطُهم بالنسبةِ إلينا ضررٌ جانبيّ! تُرى، أأقولُ حقيقة أمِّي بالنسبةِ إليّ، أم حقيقتي بالنسبةِ إلى مريم؟! لا يهمُّ. مآلنا المحسومُ سلفًا هو الموتُ، فما جدوى «شخبطاتنا» على سبُّورةِ الحياةِ؟ وهل يُحدثُ تذمُّرنا أو رضانا أيَّ فرق؟ ممكن. لكنَّهُ فرقٌ لا يؤجّلُ موتَنا، ولا يعلنُ أيَّ نوعٍ من الخلود.

عدتُ إلى أمِّي. أكادُ أقفزُ مثل صبيّ يعودُ إلى أمّه بعدَ أوَّل يومٍ في المدرسةِ. فكَّرتُ في الكمدِ الذي ستواجه به يدي الغائبة، وتهتُ في نفسي وأنا أحاولُ أن أجدَ كذبةً أعالجُ بها الأسئلة الثقيلة. تركتُ أمامَ الباب حقيبتي تسقطُ، وجرَّت اللهفةُ يدي الوحيدةَ إلى طَرْق الباب... لكنَّها لم تفتح. عاودتُ طَرْقَ البابِ مرارًا من دون أن تفعل. حينَ أطلَّتِ الجارةُ حدجتني بنظرات غريبة، ثم غابتْ هنيهةً قبلَ أن تنسحبَ بوجهٍ مزيَّف الذبول. لم تقل شيئًا، لكنَّ دموعي طفحتْ، وأوجعتني الحقيقةُ قبلَ أن أسمعها وهي تزفُّ إليّ بعبارات العزاء!

همتُ على وجهي في لبنان مشرَّدًا، أسكرُ بمالٍ يُتمي ليلًا. أمّا النهارُ، فأُنفقُهُ في طَرْق الأبوابِ المغلقة، لعلِّي بها أهتدي إلى تلك التي تركتْني معلَّقًا على حبل انتظارها... أمضيتُ على تلك الحال سنةً كاملةً. كانتْ مريمُ سؤالَ النهار، وفي الليل حينَ أُغرِقُ قلبي في الخمر حدَّ الثمالة، يزاحمُ حضورَها الأشقرُ. كلَّ ليلةٍ كانَ يسامرُ وجعي، أستعيدُه، فأجهشُ بحكايتهِ، وتخزني حزمةُ الأشواك التي، قبلَ أن

يَمضي إلى حتفه، زرعها في قلبي.

بعدَ عامٍ من التيهِ في لبنان، نضبتْ جيوبي من ميراث أمّي. لم أكن مؤهَّلًا للعودةِ إلى العمل. بعدَ أن عدتُ من «داعش» بأعطاب نفسيَّة وتشوُّهات لا حصرَ لها، كنتُ كلَّما تمسَّكتُ بالقلمِ كآخر أملٍ، رأيتُ أودية الدماء تجري من الأعناقِ التي كنتُ أنحرها على مرأى من ملايين المشاهدين. كلَّما سرتُ بينَ حشود الناس، أراهم يوجِّهونَ صوبي أعينَهم بتُهمٍ شتَّى. كانتْ براءةُ نظراتهم في حدّ ذاتها تهمةً تسائلني بارتيابٍ: «أأنتَ الذي...؟» ويطولُ بها الصمتُ، قبلَ أن ترشحَ في داخلي كلُّ الإجابات: أنا السيّافُ المقنَّعُ الذي لطالما فاجأكم بإنكليزيَّتهِ متوعِّدًا ومهدِّدًا، قبل أن يرسلَ سكِّينه في أعناقِ الضحايا.

هل يستقيمُ مقامي بينَ أناسٍ عاديين، أنا الذي عاشرتُ الأشباحَ وحصدتُ الرؤوس؟ كانَ حبُّها والخمرُ آخرَ ما يَصلُني بآدميَّتي... خيطٌ شفّافٌ من أملٍ يقفُ بيني وبين الانتحار؛ بيني وبين الجنون!

نضبتْ جيوبي من أموالٍ تركتْها أمّي ميراثًا، أعالجُ به يُتمي بعدها. صرتُ مطالَبًا بالبحثِ عن موردِ مالٍ. فتحتُ بريدي الإلكترونيّ على رسائل تلك المجلَّة البريطانيَّة التي علَّبتْ أحلامي وصدَّرتني إلى تنظيم الدولة الإسلاميَّة. لم يكن القيِّمون عليها يتوقَّعونَ أن أعود. لم أحفل برسائلهم التي تكرِّرُ نفسها. فاجأني عرضٌ قديمٌ من مجلَّةٍ أميركيَّة تقترحُ إنجاز تقريرٍ ميدانيّ عن حقيقة الدعارة في المغرب. كانَ العرضُ مغريًا، ليسَ لأنَّ المجلَّة تتحمَّلُ أعباء السفر كاملةً فحسب، بل لأنَّ الأمر وجدَ له صدًى نفسيًّا عميقًا في الذاكرة. كانَ مناسبةً لأتحرَّشَ بسيرة الأشقر وأراهُ، لا كما قدَّمَ نفسهُ، بل كما يعرضُهُ واقعُه، وكما

يراهُ الآخرون. كانَت الصفقة ـ التي صادقتْ عليها المجلَّةُ بسرعةٍ ملغزة ـ فرصةً جميلة لألتقيَ ذاكرة الأشقرِ مرَّةً أخرى، وأروِّضَ القلبَ على غيابها. . .

ما كنتُ أعتقدُ أنَّني إنَّما أسيرُ إلى حيثُ أُميطُ اللثامَ عن فجيعتي، وأنَّ الربَّ قد آثرَ مرَّةً أخرى ألّا يكون وديعًا معي، إذ يستدرجني إلى حيثُ أفكّ كلَّ الطلاسمِ العصيَّةِ التي أضعتُ سنواتي في محاولة فكِّها. . .

في الطائرة، واصلتُ كتابةَ الأشقر باليدِ التي أبقتها لي الفجيعةُ. قبلَ أن أفقدَ يدي، كنتُ لا أكتبُ إلَّا رقنًا على الحاسوب، لكنَّ الخسارة أعادتني مرغَمًا إلى القلم والأوراق. بعد أن قاطعتُها سنوات، اكتشفتُ بؤسَ الطلاسمِ التي تخطّها يدي. مخطئٌ من يعتقدُ أنَّنا نكتبُ بيدٍ واحدة. في العادةِ نغفلُ عن الدور المهمّ لليد اليسرى في تثبيت الورقة. كنتُ أكتبُ «التيه الأكبر»، وأُصيخ السمعَ إلى الشريط الصوتيّ الذي وثّقَ بعضًا من نزف الأشقر، لكن لا أكادُ أكتبُ سطرًا إلَّا وتنزلق منِّي الأوراق، معلنةً فضيحتي بين الركّاب وعجزي. أنحني لألملمَ الأوراق، فأراقب من أسفل تلك النظرات التي تتراوحُ بينَ السخريةِ والشفقة. . .

وصلتُ أخيرًا إلى الدار البيضاء. لبثتُ هناكَ ثلاثةَ أيّامٍ، تقفَّيتُ فيها سيرة الأشقر في الميناء، وحينَ عجزتُ عن إيجاد أثرٍ له في ذاكرة البحّارة، أبحرتُ بينَ المقابرِ باحثًا عن «وديع»؛ صديق غربتهِ العليل الذي وجدَ الأشقرُ نفسهُ مضطرًّا إلى أن يشتري بقتلهِ صكَّ براءة أمِّهِ. فيما بعد، حينَ سأصحو على نصلٍ كان راقدًا من دون أن أدري في ظهري، سأفهمُ أنَّني لا أختلفُ عن وديع هذا وعن عبد الملك اليمنيّ.

كلَّنا جرَّبنا صداقةَ الأشقر، وكلّنا احترقنا بها!

بعدَ رِشًى كثيرة وإسهابٍ في الشرح، انتهيتُ أخيرًا إلى قبره. زرتُه بباقةِ نرجس وزجاجتيْ بيرة وأسفٍ كبير. كانَ قبرهُ غارقًا في الأعشاب، لا يبينُ منه سوى شاهدة باليةٍ تبوحُ باسمه. نقدتُ حفّار القبور مالًا في مقابل تشذيب قبر الغريب، وسقيتُ ترابَهُ خمرًا مثلما نَذَر الأشقرُ، ومضيتُ.

في الليلةِ التي سبقتْ رحيلي عن البيضاء إلى الأطلسِ المتوسِّط، إلى تلك المدينة حيثُ ترعرع الأشقر، فتحتُ علبة البريد الإلكترونيّ صدفةً على رسالةٍ من المجلَّة التي كانتْ قد أرسلتني إلى الجحيم. كانوا يقترحونَ عليَّ مبلغًا بالغَ الإغراء كي أرسلَ إليهم التقرير. بالنسبةِ إليهم، كانَ هذا النوعُ من التقارير الميدانيَّةِ سبقًا صحافيًّا بالغ الأهمِّيَّةِ، يمكن أن يرفعَ المبيعات إلى سقفها. لم يطل بي التفكيرُ. كانَت الأصفارُ العديدةُ التي يزخرُ بها المبلغ تجيبُ بدلًا منِّي، أرسلتُ موافقة عجلى، وأغلقتُ الحاسوب!

لم أكن أعتقدُ أنَّ تلك الموافقةَ التافهةَ التي نويتُ أن أفضحَ بها «الأخ الكبير» ستفضَحني، وستضعُ في ظهري كلَّ الحقائق المسنَّنة التي طالما فتَّشتُ عنها...

في مكانٍ ما، كانَ «الأخُ الكبيرُ» ينتظر تلك الموافقةَ التي أرسلتُ، ليوجِّهَ صوبي راجماته... ما كنتُ أحسبُ أنَّ في حوزته رأسًا نوويًّا في إمكانه سحقي. ما كنتُ أتوقَّعُ أنَّه طوَّر صاروخًا عابرًا للقاراتِ، يمكِّنُه من قصفي، أنا المتحصِّن بسلسلةِ جبالِ الأطلس التي ردَّت الجيشَ الفرنسيَّ في أوج جبروته على أعقابهِ...

في تلك الليلةِ المشؤومة التي وقعتُ فيها تحتَ سطوة الجنيهِ الإسترليني، والأصفار التي تحلِّقُ بي بعيدًا في الثراء، ما كنتُ أحسبُ أنَّني أنا المهدِّدُ بالفضيحة صرتُ المهدَّدَ بها. أغلقتُ جهازَ الحاسوب، ونمتُ نومًا هانئًا، وأنا أحلمُ بالثروة التي قد تسعفُ على التفرّغِ للكتابةِ والبحث عن مريم! ما كنتُ أحسبُ أنَّ الأيّام القليلةَ التي تلتْ ذلك الردَّ، كانتْ كلَّ نصيبي من الحياةِ قبل الإفلاسِ الكبير...

سرتُ إلى أعماقِ المغربِ؛ إلى تلك المدينةِ التي ما عادتْ صغيرةً بعدَ الأشقر. جلستُ إلى أحدِ مقاهيها، بعدَ أن همتُ على وجهي بين شوارعها الفسيحةِ وأزقَّتها الضيِّقةِ، أسألُ عن الأشقر؛ عن الـ «ماما حياة»؛ عن الحكايات التي تحدَّثَ عنها بألمٍ كبيرٍ. ارتطمتُ بكثيرٍ من حكاياتهِ، لكنْ ما كنتُ أحسبُ أنَّ الصدفةَ سترشقني بما يُثري الحكاية وينكأ جرحي في آن...

يوم الجمعةِ، حملتُ باقةَ وردٍ، وسعيتُ، برفقةِ رجلٍ خبيرٍ بسيرة تلك المدينة وحكاياتها، إلى المقبرة. هو رجلٌ خمسينيٌّ متقاعدٌ من وظيفةٍ في الجيش، أنفقَ عمرَهُ كاملًا في هذه المدينة، ويعرفُ عنها كلَّ شيء؛ يقودُ الغرباء إلى حيث يشتهون. أغلبُ من يأتي إلى هذه المدينةِ إنَّما طلبًا للجسد. في جيب الرجلِ ألبومُ صورٍ للعاهرات، كلُّ صورة مرفقةٌ برقمٍ هاتفيّ.

كنتُ أسيرُ إلى قبرٍ، أعطيتُ ذلك الرجلَ الخمسينيَّ بعضَ تفاصيلهِ. سرتُ إلى قبرِ شامةَ يومَ الجمعة، يومَ الزيارات، معتقدًا أن لا أحدَ لشامةَ بعد الأشقر...

ما إن دخلتُ المقبرة حتى تناهتْ إلى عينَيَّ شُقرتُه، فركتُ عينَيَّ

مرارًا غيرَ مصدِّقٍ. توقَّفتُ أكثرَ من مرَّة، لأنَّني خفتُ أن يخذلني أمامَهُ قلبي. كانتْ تنخرُ ذهني في تلك اللحظةِ فكرةٌ مجنونةٌ: أنَّهُ لم يمتْ، وها قد سبقني إلى قبرها. كانتْ الشقرةُ شقرتَه، وكان الرجلُ يسيرُ بي صوبه بتثاقلٍ، لكنَّ شعرهُ كان يقفُ بيني وبين ملامحهِ. انداحَ قلبي داخلي بقوَّةٍ. أزعجني خفقانه. كنتُ خائفًا من أن ينتهي بي إلى حالةِ انطفاءٍ، قبلَ أن أنتهي إليهِ وأتأكَّدَ من أنَّه الأشقر؛ الأشقرُ الذي أعرفُه، والذي لم أعثر على جثَّته تحتَ إسمنت البناية... كنتُ كلَّما اقتربتُ منهُ ضاقتْ بي الدنيا واختنقتُ بدهشتي...

كانَ يقفُ قبالة قبرِ شامةَ، وقد همسَ بذلك الرجلُ البدينُ قبل أن نصلَ إلى القبر. وأضاف أنَّ الرجلَ الواقف على قبرها يقربُها. لم أجد متَّسَعًا من الوقت لأسألهُ عن أيّ قرابةٍ يتحدَّث، لأنَّني لم أكنْ أجدُ مجرَّد هنيهةٍ ألتقطُ فيها أنفاسي وأهدهدُ خوفَ قلبي. سرتُ إليهِ غيرَ آبهٍ بكلمات الرجلِ. حينَ شددتُ على ذراعهِ، استدارَ الرجلُ مذعورًا. كانَ هو الأشقرَ ولم يكن هو في آنٍ... أيُعقَلُ؟!!

طفرَ الدمُ إلى ملامحي، وأنا أواجهُ ارتباكهُ بوجهٍ لا يقلُّ ارتباكًا. كانَ هو الأشقرَ الذي أعرفُ، لكنَّ في عينيهِ، في زُرقتهما، في أعماقِهما بلاهةً لا صلةَ لها بهِ، وخوفًا لا يعنيهِ في شيء، كأنَّما هو الأشقرُ من دون ذاكرةٍ وتاريخٍ. جفلَ مبتعدًا قبل أن تحطَّ عيناهُ على يدي الناقصةِ، ويلهجَ بلغةٍ لم أفهمها. تدخلَّ الرجلُ نفسُهُ، وتحدَّث بالأمازيغيَّةِ حديثًا غامضًا، قبل أن ينتشلني من غيبوبتي النفسيَّة بعبارةٍ، ستبحرُ بي عميقًا في ذاكرة الأشقر:

ـ إنَّه توأمُهُ؟!

هزّتني في الأعماقِ تلكَ العبارةُ. تراهُ كذبَ حينَ قالَ إنَّ أخاه ماتَ منتحرًا، بعدَ أن رأى موتَ شامة، أم أنَّ في الأمرِ سرًّا ما؟ كنتُ أعيشُ صخبًا داخليًّا حال دون البوحِ بأسئلتي القَلِقة. أمّا هو، فقد بدا على وجههِ الخوفُ، وهو يسألُ بمرارةٍ إن كانَ أخوهُ، بعدَ كلّ هذه السنوات، في قيد الحياةِ؟ لم أبُح لهُ بسرٍّ، ولم يبالغ هو في السؤال. جفلَ مبتعدًا بخوف، وتركني للأسئلةِ الصعبةِ، ولنظراتِ الرجلِ البدين الذي ظنَّ أنَّهُ سيُقدِّمُ إليَّ أسرار المدينةِ، فإذا بي أسحبُ من جُعبتي بعضَ تاريخها. قدَّمَ إليَّ قبر شامة المجدب باقتضاب. جلستُ على حافّتهِ الإسمنتيَّةِ أقاوم هديرَ الأسئلةِ داخلي. أخذتُ زجاجةَ ماء الزهرِ الخضراء التي نسيها الأشقرُ المزوَّر، سقيتُ ترابَ قبرها، وضعتُ إكليلَ الوردِ عليه، وقرأتُ بصوتٍ خفيضٍ آياتٍ من القرآن...

وقبل أن أنسحبَ من المقبرةِ، نقدتُ الرجلَ البدينَ مالًا، وسألتُه عن الأشقرِ الآخر؛ الأشقر الذي يعنيني، فردَّ بعدَ أن ظلَّ ساهمًا لزمنٍ، كأنَّه في داخله كانَ يقفُ على الأرشيفِ المغبرّ لتاريخ هذه المدينة، يقلِّبُ الأوراقَ بحثًا عن سيرةٍ، قالَ، فيما بعد، إنَّها شغلتِ الناس بغيابها أكثر ممّا شغلتْهم بحضورها. أمّا عن توأمهِ، فقد أكَّدَ لي أنَّ حياةَ قد أذاعتْ بين الناسِ خبرَ انتحار ابنها، وأجزلتْ للصحافةِ العطاء لتتفشّى الكذبة... كلُّ هذا خوفًا عليهِ طبعًا من بطشِ أخيه.

تساءلَ دليلي إن كنتُ أودُّ أن أمعنَ النبشَ في سيرة الأشقر الغائب، فأجبتُ بالإيجاب. أطرقَ يفكِّرُ لحظاتٍ قبل أن يُخرجَ من جيبهِ ألبومَ الصورِ، ويشرعَ في تقليبِ صفحاتهِ. استقرَّ على وجه شابَّةٍ يدلُّ وجودها في ذيل الألبومِ على أنَّها حديثةُ عهدٍ بحرفةِ الجسد، قالَ بحماسة:

ـ هذه تحفظُ سيرة الأشقر القاتل. يُقالُ إنَّه شغفها حبًّا. عمومًا، إن رتَّبتُ لك معها ليلةً، فلا بدَّ من أن تستفيدَ ممّا تعرفه هي، ولا بدَّ من أن يُفرحها ما تعرفُه أنت... ما رأيك؟

شردتُ عنهُ طويلًا، وأنا أستعيدُ حكايات الأشقر. لم يحدث أن حدَّثني عن هذه التي زعمَ الرجلُ أنَّها تعرفُ عنه الكثير، وأنَّه شغفها حبًّا!

أجبتُه موافقًا لئلّا أتركَ هذه الفرصةَ تضيعُ منِّي، فسحبَ هاتفهُ وركَّب رقمها. حينَ منحهُ الأثيرُ صوتَها، حدَّثها عنِّي، فأصرَّتْ على لقائي فورًا. اعتذرَ وأصرَّ على أن تمنحني ليلها وبعض الدفء...

* * *

لاحقتني الأسئلة ذلك اليوم؛ الأسئلةُ الصريحة والنظراتُ المتوجِّسة المبطَّنةُ بالأسئلة. كلٌّ يودُّ أن يعرفَ نهايةَ ذلك العاشق العظيم، وهل تحقَّقتْ نبوءةُ «سيد الزين»؛ وليِّ هذه المدينة الصالح. فقد شاعَ بين الناس أنَّه أسرَّ إلى بعض أصفيائه ومريديهِ قبل وفاتهِ، أنَّ ذلك الأشقر القاتل لا بدَّ من أن يعودَ إلى هذه المدينة الآثمةِ، ولا بدَّ من أن «يمحوَ بآثامه كلَّ آثامها!!» ألقى بينهم هذا اللغز، وتركهم بعدهُ يختصمون. زُرتُ مقامَهُ وفي يدي التمرُ وحزمةُ شموعٍ مثلما طُلبَ منِّي. تذكَّرتُ حديثَ الأشقر عنهُ، وكيف أنَّهُ كانَ مرآة باطنِهِ. فيهِ رأى بياضهُ الملائكيّ، وبهِ راقب تشوُّهاتهِ وهي تتفاقمُ زيارةً بعدَ أخرى...

وفي الليلِ، انتظرتُ الرجل الضخم طويلًا في مقهى وسطَ المدينة. جاء أخيرًا، يحملُ كيسًا بلاستيكيًّا يضمُّ لوازمَ سهرتي: عشاءً وزجاجةَ نبيذ، ومضى بي إلى منزلِ مروة. كانَ اسمُها مروة، أو هكذا

ادَّعتْ. حينَ انتهينا إلى ذلك البيتِ الغائرِ في حيٍّ شعبيٍّ، طرقَ الرجلُ الضخم الباب، وما هي إلَّا ثوانٍ حتى انفتحَ. دفعني إلى عناقها وسحبَ دوني الباب. تغلغلَ عطرها في ذاكرتي، وأربكَني. كانَ يقفُ بيني وبينها الظلامُ. تناولتْ من يدي الكيس البلاستيكيّ، وسحبتني من ذراع اليدِ المبتورة... مثقَلًا كنتُ بخوفٍ من أن تنزلَ يدُها في حلكةِ هذا الممرّ بحثًا عن يدي، ولحسنِ حظّي أنَّ ذلك لم يحدث. بادرتني حينَ انتهينا أخيرًا إلى النور بعبارات الترحيب: كانت في الثلاثينَ أو أقلّ، أجمل من صورتها في ألبوم ذلك الرجل. قدُّها الميّاس يذكِّرني بمريم. في ملامحها براءةُ مَن لم يعرف من الدنيا سوى مباهجها. علَّمتني الحياة أنَّ هذا النوع من الوجوه الذي يُظهِرُ البراءةَ يكونُ مبطَّنًا بشقاءٍ كبير.

كانتْ بهيَّةً في فستانها الأسود الذي يمنحُ لظهرها عريًا كاملًا ومثيرًا. واضح أنَّ بها لهفةً إلى الحديثِ عن الأشقرِ، لكنَّني أبديتُ مماطلة، لأنَّني في أعماقي لم أكنْ أعرفُ الحدود الفاصلة بين ما يجدر بي أن أكتمَ وما يمكن أن أقول. كما أنَّ خلوتي بها أربكتْ شهوتي. فمنذ رحيلِ مريم وأنا أتجنَّبُ خيانتها.

لكنَّ مروة هذه، بقدّها الذي يبزُّ مريم، بصِلَتها غير المعلنة بعدُ بحكاية الأشقر، وجدتْ لها في صُلبي غلمةً... تُحدِّثني عن أشياءَ هامشيَّة وهي تعدُّ طاولة العشاء. بلاطةُ ظهرها العارية تُشعلني، وآلتي التي طالما أهملتُ تصحو باحتجاجٍ...

سألتني عن مكان الأشقر وهي تنحني على الكأس ـ تملأها ـ ونهداها العاجيّانِ نافران يتلصّصان عليَّ من فستانها. طالَ بي تردُّدي زمنًا، قبل أن أقول إنَّني التقيتُهُ في سوريا. خبطتْ بهلعٍ على صدرها،

وأبدتْ جزعَ من يعتقدُ بيقينٍ راسخ أنَّ سوريا هذه درجةٌ من درجات جهنَّم!! تطلَّعتْ إلى التلفاز، وتمتمتْ بكلماتٍ لم أستبن معناها، ثم تطلَّعتْ إليَّ قائلةً بجزعٍ فيه الكثيرُ من الأمومة:

ـ كيف حالهُ، أهو بخير؟

طالَ شرودي مرَّةً أخرى. كانَ ارتباكي واضحًا. لم أعرف إن كانَ يجدرُ أن أخون الصدق أم أنعَى إليها الحقيقةَ. قلتُ باضطرابٍ:

ـ بخير. . . هو بخير. كلُّ ما في الأمر أنَّهُ ضاعَ منِّي في زحمة الحرب السوريَّة، وجئتُ أبحثُ عنهُ هنا. . .

ـ صحيح؟ أهو بخير حقًّا؟ ياه! تقصدُ أنَّه لا يزالُ في قيد الحياة؟ يقولون. . . أووه.

كانتْ تتكلّمُ، وتغالبُ عبرات طفحتْ من عينيها، كأنَّ الكلام في جوفها كثيرٌ يتدافعُ فتغصُّ به. واضحٌ أنَّها عاشقةٌ طاعنةٌ في العشقِ، لكنَّ الغريب أنَّ الأشقر لم يأتِ على ذكرها قطّ، قلتُ:

ـ لم يمتْ. حدَّثني عن حياتهِ، لكنْ لم يحدث أن أتى على ذكر اسمِ مروة!

ـ وربَّما لن يفعل. . . أنا يا سيِّدي سيِّدةُ الظل، كبرتُ إلى جواره. كانَ يراني ولا يراني. . . فقد سرقتهُ شامةٌ من الحياة قبل أن يراها. . .

وانتصبتْ واقفةً. . . صبَّتْ لها كأسًا ثانيةً، ومدَّتْ إليَّ أصابعها المرمريَّة النحيفة. تمسَّكتْ يدي الوحيدةُ بأصابعها، فاقتادتني إلى غرفةِ أسرارها. دار المفتاحُ في رَحِم القُفلِ قبل أن ينفتحَ على العتمةِ. لم أكن أعلمُ أيَّ جنونٍ تقتادني إليه إلَّا بعد أن أشعلتِ المصباحَ. كان

لونه أحمر، لا يمنحُ العينَ الإضاءةَ التي تشتهي. حمرَتُهُ وخفوتُه يولِّدان في الأعماقِ إحساسًا بالدهشة والذهول. كانَ في الغرفةِ سريرٌ يتيمٌ وشمعدانٌ شامخٌ كأنَّه قرون وَعْلٍ. . . أمّا الجدرانُ، فقد كانتْ تكسوها أوراقُ الجرائد. اعتقدتُ أوَّل الأمر أنَّها للزينة، لكنْ حينَ أمعنتُ النظر، وجدتُ أنَّها لم تكن جرائد كاملة بل قصاصات! وحين أشعلتُ شموعَ الشمعدان، لاحَ في كلِّ قصاصةٍ وجهٌ له شبحٌ في الذاكرة، أيعقلُ أن يكونَ. . .؟

تطلَّعتُ صوبها بوجهٍ يكادُ ينقلبُ إلى علامة استفهام، فهزَّتْ رأسها مؤكِّدةً ما يجولُ في خاطري، من دون أن تردفَ ذلك ببنت شفةٍ. . . هو الأشقرُ يملأُ بصُورِه وأخباره جدرانَ هذه الغرفةِ. تركتني لمدّة مع أرشيفِ الأشقر، ومعَ تلك العناوين الصادمةِ، قبلَ أن تعود حاملةً كأسينا وزجاجةَ النبيذ. كنتُ أستنجد بها كلَّما استشكلَ عليَّ مقالٌ ولم أجد سبيلًا إلى فهمه. أغلبُ المقالات أكَّدتْ ما قالهُ الأشقرُ في ذلك اليومِ الحزين. وحدها تلك القصاصة كانتْ بين كلِّ تلك القصاصات نشازًا. كانَ ورقُها الطريُّ يدلُّ على أنَّها جديدة، وهذا ما أكَّده تاريخها. . كانَ عنوانُها يبوحُ بصدمة:

«سيِّدة خمسينيَّة متَّهمة بفضِّ عذريَّة أكثر من عشرين طفلة بمدينة. . .»

تلقَّفت مروة سؤالي قبلَ أن أكمله. قالت إنَّ الأمر يعنيها. وحينَ واجهتُها بعبارة «كيف؟» أغرورقَتْ عيناها. أشاحتْ بوجهها عنّي، ثم انسحبتْ. لم تكنْ تلك القصاصات تقولُ غيرَ ما سبقَ وقالهُ الأشقر، لكنَّ تلك القصاصةَ السرّ، حرَّضتْ عليَّ الفضولَ، لأنَّ لها صدًى عميقًا في حكاياتِ الأشقر. في حديث البدايات، قالَ إنّ امرأةً سرقتْ بشبَقها

الغريب عذريَّةَ أمِّهِ، وإنَّ كلَّ الخسارات التي تلت هذا الأمر هي في الحقيقة امتدادٌ له!

عدتُ إليها مدثّرًا بعناقي ذبولها. تعلَّقتْ أصابعها بصدري كطفلةٍ مذعورة. كانَ واضحًا أنَّ الزجاجة حرَّكتْ شيئًا ما راسبًا في أعماقها. حينَ حطَّتْ يدي الوحيدةُ على ظهرها العاري، شعرتُ بالحزن. أمّا حينَ طفرتْ الدموعُ من عينيها، فلا أدري لماذا قبَّلتُها. منحتني شفتيها طوعًا ثم اندسَّتْ في حضني بعينين مخضلَّتين بالدموع. فرّت إلى كأسها الثالثة، ثم سالتْ لوعتُها دمعًا، قبلَ أن تنزفَ ذلك الكلام الذي سينوء بثقلهِ في أعماقي كمرساة صدئة. زفرتْ زفرةً حرَّى، ثم جلستْ إلى جواري، قائلةً:

ـ الحبّ العظيم في الغالبِ حبٌّ من طرفٍ واحد. لنقل إنَّني كنتُ مسكونةً بهِ في وقتٍ كانَ مسكونًا بسواي.

انتصبتْ واقفةً، سارتْ صوب الزجاجة مرَّةً أخرى، ملأت كأسها، ثم أطلقتْ من هاتفها شجنًا موسيقيًا. لم أكن أعرفُ ما تقول تلك الكلماتُ الأمازيغيَّة، لكنَّها أصابت قلبي بوجعٍ غامض! عادتْ مروة إليَّ حافيةَ القدمينِ، عرضتْ عليَّ علبةَ سجائر خضراء (ماركيز)، لكنَّني تمنّعتُ بلباقةٍ، فهمَتْ منها أنَّني لا أدخِّنُ، لكنَّني كذلك لا أمانعُ أن تدخِّنَ هي إن اشتهتْ... أشعلتْ سيجارتها الأولى، سحبتْ نَفَسًا عميقًا، قبل أن تسترسلَ في حديثها:

ـ كانَ يُعجبني في طفولته كلُّ شيء! قد أزعمُ آسفةً أنَّ أكثرَ ما ورَّطني فيه هو حبُّه المجنون لشامةَ، وتلك الأشياءُ الجميلة التي يقترفُها لينال إعجابها. أعجبني أنَّهُ لا يكفُّ عن أن يكونَ عاشقًا حقيقيًّا. كما

كنتُ أحقدُ على شامةَ التي كانت تعذِّبهُ، وبين أيدي صويحباتها تضعُ نشرة عذاباته. . .

وتطلّعتْ مروة إلى السقفِ، مثلما كانَ يفعلُ الأشقرُ حينَ يغالبُ الدموعَ التي تكتظّ بها عيناه، ثم أردفتْ بحماسة من يتذكّر أمرًا نسيهُ لسنوات:

ـ يا لجنونِ صديقكَ يومَ قرّرت أمُّها أن تبيعَ عذريَّتها، حطّمَ ذلك الخبرُ قلبَهُ، فأقامَ الدنيا ولم يقعدها، وحينَ لم يجد آذانًا تستوعبُ فداحةَ مصابه، شقَّ معصمه قربانًا لحبّها.

ـ لقد حدّثني عن الأمرِ فعلًا!

ـ حينَ رأيتهُ يضيعُ منّي، اخترقتُ جموعَ المتحلّقينَ حولهُ. شدَدتُ المعصمَ المفتوحَ لأستوقف دمَه، لكنَّه كان مثلهُ دمًا طائشًا يعرفُ في عزِّ الحصار كيف يشقُّ طريقه. قلتُ لهُ ـ قد لا تصدِّق ـ إنّني أحبُّه. قلتُ له، وأنا أشدُّ جرحَه المفتوح، إنَّني يمكنُ أن أسدَّ مسدَّ شامةَ. كنتُ مراهقةً ساذجة! حينَ مضتْ به سيّارةُ الإسعاف، سعيتُ إلى المستشفى. أكانتْ صدفةً أن أستبقيه بدمي ليمعنَ في خرابي؟ حينَ سمعتُهُ يتمتمُ باسمها قبل أن يستعيد وعيهُ، شعرتُ بأنَّ دمي فيهِ خانني. خرجتُ منكسرة، بعد أن التمستُ من الطبيب والممرِّضاتِ اللواتي شهدنَ تبرُّعي له بدمٍ أفقدني الوعي مرَّتين، أن تظلَّ هويَّتي سرِّيَّة. . .

هزَّني اعترافُها. استدرجني إلى الأشقر وبوحه. كنتُ أشعرُ، وأنا أتأمَّلُ عينيها الناعستينِ، كما لو أنَّ ما يحدثُ غيرُ حقيقيّ؛ كما لو أنَّني اقتحمتُ عالمًا موازيًا لواقعي. . . فرحتُ في سرِّي، لأنَّها أفضتْ إليَّ بسرٍّ استعصى على الأشقر. قلتُ:

ـ حقًّا، قالَ لي إنَّهُ يَدينُ بحياتهِ لفتاة غامضةٍ. لكنْ أذكرُ كذلك أنَّهُ قال لي إنَّه مَدينٌ لهذه الفتاة بأمرٍ آخر... فهي التي فتحت عينيهِ على شريطٍ أفسدَ حياته. وعلى الرَّغم من ذلك، فقد قال إنَّها ظلَّتْ بالنسبة إليه سرًّا مبهَمًا وجميلًا...

ـ هل قال حقّا هذا؟ ياه... أنا «فتاة الدم». لم أشأ أن تكونَ أولى رسائلي إليه بالغةَ الإيلام، لكنْ حزَّ في نفسي أن يظلَّ مغفَّلًا أمام نظراتٍ تتراوحُ بين الشفقةِ والاتهام والشماتةِ. ولأنّي أحبّه، لم أجد مندوحة عن الكتابة. تمنَّيتُ قبل الحرائق القاتلة لو بعطفهِ يلتفتُ إلى بؤسي، لكنْ لم أطالبهُ بشيء. الحبُّ على عرش البهاء يكونُ حينَ نحبُّ من دون أن نلزمَ بنا أحدًا؛ من دون أن نتوسَّل صَدَقات عاطفيَّةً تسندُ صرحنا الآيلَ إلى الخراب!

كانَت ملامحها تتَّسقُ وبوحَها. بريق عينيها يقولُ مثلَها كلَّ أحزانها. كانَ وجهها يتألَّمُ كمنْ ينزعُ عن جرحه الغائر الضمادة، وهو يعلمُ مسبقًا بأنَّ ما سيراه لا يسرّ! تنهَّدتْ مروة ثم تطلَّعتْ إلى السقف، وهي تغالب دموعها. كانَ واضحًا أنَّها انتهتْ إلى سبيلٍ إلى التعايش مع خسارتهِ من دون أن تخسرَ في قلبها حبَّهُ. واضحٌ كذلك أنَّ في قلبها ورمًا آخرَ؛ ورمًا أشرسَ وأعنف، وحدهُ الأشقرُ كانَ قادرًا على أن يستأصله. قالت، بعدَ صمتٍ طالَ أكثر ممّا يجب، إنَّها كانت تكرهُ شامة، لأنَّها على الرَّغم من جمالها المتواضع؛ على الرَّغم من عجرفتها، كانتْ تسرقه منها. قالت إنَّها كانتْ ساديَّةً، حينَ تفنَّنتْ في تعذيبه، وتوَّجتْ كلَّ أوجاعه بذبحةٍ عاطفيَّة!

وصمتتْ. ازدردتْ ريقها بعدَ رشفةِ نبيذٍ، وتطلّعت إلى السقفِ. كانَ جِيدها الحليبيّ الطويل يشجّعُ على اقترافِ قبلةٍ، لكنْ أحسستُ بأنَّ

الوقتَ غيرُ مناسبٍ، كما أنَّ مريم كانت، لسببٍ غامضٍ، تُشاركنا في هذه الليلة... استرسلتْ بهمسٍ:

ـ بعدَ موتها، ما عدتُ أكرهُها، لكنَّني كذلك لم أُشفقْ عليها، فقد لاقتْ النهايةَ التي تستحقّ...

وسارتْ على السجّاد الأحمرِ حافيةً. أشعلتْ سيجارة من أخرى تحتضرُ بين أصابعها المرمريَّة. ومن دون أن تلمس فستانها، تخفَّفتْ من حمّالة صدرها البيضاء. سحبتها بخفَّةٍ ساحرةٍ تُخرِجُ من بين نهديها الحَمَامَ، ثم عادتْ تسحبُ إلى صدرها دخانَ السيجارة بشراهة. كنتُ أحسُّ بأنَّ في صدرها خلاءً موحشًا، يزيده دخانُ السيجارة وحشةً! باغتتني بعدَ فترة صمتٍ بنظرات شرسة غامضة، ثم استرسلتْ:

ـ ما الذي يدفعني لأخرطَ على مسمعيكَ أسراري، يا وليد؟ ألأنَّكَ صديقُهُ؟ هل عقلي الباطن يدركُ مسبقًا أنَّ فرصكَ في لقائه أقوى من فرصي، وأنّكَ يمكنُ أن تُخرجني من دائرة الظلّ؟

ـ حتمًا سأفعلُ... لو فقط ألتقيهِ!

عادتْ إلى زجاجةِ النبيذ، صبَّتْ كأسًا أخرى، وسعتْ إلى الهاتف. أخرستِ الأغنيةَ الأمازيغيَّةَ، ثم اندفعَ صوتُ فيروز كمطرٍ خفيف «إدِّيش كان في ناس عْ المفرقْ تنطر ناس... وتشتّي الدّني...» كانَ صوتُ فيروز ناعمًا، عاد بي إلى سنواتٍ ولّتْ، أيّامَ كنّا أنا ومريم ندهكُ شوارعَ بيروت غير آبهين بالمطر، نغنّي ونرقصُ، وفي كلّ ثانية نلعنُ الأحزان ونقفُ على حافَّة الجنون. تنهَّدتْ بعمقٍ سيِّدةُ الظلال، قبل أن تقول:

ـ بعدَ هلاكِ شامة، اندلعتِ الشائعات. فهذه المدينةُ لا تعرفُ

جرائمَ القتل إلّا نادرًا، وإن حدثَ وسقطتْ ضحيَّةٌ، فلا بدَّ من أن تسيلَ الشائعات شهورًا، وتظلَّ الموضوعَ الوحيدَ الذي يرافقُ كؤوسَ الشاي بين النساء، أو يسافرُ بين طاولاتِ المقاهي، تغذّيهِ النمائمُ والأكاذيب المنمَّقةُ بحذق بالغٍ. فالناس، مهما بالغوا في إبداء الشفقة أو الحزن، حينَ يقعُ أحدُهم ضحيَّةَ جريمة قتل، إلّا أنَّهم في أعماقهم يستلذُّون الأمر؛ يجدونَ في تتبُّع التفاصيل والحكايات التي تُوَّجَتْ بالجريمة لذَّةً لا تضاهيها لذَّة. ارتحتُ إلى نهايةِ شامة، وارتحتُ أكثر إلى الشائعات التي زفَّتْ إليَّ خبرَ انتحارِ شقيقه. طبعًا، كانتْ إشاعة أُريدَ بها طمسُ سيرتهِ ريثما تهدأ عواصفُ أخيه... ما عدتُ أكرهها، لكنْ مع تلك الإشاعة التي كانتْ تلوكها المدينة، صرتُ أشفقُ على حالها...

واغرورقت عيناها دمعًا، وغصّتْ بكلماتها. لاذتْ بالصمت برهةً، ثم قالت إنَّها كانت متأكِّدةً من أنَّ تلك الإشاعة التي تفشّت بينَ الناس حقيقيَّةٌ، يتناولُها الكبارُ بتحفُّظٍ، ويتداولونها فيما بينهم بهمسٍ مجنون لئلّا تنتهيَ إلى مسامع الصِّبْية. متأكِّدةٌ، لأنَّها الحقيقةُ التي أعدمتْ حياتها مثلما أعدمتْ حياةَ شامة. كانَ كلُّ حديثٍ عن تلك الإشاعة يبتدئ بكلامٍ مستفيض عن لوعةِ حياةَ وحزنها الشديد على وفاة شامة، وينتهي بالحوقلة والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم. وبينَ البداية والنهايةِ حديثٌ غامضٌ، تعرفه هذه المدينة وتغضُّ عنه الطرْفَ. قيلَ إنَّ حزن حياةَ لم يكنْ حزنًا طبيعيًّا، ولوعتَها لخسارة شامة فاقتْ لوعةَ أمّها، فتلك المرأة الحديديَّة، أنثى إسكوبار في هذه المدينةِ، ما كانتْ لتُبديَ مثلَ ذلك الجزع حتى لو كانت الفقيدة ابنتها!

ـ قيل إنَّ شامةَ عشيقَتُها، وإنَّ حِدادها يُخفي تمزُّقاتها النفسيَّة. في

تاريخها الشائه، كانوا يجدونَ أكثر من دليلٍ على شذوذها. أشفقتُ على شامةَ، وكنتُ على يقينٍ بأنَّ تلك الشائعات حقيقةٌ، وأنَّ شامة كانت محظيَّتها الأثيرة... فأنا أعرفُ جنونَ تلك المرأة، لأنَّني، مثل شامة، كنتُ ضحيَّتها!

وسالتْ من محجريها دموع غزيرة. منذُ أن تورَّطتْ في النبيذ، وأنا على يقينٍ بأنَّها تضمرُ خلف زجاج عينيها غيمةً حبلى بالدموع. تضرَّجتْ ملامحها؛ كفكفتْ عبراتها بمنديل؛ شهقتْ بعمقٍ والتصقتْ شفتاها بأصابعها والسيجارة، ثمّ اضطربت أصابعُها قبل أن تفرجَ عن سحابةٍ من دخان وحسرة كانتْ حبيسةَ صدرها، وتردفَ ذلك بكلام يشبهُ البكاء:

- جرّني حبُّه إلى ذلك المنزل السيِّئ السمعة. طبعًا، كنتُ أسكنُ منزلًا لا يقلُّ سوءًا، لكنَّ ذلك المنزل كانَ بؤرة الفساد في المدينة. كنتُ طفلةً حينَ حدثَ ذلك. دخلتُ بهو ذلك المنزل بحثًا عنهُ، فوجدتُ يدها تمتدُّ إليَّ. سحبتني برفقٍ، وابتسمتْ لي ابتسامةً فاترة. كان الجميعُ نيامًا. فكَّرتُ في الصراخ، لكنَّني لم أستطع. شيء ما لن أنساهُ في نظراتها، كان يشلُّني تمامًا. شعرتُ بالذعر وهي تغلقُ الباب، وتطفئ نورَ الكهرباء؛ ثم تشعلُ بعد ذلك شموعَ الشمعدان. الحنان في ملامحها وهي تقتربُ كان مزوَّرًا، وتلك الكلمات التي حاولت أن تضمِّد بها خوفي كانت زائفة. خدَّرتْ أطرافي بهمسها... وهي تعرِّيني. كان وجهها ذابلًا لا يعلن خبثَها. نهبَ الذعرُ كلَّ طاقتي على المقاومة أو الصراخ... بين يديها اللدنتين كنتُ خرقةً تافهة تفعلُ بها ما تريد!

ولم تستطع أن تواصلَ نزفها. هوتْ بليلِ فستانها على السجّاد.

كانَ واضحًا أنَّ الطفلةَ بداخلها تبكي. دنوتُ منها فلاذتْ بحضني، خبطتْ على ظهري بيُسراها كطفلة! ولم أطبِّب جراحاتها المفتوحة ببنت شفة. علَّمتني صحبةُ الأشقر أنَّ الكلامَ في لحظة انكسارٍ حمّالُ أَوْجُهٍ، ثم إنَّ كلماتِ العزاء عادةً ما تستوقفُ النزف، ولم أكن أريدُ لنزفها أن يتوقّفَ. أعدتُها إلى الأريكة. ناولتُها كأس النبيذ. كفكفتُ دمعها بمنديل، وتركتُها لأحزانها... امتدَّ صمتُها على مدى ثلاثِ أغانٍ أخرى لفيروز. وحين سالَ من هاتفها ذلك الشجنُ الأمازيغيّ؛ حينَ شهقَ بالأسى ذلك العودُ، واهتزَّتْ بتحفُّظٍ فضائحُ الدفوف، واندلعَ ذلك الصوتُ الغائمُ شجوًا، قالت:

ـ شامة... شقيقةُ حزني. معًا اخترقتنا الإصبعُ ذاتها، وأعدمت حياتينا مبكرًا، وأورثتنا العاهات النفسيَّةَ ذاتها.

ـ حدَّثني عن صدمتهِ لمّا اكتشفَ أنَّ هناكَ من سرقَ عذريَّتها، اعتقدَ أنَّ شقيقهُ هو من فعل... في حين ألـحَّتْ هيَ على براءتِهِ، خرَّبَ وجهَها ضربًا، ولم تعترف بمن نهبَ عذريَّتها. في عزِّ انهيارها اشترتْ صفحَهُ بقبلة!

ـ أذكرُ ذلك اليوم، أذكرُ فرحتي بما آلَ إليهِ وجهها. طبعًا، ما كنتُ أعرفُ ولا كان صديقُكَ يعرفُ أنَّ شامة مجرَّد ضحيَّةٍ... حينَ علمتُ بمصابِها، بعدَ هلاكها، تمنَّيتُ لو يعلمُ صديقكَ فقطْ بأنَّها كانت تجدُ فيه، وربَّما في أخيه أيضًا، موضوعَ انتقام. فهي كانتْ تحتَ سطوة عُقَدِها... ثم إنَّ وضعها كانَ صعبًا، لأنَّها كانتْ محكومةً بالسجن إلى جوار مغتصبتِها...

وعادتْ صوبَ الزجاجةِ. كانَ واضحًا، من ترنُّح خطاها، أنَّها

بدأتْ تدخلُ طورَ الثمالة. . . تطلَّعتُ إلى الساعةِ المعلَّقةِ على الجدارِ، كانتْ عقاربُها تزحفُ بتلكّؤ صوب الثالثة صباحًا. تطلَّعتْ إليَّ بعينينِ لامعتين، وأردفتْ:

ـ لعلَّك تستنتجُ الآنَ أنَّ تلك القصاصةَ ـ النشاز في تلك الغرفة، تخصّ «الماما حياة» كما يسمِّيها الجميع. لقد تمَّتْ إدانتُها منذُ ما يناهز السنة بتهمةِ اغتصاب فتيات. حينَ انفجرتْ فضائحها في المدينة، لم أتردَّد في الإدلاء بشهادتي، لكنْ لا يبدو أنَّها ستُمضي أكثر من سنةٍ بينَ جدران السجن. لوبيُّ المخدِّرات والإتجار بالجسد يبدِّدُ ثروةً بحالها هنا وهناك، يشتري ذممَ أولياء المغتصَباتِ، ويساومُ كلَّ من اتَّصلَتْ يده بهذه القضيَّةِ من رجال الشرطة والقضاء. . . والذي لا تشتري ضميرَهُ الأموالُ الطائلة، لا بدَّ من أن تستميلَ قلبَهُ الجميلاتُ، أو تخيفهُ التهديدات!!

كانتْ لا تزالُ واقفةً. سقتْ نفسها كأسًا أخرى وسقتني. كانت جميلةً بحقٍّ. تُرى أكانتْ هكذا قبل أن تحكي؟ كانتْ جميلةً، لكنّها بعدَ كلِّ ما حكتْ، صارتْ أجملَ. لن أجلوَ الأسباب التي تجعلني أجزُمَ كلَّ الجزمِ، بأنَّ بوحها زادها تألُّقًا، لكنَّني أشعرُ بذلك. . . ربَّما لأنَّ الحكيَ نافذةُ الروح على وجهِ صاحبها!

نظراتُها كانتْ تشي بأنَّها منسحبةٌ تمامًا إلى أعماقها. . . ضائعة في سفوح الذكرى، أو عالقة في تلافيف قلبها. لم أبالغ مثلها في الشربِ. كنتُ أشتهي أن أوثِّقَ تفاصيلَ الليلةِ لأضمِّنها كتابي، لكنَّ سيِّدةَ الظلِّ هذه، كانتْ تستفزُّ شهوتي بجسدٍ باسقٍ ونحيل، يذكِّرني بمريم. حينَ سعيتُ إليها وضلعتُها إليَّ بيدي الوحيدة، فهمتُ من عينيها الناعستين أنَّ النبيذ والخيبةَ قد أنهكا جسدها. . . تمسّكتْ بعناقي. شدَّتْ على

ملابسي بأصابعها المنتصبة، ورويدًا رويدًا شرعتْ أصابعها في الارتخاء. دامَ عناقنا عمرَ أغنيةِ «أحبّك لو تكون حاضر...» لطلال مدّاح، لأنتبهَ، في فترة الصمتِ بين أغنيتين، إلى أنَّها نامتْ. حملتُها. لم تُسعف اليد الناقصة على حملها حملًا يليقُ. لم أعرفْ على وجهِ التحديد أين تقعُ غرفةُ نومها، فالتجأتُ إلى السرير الصغير في تلك الغرفة الحمراء، غرفة ذكرياتها. وضعتُها هناكَ، وعدتُ إلى الطاولة. جئتُ بالولّاعة، وأشعلتُ شموعَ الشمعدان!

تُرى، هل كانت مصادفةً أنَّهُ يتّسعُ لإحدى عشرة شمعة؟!

أمضيتُ ما تبقّى من الليل أقرأُ القصاصات المعلَّقة على الجدار. تجاسرتُ على فتحِ رفوفِ أسفلِ المكتب الصغير في الركن الركين. كانت تملأُها ثروةٌ من الكتب. وفي الصباح، حينَ كانتْ ساعةُ الهاتف تشيرُ إلى السادسة، زاحمتها في السرير الضيِّق. اندفنتُ إلى جوارها وشددتُها إليَّ. اندفعَ عبرَ مسامّ جسدي دفءٌ لذيذ، وهزَّ أعماقي حنينٌ غامض إلى مريم، وأنا أشمُّ شعر مروة وأحشرُ أنفي في جِيدها. ما كنتُ أدري، وأنا أنزفُ دمعةَ لوعةٍ واشتياق، أنَّ تلك اللحظة المضرَّجةَ بالخيانةِ هي آخرُ عهدي بالحنين إليها، وأنَّ تلك الدمعة التي سالتْ من عيني هي آخرُ دمعةٍ أذرفها شوقًا... لم أكن أعرفُ، وأنا أسيلُ لوعةً على جسد الغريبة، أنَّ قَدَرًا عنيفًا يتلصَّصُ من ثقوبِ الغيب على مرائيَّ وينفجرُ ضاحكًا!

* * *

لم أنم في بيت مروة سوى ساعتين اثنتين. أفقتُ على قبلاتها العذبة، وأصابعها التي تسافرُ مخلخلةً شعري. بعد الإفطار، حينَ

هممتُ بالرحيل، توسَّلتْ أن أعودَ إليها متذرِّعةً بأنَّ معَين الحكايات بيننا لم ينضب. كانَتْ عيناها تصرّحانِ بوحدةٍ مربكة.

تسلَّلتُ من منزلِها خفيةً. سرتُ بين الأزقَّة الضيِّقة إلى أن انتهيتُ إلى الفندق. لم ألبثْ في غرفتي طويلًا. حملتُ الحاسوبَ الصغير، ومضيتُ أبحثُ عن مقهًى يقدِّمُ، مع قهوةٍ أرمّمُ بها رأسي، وصلًا بالإنترنيت على طريقة «الواي فاي».

على الرغم من الأيّام الحافلة بالمفاجآتِ، فإنَّ تلك الأصفار؛ تلك الأصفارَ العديدة خلف الرقم الذي وعدَتْ به تلك المجلَّة نظيرَ التقريرِ، أقامتْ في ذهني، ورقصتْ روحي في مداراتها طويلًا. هربتُ أوَّل ما أُدخلتُ القنّ السرِّيّ الخاصّ بولوج الإنترنيت، إلى علبة البريد الإلكترونيّ، حالمًا بالأصفار والثروة الكبيرة التي لا بدَّ من أنها ستُسعفُ على كتابة الأشقر، وتقفِّي أثر مريم!

لكنّ ما وجدتُهُ في البريد هو ما لا يمكنُ، في أيّ حال، أن أتوقَّعهُ! حملتني تلك الرسالةُ سنواتٍ ضوئيَّةً جهةَ السماء، قبل أن تتركني سابحًا في الفضاء. كلَّما حاولتُ أن أصحوَ، امتصَّني ثقبُ الفجيعة الأسود. كلّما حاولتُ أن أشهقَ بنَفَسِ أوكسجين، سرقتْ أنفاسيَ الصدمةُ. للحظاتٍ، وأنا أقرأ الاسم، خلتُني بلا قلبٍ. لم أستشعر نبضَ قلبي ولا ضجيجَهُ اليوميّ. كنتُ أحسُّ بأنَّني مجوَّفٌ، وأنَّ اليأس يهدمُ بمعولهِ كلَّ ما ضمَّتهُ الجوانح.

كانَتْ بين الرسائل التي تراكمتْ في البريد رسالةٌ باسم «الأخ الكبير». ذُهلتُ وأحسستُ لحظتَها، كما لو أنَّهُ مدَّ يدًا بين الضلوع وأخذَ يعتصرَ القلبَ بقبضته النائمة أبدًا في القفاز الأسود. اختنقتُ

واستقرَّ عقلي على قناعةٍ راسخة: لا بدَّ من أنَّ ما في الرسالة لا يُسِرُّ. ما كنتُ أحسبُ أنَّني على وشكِ أن أضعَ رِجلي على لغمٍ. لم تقل رسالتهُ الكثير. كان بخيلًا في كلامهِ حينَ كتب «فرجة ممتعة»، وأردف العبارة برابط إلكترونيّ. حرَّكتُ السهم جهةَ الرابط، ثم ضغطّتُ عليه ببراءة طفلٍ كسولٍ في فقه الخسارات. . .

أحالني الرابطُ سريعًا على موقعٍ سرعان ما اتَّضحتْ ملامحهُ. كانتْ الحروف العربيَّة الفخمة تدلُّ على أنَّني نزلتُ ضيفًا عليهم، وظهرَ أخيرًا الشريط. كنتُ لحدودِ تلك اللحظة، على الرَّغم من دوخةِ الصدمةِ، حُرًّا في أن أتراجع. لكن كيف التراجعُ؟ أليسَ الفضولُ آفةَ البشريَّة؟

سابحًا في فضاءٍ رفعتني إليه الصدمة، ويدُ «الأخ الكبير»؛ يده النائمةُ أبدًا في القفّاز الأسود، لا تزالُ تقبضُ بقوَّة على القلبِ وتعصرهُ. قبل أن ينطلقَ الشريطُ ويزفّ إليَّ المصيبة كاملةً، زفَّ إليَّ العنوانُ نصفَها «هذا جزاء المندسِّين من الصحافة في ثوب الدولة الإسلاميَّة». راودتْ عينَيَّ أطيافٌ، وغشيتني ظلالٌ قبل أن أرى الفضيحة! أمّا حينَ انطلقَ الشريطُ، فقد رأيتهم قادمينَ بها. كانَ شريطُ الفيديو بجودةٍ عالية. سمعتُ الكثير عن أشرطةِ «الدولة الإسلاميَّة» والرعبِ الذي كانتْ تبثُّه في القلوب، وكنتُ بطلَ بعضها، ذلك بأنَّ «الأخ الكبير»، بحكم معرفتهِ بي، أوعزَ إليَّ أكثر من مرَّة أن أذبحَ أمام الكاميرا بعضَ الأجانب، وأوجِّهَ من هناك إلى حكوماتهم رسائلَ بلغتهم، لكنَّ الحقيقةَ هي أنَّني، للمرَّة الأولى، أشاهدُ شريطًا لـ «الدولة الإسلاميَّة!»

كانوا يسيرونَ بها ملثَّمين. وحدها كانتْ تظهرُ بوجهٍ سافرٍ، ولم

يكنْ صعبًا أن أكتشفها. كانتْ على الرَّغم من شعرها الحليقِ: مريم! استفحشَ في أعماقي الحزنُ، وارتجفتْ أصابعي، وأنا أراقبهم وهم يقتادونها لا أدري إلى أين!

في أعماقي، استيقظَ الشكُّ؛ الشكُّ الذي حملتُه في صدري زمنًا، في أنَّ تلك الجميلة التي تحترفُ البلاغة والكلام، سيِّدة نهاياتِ الأشقر، ليستْ إلَّا مريم. استيقظَ ذلك الوسواس داخلي بضجيجِ طفلٍ تحاصره الظلمةُ تحتَ أنقاضِ منزلٍ هالك، قبل أن أندفعَ في دوّامة اضمحلالٍ. وأنا أستعيدُ كلامَ الأشقر وحكاياتِه وحكاياتِها، أيقنتُ أنَّني أنا المعنيُّ باعتذارٍ أوصتْ به الأشقر. كانوا يقتادونها، وكانَ قلبي يسيلُ في قبضة «الأخ الكبير». الصدمة تطوّحُ بي سنواتٍ ضوئيَّةً إضافيَّة في رَحِم الثقب الأسود، أمّا المشاعرُ التي كانَ يسافرُ ضوضاؤها في أعماقي، فقد كانتْ مزيجًا غير متجانس: حزنًا؛ غضبًا؛ ألمًا وغثيانًا...

أُمعنُ في الشريطِ وتغيّبني الذاكرة. تسافرُ في الزمنِ عودةً إلى الأشقر، وهو ينبشُ سيرته ويشرِّحُ سيرة آخر نسائه، تلك التي تحاشى أن يذكرَ اسمها. كانَ يعرفُ القصَّة، ويعرفُ ما يحوكه «الأخ الكبير» في الخفاء!

كانَ يحفُّها أربعة من جُند الخلافةِ الملثَّمين. حاملُ الكاميرا كانَ يقتربُ من وجهها وينأى، كأنَّما ليؤكِّدَ لي أنَّ الملامحَ ملامحُها، على الرَّغم من أنَّ الأشقرَ قد حلقَ شعرها... آه، كانتْ هيَ... كلَّما استقرَّ هذا اليقينُ في ذهني، ضجَّ بي الجنونُ، وغشيتْ عينَيَّ الظلالُ الحالكة... وددتُ لو يُغمى عليَّ؛ لو يبرحُ عقلي مكانه سريعًا؛ لو فقط تُسعفني أصابعي على وضعِ حدٍّ للشريط. كنتُ أعتقدُ أنَّ الرسالةَ،

التي أرادَ الأخ الكبير أن يبلِّغني إيّاها، قد وصلتْ، وأنَّ مريم، مريم التي بدَّدتُ في حبِّها كلَّ العواطفِ، قد ابتلعها السواد. . لكنَّ الحقيقة أنَّني لم أستنزف من الشريط أكثر من دقيقتين. كانَ لا يزالُ يضمرُ دقيقتين من ألم ومفاجآت. . .

لو فقط غادرَني هذا الفشلُ الفجائيّ؛ لو أنَّ عينيَّ المغروستين في شاشةِ الحاسوبِ تقويانِ على مغادرة الشريط! لكنْ هيهات. . . اعتقلَتْ شاشةُ الحاسوب كلَّ جوارحي. لستُ أدري لماذا استبدَّ بي لحظتها، وأنا في جوفِ الصدمةِ، التفكيرُ في الأشقر! في تلك اللحظة الهشَّة التي كان فيها مراهقًا يشاهدُ ـ مثلي ـ شريطَ تلك التي أحبَّها تضاجعُ أخاه، لم تكن تلك اللحظاتُ الحافلةُ بالجنون تؤهِّلني لتحليل أسبابِ طفوِ هذه الصورة بالضبطِ في هذا السياقِ.

كانَ الشريطُ ينتزعني من واقعي، ويزجُّ بي في ثناياه حينًا، ويتغلغلُ بي في الذاكرة أحيانًا. أمّا الزمنُ، فالزمنُ أمام الانسحاق الأكبر يمارسُ أبشعَ خياناته، يباركُ في عمرِ ثوانيهِ. أمّا الدقائقُ، فإنَّهُ ينفخُ في روحها فتنعمُ بعمرٍ مديد. . . كنتُ في تلك اللحظاتِ الجارفة، ولم أكن. . . معلَّقًا من أهدابي وسط غيمةٍ حالكةِ السواد، حبلى بحبالِ برقٍ لاسعٍ يضربُ الأعماق، فتتفحَّمُ. . .

يقتادونها. . . لا بدَّ إلى موتِها، فتنقادُ إلى توجيهاتهم من دون مقاومةٍ. كانتْ مريم، ولم تكن في آن، هي تلك التي حدَّثني عن بهائها وآفةِ حبّها الأشقرُ، وقد تقمَّصتْ وجهَ مريم وجسدها. كانَ عسيرًا عليَّ أن أعترف، بين نفسي وبيني، بأنَّ مريم قد اقترفتْ في حقِّي كلَّ تلك الجنايات!

وانتهوا بها أخيرًا إلى...

مادتْ بيَ الأرضُ، دارتْ بي دوراتٍ، كأنَّ الثورَ حينَ أرادَ أن ينقُلها من قرنٍ إلى آخرَ أفلتها... فهوتْ في سديمِ الكونِ، مثلما تهوي كرةُ طفلٍ في بحيرة!! أقعدوها على ركبتيها، عصبوا عينيها بعِصابةٍ... لحظتَها، وهي جاثيةٌ على ركبتيها مطأطئة رأسَها، إنَّما صادفتْ في نفسي ذكرى لا تبينُ ملامحها. في العادةِ، يقعُ عمومُ الناس في شركِ ذكرى مبهمة تباغتهم بين الفينة والأخرى، من دون أن تضربَ وتدها في موضعٍ معيَّن من الذاكرة...

ومريم، في تلك اللحظة بالضبط، حرَّكتْ شيئًا ما في أعماقي، لا أدري على وجه الدقَّة ما هو! كانَ لا يزالُ في عمر الشريط ما يكفي من الوقتِ لأجلوَ الحقيقة. لم أكنْ لأعرفَ، وأنا مشدوهٌ محمومٌ بنزفٍ في قلبي، أنَّني على موعد مع عشر طعنات أخرى ليكتملَ نصابُ الأشقر وجنونه...

كان واضحًا أنَّ تلك التي حدَّثني عنها الأشقر، سيِّدةَ البلاغة وصاحبةَ الجرح المفتوح مثله على وهم ماضٍ لا يموت، هي نفسُها هذه الجاثيةُ على ركبتيها في انتظار جلّادها، وهي نفسُها مريمُ... مريمُ التي تربَّى القلبُ منذ زمنٍ بعيدٍ على حبِّها... كانَ عقلي في غمرة الدهشة لا يستطيعُ أن يوحِّدَ ما تشتَّتَ من سيرةِ مريمَ داخلي، في قلبي... مريم هي تلك التي أحببتُ، ولطالما انتظرتُ! أمّا حقيقةُ أنَّها المعنيَّةُ ببوح الأشقر الأخير، وأنَّها كذلك جاثيةٌ على قدميها في انتظار موتها، فما كانَ الأمرُ ليستقرَّ في الذهنِ إلَّا مثلما يستقرُّ الماء في رأس الجبل. كانتْ لملمةُ الوجوه والحكايات والصور عصيَّةً جدًّا.

اعتقدتُ أنَّ الرسالةَ التي كانَ يجدرُ أن تصلَ قد وصلتْ، وأنَّ الدقيقةَ التي لا تزالُ في عمر الشريطِ ليستْ أكثرَ من حشوٍ تصويريٍّ بائس؛ فقد قتلني «الأخ الكبير»، وكافأ خيانتي له. كنتُ أحسبُ أنَّ الشريطَ باحَ بكلّ أسراره، وأنَّه لا بدَّ من أن ينتهي بدمٍ يطيشُ. لا بدَّ من أن يذبحني بها مثلما ذبحني، من دون أن أدري، رفيقُ تيههِ الأشقرُ. لا أدري لماذا ظللتُ أبحلقُ ببلادة في الشريط منتظرًا ذبحها. صحيحٌ أنَّني كنتُ بعيدًا كلَّ البعدِ عن واقعي، لكنْ ربَّما لو حاولتُ لأسعفتني وقفةٌ حاسمةٌ...

كنتُ متأكِّدًا من أنَّ الشريطَ سينتهي بموتها، ليسَ فقط لأنَّ أيَّ واحدٍ احتفى به جندُ الخلافة على ذلك النحو، لا بدَّ هالك، ولكنْ لأنَّ الأشقر، الأشقرَ الخطير، أكَّدَ لي أنَّهُ قد زفَّها إلى موتٍ كانتْ تشتهيه، لا يبقى بعدَ هذه الحقيقةِ سوى أن أشهدَ موتها... يااااه، لا أبشعَ من أن تذبحَ على مائدةِ دقيقةٍ واحدة كلَّ أحلامك وآمالك في الحياة!

ما حدثَ بعدَ ذلك، كانَ عاصفةً في رحم الثقبِ الأسود؛ عاصفةً رمليَّةً بالغةَ الضراوة، لم تتردَّد في فتحِ جراحٍ مستطيلة غائرة في القلب. كانَ الأشقرُ ذكيًّا كلَّ الذكاء، حينَ سمّاه «الأخ الكبير». هذا العقلُ الخارق الذي لا يتركُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا ويُحصيهما... كيف استطاع النفاذ إلى ما بين جدرانِ جمجمتي؟ كيفَ أدركَ قبل أن أجيئهُ أنّي خائن؟ كيف عنَّ له أن يُمهلَ آثامي؟ وكيف استطاعَ أن يبرعَ كلَّ هذه البراعةِ في تعذيبي؟ كانتْ يدُ «الأخ الكبيرِ» لا تزالُ تشدُّ على القلبِ، لكنْ في تلك اللحظةِ المخبولةِ التي ظهرَ فيها الجلّادُ، كان «الأخ الكبيرُ» كما لو أنَّهُ شدَّ على القلب بقوّةٍ فطاشتْ دماؤهُ قبلَ أن

يسحبَه ثم يبسطَهُ أمامي. كنتُ أرى على كفّهِ المتلفّعة أبدًا بالقفّاز الأسود بقيَّةَ قلبٍ شاحبٍ، يقاومُ نومةَ اللَّحْدِ بنبضٍ هشٍّ...

الجلّادُ أنا، وكانتْ مريم الوديعةُ أُولى ضحايايَ. رأيتُني في الجلبابِ الأبيضِ، الذي أصرَّ الأخ الكبيرُ على أن أرتديه، أسيرُ وفي يدي المسدَّسُ؛ ذلك المسدَّسُ الذي اكتشفتُ، وأنا أراه، حقيقته. كانَ هديَّةَ الأشقرِ إلى صاحبِهِ اليمنيّ، وكانتْ رصاصته الوحيدةُ مفتاحَ فرَجه، قبل أن يهديهِ مرَّةً أخرى إلى «الأخِ الكبيرِ». في ذلك اليومِ الكئيب، الذي نبَّهني فيه إلى مأزقي «الأخُ الكبير»، كانَ برهان صدقي أن أقتلَ تلك التي أطنبَ في الحديث عن فسقها وآثامها، مؤكِّدًا أنَّها تحترفُ العهر. كانَ مأزقًا صعبًا، تمنَّيتُ وقتَها لو تنخسفُ الأرض بي. ولأنَّ الخياراتِ كانت أضيقَ من عنق زجاجة ـ أن أَقتُلَ أو أُقتلَ ـ فقد اخترتُ أن أَقتُلها... كانَ قتلُها ترويضًا على القتل، بعدها ما عدتُ أعبأ بعدد ضحايايَ. كلُّ من جاءَ بعدَ تلك الضحيَّةِ ذاتِ الرأس الحليقِ، ليس إلَّا امتدادًا لها. لو أنَّ «الأخ الكبير» تركني أتأمَّلُ وجهَ ضحيَّتي وقتها، أعتقدُ أنَّني ما كنتُ لأتردَّد في تقفِّي لعنةِ عبد الملك النائمة في المسدَّس، وأنتحر...

حين اعتقدتُ أنَّ «الأخ الكبيرَ» قد انتقمَ منِّي بأسر مريم، ظننتُ أنَّ هذا أقصى وأقسى ما يقدرُ عليهِ، ونسيتُ أنَّه «أخٌ كبير» حقًّا! استطاع أن يقتحمَ رأسي، وأن يحاكمني حتى قبل أن أقترف الجرم، قبل أن أجيئه أصلًا... اقتادني بحنكةِ ربٍّ إلى جزاءٍ أستحقُّه، واقتادها ـ ربَّما من دون أن تدري ـ إلى جزاءٍ تستحقُّه!

لم تكن تلك الفتاةُ التي شجَّتْ رأسَها الرصاصةُ، وتركتْ على بياضِ ثوبي شريطًا من الحمرة القانية، سوى مريم. خانني قلبي حينَ

لم يحدس اسمها. وحدها الروحُ ظلَّتْ عالقةً بتلك الجريمة. كلَّما قتلتُ، أو رأيتُ جرحًا مفتوحًا، ينهض في الخيال ذلك الثقبُ الغائرُ الذي فتحتُه في ذلك الرأس الحليق. استعصى على عينيَّ الدمع، لكنْ في داخلي كنتُ أسكبُ شلّالًا...

واقفًا على حافَّةِ الجنونِ، وأنا أراها تسقطُ على وجهها مثلَ صنمٍ أُطيحَ بهِ. كنتُ أتأكّل من الداخل. هل هكذا يكونُ الجنونُ؟ في داخلي كانت ترغي وتزبدُ آلافُ الأفكار. كانَ من بينها أمنيةٌ تافهة: ألّا يكونَ الأمرُ أكثر من كابوسٍ تافه! أمّا ما تقرَّرَ داخلي، وإن لم أمعن فيه طويلًا، فهو الانتحار. تركتُ الحاسوب، تركتُ المقهى، وهمتُ على وجهي لا أفكِّرُ في شيء من فرطِ ما أفكِّرُ في كلِّ شيء. كنتُ عالقًا في منطقةٍ بالغة الهشاشةِ، بين وعي مفرطٍ بالفجيعة وما تستتبعُه من آلام وبين فشلٍ فادحٍ في اتِّخاذ أيّ خطوة حاسمة.

واقعًا في شَرَكِ موتٍ نفسيٍّ استباقيّ، لم أنتبه. لم أستردَّ وعيي بالمكان، إلَّا وتلك المدينة الآسنةُ تتراءى لي في الأفق البعيد. تذكَّرتُ الأشقرَ؛ بؤسَ الأشقر أمامَ ذلكَ الشريط الذي أفسدَ حياتهُ، واستنتجتُ أنَّ هذه المدينة الموبوءة لا بدَّ من أن تلفظكَ حينَ تحملُ همًّا فوق ما تطيق... وقفلتُ راجعًا، وأنا أتساءلُ: أيُّهما أفدحُ: فجيعتي بهذا الشريط، أم فجيعةُ الأشقر بشريطهِ؟!

الحقُّ أنَّني كلَّما تذكَّرتُ الأشقرَ، نهضَ الحزنُ في داخلي عاصفًا، ذلك بأنَّ ذكراهُ كانت تستجلبُ بالضرورة ذكرياتِها؛ ذكرياتِهما المشتركةَ؛ ماضيَها... لم أكن في تاريخها سوى مشجبٍ تستريحُ فيه معاطفُ حزنها. لم أكن في سيّارة أيّامها سوى عجلةٍ احتياطيَّةٍ متأكّلة تسعفُ عطبها على نحوٍ موقَّت...

عندَ مدخلِ المدينةِ، انتشلني من رَحِم الدهشةِ بوقُ سيّارةٍ. تأمَّلتُ ببلاهة الرجالَ الملثَّمينَ الذين ترجَّلوا منها. كانتْ أزياؤهم تشي بأنَّهم فرقةٌ محترفة من رجالِ الشرطة. ظللتُ كوتدٍ مغروسٍ في خاصرة الطريقِ، أتأمَّلُ بعينينِ متعبتينِ فوّهاتِ المسدَّسات الموجَّهةِ صوبي. كانتْ عيناي هما ما أبقى لي الصدمة من نوافذ الحواسِّ على واقعي. المسدَّساتُ تقتربُ. كنتُ أودُّ لو أنَّ الجسدَ يُسعفُ على افتعالِ جنونٍ أخير، أتوِّجُ به مهزلةَ حياتي. لم تخنِّي ساعتها الشجاعةُ، لكنَّ الجسدَ خانَ. تكلَّستْ أطرافهُ، وقبلَ أن أورّطهُ في لعبة تفوقُ طاقتهُ، أَضربَ عن عمله...

طرحني رجالُ الشرطةِ أرضًا. كنتُ بينَ أيديهم خرقةً تافهةً لا تقاوَمُ، بل ولا تُسعفُ وقفتَها قدمان. آخرُ ما رأيتُ ـ وأنا بينَ الصحو المبتور والغياب الملحِّ وأيدي رجالِ الشرطةِ تدفعُ رأسي في عربةِ الأمنِ ـ مروةُ؛ آفةُ الظلِّ... كانتْ تشرئبُّ لتجلوَ خبر ما يحدث. آه كم أشبهها!

فيما بعد، ستنبتُ في مسافات اليأس بين ظلَّينِ ـ واحدٌ أسيرٌ وآخرُ طليقٌ ـ عاطفةٌ ملتبسةٌ عالقةٌ بينَ الصداقة والحبِّ. مروة، أو سيِّدةُ الظلال، آمنتْ بروايتي لما حدثَ، لكنْ من سيُقنعُ القضاء هنا، والشريطُ يؤرِّخُ جريمتي ولا شيء يردُّ التهمَ المنسوبةَ إليَّ. حتى المجلَّةُ التي كنتُ أحسبُ أنَّها ستسعفُ ورطتي تخلَّتْ عنِّي. وحدها مروة صدَّقتْني.

آه، سنوات انزلقتْ كالزئبق من بين يديَّ وأنا رهينُ هذه الزنزانةِ! لم يعلِّمني شبحُ الموتِ الذي يُقيمُ معي كيف أحترمُ الموت فحسب، بل كيف أشتهيه. كلَّ يومٍ يطلُّ عليَّ السجّانُ البدينُ ذو الكرشِ

المدلوقة، يخبطُ بعصاهُ حديدَ زنزانتي، حتى إذا انتبهتُ إليهِ صاحَ بي: «غدًا ستموتُ شنقًا»، ثُم يدفعُ إليَّ بصحن الطعام ويمضي بخيلاء وأُبَّهةٍ مفتعلَينِ، حتى إذا جاء الغد الموعودُ عادَ إليَّ بصحنِ الطعام، يخبطُ حديد الزنزانةِ، يدفعُ الصحن ثم يتأمَّلُ هيئتي، يفتلُ شاربَهُ ثم يطلقُ عبارتهُ: «غدًا ستموتُ رميًا بالرصاص» ويمضي... في أيّامي الأولى، كانتْ عبارتُهُ تهزُّ أعماقي بعنف، صحيحٌ أنَّني بعدَ تلك الهزَّة العميقة ما عدتُ أعبأ كثيرًا بالحياة، لكنَّ فكرةَ الموت كان لا يزالُ لها صدًى مجلجلٌ داخلي...

كانَ ذلك في الأيّامِ الأولى، في الشهرِ الأوَّل لمقامي في هذه الزنزانة/القبر، لكنْ فيما بعد صرتُ لا أصدِّقُ زعمَهُ، بل صرتُ آنسُ بحضوره. في أعماقي، تربَّتْ قناعةٌ راسخةٌ بأنَّ هذا السجّان اللَّبِق حينَ يزفُّ إليَّ الموتَ، فإنَّما ليمنحني يومًا آخرَ من حياة!

من مذكِّرة الأشقر

«شامة... أليسَ عبثًا أن أكتبَ إليكِ كلَّ هذه الأوراق، وأنا على يقينٍ مسبقٍ بأنَّكِ لن تقرئيها!

ما الكتابةُ يا شامة؟ إلى من أكتبُ؟ وهل سيقرأ أحدٌ هذياني؟ ليس في وسع الكتابة أن تستوقفَ انجرافات الذات، ولا أن تهدهدَ الجرحَ المعرِّشَ في الوجدان، لكنَّها البديلُ الأقلُّ مرارة للانتحار! محكومٌ بعدَ موتِكِ بالموتِ المماطلِ، موت مع وقف التنفيذ. بعدَكِ، ما عادَ للحياة معنى، ثم... هل كانَ لها معنى من قبل؟!

إليكِ وحدكِ أكتبُ. ما عدتُ أملكُ غيرَ الكتابة وسيلة لدرء تشوُّهاتي النفسيَّة. لولا الكتابة وحياةُ التهتُّكِ والجنون لَما وجدتُ مندوحةً عن الانتحار! مُتْعَبٌ أيَّتُها الجميلة، منذ زمنٍ مبكرٍ طاعن في الهشاشة، وأنا أحملُ هذه «الأنا» المثقلةَ بعذاباتٍ لا دور لي فيها! أصعبُ ما يمكنُ أن يحدثَ للمرء حقًّا أن يجدَ نفسهُ مُثخَنًا بالهزائم، حتى قبل أن تبدأ معاركه الحقيقيَّة مع الحياة.

دعي ضجيجَ واقعنا وانسَيْ ندوبهُ في روحينا. اتركيني أَقُلْ لكِ ما اشتهيتُ أن أقولهُ لكِ من دون أن أجدَ إلى ذلك سبيلًا: أحبّك؛ محموم بك؛ مذبوحٌ فيكِ وبكِ. أعرفُ أنَّني لا أُجيدُ التعبير، وقاموسي العشقي لا يحفلُ إلَّا بالنزر القليل من بلاغاتِ المحبَّة. حسنًا، لا بدَّ من أنَّكِ تقولينَ إنَّ المراهقة امتدَّتْ بي أكثرَ ممّا يجب! لا بأس، فقط أردتُ أن أقولَ لكِ بصوتٍ مرتجفٍ واجفٍ وملامحَ غائمة إنَّني أحبُّك ولا ألزمُكِ بي... من العبثِ أن أنتظرَ منكِ أكثرَ من قراءة هذه الرسالة، كأنَّها نكتة سمجة والضحك بعدها على صاحبها!

الحياةُ بعدَكِ أضيقُ من ثقبٍ في جدار. تهتُ في البلاد أذرعُ القفار، أحملُ قلقي أجراسًا حولَ عُنُقي، وأجرُّ أمراضي وأسئلتي العصيَّة. تداويتُ منكِ بالتيه والحماقات التي لا حصرَ لها؛ تداويتُ منك بالأجسادِ السخيَّة التي كنتُ أبدِّلها معَ كلّ عازلٍ ذكري، ولم أَبْرَأْ من حبّكِ ولا من عُقَدي. لا يعدو كلُّ الجنونِ الذي أقدمتُ عليهِ بعدكِ إلَّا أن يكونَ انتقامًا مازوشيًّا منِّي...

شامة...!!

بيننا خلاء لا يمكنُ أن تختزلَهُ ثمانية وعشرون حرفًا. أعرفُ أنَّني من فرطِ ما أحببتُكِ أدميتُكِ، ولا ألتمسُ غفرانًا، في أيِّ حال. لقد ضاقتْ بي جدرانُ الندمِ. أقصى ما يرجوهُ معطوبٌ مثلي بحبّك، أن تصدِّقي: أحببتُك أكثر ممّا يجدُرُ بكائن حيٍّ أن يحبَّ. وأدميتُكِ، لأنَّني لم أُوتَ مثلَ الآخرينَ مهارة تقسيطِ مشاعري كي يستوعبَها واقعي!

شامة... ضامرٌ قلبي بغيابك، وعامرةٌ بي شوارعُ الخيبة والحزن. أتُراكِ تعلمين، أيَّتُها الحمقاء، أنَّني لم أُفطَم منكِ، وأنَّني في داخلي لا

أزالُ أحملُ طفولتي الخجولة، التي ما وجدتْ لغةً تُسعفُ على البوح غيرَ الأذيَّة.

لا أبشعَ من أن تحبَّ من يُضمرُ لك في قلبهِ مشاريعَ دمارٍ شامل! تركتِ في القلبِ حفرةً، لا أملكُ إلّا أن أحشوَها بحزني العتيد. ما نفعُ الكتابةِ؟ ما نفعُ الأوراقِ التي أفنيتُها فيكِ، ما دامتْ لا تؤهِّلُ القلبَ ليليقَ بعرسٍ واحد! يتيمٌ بكِ فرحي، وأرملةٌ دنيايَ.

ما نفعُ الكتابة إذا كانتْ لا تقدرُ على رتقِ فتقٍ واحد في الوجدان؟ ما جدوى حكمة تُنضجنا لتنهشَنا بعدها كلُّ مآسي الربّ؟ الكتابةُ إيغالٌ في الألمِ بدلًا من أن تكونَ سدًّا يمنعُ دفقَهُ المتزايد؛ إمعانٌ في الخيبةِ وضيقِ الأفق...

صِفران هما كلُّ نصيبي من الفرح، بهما يصيرُ كلُّ حزنٍ حزنين... أنفقتُ عمرًا كاملًا في مدار الصِّفرِ. كلَّما قلتُ إنَّ «المنتأى عنكِ واسع» ارتطمتُ بكِ. ضاعَ العمرُ منّي في هروبٍ منكِ... إليكِ. آه، لا أبشعَ من أن يمعنَ المرءُ في الهروب، وهوَ على علم مسبق بأنَّ كلَّ الطُّرقِ تعيدهُ إلى الفجيعة!

شامة... كيف أرفو قلبي الممزَّق بمقصّ غدركِ؟ أيُّ أملٍ شاسعٍ سيقوِّمُ رقعةً تسدُّ ما فتحتِه في قلبي من ثقوب؟ أعتى ما يمكنُ أنْ يُصيب عاشقًا أن يحملَ في قلبِهِ جثَّةَ من يحبّ... كلَّما حاولَ نسيانها دفعتْ عنها اللحدَ، وطلعتْ إليه مضرَّجةً بدمها... ودمه!».

مكتبة نوميديا 122

Telegram@ Numidia_Library

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

حوصر وليد معروف - الصحفيّ الذي انضمَّ إلى تنظيم متطرِّف ليكتب تقريرًا لمجلَّة بريطانيَّة - مع الأشقر، الذراعِ اليمنى لقائد هذا التنظيم، داخل مبنى في كوباني.

يسرد الأشقر على وليد قصَّةَ حياته المُفعمة بالحبِّ والشهوة والألم... والقتل.

من المغرب إلى تونس، فاليمن وليبيا ولبنان، يتنقَّل البطلان في هذه البلدان التي تعاني ظروفًا اجتماعيَّة وعائليَّة بائسة تدفع سكَّانها إلى التطرُّف والفسق والإجرام.

طارق بكاري: روائيّ مغربيّ وأستاذ في الأدب العربيّ. صدرتْ له عن دار الآداب رواية «نوميديا» (جائزة المغرب ٢٠١٦ / اللائحة القصيرة لجائزة Booker العربيَّة)، ورواية «مرايا الجنرال».

ISBN: 978-9953-89-598-7

9789953895987

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف:1795135 -1861633 (961+)